

القديم والحديث

اعداد وتقديم:

محمد كامل الخطيب

0008156



قضايا النهضة الفكرية (١)

الامثلة التي، زهير الحمو

القديم والحديث

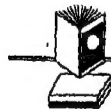
قضايا النهضة العربية

١

القديم والحديث

إعداد وتقديم :

محمد كامل الخطيب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٨٩

القديم والجديد / اعداد وتقديم محمد كامل الخطيب . -
ط ١ - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٩ - ٥٣٦ ص ، ٢٤ سم
- (قضايا النهضة العربية ، ١) .

١ - ٨١٠ ر ٩ خ ط ي ق ٢ - العنوان ٣ - الخطيب
٤ - السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١١٨٦ / ٩ / ١٩٨٩

من عصر النهضة

الى

نهضة العصر

- ١ -

يبدو الوطن العربي عموما والفكر العربي الراهن خصوصا وكأنهما يعيشان نوعا من عصور «عودة الملكية» ، أي العودة الى الماضي ، فيما وافكارا وموضوعات ، فالكتب القديمة والتقليدية هي الاغزر طبعاً ، والحركات السلفية والدينية ، فكريا وسياسيا ، هي الاكثر ظهورا وضجيجا وتحركا ، والناس يعيشون مشاعر الحنين الى الماضي والفخر به اكثر مما تعيش فيهم مشاعر الامل بالمستقبل ، بل ربما يبدو المستقبل بالنسبة للكثيرين مظلما قياسا الى ماضٍ وضاء او الى واقع شاحب ، بينما ، والى امس قريب جدا ، كانت المشاعر والظواهر مختلفة تماما ، فمئذ منتصف القرن التاسع عشر يجري الحديث عن النهضة المأمولة ، والى زمن ما بين الحربين الاخيرتين كانت النهضة العربية تضيء الامل وتحلم بالتغيير والمستقبل ؛ تيارات وبرامج محددة ، وخصوصا في مصر وسوريا ، فثمة ، آنذاك ، حركة تنوير شاملة تنهض وترافق التغيير الذي كان يحصل في اساسيات واسباس المجتمع العربي ، وثمة انجازات معروفة وما اسماء الطهطاوي والاففاني وسلامة موسى وطه حسين وساطع الحصري وسليم خياطة ، وامثالهم ومجايلهم ، الا رموز لهذه المرحلة النهضة التي نحاول تقديمها في مشروعا التاريخي - التوثيقي : «فتسايا النهضة العربية» .

- ٥ -

خلال عصر النهضة العربية جرت خلخلة الاسس التقليدية للمجتمع والفكر القديمين ، وفي الوقت نفسه كانت الافكار الجديدة تتقدم ، فخلال هذا العصر الجديد حقا ، جرى - مثلا - تحديد مفهوم جديد للامة ، وبديل مفهوم الامة الاسلامية المرتبط آنذاك بوجود السلطنة العثمانية ، جرى ، وبعد انهيار هذه السلطنة ، تحديد رابطة جديدة لبلاد الشام ومصر والعراق ، والمغرب العربي فيما بعد ، هو مفهوم الامة العربية ، وبعبارة اخرى كان هذا التبديل يعني الانتقال من التحديد الديني للامة والشعب الى التحديد القومي ، اي الزمني - المدني لهذه الامة ولهذا الشعب ، وخلال تقديم هذا التحديد الجديد ، وعلى ارضيته ، نبئت مفهومات جديدة في ترتيب العلاقات الاجتماعية وتجديد مؤسسات المجتمع فدخلت المدرسة المدنية منافسة ، ومن ثم طاردة للكتاب والمسجد في التعليم ، وجاء الاستاذ ذو النظارات منافسا للامام والشيخ ولبس الجبة وجاءت القبة مكان الطربوش والعمامة ، مثلما جاءت الاحزاب السياسية مكان الملل ، وجاءت الطبقات مكان الملة واحدة المقيدة والمصلحة ، وجاء مفهوم الديمقراطية - نظريا - بديلا لمفهوم الاستبداد الشرقي ، والى آخر ما جاء من تجديدات اجتماعية ، وفي الوقت الذي جرت فيه هذه التجديدات في اسس وهياكل المجتمع ، كانت التجديدات تجري في العقل الثقافي ايضا ، فجاءت الفنون والاجناس الادبية الجديدة ، جاءت الرواية والمسرح والقصة القصيرة والفنون التشكيلية ، وحركة تجديد الشعر ، وخلال كل ذلك كانت اللغة العربية تنهض وتجدد نفسها لتنفس هواء الجديد ، هواء العصر ، فتتغير دلالاتها ، وتزداد وتفتني مفرداتها ، ويتغير تركيب وبناء جملتها ، وبعبارة تلخيصية ، بدا كل شيء وكأنه يتغير ، ونحو الامام ، بل ونحو الافضل ، وهنا سر النبوة الرسولية لدى ممثلي هذه المرحلة ، فقد كانت المهمة واضحة لدى مفكري وادباء هذه المرحلة الا وهي : النهضة .

لكن ، ومنذ اواسط السبعينات ، بدا وكان هناك عملية التفاف بل وتراجع عن كل ما جد واستجد في عصر النهضة ومرحلتها ، فمفهومات القومية هوجمت وجرت محاولات لاعادة تحديد الامة والشعب على اساس

الدين والعقيدة ، فتفجرت الحروب والمذابح الطائفية من جديد ، وهوجمت مفاهيم الحزبية والتعدد الحزبي والطبقات الاجتماعية ، بل والديمقراطية عموما ، على أنها مفاهيم غربية واستعمارية ، ثم برزت الى الواجهة أنظمة اشبه بأنظمة المماليك ومولوك الطوائف ، واعيد دمج الديني بالزمني واعلن الحكام ايمانهم ، بل ان بعضهم عاد الى قطع يد السارق ، في محاولة لتعلق مشاعر موجات التدين والعودة الى الافكار والتنظيمات الماضية واصطياد المثل الاعلى وحلول مشكلات الحاضر في الماضي وليس في الراهن والمستقبل ، وحتى الفنون الحديثة من رواية ومسرح ونحت جرى الهجوم عليها ، وبمباراة مختصرة ، بدا وكان كل انجازات عصر النهضة العربية ، الفكرية والاجتماعية والادبية ، تقف على شفاهاوية ، بل ان بعض ممثلي الفكر النهضوي ، وقفوا في الهاوية وشكلوا تيارات ماضوية حديثة ، او سلفية جديدة ، وحتى التيارات الجذرية فهي فكر النهضة العربية ، كالماركسية لم يجد بعض ممثليها مانعا من العودة الى الماضي للبحث فيه عن مشروعية واصول افكارهم وتقدميتهم التي لم يستطيعوا ان يروا في الراهن والمستقبل تاسيسا لها ، فنقبوا عن هذا الاساس في ارضية الماضي وبين كتبه .

لكن كل هذه العودة الى الماضي ، وكل هذا الالتفاف على عصر النهضة بالتسلسل الى ما قبله ، لم يفعل شيئا حقيقيا سوى تعميق الازمة بكل مظاهرها وابعادها ، ففي خلال موجة التراجع الى ما قبل عصر النهضة ادخلت البلدان العربية في اشد درجات ازمتها خطورة ، مجتمعات وحكومات واحزابا وشعوبا ، بل ومن خلال محاولات إعادة تحديد الهوية على اساس ديني اسلامي ، مقابل للفرد المسيحي ، براسماليته واشتراكيته ، على ما يقولون ، جرى اوثق ارتباط بالسوق الاميرالية حتى صار الدولار عملة وطنية يختلف الانظمة العربية ، ومن خلال إعادة التأسيس للتقدميين العرب لفكرهم على اساس افكار ما قبل النهضة العربية ، جرى اكبر تراجع بل وتفتت لهذا الفكر واحزابه بقسميه القومي والماركسي فتراجع من تراجع الى الماضي ، وعلن من بقي في مواقفه نفي « الازمة » وبعضهم رفع الرايات السوداء ، واخرون البيضاء ، بينما

بقي الكثيرون ساهمين غائمين يلوكون في غبقتهم احلامهم الوردية ، ويجترون خطاباتهم الحماسية وكانهم اغوات اقطاعيون افلسوا لكن كبريائهم لا يسمح لهم باعلان افلاسهم ، فهل ثمة ما يبكي ويفسحك - معاً - اكثر من هذا ، وهل من ثمة مفارقة اكثر من هذه تستطيع ان تقول لنا ولن يريد ان يسمع : ان الحل ليس هنا ؟!

- ٢ -

طرح عصر النهضة العربية قضية الاستقلال عن الغرب ، كاستقلال مع الاخذ من علومه وحضارته وتقنياته وافكاره ، وبمباراة ثانية طرح الانطلاق من اللحظة الراهنة في تطور الحضارة العالمية ، ولم يطرح العودة الى ما قبلها ، وبمباراة محددة طرح هذا العصر في منطوقه وتياراته الدافعة الحاضر والمستقبل ، الحاضر العالمي طريقاً لتغير الراهن العربي والراهن العالمي طريقاً لبناء المستقبل العربي كذلك ، وبمراجعة تجارب الشعوب التي عانت مشكلة مثل مشكلتنا ونجحت في حلها نجد ان هذه الشعوب قد فعلت الشيء نفسه ، فهذا ما فعلته اليابان عصر الميجي في القرن التاسع عشر ، وهذا ما فعله بطرس الاكبر في روسيا ، وهذا ما تابعه وعمقه وحققه لينين والماركسيون الروس في القرن العشرين ، بل وهذا ما حاوله محمد علي في القرن التاسع عشر .

اما عندنا فان هذا الطرح ، اي الانطلاق من التاريخ البشري في لحظته المعاصرة ، يتعرض الآن للتراجع عنه والالتفاف عليه عبر العودة الى ما قبل اللحظة التاريخية المعاصرة ، اذ تجري العودة الى المرحلة ما قبل الرأسمالية ، ناهيك عن الاشتراكية ، تجري الدعوة للعودة الى افكار وتنظيمات ومثل وقيم بل ولغة المصور الوسطى ، فلماذا ، وكيف حدث ما حدث ؟.

ليس بإمكاننا تقديم جواب عن اسباب ما حدث ، اي عن اسباب هذا التراجع ، سواء في افكار الطليعة العربية المعاصرة ، او في افكار المجتمع برأيه العام واحزابه ومؤسساته ، فهذا يقتضي دراسة مختلف

- ٨ -

جوانب الحياة العربية المعاصرة ، بل ويقتضي جهود أكثر من فرد ، لكننا نطرح هنا هذا التساؤل :

هل انتهى عصر النهضة العربية حقا ؟ وهل أصبح هذا العصر جثة ميتة كما يعامله السلفيون ، بل وبعض التقنيين العرب عندما يتسلل جمعهم ويلتف الى ما قبل هذا العصر ، او عندما يبحثون عن اسس افكارهم وتقدميتهم او اصوليتهم في ثورة الزنج وآراء ابن رشد والقرامطة وخلافة عمر الراشدين او عمر بن العزيز ، بل وفي الفرق الباطنية والصوفية لدى بعضهم ؟! ام ان اسهامات واشكالات وقضايا عصر النهضة ، افكار وقضايا الطهطاوي وخير الدين والافغاني ومحمد عبده وفرح انطون وطه حسين وساطع الحصري وسليم خياطة ما تزال راهنة ، بل ومقاتلة حقيقية للسلفية وافكار المصور الوسطى ، ما تزال راهنة لانها تكونت في مناخ شبيه بالمناخ الذي نعيشه الآن ، تكونت في مناخ مناقشة ومناقضة الافكار السلفية التي استعادت المبادرة وعادت تطفئ اليوم ، فهل نستطيع مثلا ان نفهم افكار سلامة وطه حسين واحمد امين وساطع الحصري حقا الا بمعارضتها مع افكار مصطفى صادق الرافعي وشكيب ارسلان ورشيد رضا وشيوخ الازهر ؟ هل نستطيع ان نفهم تكون الفكرة القومية الا بمعارضتها بافكار الجامعة الاسلامية ؟! هل نستطيع ان نفهم تعهد الشمر الا بمعارضته بنمط الشعر الذي كان ينظم في القرن التاسع عشر وما يزال ينظم على شاكلته حتى الآن ، وهل نستطيع ان نفهم اهمية الرواية والمسرح الا بمعارضتهما ومقابلتهما مع الاجناس الادبية السائدة آنذاك ؟!

بهذا المعنى فقضايا عصر النهضة ما تزال قضايانا ، من تحديد مفهوم الامة ، الى تنظيم مؤسسات المجتمع ، الى الاجناس الادبية ، وشخصيات عصر النهضة ما تزال حية بيننا ، من ابي الهدي الصيادي والرافعي ، الى سلامة موسى والفتاد ومحمود احمد السيد الى علي عبد الرازق وسليم خياطة والصراع الذي جرى آنذاك ما يزال يجري الآن .

ربما هكذا نوضح الامور في نصابها ، وتناقش القضايا بشكلها

المباشر ، الصريح والراهن ، اي دون العودة الى الفنعة الماضي وارضيته
وسمائه ، فوضع النقاش على ارضية السلفيين الحاضرة يعني الاستسلام
مقديما لتأسيساتهم ، ذلك ان الصراع مع السلفيين ليس على الماضي ،
كما يريد هؤلاء ان يصوروا الصراع ، بل هو في الزمن الراهن الذي
يهرب منه هؤلاء السلفيون ، والتقدميون السلفيون الجدد ، انه صراع
على المستقبل الذي لا يمكن ان يبنى الا بالنظر الى الامام .

ومن هنا ربما كان الاجدى هو الانطلاق من عصر النهضة العربية ،
اي من مشكلات وقضايا هذا العصر ، فهي مشكلات وقضايا الراهن
والحاضر والمستقبل ، ففي حوارنا عن عصر النهضة وعلى ارضيته نجد
التأسيس لنهضة العصر ، نهضة العرب التي ما تزال حلما ، حلما يتوقد
ويصبح اكثر إلحاحا كلما تأمل المرء هذا الخراب العربي الشامل ، هذا
المستنقع العربي الاسن الذي يهدد بإغراقنا وقتلنا جميعا في وهوله
وغازاته السامة ، بينما نحن نتذكر الماضي مقتبطين ونعلي صوتنا بأغانيه
كلما ازدادنا تسمما وتخبطا وغرقا ، فهلا نظرنا في بحثنا عن شجرة النجاة
الى الامام والى الاعلى ، وليس الى الوراء حيث لا شيء الا هذا المستنقع ،
هلا فكرنا كيف نخرج من هذا المستنقع ؟!

هل نستطيع الانطلاق من عصر النهضة العربية الى نهضة هنا
العصر ، وهل يستطيع الاحياء دفن الموتى حقا ، ام ان ماساة دفن
الموتى للاحياء وللآمال والاحلام ، والبشر وكما يحدث الآن في الوطن العربي ،
سوف تستمر ؟!

- ٣ -

سنحاول فيما يلي تبعا وثائقيا وزمنيا لمشكلات وقضايا عصر
النهضة العربية ونحدد بدا من اواسط القرن التاسع عشر ، ثم
تقديم هذه العملية الاجتماعية التاريخية الجبالية والفكرية ، والتي
عبرها تكون الفكر العربي الحديث ، ووسيلتنا في ذلك اعادة ترتيب
وتركيب هذه الموضوعات والقضايا ، اي اعادة تركيبها زمنيا ، وبالقلام

اصحابها ، منذ تولدت اولى الافكار ، الى ان صارت هذا القضايا الفكرية
ومفاهيم وتنظيمات تفعل في المجتمع العربي المعاصر ، وتدل بتاريخ
تكوينها ومضمونها على شكل وترتيب هذا المجتمع - الواقع الذي نعيش
فيه ، تدل على شكل حياته وتحدد قضايا ومشكلاته مثلما تحدد
صورته ومكانته في عصر التاريخ الانساني الواحد والشامل .

في سبيل ذلك قمنا بتتبع هذه الموضوعات في المجالات والصادر
والمؤلفات العربية الاساسية المتاحة ، واعدنا تفكيك عصر النهضة العربية
الى قضايا الاجتماعية والفكرية والادبية الاساسية بادئين بقضية القديم
والجديد ، ثم تتبعنا كل قضية من بدايات بزوغها وحتى استوائها تقريبا
عند مرحلة الخمسينات اواسط القرن العشرين ، مختارين ما بدا لنا ذا
اهمية تاريخية في الحوار بين الآراء ، سواء اختلفنا ام اتفقنا مع صاحبه ،
وهكذا امتدت رحلتنا حوالي القرن ، وهي المدة التي جرى خلالها تكوين
المجتمع العربي الجديد بأبعاده السياسية والفكرية والاقتصادية، وقد اصبح
معلوما للقارئ ان هذه المرحلة الزمنية باتت تسمى بعصر النهضة .

محمد كامل الخطيب

دمشق ١٩٨٨



القديم والجديد

- ١ -

١ - ربما تكون قضية القديم والجديد هي القضية الاساس في الفكر والادب ، بل والمجتمع العربي المعاصر ، فمن هذه القضية تفرعت تقريبا كل القضايا الادبية والاجتماعية والفكرية كقضايا الرواية والمزج والديمقراطية وقضية المرأة وتجديد اللغة ، والتحديث ، وغيرها من باقي القضايا الفكرية والادبية والاجتماعية .

بدأت مناقشة قضية القديم والجديد في الثقافة والفكر والمجتمع العربي بعد ان كان المجتمع العربي قد بلغ مرحلة قارب فيها مرحلة الانفصال عن الدولة العثمانية التي كانت تجمع شعوبها تحت رابطة الدين الاسلامي ، وهنا كان طبيعيا ان يبحث هذا المجتمع عن رابطة اجتماعية - مدنية - فكرية جديدة تشد اجزائه ، بعضها الى بعض ، بعد انحلال الدولة العثمانية وابطائها ، وكان طبيعيا في الوقت نفسه ان يبحث هذا المجتمع عن روابط وافكار او اساليب ادبية جديدة مختلفة عن الافكار والاساليب ، بل والاجناس الادبية القديمة .

لكن الامور لا تجري بهذه السهولة ، فالقديم مألوف ومحبوب وله المدافعون عنه ، مثلما الجديد مرغوب ومطلوب ، والمجتمع يحتوي في قواه وطبقاته وافكاره واساليبه من وما يدعو الى القديم ويحب به ، مثلما بدأت تتكون فيه قوى احست بالحاجة الى الجديد ، حتى ان بعضهم رأى امام الانحلال والتخلف العام الذي تعيشه مجتمعاتنا العربية بالنسبة الى البلاد الاوربية ان « لا قيام لامرنا الا بالاخذ من المدنية الاوربية »

- ١٢ -

فلوروبا كانت المثال والنموذج ، كانت تمثل الجديد بالنسبة لقوى
التجديد .

إذا كانت أوروبا مثالا للجديد ومقياسا له ، فقد كان طبعيا ان
يدعو طه حسين الى منهج ديكرت بدلا لمناهج الانهر في الدراسة
الادبية وكان طبعيا ان يدعو ساطع الحصري الى القومية كرابطة مدنية
اجتماعية جديدة للشعوب العربية بدلا لرابطة الدين التي انحلت بانحلال
الدولة العثمانية ، مثلما كان طبعيا ان يدعو مفكرون آخرون للديمقراطية
الحديثة بدلا للاستبداد الشرقي التقليدي والمزمن ، وان يدعو قاسم
امين لتحرير المرأة بدلا لوضعيتها المعروفة في المجتمع التقليدي ، وان
يدعو الشيخ علي عبد الرازق الى فصل الدين عن الدولة ، وكأنه يعلن
ان انفصال العرب عن السلطة العثمانية لا يعني انفصالهم عن دينهم
فالدولة امر زمني متبدل والدين امر آخر ، كما يرى الشيخ علي عبد
الرازق في كتابه (الاسلام واصول الحكم ١٩٢٥) .

هذه النقاشات والحوارات بل والدعاوى القضائية احيانا ، كانت
فروع ، او تجليات المعركة الاساس ، معركة القديم والجديد ، معركة
تجديد الفكر والادب والمجتمع العربي .

٢ - يعود مصطلح القديم والجديد الى اوائل هذا القرن ، ويكاد يكون
تطويرا للمصطلح الذي استعمل منذ القرن التاسع عشر وهو الاصلاح
والنهضة ، فمع الحملة الفرنسية على مصر والشام ومن ثم زيارة رفاعة
الطهطاوي وبعثته الى فرنسا ، ومع بداية السيرة الطويلة المعروفة بسيرة
« الرجل المريض » أي سيرة انحلال الدولة العثمانية ، تحت ضغط
الراسمالية الاوربية الصاعدة من جهة ، وضغط التحلل الداخلي
للمجتمعات العثمانية من جهة ثانية ، منذ ذلك الوقت بدأ التفكير في
اصلاح الاحوال ، هذا التفكير بدأ في الوطن العربي مع جيل الطهطاوي ،
وخير الدين التونسي واستمر طوال القرن التاسع عشر ، ثم تطور هذا
المصطلح الى مصطلح النهضة في النصف الثاني من هذا القرن (*) .

(*) سنقدم قضية « الاصلاح والنهضة » في الحلقة الثانية من هذه السلسلة .

أما في بداية القرن العشرين ، وعندما اتضح ان الرابطة العثمانية قد انحلت ، وان لا أمل في اصلاح السلطة او نهضتها ، وان الاقاليم العربية منفصلة عنها لا محالة ، فقد اتخذت القضية وجهة اخرى ، وجهة عنيفة حادة فيها كل عنف والم الموت والولادة ، عنف موت السلطنة والافكار العثمانية القديمة ، وعنفة ولادة الافكار والمؤسسات والاجناس والاساليب واللغة الجديدة ، انه عنف البعث من خلال الرماد ، وربما كان ذلك هو السبب الكامن وراء العدة والعنف اللذين سنلاحظهما في معركة الجديد والتقديم لدى التقليديين ، وهو ما اضر في حقيقة الامر بقضية الدين كتناسل انساني امام الفلز الوجود ، اولا ، وبقضية الجديد ثانيا ، وثالثا بقضية تجديد المجتمع العربي ككل ، ذلك ان طريقة التقليديين في تقديم ما هو جديد على انه العاد ، وما هو تقليدي وقديم على انه من اصول الدين ، ان لم يكن هو الدين ، اذت في كثير من الاحوال التي قتل الجديد والمتقدم ، واذا كان التقليديون ، بهذه الطريقة ، يرمون الحركة عبر ملابسة المشاعر السائدة وادعاء الحفاظ على الهوية التاريخية والثقافية والعائدية ، فان المجتمع العربي هو الخاسر الحقيقي ، وهذا ما تدلنا عليه نتيجة معركة الجديد والتقديم ، هذه المعركة التي بدأت اوائل هذا القرن ، ولكن من يدري من هو المنتصر الاخير ، على الرغم مما يبدو الان من انتصار التقليديين ، فالتاريخ دهالؤه ومكره ، دهالؤه ومكره اللذان هما جزء من منطق وسيروراته ، كما هو معروف ، ولكن لنقرأ هذه المعركة ، معركة القديم والجديد ، فهي الاساس واللاحم لكل المشكلات الفكرية والادبية والاجتماعية التي طرحها ويطرحها المجتمع والثقافة العربيين في هذا العصر .

- ٢ -

١ - قام المحد بمسح تقريبي للمقالات في المجلات والكتب والمصادر العربية التي تناولت موضوع القديم والجديد في كليته ، اي دون الدخول في التفاصيل والفروع ، كالجديد والتقديم في الرواية ، او المسرح ، او الشعر ، وهذه الفكرة ، او تلك ، فهذه فروع وقضايا مستقلة ، اما

الفترة الزمنية التي جرى البحث فيها فتمتد من اوائل هذا القرن ، وحتى أواسط الخمسينات ، اذ ان الموضوع بعد ذلك اتخذ تسمية ومنحى آخر ، ولهذا اثرنا الوقوف عند فترة الخمسينات في الحلقات كلها .

٢ - بعد ذلك اختار المعد ما بدا له ذا اهمية فكرية وتاريخية ، او ذا دلالة في تكون المشكلة وبلورتها او عرضها ومناقشتها ، من خلال الجدل الذي دار بين المفكرين والكتاب العرب حول الموضوع ، ثم رتب المقالات والفصول ترتيبا تاريخيا ، وبغض النظر عن المجلد او المجلدات او الكتاب ، فاذا كانت الثقافة تشكل في كل دائرة ثقافية ، سلسلة متكاملة الحلقات فان السلسلة الثقافية العربية تشكل ، قديما وحديثا ، سلسلة متكاملة ، سلسلة تمتد من المغرب الى العراق ، مرورا بمصر وسوريا ولبنان وغيرها ، مثلما تمتد من الشعر الى الديمقراطية ، الى الرواية ، الى قضية المرأة ، وهكذا مرورا بالسرحة والوحدة واللغة والاشتراكية ، وفي الوقت نفسه ، فان لربخ ومشكلات حلقات هذه السلسلة الثقافية تبقى واحدة ومتشابهة بالنسبة للثقافة والمجتمع العربيين في مختلف اقطارها ، واذا كنا نستطيع الحديث عن وحدة في السياسة والاقتصاد العربي المعاصر (الا بمعنى جواهره التابع) فاننا بالمقابل نستطيع الحديث بلطمثان من وحدة السلسلة الثقافية العربية ماضيا وحاضرا ، فكما تنقل المتنبي بين سوريا ومصر والعراق ، فان فرق المسرح العربي تنقلت بين كل الاقطار العربية ، مثلما قرانا ونقرأ مجلات الرسالة والهلال والمنار والطليعة والثقافة الوطنية والاداب والطريق التي انتشرت في مختلف اقطار البلاد العربية ، متخطية الحدود السياسية والاقتصادية والجغرافية المصطنعة .

٣ - رتبنا المحتويات ترتيبا تاريخيا في ثلاثة اقسام :

١ - مقدمات مسألة القديم والجديد .

٢ - مشكلة كتاب « في الشعر الجاهلي » كمثال للمعرك الفكرية التي دارت حول كتاب محدد ، فثمة معرك فكرية دارت حول كتب تجديدية اخرى : « تحرير المرأة » لقاسم امين « والاسلام واصول الحكم » لعلي عبد الرازق .

٣ - نقاشات وحوارات حول القديم والجديد .

وكما هو ظاهر ، فقد افردنا قسما خاصا لمسألة كتاب « في الشعر الجاهلي » نظرا لاهميتها وكونها المعركة الأكثر دلالة ، مثلما هي المعركة التي استقطبت الجميع من مفكرين ودولة ومؤسسات ، فهذه المعركة كانت الكاشف لكل التيارات والمواقف ، مثلما كانت المعركة التي تربت على أساسها نتائج مباشرة وغير مباشرة ، فهذه المعركة والطريقة التي ادير بها نقاشها ، ووجهت ، وما تزال توجه ، الثقافة والفكر العربيين في نقاشهما حول تجديد المجتمع والثقافة العربية ، وهذه المعركة كانت وراء ربط التقليديين للدين بالتقديم ، والجديد بالاحاد ، مثلما كانت السبب في توجه مثقفي الثلاثينات التقدميين الى دراسة التراث العربي في مختلف جوانبه ، ومن جهات نظر مختلفة (احمد امين ، بندلي الجوزي طه حسين ، محمد حسين هيكل ، تحقيقات كامل عياد وجميل صليبا لحي بن يقظان والمنقلد من الضلال ... الخ) والخلاصة كانت معركة تاريخية كاشفة ان لم نقل فاصلة ، كما ونرى من خلال هذه المعركة مسألة دخول الجامعة كمؤسسة تعليمية حديثة الى الجهاز الثقافي العربي . وفيما يلي مراحل ومقالات التقديم والجديد كما سلسلناها :

المرحلة الاولى

- ١ - الشعراء المحافظون والشعراء المصريين
نجيب شاهين ١٩٥٢
- ٢ - الشعراء المحافظون
اسعد داهر ١٩٥٢
- ٣ - التقديم والحديث
محمد كرد علي ١٩٥٦
- ٤ - الافكار القديمة والحديثة
محمد تيمور ١٩١٧
- ٥ - مقدمة الديوان
المنقلد والمقلد ١٩٢١
- ٦ - تقليد القدماء
ابراهيم المازني ١٩٢٤
- ٧ - الراعي : المذهب القديم والمذهب الجديد
سلامة موسى ١٩٢٤
- ٨ - دفاع عن المذهب القديم
مصطفى الراعي ١٩٢٤
- ٩ - الخصومة بين القديم والجديد
طه حسين ١٩٢٤

- ١٠ - الجملة القرآنية شكيب ارسلان ١٩٢٤
١١ - القديم والحديث محمد حسين هيكل ١٩٢٥

المرحلة الثانية

- ١ - مقدمة كتاب في الشعر الجاهلي طه حسين ١٩٢٦
٢ - مقدمة كتاب « نقد كتاب في الشعر عبد الرحمن قراعه الجاهلي » (تقديم) محمد الخضر حسين ١٩٢٦ (المؤلف)
٣ - منهج الدكتور طه حسين محمد عرفة ١٩٢٦
٤ - نقد كتاب الشعر الجاهلي «مقدمة» محمد فريد وجدي ١٩٢٦
٥ - الالحاد في الجامعة المصرية المنار ١٩٢٦
٦ - مقدمة وخاتمة تحت راية القرآن مصطفى صادق الرافعي ١٩٢٦ ٢ - ١
٧ - الدعوة إلى الالحاد - كتاب في الشعر الجاهلي ١ - ٢ المنار ١٩٢٦
٨ - ديكرات طه حسين ١٩٢٦
٩ - في الشعر الجاهلي ابراهيم المازني ١٩٢٧
١٠ - قرار النيابة العامة عن المنار ٩٢٧
١١ - مقدمة كتاب النقد التحليلي محمد احمد الفمراوي ١٩٢٩
١٢ - تقرير كتاب النقد التحليلي المنار ١٩٢٩
١٣ - حماة القرون الوسطى سلمي الكيالي ١٩٣٢

المرحلة الثالثة

- ١ - الطربوش أم القبة مصطفى الرافعي ١٩٢٧ ومحمود عزمي
٢ - فاحة القول سلمي الكيالي ١٩٢٧

١٩٢٧	المنار	٣ - الحديث
١٩٢٧	محمد علي ثروت	٤ - النهضة الجبارة
١٩٢٧	ابراهيم المازني	٥ - التقديم والجديد
١٩٢٨	المنار	٦ - مجلة الرابطة الشرقية ١ - ٢
١٩٢٨	الرابطة الشرقية	٧ - نحن وصاحب المنار
١٩٢٨	سلامة موسى	٨ - قطيعة الماضي
٠٠٠٠	ساطع الحصري	٢٨ - قطيعة الماضي
١٩٢٨	محمد حسين هيكل	٩ - العاد ام اصلاح
١٩٢٨	مجلة الجديد	١٠ - تجديد
١٩٢٨	محمود المنجوري	١١ - كلمات في التجديد
١٩٢٨	داوود بركات	١٢ - التجديد
١٩٢٨	عباس محمود العقاد	١٣ - التجديد قديم
١٩٢٨	عبد الله الطيباوي	١٤ - بين القديم والحديث
١٩٢٩	ب . النبال	١٥ - الادب : قديمه وجديده
١٩٢٩	سلمي الكيالي	١٦ - مرامي التجديد
١٩٣٠	نقولا حداد	١٧ - المحافظون والمجددون
١٩٣٠	اديب الصفاي	١٨ - الادب الجديد
١٩٣٠	خليل تقي الدين	١٩ - بين الادب الجديد والتقديم
١٩٣٠	اديب	٢٠ - مذهب الادب المصري
١٩٣٢	سلمي الكيالي	٢١ - اتجاهات التجديد
١٩٣٣	محمد حسين هيكل	٢٢ - تقديم
١٩٣٣	جميل صليبا	٢٣ - الابداع والاتباع
١٩٣٣	امين الخولي	٢٤ - التجديد في الدين
١٩٣٣	احمد حسن الزيات	٢٥ - حول التجديد
١٩٣٣	احمد امين	٢٦ - التجديد في الادب (١٣)
١٩٣٣	عبد الوهاب عزام	٢٧ - التجديد في الادب
١٩٣٣	محمود الشرقاوي	٢٨ - التجديد في الادب

- ٢٩ - تجديد التقليد محمد حصار ١٩٣٣
- ٣٠ - هذه المعركة المزمعة بين الأدبين كرم ملحم كرم ١٩٣٤
- ٣١ - التطور والتقليد فخري أبو السعود ١٩٣٥
- ٣٢ - آراء في الماضي والحاضر ميشيل عفلق ١٩٣٥
- ٣٣ - الميول الرجعية عند بعض أدباء العرب يوسف متى ١٩٣٦
- ٣٤ - المتعلمون والشعب إبراهيم المصري ١٩٣٦
- ٣٥ - قطيعة الماضي محمد أمين حسونة ١٩٣٨
- ٣٦ - القديم والجديد محمد أحمد الضمراوي ١٩٣٨
- ٣٧ - بين القديم والجديد عبد الوهاب الأمين ١٩٣٨
- ٣٨ - الدين والاخلاق بين الجديد والقديم قارىء ١٩٣٩
- ٣٩ - رد على نقد محمد أحمد الضمراوي ١٩٣٩
- ٤٠ - رد على رد قارىء ١٩٣٩
- ٤١ - بين جيلين محمد عبد الواحد ١٩٣٩
- ٤٢ - رجعية قديمة ورجعية جديدة وصفي البنسي ١٩٤١
- ٤٣ - موقف العرب من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة عبد المعين علوي ١٩٤٢
- ٤٤ - كمقدمة ملوون عبود ١٩٤٨
- ٤٥ - الجديد والقديم عبد الرزاق السنهوري ١٩٤٩
- ٤٦ - محاكمة الجيل الجديد عباس محمود العقاد ١٩٤٩
- ٤٧ - القديم والجديد فتحي رضوان ١٩٥١
- ٤٧ - القديم والجديد ساطع الحصري ١٩٥١
- ٤٨ - خاتمة وشهادتان :
- ١ - التجديد والتجديد والمجددون رشيد رضا ١٩٣١
- ٢ - حديث طه حسين ٠٠٠٠

المرحلة الاولى

الشعراء المحافظون والشعراء المصريون

نجيب شامين ١٨٦٥ - ١٩٢٧

يظهر ان الشعراء آخر من يفكر في خلق القديم الخلق والتزيي بالجديد ذي الطلاوة .. فمن كل زمرة الشعراء والمتشاعرين الذين ينظمون الشعر او يدعون النظم لا تكاد ترى واحدا في المئة يحلول مجازاة العصر ونبد القديم واقتباس الجديد وتقليد الشعراء المصريين من الامم الاخرى . والسبب في ذلك اقتصار شعرائنا على درس الشعر العربي وعدم الاحتفال بدرس الشعر الاجنبي اما لانهم يجهلون اللغات الاجنبية او لانهم يزدرون الشعر الاجنبي ويحسبون ان الالهات الشعر لا توحى به الا اليهم وان ما ينظمه الشعراء الاجانب نفاية وسفسفة حتى كانه المقصود يقول ابي الطيب حيث قال :

ان بعضاً من القريض هذاء ليس شيئاً وبعضه احكام
منه ما تجلب البراعة والفضل ومنه ما يجلب البرسام

ومن الغريب ان مزية نظم الشعر العربي الجيد واتقان اللغات الاجنبية لا يلتقيان في شخص واحد او قلما يلتقيان فكلاهما ضرطان او ضدان لا يجمعان او كان الالهات الشعر لا توحى به الا الى الذين لا يعرفون لغة اجنبية غير منها على شرف اللغة العربية . ومن خرج عن ذلك فساد لا ينسب عليه حكم كالشاعر احمد بك شوقي فانه شاعر عربي وعارف لغة اجنبية وديوانه شاهد له بمقدرته على تقليد الشعراء الغربيين وخصوصا ما ينظمه على السنة الحيوايات حاذيا في ذلك حدو لا فونتين وغيره وقد

اغتنتم فرصة تدريسي في المدرسة الكلية ببيروت السنة الماضية فكنت اعلم التلامذة القصائد المذكورة غيبا على كره بعضهم لها جهلا ولو عد الشعراء المحافظون نظم صاحبها لها وتعليمي اياها مروقا من مبادئ حزبهم كما سمعته من افواه بعضهم .

نشرت لي في المقطم بعض قصيدة في مقالة من سلسلة مقالات بعنوان « هنا وهناك » . وقد اقترحت على السادة الشعراء اكمالها فجاءني كتاب من شاعر مجيد صديق قال فيه انه اخذ في تلبية طلبي ولكنه راي ان يوجه خاطري الى مصراع في قصيدتي وينتقد علي المعنى المتضمن فيه . اما البيت فهو :

**ونفور وخفة والتفات
كظلم يمرح في بستان**

وملخص الانتقاد اني لو جعلت الظباء تمرح في واد او كتيب او منحرج او منعطف او على هضبة او اكمة لكان ذلك اوجه لاننا لم نعتد رؤية الظباء تمرح في البساتين والحلائق اذ هي حيوانات برية وحشية لا اليفة انسية . فما ينقده صديقي علي هو عين ما اردت توجيه الانظار اليه والبحث فيه للتقدير منه .

يقول صاحبي اننا لم نعتد رؤية الظباء تمرح في البساتين والحلائق بل في الاودية ومنطفاتها والكثبان وتمرجاتها . فاساله كم ظبيا راي في زمانه اما انا فلم ار في زماني ظبيا في واد او على هضبة او اكمة ولن اؤمل ذلك لانه لا يتسنى الا لصياد في بلاد ترودها الظباء وتكثر فيها الغزلان . على اني رايتها تنفر وتلتفت وتمرح في بستان فنظمت ما نظمت في ما رايت اما هو فسمع بنفورها وتلفتها ومرحها مما نظم هذا الشاعر وذاك وعليه ينظم ما ينظم في ما يسمع . وما راء كمن سمع .

والبستان الذي رايت الظباء تلتفت وتنفر فيه بستان الحيوانات في الجزيرة بمصر . ولو ذهب صاحبي الى هناك لصدق خبره الخبر ولواقفني على مصرامي بيتي . ولكنه يفضل بقاء القديم على قدمه ويحسب ان الالهام

لم يهبط الا على الشعراء الاقدمين وان ما ينظمه ابتلاؤهم هذاء في هذاء
جلوريا مجرى انصار الفلسفة القديمة فلسفة ارسطو واتبعه فانهم كانوا
يسلمون بمبادئها وقواعدها تسليم الاعمى بحجة ان ارسطو ذهب اليها وهو
معصوم من الغلط لا بناء على المشاهدة والاختبار والامتحان اركان الفلسفة
الجديدة التي قلبت للاولى ظهر المجن ووضعت اساسا ثابتا مكيئا للعلوم
والفنون الحديثة .

ومما يجمل ذكره في هذا الصدد اني كنت اكلم عالما فاضلا ببعض الامور
العلمية والادبية فورد ذكر الشعر والشعراء عرضا فجعلنا نقابل الشعر
العربي بالشعر الافرنجي ونبين الفرق بينهما فقال ان السر ولترسكوت
الشاعر الانكليزي المشهور كان اذا اراد وصف جدول ماء مثلا قصده
ليراه بعينه ثم رسمه على قطعة ورق بما على صفته من الحصى والاحجار
والاشجار كأنه مصور لا شاعر . ثم شرع في وصفه شعرا حتى اذا قرا
احد ذلك الوصف امكنه تصور الجدول في مخيلته تصورا واضحا كأنه
يرى صورته الحقيقية امامه . اما شعراؤنا فقضوا ايامهم في مدح فلان
وذم فلان واذا خطر لاحدهم ان يصف منظرا طبيعيا او حادثة ما وصف
كما سمع من هذا وذاك ولما يحكم وصفه ويدقق في التفصيل .

فوافقته على ما قال وقلت اني لا اكاد اتذكر شاعرا من شعراء العرب
دقق التدقيق الواجب في وصف حادثة شاهدها غير المتنبي في وصف
الاسد وما جرى بينه وبين بدر بن عامر في قصيدته التي مطلعها .

في الخدان عزم الخليط وحيلاً مطر تزد به الخدود منحولا

حيث يقول :

امعز الليث (الشديد) بسوطه ابن الذختر الصلارم المصقولا

الى آخر ما هناك من الوصف الدقيق الذي لا يقرأه احد الا ارتسمت
هيئة الاسد واضحة في ذهنه فاستطاع رسم صورته على الورق ولو لم
يكن قد رآه في زمانه .

ومما يؤخذ شعراؤنا به ان يذكروا في قصائدهم أسماء أماكن في بلاد العرب لم يروها بل لم يروا أحدا رآها . ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان ولكنهم يجهلون مواقعها وطبيعة أرضها وأقليمها وسائر ما يتعلق بها وربما لم يكن الجغرافيون وعلماء تخطيط البلدان ومساحوها ومشاهير الأفاقين والسياح والمكتشفين أكثر علما منهم بها وبحقيقة مواقعها وإنما أكثر شعراء العرب ذكرها لأنها قسم من بلدانهم فإن كانت جبلا فكم استجلوا واعتصموا به أو سهلا فكم حدوا عيسهم فيه أو عين ماء فكم وردوها وأرووا ظمأهم بمائها أو مطمئنا من الأرض فكم أناخوا ركائبهم فيه للمبيت أو دوحة فكم تфия ظلها للمقبل أو ظللا دراسا فكم مرحوا فيه وطرّبوا أيام كان ربعا زاهيا . فما لشعرائنا يطيلون الوقوف على الأطلال وما لهم ولذكر العتيق والأبلق ودارمية ووجرة وكاظمة والعذيب وبارق والمنحني ووادي الفضا وهم لا يعرفون منها إلا أسماءها . قد كان كثيرون من شعراء الإسلام يكترون ذكر بعضها في قصائدهم ويبالغون في مدحها لعلاقتها بصاحب الرسالة الإسلامية . فإن كثيرا منها لم يكن يستحق المدح في حد نفسه كعين وجرة فإنها عين سخينة الماء قليلة النزل لا تنقع غلة ولا تشفي غلة مرت للوحش في سبب من الأرض لا يسكنه إنس ولا ياوي إليه جن . ولا الوهم الشامر العربي إذا مدحها وأعجب بها ما شاء فكم أروى بها الظما هو وقومه بعد اجتياز المغالز والسباسب الجافة من حوالها . ومهما كان الماء أجاجا آسنا وجده إذ ذاك عذبا زلالا . فمدحه للماء من قبيل الأقرار بالمعروف وعرفان الجميل .

هذا وبدلا من أن تلجأ إلى الرصافة والجسر في قول الشاعر « عيون المهى بين الرصافة والجسر » عند قصد التفزل والتشبيب للآلا نقول « عيون المهى بين الجزيرة والكبري » في وصف المناظر في تلوح لعين الناظر بين كبري قصر النيل والجزيرة المشهورة في يوم سرحت ظباؤه وصفت سملؤه واحتل نسيمه وراق أديمه . إلا يكون الوصف إذ ذاك أكثر مطابقة

هنا بعض ما جال في خاطر عن الشعر والشاعر وقد استأذنت
صديقي في نشر انتقادي على صفحات المقتطف الاغر فاذن ووعد بالرد ،
ولي كلمة بعد على الكتابة والكاتب ارجئها الى فرصة اخرى ...

نجيب شاهين

المصدر : مجلة المقتطف ، المجلد ٢٧ - ١٩٥٢ ج.٤

الشعراء المحافظون

اسعد دافسر

وفي النفس اشياء لولع اقلها تكاد جلاميد الصفا تنصدع
علمنا فقلنا ما علمنا كما ترى ولكن علينا الفعل صعب ممتع
ومادام هذا الشأن يصاح شائنا فلا القول نجدنا ولا العلم ينفع

أبي صديقي الكاتب المدقق نجيب أفندي شاهين إلا أن يحتدبني بلطف أسلوبه وحسن تنوُّله إلى خوض مبحث أن أمنت الفرق في تيلره لم أسلم من البكل .. وإن أحجمت عن الاجابة قضي علي شرع الادب باليوم والعدل . فسأجيب وفاء بالوعد ، وأنا أقول مكره أخوك لا بطل ..

من الاقوال الماثورة « الحقيقة أن تقال لا أن تعلم » لان الناس في الشرق والغرب يعلمون حقائق كثيرة لكنهم لا يقولونها لمساسها بالشرائع الدينية أو القوانين السياسية أو القواعد الاجتماعية أو غيرها من الاسباب التي لا محل لذكرها هنا . فتودع غيليات القلوب وأعمال الصدور . ولا يؤذن لها أن يفتح بها الفم وينطلق اللسان . إلا متى زالت هذه المحاذير وانقطع خوف الانسان من الانسان .

ولكننا نحن الشرقيين مصلوبون والأمر لله بخطب آخر أجل من هذا وأعظم إذ لدينا فوق الحقائق التي نعلمها ولا نستطيع أن نقولها حقائق أخرى كثيرة علمناها وقلناها إذ لم يكن في قولها ما يخالف مبدأ أو برنا قض معتقداً لكننا لسوء الحظ وقفنا عند حد العلم والقول ولم نقرنهما بشيء من العمل . إذا الحقيقة عندنا أن تعمل لا أن تعلم وتقال . لان أكثر ما

جاء في مقالة حضرة النجيب من الحقائق التي علمناها، وكثيراً ما قلناها وأما فعلها أو العمل بموجبها فإلى الآن لم نجتمع عليه . فهو مصيب كل الأصلية في حكمه على شعرائنا بأنهم محافظون على القديم لا يفكرون في خلمه ولعله أوجس خوف المناقضة أو الاعتراض فلم يصرح في حكمه كما أراد وكما هو الواقع . «أما أنا فأقول بكل صراحة إن كل الشعراء أسوأ» في التزام التحدي والإفتداء والفرق بين أفرادهم الذين تسامح مريدوهم في سميتهم بالشعراء المعصرين أو الأحرار في اصطلاح صديقي النجيب — وبين بقية الشعراء هو نسبي³ لا يحسب عند التحقيق فرقاً .

وكانه بالمعنى إلى اللغات الأجنبية يريد أن يتقن واحدة منها يمين الشعر العربي على نزع التقليد وإتيان الجديد وليس من ينكر عليه أن التضلع من إحدى اللغات الغربية يزيد بضاعة الشاعر ويوسع دائرة تصوراته لكنه قلما يجدي نفعاً في تحصيل القصد . ومتى كانت العلة باطنية لا يفيدها استعمال المراهم على ظاهر الجلد . ومن السهل جداً أن نقترح على الشعراء أو نكلفهم خلق القديم البالي والتزوي بالجديد الطلي الأنيق ولكننا لا ندرى أي جراح دفين في صدورهم ننكا بمثل هـذا الاقتراح . ولم يكن صديقي النجيب بأول من أثار الحزازات ونقض الكلام إذ قد سبقه كثيرون إلى ذلك ولم يجاوره في الانتقاد بلسان الرفق واللفظ بل اشرعوا على الشعراء أسنة الكز والوخز وأطلقوا نحوهم أعنة الهمز والغمز حتى جعلوهم لرباح التهكم مهزاً ولسكاكين الأثداء محزاً .

وهذه شعراء المعصر تحسبها
فقل لمن لام مرزوءاً بسيئة
أولى ثواب لها في حاضر الزمن
يصنعها مشة من أعظم المن
« يقضى على الروم في أيام محنته
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن »

فقد علمنا أن شعرائنا ليس كما ينبغي أن يكون وقلنا هذا للشعراء وهم مثلنا يريدون أن يجاروا شعراء الغرب وحلوا ذلك مراراً عديدة فما استطاعوا لذلك سبيلاً ولم يجدهم اتقان اللغات الأجنبية فتبلا بل زادتهم معرفتهم بها نفصة وتجسراً لأنهم رأوا في الشعر الأجنبي أشياء كثيرة

استحسنوها وودعوا من صميم قلوبهم نقلها الى الشعر العربي فلم يقبلوها .
ولماذا ؟ لان اللغة لا تطاوعهم على ذلك . هذه هي الحقيقة ولا ينكرها
الا المكابر او من كان ليس بشاعر . وتفصيل ذلك ان الشاعر الاوربي
عندما يخلو بنفسه للنظم في أي موضوع أراد يستكدر قريحته ويشحذ
بفرار تصوراته لاستنباط المعنى ورسم صورته في ذهنه ومتى وافق الى
ذلك وانها له التصور المراد والتخيل المطلوب عمد الى خزانة ذاكرته
وانتجها فرائى ما شاء من مترادفات لفته واساليب تعابيرها المنطبقة على
قواعد الصرف والنحو والمعاني والبيان والمفهومة حتى عند علما امته
واطفالها . والمقبولة عند خاصتها وعلمائها وكلها معدة وصالحة لتمثيل كل
صورة ذهنية والتعبير عن كل معنى خيالي .

اما الشاعر العربي المنكود الجهد السي الطالع فقد يكون اسيل من
الشعر الا فرنجي قريحة وامضى ذهنه واقوى تصورا . فماذا يبقى عليه
بعد التصور والتخيل . يبقى عليه كل شيء لانه اذا كان ممن رزقوا بعض
الامام باحدى اللغات الاجنبية واراد مجازاة شعراء الا فرنج في النظم وفتح
خزانة ذاكرته لا يرى فيها سوى الالفاظ العامة واذا استعان بما في
محفوظه من الكلمات الفصيحة لا يرى بينها لفظة تعبر عما يريد وصفه
بالندقيق كالشاعر الا فرنجي وان رأى لها بعد الجهد الفاظا تفي بالمعنى
المراد كانت غويصة غامضة يسر فهمها على الخاصة فضلا عن العامة .
والاقتراح على شعراء هذه الايام ان يجاروا الا فرنج ليس فقط في التدقيق
في الوصف والتعبير عن حقيقة المواطن حتى تجيء القصيدة اشبه بالصورة
بل في التزام البسط والجلاء حتى لا يقل الشعر عن النثر في سهولة الفهم
ووضوح المعنى بحيث يفهم اولادنا كما يفهم اولاد الا فرنج اشعارهم .
وياما اقل عقل من يعطل نفسه بمثل هذا الحال .

وعندما يرى شاعرنا ان الكلام العلمي لا يصح ان يتخذة قالباً لسبك
المعنى الذي اراده والكلام الفصيح لا يفي به او يفي ولكن لا يفهمه احد
الا هو والقاموس الذي اخذه منه يمحى من ذهنه صورة المعنى التي رسمها
على وجه التدقيق والاحاطة ويعرض على مخيلته الصور البسيطة التي

رسمها هو قبلا أو كثيرون غيره من شعراء العرب لمثل هذا الموضوع فيختار منها واحدة سهلة المأخذ قريبة المنال ويلبسها الالفاظ المعدة لها في ذاكرته ويزينها بالاستعارات المألوفة والتشبيه المعروفة ويرسلها كما جاءت لا كما أراد .

هذه علة محافظة شعرائنا على التقديم . وهي فاشية بين كتّاب النثر أيضا فمصائبهم ومصائب الشعراء فيها واحد . والا فأي كاتب عربي يجسر على القول انه ظافر من الكلام الفصيح الواضح بما يقدره على مجازاة كتبه الا فرنجي في وصف كل ما جال في خاطره وتصور في ذهنه من الخواطر والافكار . بل اي كاتب منصف من كتابنا لا يعترف بأنه يعرض له كل يوم عقبات تحول دون ادراكه الغرض وتضطره رغم انه ان يترك جوهر المعنى ويقتنع بالعرض .

إذا من يهمة اصلاح شأن الشعر العربي فليفضل بازالة هذا المانع من طريق ارباب الشعر والنثر وله خالص الحمد وجزيل الشكر . والا فذرهم يا صاح يهيئون في اللوى والبان . ويعيدون على قلب الصب الولهان . ذكرى مسارح الأرام ومنازل الغزلان . ودعمهم يستعذبون وادي النقا والعذيب . ويحنون الى المنحنى والحصيب . فما يرون بعد ماء وجرة ماء ولا يؤثرون على ارواح نعمان هواء .

بقي ان الصديق النجيب أراد بكلمة الظباء في قوله « كظباء يمرحن في بستان » الحسان او الظباء الانسيات بدليل قوله بعد ذلك « على اني رأيتها تنفر وتتلقت وتمرح في بستان » . وقد انكرت عليه كلمة بستان وارتابت ابدالها بالبان ونحوه لغاية حصر كلمة الظباء في معناها الحقيقي وعدم مجازها الى الحسان حتى لا يكون المشبه والمشبّه به واحدا ويقال هكذا « كظباء يمرحن بين البان » فالقام يقضي ان يكون معنى الظباء الغزلان ليصح التشبيه ولكن ذكر البستان يصرف الظباء عن الغزلان الى الحسان . والله اعلم .

اسعد دافر

المصدر : مجلة المقتطف ، مجلد ٢٧ (١٩٠٢) ج ٢ .

القديم والحديث

محمد كرد علي ١٨٧٦ - ١٩٥٣

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وانهزم القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . عشنا بذلك ارباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلموه من آباؤهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويعدون ما عداها ضررا يجب البعد عنه ومحاربته بكل وسيلة ، كما عشنا ارباب التجديد الذين يزعمون ان الاكتفاء بعلوم اهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا .

نشأت الأمة ناشئة بعد ان كثر احتكاكنا بأوروبا في أواسط القرن الماضي عادت القديم معادة خرجت فيها من طور التعقل ، وذلك نكابة بما رآته من دعة ذاك القديم ، وأكثرهم مثال الجمود والبلاهة ، ونموذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهد فيهم وفيما يدمون اليه ، تحمل عليهم حملاتها ، وتحمل عليهم بمحلاتها ، وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويعطون بعلومهم إلا قليلا ، ويعدون النافع منها لا يضر ولا ينفع .

لا خلاف في أن ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الإسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسي في كل البلاد في السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شيء ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذي رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الديني يتعلمه البر لا لينال السعادتين ، ويكون عضوا مهما في جسم المدينة الفاضلة ،

بلى ليخدم به أغراض أمراء السوء ، ويستولي على عقول العامة ، وتقبل يدها ويكرم بالباطل ، وهذا ما حدا حجة الاسلام الغزالي واضرابه في عصره وبعده أن ينحوا على فقهاء السوء لإنحاءهم على أمراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحا يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم وأهوائهم . ولقد فضل الغزالي في الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال : ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافي الدين يجنى على الدين .

شغلت الامة زمنا بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التتار من العوامل المنهكة لقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه ، الى أن جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنية وزنا ، ولا تعرف لعلوم العمران لفظا ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها في إرهاب حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسطوتهم ، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار علم ، كما هي دار ملك ، مجلوة لدولة الجراكسة في مصر والشام ، وأعظم لذلك الاعطيات والهبات ، وأنشأ المدارس وجلس الاوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه ، حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهدها في العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتي ابي السعود الذي سعى لجعل العلم وراثيا ، وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه ، وان كان أجهل من قاضي جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العميم على البلاد .

ومع أن الفرس والترك سواء في العجمة ، فالفرس اقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم ببيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم واتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية في بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع الا الى ان ميل أبناء فارس الى إحكام العربية قديم

فيهم ، وإن الترك بأمرائهم المتبريرين جعلوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما علماها فجنوا على البلاد جناية كبرى .

ولما ارادت الدولة أن تنهض وتنشبه بأوروبا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغي لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع أخذ روح المتفلسف تسري إلى الاستئالة ومنها سرت إلى الولايات ومصر ، فلم يعا انصار القديم بما رأوه أولا ، واحتقروا ذلك السيل الجارف الآتي عليهم من أوروبا ، وارتأى بعضهم أن خير ما يقابل به المتزندقون أن يكفروا أو يحرّموا ويضربوا ، أو يحبسوا أو يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعد لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين في القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كتفا إلى كتف ، وجاءت أدوار أصبح الوزراء وولاة الأمر إلا قليلا من الطائفة التي نزهت ربة القديم ، فلم يبق عليها إلا اسمه بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدمون سرا وجهرا إلى عدم التأديب بآداب الدين ، محتجين بما هو مائل للعيان من فساد القائمين عليه ، وانحطاط المنتسبين إليه .

وها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين شطر هو إلى الهلاهة والغباوة ، وشرط إلى الحق والنفرة ، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب أن معظم المستنيرين بقبس العلوم الأوروبية منا لا يرجعون إلى آداب دينهم ، ويعيلون في الظاهر والباطن إلى أن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسية والجنسية ، وإذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صعدوا إليك خدودهم وقالوا لك إن الأمة تعيش بحديثها دون قديمها ، وإن ذلك القديم أن لم يضربنا الأخذ به فهو لا ينفعنا ، والعاقلة لا يقبل إلا على ما ينفعه ويعلي قدره .

تلك هي شئنة انصار الحديث أو الملاحدة والرنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لانصار الحديث إذا لم يقم خصومهم بلم شعشعهم على صورة معقولة مقبولة ،

وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط فلم ير طرح القديم كله ، ولا الاخذ بالحديث بجملته ، بل آثر أن ياخذ النافع من كل شيء ويضم شتاته ، وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخرين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهما بالطبع ، لأن كثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب الينا أحد علماء المشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمنا ، وانقطعوا لدرس احواله الاجتماعية وعلموه الأثرية ، كتبنا بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذاك السبات الطويل قال فيه :

أما الرسائل التي هي لبها (المجلة) ، فرأيتهما تدور أبدا على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الأفرنجية الحديثة فيها وإحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ، ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده ، بل الخير كل الخير في الاخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع احترام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور ، وذات حرارة ، وذات إنبات ، وأعني بها المبدأ الشعبي ، ولنا أن نسميه الشعوبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة .

اجتهد الاسلام والنصرانية أن ينشأ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله الا أنهما فشلا . ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الاسلامية التي ستكون في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوي الأحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . أما أنا فاقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والاخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من

شأنه أن يدعو إلى نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل إلى الحياة الدينية اعتقادا. وعملا ، كما يزيد من له ميل إلى غير الدين. قوة فيما اختاره وعلى هذا فمن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتحطيه مجتهدين مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فائرين غير مكتثرين بشيء أهم .

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامعون على مسطور القديم أن لا قيام لأمرنا بغير الأخذ من مدنية أوروبا ، ويدرك أنصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم ، وتنفع بني قومهم إلا إذا رافقها ما يجعلها من علوم الأسلاف وآدابهم ، والأمة التي تنزع ربة قديمها جملة واحدة وتنقل إلى طور آخر دفعة ، قد ينعكس عليها الأمر ويلتوى عليها القصد ، ولم تنجح اليابان إلا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها بأجزاء مدنيته وهذا سر قول العالم المشار إليه « لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ولا فائدة من التنافي فقط بالآثار الشعبية » أي ما ووثناه عن أجدادنا من التشبث بأهداف الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه .

ولنا في الغرب دولتان كبيرتان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص على القديم . فقد شهدنا ألمانيا إلى اليوم تجري في مدارسها وكيانها على آداب النصرانية المنقحة فلا تسند التدريس فيها إلا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة أن يفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية أما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في السنين الأخيرة حتى نزع لفظ الجلالة من المعاهد العامة وأخذت تضيق الخناق على أهل الدين من حملة العلم والأقلام حتى صار المتدين سرا يتجاهر بالانحلال جهرا لا يأمن على معاشه ورزقه وسموا هذا حرية ولكن الله يحصي على الأمم ذنوبها كما لا يغفل عن الأفراد ، وها قد أخذت المدنية الفرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع القهقري وعلماء الأخلاق فيها يكون دما على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم ، حتى روى بعض الإحصائيين أن عدد الفرنسيين سينزل في أواخر القرن

المشرين الى ثلاثة ملايين لان المواليد اخذت تنقص عن الوفيات . أما في ألمانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالماني ان يترك من القديم كل ما لا ينفع منه اما الفرنسي فيجرف منه النافع مع الضار ، وشتان بين الخلقين والمدنيتين وها هي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن .

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديمتها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على ان تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بآمن من طعن الطاعنين بها كما تجري المدنية على الشوط الذي يراه واذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى ان يطبقوا العقل على النقل كما هو رأي كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فلا جدر بهم ان يخلعوا بعض القضايا بالتسليم ، ويتراخوا العالم حراً يسير وحده دون ان يعوقه عائق ، وما نخل كل عاقل الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله اعلم .

محمد كرد علي

المصدر : المقتبس ، المجلد الرابع ص ٣٠ ، دمشق ١٩٠٩ ، ثم اعيد نشر المقال في كتاب : القديم والحديث ، المقالة الاولى ، محمد كرد علي ، الطبعة الرحمانية بمصر ، الطبعة الاولى ١٩٢٥ .

الافكار القديمة والحديثة

محمد تيمور ١٩٢١ - ١٩٨٢

كتبنا نقد حافظ منذ أعوام ، ولم يكن الباعث لنا عليه ، كما حسب بما تحويه بطونها ويستشهد في كتاباته بجيل حكما فهو في نظر الناس عالم فاضل مطبوع على البيان متفنن في ضروب الخطاب . إن تكلم كان بسيط اللسان رحيب المجال وإن كتب كان مليح الفصول رائق الفقر . ان اثبتته برأي يخالف رأيه او غرت صدره واقتدحت غضبه فرمك بالجهل والتعدي على العلماء السالفين الذين لا تلحق آثارهم ولا يشق غبارهم . وإن جئت برأي جديد لم يسمع به احد من قبل قال عنه انه غامض مبهم تخامر فيه الشكوك وتتجاذبه الظنون . هذا هو شأن كثير من علمائنا الاجلاء الذين نشأوا في جو القديم فعز عليهم ان يطرق آذانهم الجديد . يظنون ان آباءنا وأجدادنا عاشوا في عصر كان العلم فيه زاهراً فحرام علينا نحن أبناءهم ان ننقض رأياً اتفقوا عليه وأن نجادلهم في قضية اثبتوا صحتها في كتبهم فليلق كل منا سلاحه املاً ان ادلتهم وبراهينهم مهما كان وثيق الحجة شديد اللداد .

وفلان يحترم آراء السالفين ويرجل أعمالهم وسعيهم في تحقيق كل ما وقع تحت عيونهم ولكنه يود ان يكون له بعض ما كان لهم من الحرية البحث والتنقيب حتى يجيء الرأي الصائب ويموت الرأي الواهن مهما تساورت أهواء الناس على صحته . كل له الحرية في البحث وليس من العار ان يأتي الانسان بفكرة شغل لها غرار رأيه واثبت له غيره انها غير صحيحة وانما العار كل العار ان يستقصي الانسان في البحث عن رأي

جديد ثم يضمن به على قومه أو يضرب عنه صفحاً لأنه جديد لم يتفق على صحته أحد من السالفين .

لم يزل العلم في جو الطفولة بالرغم مما أتى به علماء الماضي والحاضر والحقبة التي اتفقنا عليها ما زالت تحيط بها الشكوك والظنون فإن تمسكنا بالتقديم كنا كمن يريد أن يوقف تيار العلم أو كمن يتنحى عن العمل لسواه فيسببه إلى التحقيق والبحث قوم آخرون ويرجع هو وقومه القهقري أمام أقدام الآخرين وأنه لعار علينا في القرن العشرين أن لا نفيق من رقدتنا الطويلة بعد أن رأينا ما ضحاه الغربيون في سبيل احياء العلوم وتحقيق كل غامض فيها .

لا نزاع في أن الفكرة الجديدة جميلة وإن كانت غير صائبة . أنت بلا شك تستقبح الجديد لأنك تفاجأ به على غرة قبل أن تأخذ له عدتك وتسحب له ذيلك ولكنك في حل من أن تتصفحه وتستوضحه وتقلب فيه خواطرك حتى تفرق في البحث فتقف على مكان الضعف والقوة فيه وتكون حينئذ حراً في قبوله أو رفضه .

وأي خطر يداهم الأمة إن هي فوجئت بأراء جديدة ؟

لا مشاحة في أن كل رأي صائب يبقى رغم أنف كل مستهجن له وإن كل رأي فاسد يضمحل ويموت وينسى مهما كان معزراً ومهما تمادى صاحبه في ضلاله وغلا في جهائته . لا تخف إن عاش الرأي الواهن حقبة من الدهر لأنه يعيش وهو مهدد إلى أن يتغلب عليه الرأي الصائب وما الدنيا إلا ميدان عراك يتصارع فيها أصحاب الحقيقة ومحبدو الجهالة والله نصير الحق فلا يلبث كل ذي صواب أن يفوز ولا يلبث كل ذي خطأ أن يلوي عنانه ويقصر عن باطله فتظهر الحقيقة ناصعة للناظرين .

١٠ أغسطس سنة ١٩١٧ .

المصدر : مؤلفات محمد تيمور ، مطبعة الاعتماد ١٩٢٢ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

مقدمة

عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٥)

ابراهيم المازني ١٨٨٩ - ١٩٤٨

بسم الله نبتدىء (وبعد) كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم وقد تجددت دواع للكتابة في اصوله وفنونه اخصها الامل في تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلسل الاقلام المغموزة والمقاب المتهمة الى حظيره . وكتابنا هذا مقصود به مجازاة ذلك الامل ، وتوقي تلك العلل . وهو كتاب يتم في عشرة اجزاء . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب في بضع السنوات الاخيرة ورأوا بعض آثاره وتهيات الاذهان الفتية المتهدبة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي كتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتم عملا مبدعوا ونرجوا أن نكون فيه موافقين الى الافادة ، مسددين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه - انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، واقرّب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصري عربي . انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقليد الصناعة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية علما ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصري لان دعائمه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن

أدبنا الموروث في أهم مظاهره إلا عربيا بحثا يدير بصره إلى عصر
الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة
أصناما عبت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا واجب وإسرها
من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلعلنا اخترنا
أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ، ووقفنا
الأجزاء الأولى على هذا الفرض ، وسنردفها بنماذج للادب الراجح من
كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبلر وكالميزان لاقدارها . فان أصبنا
الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بياننا .

المصدر : الديوان : كتاب في الادب والنقد الجزء الاول مؤلفه عباس محمود العقاد
وابراهيم عبد القادر المازني الطبعة الثانية ١٩٢١ مكتبة السعادة .

تقليد القدماء

كتبنا نقد حافظ منذ اموام ، ولم يكن الباعث لنا عليه ، كما حسب بعض البله والحمقى ، ضفينة نعلها للرجل او عداوة بيننا وبينه . وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صحبة (١) ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر ، او نزاحمه على الشهرة ، لان ما بينا من تباين المذهب واختلاف المنزع لا يدع مجالا لذلك ، ولكني لسوء الحظ أحد من يمثلون المذهب الجديد الذي يدمو الى الاقلاع عن التقليد والتكيب عن اعتداء الاولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا و نصلح له . اقول لسوء الحظ ، لانه لو كان الناس كلهم يرون رأينا في ضرورة ذلك ، وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسر اليوم في الدعوة الى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة اذا مضوا عليها افقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر ، وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة .

ولو كان الناس اعتادوا النقد والفوا الصراحة في القول وتوخي الصدق في العبارة عن الرأي ، لما كانت بي حاجة الى هذه المقدمة او ضرورة الى تبرئة نفسي ودفع ما يرموني به ، ولكنني انشر النقد على ثقة من حب القراء بي وبخلوص نيّتي وبراءة سريرتي مما تصفه الاوهام ويصوره الجهل . ولكننا لسوء الحظ مضطرون ان نثبت حسن القصد

(١) نقدنا شعر حافظ في سنة ١٩١٢ ثم جمعنا متفرقه وطبعناه في سنة ١٩١٥ - ١٩١٥ وجعلنا هذا المقال مقدمة له ، ولم يكن بيننا يومئذ وبين حافظ اية صلة . وقد ائبنا هذا المقال لدلائله على حال الادب . يومئذ . اما النقد فقد اسقطناه من جملة ما كتبنا غير اسلين على اسقاطه فقد كان مما احرقت به حماقة الشباب .

في كل ما ننقد كان المرء لا يمكن أن يفعل شيئا إلا ودافعه الضغائن والاحقاد . ومن سوء حظ الناقد في مصر أنه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى انصافهم أو يعول على صحة رأيهم . وليس لمخني القراء في ذلك ، فقد رأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد ذلك أنني كنت إذا قلت أن حافظاً أخطأ في هذا المعنى أو ذاك قال بعضهم « ثم يخطيء حافظ . وإنما تابع العرب وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك » كان كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتية الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرعاً من كل عيب . إلى غير ذلك مما يضري المرء باليأس ، ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول .

وإذا فرضنا أن العرب أصابوا في كل ما قالوا ، افترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم ونحذو مثالهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم ؟ السنا الوارثين لفتهم ، وللوأوث حق التصرف فيما يرث ؟ هل تقليدك العرب وجريك على استئوبهم يشفعان لك في خطأ نحوي أو منطقي ؟ كلا إذن فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم إلى العقل في الأولى ولا نستقصيه في الثانية ؟

لا ننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والعائدة ، وما للخبرة ببراعات العظماء ، قديمهم وحديثهم ، من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح ، ولكنه لا يخفي عنا أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى إليها الأدب ، والفرض الذي يعالجه الشاعر ، والأصل في الكتابة بوجه عام .

على أنه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثم مساع للشبك في أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد . فمما لا يفتقر لا يفني بالاقتراض من الواسرين . ولست أقصد إلى نبد الكتاب والشعراء الأولين جملة ، وعدم الاحتفال بهم ، فإن هذا سخف وجهل ، ولكنني أقول أنه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول الأدبية الصلبة التي لا ينبغي لكتاب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال .

كالصدق والاخلاص في العبارة عن الرأي او الاحساس - وهذا وحده
كفيل بالقضاء على فكرة التقليد ،

(وبعد) فانه لا يسع من ورد شرعة الادب ، وعلم انه يحتاج الى
مواهب وملكات غير الكد والدؤوب والاحتيل في حكاية السلفه والضرب
على قلوبهم والاقتباس بهم . فيما سلوكه من مناهجهم ، ومن تبسيط في
شعر الاولين ، لا يسرق منه ما يبتني به بيوتنا كبيوت الصنكوت ، ولكن
ليستضىء بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة واسرارها
ومعانيها ، وليهتدي بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوة العيش ،
وليتمتع بنظره شعاعها المتغفل الى ما لم يتمثل في خطر ولم يحلم به
حالم - اقول ، لا يسع من هذا شأنه وتلك حاله الا ان ينظر الى حال
الادب العصري نظرة في طيها الاسف والخيبة والياس . وكأنما شادت
الاقدار ان يذيب احدا نفسه ، ويعصر قلبه ، وينسج آماله ومخوفه
التي هي آمال الانسانية ومخاوفها ، ويستوري من رفات آلامه شهابا
يضيء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس اخا حنانا يوازره ويعينه
على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن احساسات خياله
التي ربما التبست على القاريء لفرط حدتها او غلبت في مطاوي اللفظ
واستسرت في مثالي الكلام .

ليس احدا بمعلور ان هو صرخ وبه من سائح الياس خاطر ؛
« يا ضيعة العمر . اقص على الناس حديث النفس ، وابشهم وجد
القلب ونجوى الفؤاد ، فيقولون ما الجود لفظه او اسخفه ، كاني الى
اللفظ قصدت !! وانصب قبل عيونهم مرآة للحياة تزيهم ، لو تاملوها
نفوسهم بلادية في صقالها فلا ينظرون الا الى زخرفها وإلى اطارها ، وهل
هو مفضض ام مذهب ، وهل هو مستطوح في اللوق ، ام مستجهن ؟؟
واقضي اليهم بما يعني احدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون لو
قلت كذا بلل كذا لاميا الناس مكان نذك . ما لهم لا يعيرون البحر
بأوجاج شطآنه وكثرة صخوره ؟؟ يا ضيعة العمر !! » .

سيقولون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم ؟ وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعونا اليه ؟ وبأي معنى رائع جئتم ؟ وماذا ابتكرتم من المعاني الشريفة والاغراض النبيلة ؟ فنقول ، قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والاغراض النبيلة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ، ولا تالون (انتم) جهدا في الفحص عليها وفتح اغلاقها ، والتكلف لها . وقد لا تكون احسنا صوغ القريض ورباضة القوافي ، ولكن خيبتنا لا يصح ان تكون دليلا على فساد مذهبنا وحقمه ، اذا صح اننا خبنا فيما تكلفناه ، وهو ما لانظنه ، بل هي دليل على تخلف الطبع ، لا اكثر - وعلى فرض ذلك كله فان لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب وندية الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعا . وحسبنا ذلك فخرا لنا وخزيا لكم .

ليس اقطع في الدلالة على انكم لا تفهمون الشعر ، ولا تعرفون غاياته واغراضه ، من قولكم ان فلانا ليس في شعره معان رائعة شريفة ، لان الشاعر المطبوع لا يعنت ذهنه ولا يكدر خاطره في التنقيب على معنى فهذا تكلف لا ضرورة له ، او ليس يكفيكم ان يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه واحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء اكانت جلية دقيقة ، شريفة ام وضيفة ؟ وهل الشعر الا صور للحياة ؟ وهل « كل » مظاهر الحياة والعيش جلية شريفة رافعة حتى لا يتوخى الشاعر في شعره الا كل جليل من المعاني ورافع من الاغراض ؟ وكيف يكون معنى شريف فاخر غير شريف ؟ اليس شرف المعنى وجلالته في صدقه ؟ فكل معنى صادق شريف جليل .

إلا إن مزية المعاني وحسنها ليسا فيما زعمتم من الشرف ، فان هذا سخف كما اظهرنا فيما مر ، ولكن في صحة الصلة او الحقيقة التي اراد الشاعر ان يجلوها عليك في البيت مفردا او في القصيدة جملة ، وقد يتاح له الإمراب من هذه الحقيقة او الصلة في بيت او بيتين ، وقد لا يتأتى له ذلك إلا في قصيدة طويلة ، وهذا يستوجب أن ينظر القارئ في القصيدة جملة لا بيتا بيتا ، كما هي المادة ، فان ما في الابيات من المعاني ، إذا

تدبرتها واحداً واحداً ، ليس إلا ذريعة للكشف عن الغرض الذي إليه قصد الشاعر ، وشرحاً له وتبييناً .

وانتم فما فضل هذا الشعر السياسي الفث الذي تاتوننا به الحين بعد الحين . وإي مزية له ؟ وهل تؤمنون به ؟ وهل إذا خلوتهم الى شياطينكم تحمدون من انفسكم ان صرتم اصداء تردد ما تكتبه صحف الاخبار ؟ وهل كل فخركم انكم تمدحون هذا وترثون ذاك ؟ وانتم لا تفرحون بحياة الواحد إلا لما له ، ولا تألمون لموت الآخر إلا لانقطاع نواله ؟ ما اضيع حياتكم !! .

ليس ادل على سوء حال الادب عندنا من هذا الشك الذي يتجاذب النفوس في أولى المسائل واكبرها . ولقد كتب نقاد العرب في الشعر ، على قدر ما وصل إليه علمهم وفهمهم ، ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح ان يتخذ دليلاً على إدراكهم لحقيقته . ولسنا ننكر ان كتاب الغرب متخالفون في ذلك ، ولكن تخالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبعد مطارح اذهانهم ودقة تنقيبهم ، وشدة رغبتهم في الوصول الى حقيقة يأنس بها العقل ويرتاح اليها الفكر ، كما ان إجماع كتاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم وتفريطهم وانهم كانوا يقلد بعضهم بعضاً إن لم يكن دليلاً على ما هو اشبه من ذلك وأعيب .

غير ان هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما الكفيلان بان يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عنان الرجاء ، لان القلق دليل الحياة ، والشك آية الفطنة وما يدرينا لعنا في غد نجني من رياض هذا القلق ازاهر السكينة والطمأنينة .

● ابراهيم عبد القادر المازني

حصاد الهشيم ، ص ١٨٠ - ١٨٥ ، دار الشهاب - ١٩٦٩ .

● صدرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٤ .

مصطفى صادق الرافعي

المذهب القديم والمذهب الجديد

سلامة موسى ١٨٨٧ - ١٩٥٨

في مصر وسوريا طبقة من الادباء لها عيون في خلف رؤوسها فلذا نظرت لم تر سوى الماضي ثم هي مع ذلك لا ترى كل الماضي وهي لو استطاعت ان تفعل ذلك لكنت لها من ذلك بصيرة بالحاضر والمستقبل . اجل . لو كانت هذه الطبقة تنظر الى الماضي خلال تلسكوب العلوم الحديثة لاستطاعت ان تقرأ لغة الطبيعة وتدرک ان زوح العالم هي روح نشوء وتطور .

تقول هذه الطبقة ان الاديب لا مندوحة له اذا اراد ان يكون اديباً حقيقياً ان يقلد العرب ويحتذي كتابهم في اساليبهم ومراميمهم . ومن هذه الطبقة بل في رأسها نضع الاستاذ مصطفى صادق الرافعي والاستاذ الامير شكيب ارسلان .

ومن المستطاع ان يحلل الانسان هذه « الوطنية الادبية » وان يردّها الى اصولها في ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والادب العربي . فالخروج عن المألوف في الادب العربي يؤهم افراد هذه الطبقة بالخروج على الدين والقومية العربية .

قال الامير شكيب ارسلان في مقال يرد على اديب من القائلين بمماشاة العصر الحديث : « فاني لا اعلم مذاهب جديدة الا في العلم والفن . واما في الادب واللغة فلا اعرف الا مذهبا واحداً هو مذهب العرب ... »

وهو الذي يجتهد كل كاتب في العربية أن يحتذي مثاله ويقترب منه. ما استطاع لانه هو المثل الاعلى والغاية القصوى . واذا اراد الكاتب المصري ان يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة استنفذ منته في البأس هذه المعاني الجديدة ظل الاساليب العربية القديمة التي هي اصل اللغة والطراز المنسوج على منواله » .

هنا ما يقوله احد زعماء هذا المذهب القديم فانظر الآن الى ما يقوله احد زعماء المذهب الجديد في امة جديدة هو الدكتور فرنك كرين الاميركي . قال : « كثيراً ما يقال بان السلامة في التعلق بالفكر آبائنا . كلا . فان السلامة في عكس ذلك . لان تلك الطريق تقودنا الى الهلاك الاكيد . فانه اذا كن آبائنا قد تعلقوا بآراء اسلافهم . وهكذا فصل اسلاف هؤلاء . لبقى الشعب القوقازي الآن في سفح جبال هملايا يرعى الاغنام ... فان ما يحتاج اليه العالم هو ما يحتاج اليه النبات او الحيوان اي قوة الحياة ... وهذه القوة انما تصدر عن الايمان ... الايمان بالانسانية . والشك المهلك انما هو الشك بالانسانية » .

فمن يقابل بين هذين القولين او المذهبين : مذهب الامير شكيب ارسلان والاستلا الرافعي ومذهب الدكتور كرين يرى تناقضاً بينا وفرقا عظيما هو في الواقع فرق بين التقدم والركود أو الحياة والموت .

الفن والصنعة

ينقسم الادب الحديث الى جملة فنون كلها ترمي الى غاية واحدة ذات مظهرين هي البحث عن الحقيقة اي عن الجمال . والادب يختلف في طريقة التعبير عن هذه الغاية تبعاً لاختلاف الفنون . فهناك فن الشعر وفن الرسم وفن البناء وفن الموسيقى وفن الدراما وما الى ذلك .

ولكل فن صنعة . فالشعر مثلاً هو الفن والنظم هو الصنعة . ومن الادباء من يجيد فهم الفن ولا يجيد الصنعة كالمعمار الراقى يستطيع وضع ترسيم البناء ولكنه لا يفهم كيفية خطط الملائم وانواجه . وقد

كان رسكين اديبا انجليزيا يجيد نقد فني الرسم والبناء بحيث يستمع الى نصائحه رجال هذين الفنين ومع ذلك لم يكن يستطيع الرسم . وفي انجلترا الآن اديب كبير يدعى وليم ارتشر ليسر، يفضلهُ أحد في فهم فن الدراما ومع ذلك لم يستطيع وضع درامة لانه لا يفهم الصنعة وان كان يفهم الفن .

ومن ادباء انجلترا الآن بل في اولهم برنارد شو . فقد كتب في كل فن من فنون الادب ومع ذلك تشعر من عبثته انه سيء الصنعة .

نفهم من ذلك ان الصنعة دون الفن . وان الفن هو الجوهر وهي العرض . فما اريد الآن ان اثبته ان عناية العرب كانت تتجه في الاكثر الاغلب الى الصنعة دون الفن . وقد بلغ الحال في عهد الانحطاط ان تغلبت الصنعة على الشعر والنثر . فصار الاول نظما والثاني سجعاً .

ونحن الآن بقوة ما ورثناه عن العرب كثيراً ما نعنى بالصنعة ونهمل الفن فتعلق بالقشور ونترك اللب . واكثرنا عناية بذلك هم اهل القديم امثال الرافعي وارسلان .

العلم والادب

وما دامت غاية الادب هي الحقيقة فلا يجب ان يكون هناك تصادم بينه وبين العلم . لان غاية هذا ايضا هي الحقيقة . والاديب الاوربي الآن ليس له من قاعدة يرتكز عليها سوى العلم . فلذا قرأت قصص زولا الفرنسي تبينت من تحليله انه عالم . واذا قرأت قصص دستوفسكي الروسي دهشت لصدق نظره وسعة اطلاعه في العلوم . وكذا الحال في شو وولز الانجليزيين .

واكثرنا اهمالا للعلم في مصر الآن هم اهل المذهب القديم لان العلوم تتعارض ومعتقدات العرب . فهم لذلك يرفضونها . وتكون النتيجة انهم يدرسون احوال الدولة المباسية او الدولة الاموية او بدعة القرامطة

ولا يبحثون من بدعة الاشتراكية الراهنة أو علة الفقر في مصر أو سوريا .
أذ ان الماضي يستغرق نظرهم فليس لهم من الوقت أو الرغبة ما يدفعهم
الى درس الحاضر أو المستقبل .

مصطفى صادق الرافعي

بعد هذه المقدمة التي اضطرت اليها اضطراراً أقول ان مصطفى
صادق الرافعي أديب مصري الجنسية سوري الدم والاصل . وهو (١)
يدافع عن المذهب القديم ويقول بافضلية الاساليب العربية القديمة على
اساليبنا الراهنة . و (٢) هو أيضاً يجيد الصنعة ايما اجادة ولكنه
لا يعنى بالفن . فلذا كتب اتسقت عباراته وانتظمت الفاظه فأتى بالمعجب
ولكن الحقيقة (أي الجمال) لا تشغله في نظمه أو نشره . و (٣) ثم هو
لا يكاد يؤمن بالعلم بل لا تجد له أثراً في جميع كتاباته . والقلمة التي
انتخبناها منه تشهد بذلك فانه يعتقد ان الفقر ضربة لازب قد حكم به
الله ولا مرد لحكمه . كانه لم يسمع عن الاشتراكية في حياته .

« ولد الرافعي في قرية من ضواحي القاهرة تسمى بهتيم في منتصف
سنة ١٢٩٨ هـ . وتأدب في ريعان طفولته بحفظ القرآن الكريم فاتقنه
حفظاً وتجويداً باحكام القراءة وهو في العاشرة من سنه . ثم دخل في
المدرسة الابتدائية وكان والده لا يفتأ يقرأ له كتباً من النحو والفقه .
فتميز في المدرسة بالعربية وكان هذا مبدء ميله الى الشعر حتى عزم مرة
في اول عهده ان يضع كتاباً في النحو ويجعل شواهد كلها من نظمه .
ولما انتهى من الدراسة الابتدائية اقتصر عليها لشدة غرامه بالشعر وأخذ
يتصفح كتب الادب » .

وكان الاديب المأسوف عليه فرح انطون اول من نبه اذهان القراء
الى شعره فالرافعي في الحقيقة من مستكشفاتهِ وان كان نبوغه في الصنعة
كان سيظهر حتماً في الوسط الادبي المصري الذي ينزع نحو الإعجاب
بالصنعة .

نشره

قال الرافعي في كتاب المساكين في كلامه عن الفقر :

« فالناس مخطئون في ما اعتبروا به معنى الفقر اذ حصروه من جهاته الارضية وقد ترامت . وضيقوا من حدوده السماوية وقد تراحت . وانما هو طبقة معنوية فوق الارض . وانما هو اسلوب خاص في نظام الكون . ولا سبيل الى التنقيح والتحرير في اساليب الله تصرفها عن معانيها او نتكذب في تاويلها او نرد عليها ما ليس منها . وانما الشأن كله ان نحسن الفهم عن اوضاع القدرة الالهية بمقدار ما نستبين فيها من الحكمة . فان في ذلك صلاح انفسنا . وما جعل الله سبيل المصلحة والمفسدة الا من افهمننا . حتى ان الادمغة لتعد من اكبر العلل في امراض التاريخ الانساني . وربما كانت العلة الكبرى في طائفة من الطوائف صورة اثرية لا كبر راس فيها . فان نحن اسانا الفهم او ذهبنا به المذاهب او افسدنا من تاويل حكمة الله او غيرنا او بدلنا فذلك واقع بنا لا يعدونا . وما يستولي على السكون من جهلنا اضطراب . ولا تلحق به آفة في وضع من اوضاعه . وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون .

« وما دام في هذه الدنيا شيء من المادة او المعاني يحتاج اليه او يتوهم احد انه محتاج اليه ففي الدنيا الفقر » .

« وما دام للناس رغبة يتناقسون فيها او يرفعون من شأنها بالمنافسة فثم الحسد . وما دام في الغيب ايام وآمال وفي الدنيا فقر وحسد فهناك الطمع » .

« وما دام لهؤلاء الناس من اشيائهم ما تحملهم اخلاقهم على الضن به او يكون سبيله من الطبيعة ان يظن به . وفيهم الفقر والحسد والطمع فثم خبء السوء والرديلة الماحقة وشم البخل . وان البخل وحده لفي حاجة الى نبي يصلحه » .

« وهذه أخلاق أعرقت فيها الإنسانية ولا بد منها ومن فروعها حتى يظل الناس ناساً لا ملائكة ولا شياطين . فان من عجيب حكمة الله انه لا صلاح للعالم الا بالفساد الذي فيه » .

شعره

يمتاز شعر الرافعي بقوة الصنعة وحسن النظم ولكن خياله مع ذلك عربي تقليدي تعرف ذلك من تشبيهه صفحة البدر بصفحة الامرد وضوء الفجر برويق الصارم . وهذا الى خلوه من مثل اعلى يتوخاه . ونقول بعبارة اخرى انه يجيد الصنعة اكثر مما يجيد الفن .

قال يصف ذهب الاصيل واقبال الليل :

ثوب السماء مطرز بالمسجد	وكانها لبست قميص زبرجد
والشمس عاصبة الجبين مريضة	تصفر في منديلها المتورد
حسدت نظيرتها فاسقمها الانسى	ان السقام علامة في الحسد
ورات غبار الليل ينفص فوقها	في الافق فانتطعت كعين الارمد
ومضى النهار يشق في اثوابه	حزنا واقبل في رواء اسود
فتهللت غرر النجوى كأنما	كانت لصاحبة السماء بمرصد
وكانها عقد تنائر دره	من جيد غانية ولم تتعمد
والافق بين مفضض ومذهب	كالجيد بين معطل ومقلد
وكان صفحة بدره اذ اشرقت	مصقولة الخدين صفحة امرد
وكان ضوء الفجر رويق صارم	نصبت صحيفته ولما تغمد

سلامة موسى

المصدر : الهلال السنة ٣٢ - ج ٤ - يناير ١٩٢٤ .

دفاع

عن المذهب القديم في الادب

بقلم السيد مصطفى صادق الرافعي ١٨٨١ - ١٩٣٧

في الادب العربي ، كما في غيره من مظاهر الحياة الاجتماعية في العالم العربي ، نزاع بين اهل المذهب القديم واهل المذهب الجديد . وقد اشتد الخلاف بين الفريقين في المدة الاخيرة وقام كل منهما يدلي بحججه وادلته . ويذكر القراء اننا نشرنا في الجزء الماضي من الهلال مقالا للاديب سلامة موسى عن السيد مصطفى صادق الرافعي في سلسلة « الصور الموجزة لادباء مصر » بداه بالكلام على المذهبين وانتقد اهل المذهب القديم ووضع الرافعي في رأسهم واخذ عليهم محافظتهم على الاساليب العتيقة . ولما كان هذا البحث من اخطر المباحث في هذا العصر واعظمها شأننا لنا ونحن في دور انتقال فانه يسرنا ان ننشر هذا الدفاع عن المذهب القديم لاعتقادنا ان واجبنا الصحفي يحتم علينا ان ننصف كل فريق وان تتيح له بيان مذهبه .

[المآخذ]

زعم الاستاذ المفكر سلامة موسى فيما كتب عن هذا الضعيف ان ما نقول به من احتذاء العرب في اساليبهم والارتياض بكلامهم والحرص على لغتهم وان يكون الكاتب في هذه اللغة حسن البيان رشيق المعرض رائع الخلابة يتثبت في الفاظه وينظر في اعطاف كلامه ويفتن في اساليبه - كل هذا وما اليه « مذهب قديم » « ووطنية ادبية » ترجع العلة فيها

الى ذلك العقل الباطن الذي يخلط بين الدين والقومية والادب العربي ،
ثم قال « وان اهل المذهب القديم يهملون العلم لان العلوم تتعارض
ومعتقدات العرب » . وظاهر انه يعني بالعرب المسلمين لا غيرهم فان
الجاهلية أصبحت من اكاذيب التاريخ وبليت معتقداتها بلى ادخلها في
قبور اهلها .

فالمذهب القديم إذن هو ان تكون اللغة لا تزال لغة العرب في اصولها
وفروعها، وان تكون هذه الاسفار القديمة التي تحويها لا تزال حية تنزل
من كل زمن منزلة امة من العرب الفصحاء وان يكون الدين العربي لا يزال
هو هو كأنما نزل به الوحي امس ؛ لا نفتننا فيه علم ولا رأي ؛ وان يأتي
الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين اذ لا يزال منهما شيء
قائم كالاساس والبناء لا منفعة فيهما معا الا بقيامهما معا .

ولكن ما هو المذهب الجديد ؟ انأخذ بالمقابلة فنقول اذا كان الابيض
هو القديم فالاسود هو الجديد ؛ واذا كانت الفصاحة واذا كان الحرص
على ميراث التاريخ واذا كان القانون الطبيعي للفضيلة الاجتماعية واذا
كنا نولد ببطود كجلود آبائنا ؛ فالركاكة واهمال القومية التاريخية والتحلل
من قيود الواجبات والانسلاخ من الجلدة لانها ليست اوروبية كل
ذلك قديم فكل هذا جديد ؟ ام هناك حقيقة ثابتة محدودة خفيت على
عظمها وخطرها في هذه اللغة خفاء أمريكا في المحيط حتى بعث
الله لها في ايمانها هذه من يرميها ببصره فكشفها وسماها وكان منها المذهب
الجديد وكانت هي اياه ؟

لو تأمل أصحابنا تاريخ هذه اللغة وآدابها لراوا في كل عصر من
عصورها شيئا كان يمكن ان يسمى مذهبا جديدا ولكننا لم نجد أحدا
سماه كذلك ولا نبه على انه شيء بنفسه الا في هذه الايام الاخيرة ثم لم
نجد الا من هؤلاء الذين غلبت عليهم صناعة الترجمة ورجعوا من العربية
الى طبع ضميض فورد عليهم من الصناعة ما لا تقوم به اديبهم وسأل بهم
السيل فلم يكن بدء من ان تدخل اللغات الاعجمية الضيم على عربيتهم

وصار اكثرهم بلغتيه كالميزان ثقلت كفة منه فرجحت وخفت الاخرى
فظهرت فارغة ولو هو وضع في هذه وزن ما في تلك لانقلب الامر
ولو ساوى بينهما لكانتا على سواء فلا واف ولا ناقص .

العلة في الحقيقة لا ترجع الى مذهب قديم او جديد بل الى الضعف
في لغة والقوة في اخرى وان صاحب المذهب الجديد اخذ بالحزم
في واحدة وبالتضييع في الثانية وأكثر من الاقبال على شيء دون الآخر
فتعلق به وامضى امره عليه وحسبت نيته فيه واستمكنت فصولت الى
نوع من العصبية للادب الاجنبي واهله . فلما ضربت هذه العصبية
واستحكمت وجهت الدوق في الادب واساليبه الى تفسير معين بحكم
المذهب والهوى وجعلت الفهم من وراء الدوق . وأنت تعلم ان الدوق
الادبي في شيء انما هو فهمه وان الحكم على شيء انما هو اثر الدوق فيه
وان النقد انما هو الدوق والفهم جميعا . من ههنا جاء ذلك الخطأ الذي
يحسبونه صوابا على انك واجد في القوم من لا تتهم فهمه ولكنك لا تبريء
انصافه ومن لا تتهم فيه ههنا ولا ذاك ولكنه مع ذلك يجيء فهمه خطأ
لانه لا يريد ان يجيء الا هكذا لمكان العصبية من نفسه لرأي على
رأي او شخص على شخص مما لا يكون الشأن فيه الا للحس الباطن .

وقد قال علماء الادب انه لما اتسعت معالك العرب وكثرت الحواضر
وانزعت البوادي الى القرى وفشا التأدب والظرف اختار الناس من
الكلام اليه واسهله وهدموا الى كل شيء ذي اسماء كثيرة فاختاروا
احسنها مسمعا والطفها من القلب موقعا والى ما للعرب فيه لغات
فاقتصروا على اسلسها واشرفها كما رأيتهم يختصرون « الطويل » فانهم
وجدوا للعرب فيه نحو من ستين لفظة أكثر بشع شع . . . فنبلوا
جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان . وقع هذا ومثله
في عصر بعد عصر وما رأينا احدا سماه مذهبا جديدا او زعمه ، والقرآن
نفسه مذهب جديد بكل معاني هذه الكلمة وما قال فيه احد هذا القول .
وقد نقل عبد الحميد الكاتب اشياء من الاساليب الفارسية فادخلها
في كتابته وترجم العلماء عن اللغات المختلفة أكثر مما يترجم كتاب هذه

الايام ومنهم من كان يرجع في التصحيح وتحرير الالفاظ الى رجال اهدفهم لذلك . وظهرت الافكار المتباينة وتعددت الاساليب في الكتابة وافتن المتأخرون من القرن الرابع الى التاسع في فنون من الجد والهزل وفي نكت بديعية لم يعرفها العرب الى ان اختلط لسانهم ؛ وفي كل ذلك لم يقل أحد ان لي مذهبا جديدا من مذهب قديم لانهم كانوا أبصر باللغة واقدر على تصريفها واعلم بحكمة الوضع فيها واحرص على وجوه الفائدة منها والانتفاع بها ثم كانت اسباب اللغة ميسرة لهم ينشأ الناشئ منهم على حفظ ورواية ويتلقى عن اشياخ ثقات قد اخلصوا نيتهم للعلم وناصرحوا عن انفسهم فيه وكانما عصرت ارواحهم من الفنون عصرا وكان في الواحد منهم روح مكتبة .

فلما تعطل الزمن وأصبح الادب صحفيا وآلت العربية وآدابها الى بضعة في اوراق مدرسية وانزوى ذلك العلم المستطيل وأصبحت المكاتب له كالقبور المملوءة بالتواييت وفشت العصبية بيننا للاجنبي ؛ رجع الامر على مقدار ذلك في صغر الشأن وضعف المنزلة واحتاج اهل هذا القليل من العربية الى ان يعتبروه كلاء بنفسه لا جزءا من كنهه فكان لذلك مذهبا وكان مذهبا جديدا

واذا انت لم تجد في كل علماء المتقدمين من يستطيع ان يقول انه صاحب مذهب جديد في الادب واللغة او يرى لنفسه رأيا فيها الا انه يعمل لحفظها ونماؤها ورواتها وإلا انه يرقق ما استطاع . ويتصرف بما اطلق ؛ فلنك واجد في اهل سنة ١٩٢٣ من يقول في هذه اللغة بعينها : « لك مذهبك ولي مذهبي ، ولك لغتك ولي لغتي » فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل اصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها . ومن سلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك في ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق الابدان ومن الابدان ما تسميه انت مذهبك ولغتك ؟ لاهون عليك ان تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدىء فيه الادب على حقه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئا فيها — من

ان تلد مذهبا جديدا او تبتدع لغة تسميها لغتك فذلك عمر واحد في عصر واحد بين ملايين من الاعمار في عصور متطاولة وان ما تحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ولا يبقى أبدا الا كما تبقى العلة على انها علة فلا يقاس عليها امر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يعتل .

ان أرادوا (بالمذهب الجديد) العلم والتحقيق وتمحيص الرأي والابداع في المعنى على أن تبقى اللغة قائمة على أصولها وعلى أن يكون التفنن (طرائق) كما قيل في ابتداع القاضي الفاضل الذي سموه الطريقة الفاضلية ؛ لا مذاهب يراد بها اثبات ومحو ؛ فاننا لا ندفع شيئا من هذا ولا ننزوع فيه بل هو رأينا بل هو رأي الحياة بل هو قانون الطبيعة . ولكننا مع ذلك نزيد عليه أن الاصل في كل ذلك سلامة اللغة وسلامة القومية فلا ننظر في آراء الامم إلا على أننا شرقيون ولا ننقل من لغات الا فرنج الا على أننا اهل لغة لها خصائصها ولا تصرفنا مدنيته عن انفسنا ولا نأتي بسيوفهم لرقابنا ونزعاتهم لقلوبنا « وكوكاكاينهم لانوفنا ... » بل تؤثر الفضيلة على الرأي وان كان رأس المجنون « نيتشه » ونرغب في المصلحة الجافية الخشنة على المفسدة اللينة الناعمة وان كانت نموثة الانوثة البريسية .

وانظر كم بين من يسلم لفلان وغيره من علماء اوربا لانهم من علماء اوربا وبين من لا يسلم الا عن اقتناع وعلى بيعة من المصلحة وبعد ان تبلغ الحجة مبلغها . فهذا كاتبنا الفاضل (سلامة موسى) ينزع الى الاشتراكية ويدين بها ويراهها مائدة الخالق التي مدت في ارضه للناس جميعا . وينعي علينا أننا نتجاهلها كأننا لم نلم بها على أننا نراها تلك المائدة بعينها غير أننا نزيد عليه أنها ممدودة للناس جميعا ليتدافع عنها الناس جميعا فلا يصل اليها احد ... ونفضل على كل هذه المائدة الخيالية بما حفلت به من لذائدها ولوانها تلك اللقيمات التي يفرضها نظام الزكاة في الاسلام فرضا لا يتم الاسلام لاحد الا به ، وعلى هذا فاعتبر ولا يفوتن صاحبنا ان كثرة الآراء في هذا العصر وكثرة العقول المفكرة

والاستقلال الفكري التام . . بلا قيد ولا شرط ثم الرغبة في ان يكون لكل عقل اثر في الاجتماع ولكل اثر دليل عليه ولكل دليل اتباع ، كل ذلك سينتهي الى ان تكون علة الاجتماع الانساني لبراء منها الا بالقيود الالهية التي تسمى الاديان وها نحن اولاء نرى في اوربا وامريكا ان من الففلة ما هو مذهب ومن الرقاعة مذهب ومن تسفل الشهوات مذهب ومن الجنون مذهب ومن كل شلوذ مذهب ومن غير المذهب مذهب ايضا . .

تلك واحدة والثانية انهم ان ارادوا « بالمذهب الجديد » ان يكتب الكاتب في العربية منصرفا الى المعنى والغرض تاركا اللغة واثانها متمسقا فيها اخذا ما يتفق كما يتفق وما يجري على قلمه كما يجري معتبرا ذلك ذلك اعتبار من يرى ان مخه بلا غلاف من عظام رأسه وان عظام رأسه كعظام رجله وان اصابع قدميه كاهذاب عينيه وان مطلق التركيب هو مطلق النظام وان اللغة اداة ولا بأس بالاداة ما اتفق منها ولا بأس ان يمزج الجراح مرعا في جلد العليل بأسنانه او باظافره او بنصل الفأس . . ما دامت معقمة وما دام ذلك فعل المبضع بعينه لا يزيد المبضع عليه الا الدقة . . ان ارادوا بهذا واشباهه المذهب الادبي الجديد قلنا لا ثم لا ثلاث مرات .

فلما الاولى فان خيرا من ترك الجاهل في جهله ان يزجر عن جهله . واذا كان مذهب الضعف ان لا يحمل عليه الا بقدره وفي طاقته فهل يجعل ذلك اصلا للقوة ، والضعف ان هو الا استثناء منها ، وقاعدة الاستثناء ان يفيد بنصه ولا يتوسع فيه ؟

ثم ايما خير لآدابنا وعلومنا وكتبنا ؟ ان نحصر على الاصل الصحيح القوي الذي في ايدينا ونحتمل فيه ضعف الضعفاء ونصبر على مدافعهم عن افساده حتى ينشأ جيل اقوى من جيل وتخرج أمة خيرا من أمة فتجد الاصل سليما فتبني عليه وتزيد فيه . ام ندع الصلاح للفساد ونترأخى في القوة حتى تحول ضعفا فلذا جاء من بعدنا وجد الاصل فاسدا فزاده فسادا ويعود « مذهبا الجديد » بعد حين من الدهر مذهبا قديما

فيستحدث منه جديد على نمط آخر ثم يتقدم هذا أيضا على السنة نفسها وهلم الى أن تصير هذه العربية في بعض أزمانها لغة على كل أزمانها فتتسخ جملة واحدة ويصبح الكلام المانوس الذي نراه اليوم سهلا لينا وهو الجاني الجلف الغليظ الذي لا يترجمه الا عالم بصير بما كان يسمى من قبل فعلا واسما وحرفا . والا فليقل لنا أصحاب المذهب الجديد ما هو حد التجديد عندهم ولم يقصروا على حد معين بل كيف يقصرونه وفي الناس من هو اضعف من ضعيفهم فوجب ان يكون له جديد من جديدهم على مقدار ضعفه ما دام شكل القياس واحدا او القضية فيه واحدة .

واما الثانية فان هذه العربية لغة دين قائم على اصل خالد هو القرآن الكريم وقد اجمع الاولون والآخرين على اعجازه بفصاحته الا من لا حفل به من زنديق يتجاهل او جاهل يتزندق . فلذا كان المعجز في لغة من اللغات باجماع علمائها وادبائها هو من قديمها فهل يكون الجديد فيها كمالا ام نقصا ؟

ثم ان فصاحة القرآن يجب ان تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها الا بالمران والمزاولة ودرس الاساليب الفصحى والاحتذاء عليها واحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة اللوق فيها . وكل هذا مما يجعل الترخص في هذه اللغة واساليبها ضربا من الفساد والجهل فلا تزال اللغة كلها مذهبا قديما وانما يكون المذهب الجديد فيها رجلا الى حين . ثم يدخل مذهبهم معه الى القبر . وما عسى يصنع كاتب وعشرة ومائة والف في لغة ينبض على كتابها المعجز اربعمائة مليون قلب ؟ وكم من أسلوب ركيك او ضعيف او عامي ظهر في هذه اللغة منذ دونوا وكتبوا وكم من فكر فاسد او زائف او مدخول وكم من كتب كان يصلح ان يسمى بلغة اليوم مذهبا جديدا . فاین كل ذلك واین اثره في اللغة واساليبها بعد ثلاثة عشر قرنا ، لقد ابتلعت ثلاث عشرة موجة فانحدر الى اعماق الموت الطلمي .

على اني رايت لاصحاب « المذهب الجديد » اصلا في تلويخ الادب العربي كانت جذوره ممن انتحلوا الاسلام وهم يدينون بغيره وممن كفوا يدينون به وتزندقوا فيه حتى قال الجاحظ في بعض رسائله يعني هؤلاء وأولئك : « فكل سخنة عين رايناها في احداثنا واغبيائنا - (تأمل) - فمن قبلهم كان اولها » . ورحم الله ابا عثمان ان التاريخ ليعيد نفسه اليوم « بسخنة جديدة » . .

واما الثالثة فان الخاصية في فصاحة هذه اللغة ليست في الفاظها ولكن في تركيب الفاظها كما ان الهزة والطرب ليست في النغمات ولكن في وجوه تاليغها وهذا هو الفن كل الفن في الاسلوب لانه يرجع الى الذوق الموسيقي في حروف هذه اللغة واجراس حروفها . واشهد ما رايت كتابا واحدا من اهل المذهب الجديد يحسن شيئا من هذا الامر ولو هو احسنه لا تكشف له من احسانه ما لا يبتغي عنده شكافي ابطال هذا المذهب وتوهمينه . ولذا تراهم يعتلون للمذهب الجديد بالفن والمنطق والفكر وبكل شيء الا الفصاحة . واذا فصحوا جاءوا بالكلام الفج الثقيل والمجازات المستوخمة والاستعارات الباردة والتشبيهات المجنونة والعبارات الطويلة المضطربة التي تقع من النفس كما تقع الكرة المنفوخة من الارض لا تزال تنبو عن موضع الى موضع حتى تهمد .

ولا نريد ان نطيل في هذا الوجه فقد استوفينا اكثر الكلام عليه في الجزء الثاني من « تاريخ آداب العرب » وانما نقول ان الكلام الوحشي الغريب ينقسم الى قسمين : ما كان خشنا مستغربا لا يعلمه الا باحث مطلع ، وما كان مانوسا واقعا في غير موقعه كما نرى في اساليب بعض كتاب هذه الايام التي تنفجر بما لا يطاق على رقتها وتهب عليك هبوب النسيم ولكنه بين موضع وموضع لا بد ان يكتسب الارض . . .

فالقسم الاول نافر بنفسه فهو وحشي على حالة واحدة تختلف والثاني نافر بموضعه فهو وحشي يملو ويسفل على مقدار اضطرابه . ثم هي وحشية المذهب الجديد اختص بها ولا يكادون ينتبهون اليها .

هذه كلمة لم نعرض في اجمالها للتفاصيل وانما حذرناه حذراً وبعد
فلذا اردت تشبيهها لمخاصمة المذهب الجديد والقديم وما يتوهمه هذا
الجديد وما ينتهي اليه امره قلنا لك التمس رجلاً يرى ظل رأسه على
الحائط فيضربه برأسه الذي على عنقه . . ولكن اعلم انا وأياك الا نحذره
ونمتعه فقد جنينا عليه وان لم نمسه بأذى .

محمد صادق الرافي

المصدر : مجلة الهلال السنة /٣٢/ الجزء /٥/ فبراير ١٩٢٤

الخصومة

بين القديم والجديد في الادب

بقلم الدكتور طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

لقد اخذ النزاع يشتد بين انصار المذهب القديم وانصار المذهب الجديد في الادب . ففي الهلال المأهلي نشرنا للسيد مصطفى صادق الرافعي دفاعاً عن المذهب القديم بمناسبة ما كتبه عند الاستاذ سلامة موسى في سلسلة « الصور الموجزة لادباء مصر » . وعلى اثر مطالعة مقال الرافعي في الهلال كتب الدكتور طه حسين مقالاً نفيساً في « السياسة » ضمنه رايه في هذا النزاع وقد رأينا ان نثبته هنا لنفسه قال الدكتور طه حسين بعد مقدمة وجيزة :

الحق ان ميدان هذه الخصومة اوسع من مجلة « الهلال » وان ابطال هذه الخصومة اكثر من الاستاذين سلامة موسى ومصطفى الرافعي واذا كان الانسراف في استقصاء التاريخ والا نذهب بالقارئ الى ما بعد به المهد فقد يكون لنا ان نذكر القارئ بان مصدر هذه الخصومة في هذه الايام الاخيرة انما هي صحيفة الادب في « السياسة » ، ففي الصيف الماضي اشتدت الخصومة بين الاستاذ الرافعي وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها الى « السياسة » تحت عنوان « اسلوب في العتب » وذهب فيها مذهب المتكلمين من بعض الكتاب القدماء فانكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الاسلوب ، وكانت حول هذا الانكار خصومة طويلة انتهت الى الشتم والتناوب . ثم لم تكد تنتهي السنة الماضية حتى نشرت « السياسة » لكتاب ادب من كتاب فلسطين هو الاستاذ

خليل السكاكيني رسالة حول الاسلوب القديم والاسلوب الجديد وحول الایجاز والاطناب تناول فيها بالنقد كاتباً ادبياً من كتاب سورية هو الامير شكيب ارسلان ، فرد عليه الامير رداً طويلاً واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت الى شيء من العنف ليس بقليل ثم عرض الاستاذ سلامة موسى للاستاذ الرافعي في مجلة « الهلال » فعده مع الامير شكيب ارسلان من زعماء المذهب القديم و اشار الى الكاتب الاديب خليل السكاكيني على انه من انصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد في الادب ، ويخطيء من ظن ان هذه الخصومة ستنتهي غداً او بعد غد ، ويخطيء من سال نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة او السيئة ، فستستمر هذه الخصومة في الادب العربي كما استمرت في الآداب الاخرى وكما استمرت في الادب العربي القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التي انتجتها في كل زمان وكل مكان فينتصر جديد على قديم ثم يصبح هذا الجديد قديماً وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك ما دام اللغة العربية والآداب العربي حظ من حياة .



هذه الخصومة اذن مشروعه ، سواء اكانت نافعة ام لم تكن ، فليس الادب العربي بدءاً من الآداب وليس الادب العربي العصري بدءاً من الآداب العربية المختلفة . فليختصم الاستاذان سلامة موسى ومصطفى صادق الرافعي ، وليختصم الاديبان خليل السكاكيني وشكيب ارسلان ، ولكننا نظن ان من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين ان نسألهم : فيم يختصمون ، وان نطلب اليهم في رفق ولين ان يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من امرها ومن امرنا . فقد يظهر لنا الى الان ان هؤلاء المختصمين يختلفون في أشياء لم يستطيعوا بعد ان يحددها ، وآية ذلك أنك تقرأ مقال الاستاذ الرافعي فتجده يسأل ما

« المذهب الجديد » وما « المذهب القديم » ، ويحاول أن يتبين هذين المذهبين وما بينهما من فروق . ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود لما كلف نفسه هذا التساؤل ولما احتاج الى ان يكتب كل هذا الفصل الطويل . وقل مثل هذا في الخصومة بين الادبيين السكاكينى وشكيب ارسلان ، فهما يختلفان في الايجاز والاطناب والمساواة ، يرى احدهما ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد اليها اكبر الكتاب وارفهم قدراً منذ كان النثر العربي الى الان ، فمن الحق ان نتبع طريقهم في ذلك . ويرى الآخر ان الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه فلا ينبغي ان يعتمد اليه الكاتب ولا سيما في هذا العصر الا بمقدار والاحين تدعو اليه الحاجة الادبية . ويدور المختصمون جميعاً حول الدوق دون ان يحددوا هذا الدوق . اليس من حقنا ان نسألهم عن حد هذا الدوق ما هو وما حده وما الذي يريدون منه ؟ ولا تقل ان الاستاذ الرافعي قد اجاب على هذا السؤال ، فنحن نعتز بان جوابه ادق من ان نفهمه واشد غموضاً من ان نظهر عليه . وانظر الى ما يقوله في الدوق : « وانت تعلم ان الدوق الادبي في شيء انما هو فهمه وان الحكم على شيء انما هو اثر الدوق فيه وان النقد انما هو الدوق والفهم جميعاً . . . » نعتز باننا لا نفهم هذا الكلام ، بل نعتز باننا نعتقد ان هذا الكلام ليس من شأنه ان يفهم . فاذا كان الدوق الادبي في شيء انما هو فهمه واذا كان الحكم على شيء انما هو اثر الدوق فيه فكيف نستطيع ان نفهم ان النقد انما هو الفهم والدوق جميعاً ، ذلك ان الجملة الاولى صريحة في ان الدوق هو الفهم واذا فالدوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد ، واذا فليس شيئاً وانما هما شيء واحد هو الفهم ، واذا فالحكم اثر من آثار الفهم . والنقد هو الفهم ، واذا فالنقد والفهم والحكم والدوق كل اولئك شيء واحد تدل عليه الفاظ مختلفة . . . نعتز باننا لم نفهم هذه الجملة ولم ندقها ، واذا فنحن لا نستطيع ان ننقدها ولا نحكم فيها لان الدوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الدوق والفهم معاً وتستطيع ان تدور في ذلك ما شاء الله ان تدور . . . فما زال الاستاذ الرافعي مطالباً بان يوضح لنا نظريته هذه في الدوق ونحسبه يحتاج في توضيحها الى

مناء كثير ، ذلك انه يخيل اليه ان الدوق شيء والفهم شيء آخر وان من الاسراف ان نقول ان الدوق هو الفهم ، فقد نفهم اشياء كثيرة دون ان ندوقها ، وآية ذلك اننا نفهم كثيراً من كلام الاستاذ الراقعي دون ان ندوقه او نمجبه به . وربما كان لنا ان نذهب الى اكثر من هذا فنزعم اننا قد ندوق اشياء كثيرة دون ان نفهمها . واثبات ذلك ليس بالشيء العسير ، فما نظن ان الذين يدوقون الموسيقى يطربون لها يفهمونها جميعاً ، بل نعتقد ان الكثرة المطلقة من الذين يسمعون للموسيقى فيطربون ويتأثرون وينتهي بهم ذلك الى شيء يشبه الذهول لا تفهم الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الاخصائيون . فانت ترى ان الدوق والفهم شيئين مختلفان قد يجتمعان حينما تفهم قصيد من الشعر او فصلا من النثر وتعجب بهما وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ، ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين او قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين فتفهم النظم وتفهم النثر ولكنك تكرههما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون ان تفهم ما اراد الموسيقي .



وللاستاذ الراقعي في فصله هذا آراء كهذا الرأي محتاجة الى شيء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج الى شيء من التواضع قبل ان ينشر ويعلم الى الناس . انظر اليه مثلا يزعم ان المذهب الجديد في الادب ليس في حقيقة الامر الا نتيجة لضعف في اللغة والادب العربي وقوة في اللغة والادب والاجنبي . . . وان الذين يزعمون انهم من انصار المذهب الجديد انما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخلوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون سخيصة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وانكارهم للمذهب القديم ضرباً من الاعتزاز لانفسهم ولوناً من الوان الغرور بانفسهم ايضاً . . . نعتقد ان الاستاذ الراقعي سرف في هذا الحكم ولعل مصدر اسرافه في هذا الحكم ، ان

صحت نظريته السابقة ، انه اخطأ فهم ما يكتب انصار المذهب الجديد ، وهو انما خطأ الفهم لانه اخطأ الذوق او هو انما اخطأ الذوق لانه اخطأ الفهم ، وتستطيع ان تدور مع الاستاذ الرافعي حول الذوق الذي هو الفهم او حول المذوق الذي ليس هو الفهم والفهم الذي ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا معا وقد بلغ منكما الكلل والاعياء ، ولكن الاستاذ الرافعي معذور على كل حال فما كان له ان يحكم فيحسن الحكم دون ان يفهم ويدوق وهو يخطئه الفهم والذوق احيانا فتخطئه الاصابة في الحكم . ونظن ان للاستاذ الرافعي حظا من الانصاف وانه يرى معنا ان بعض انصار المذهب الجديد او الذين يسمون انصار المذهب الجديد قد اخلوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا باس به وان قوتهم في اللغة الاجنبية وآدابها لم تحملهم على ان يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطيعون ان يفهم الجاحظ كما يستطيعون ان يفهموا « فولتير » . والذن فلتنصر هؤلاء للمذهب الجديد ليس ضعفا وليس اعتذارا لانفسهم وليس تعصبا للادب الاجنبي الذي تفوقوا فيه . وما نظن ان الاستاذ ينكر على خصمه سلامة موسى انه يفهم الادب العربي كما يفهم الادب الانكليزي ، ويستطيع ان يحكم فيهما من فهم هو اللوق او ذوق هو الفهم او فهم ليس ذوقا او ذوق ليس فهما وما نظن ان الاستاذ ينكر علينا نحن اننا نستطيع ان نفهم الادب العربي وان نفهم الادب الفرنسي وان نحكم فيهما احيانا عن ذوق وفهم ، او عن فهم دون ذوق ، او عن ذوق دون فهم . . . ثم هب سلامة موسى وغيره من خصوم الاستاذ الرافعي وانصار المذهب الجديد ضعافا في اللغة العربية وآدابها ، اقوياء في اللغات الاجنبية وآدابها فهناك قوم ينصرون للمذهب الجديد وليس لهم من اللغات الاجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم وما ينشرون ، فما رأي الاستاذ في هؤلاء ؟ وما اصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغة الاجنبية ولا يتعصبون لها ؟ ثم ما لنا نذهب بالاستاذ بعيدا عن الموضوع الذي اتقنه وبرع فيه . فلسنا نشك في ان الاستاذ اتقن الادب العربي واحسن روايته وفهمه وتقليده واسرف في هذا التقليد وهو يناقض نفسه بعض المناقضة فيصرح بان العرب عرفوا القديم والجديد فكلن

القرآن الكريم جديدا وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوها وتجددت الآداب العربية غير مرة ، يصرح بهذا ولكنه في الوقت نفسه يزعم ان احداً من العرب وادبائهم لم يذكر مذهباً جديداً ولا قديماً ، واذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة دون ان يشعر العرب بهذا التجدد او شعر العرب بهذا التجدد دون ان يذكره .

والحق ان الآداب تجددت غير مرة وان العرب شعروا بهذا التجدد وانهم ذكروه واختصموا فيه كما يختصم فيه الاستاذ الرافعي واصحابه الآن ، وقد كتبنا في « السياسة » فصولاً طويلاً في العام الماضي فصلنا فيها بعض ما كان من الخصومة بين انصار القديم وانصار الجديد ايام بني العباس . واذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة « المذهب الجديد » و « المذهب القديم » فليس ذلك دليلاً على انهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكرهما ولم يختصموا حولها . وما معنى لفظ « البديع » ؟ وهل كان البديع جديداً ام هل كان قديماً ؟ وهل اختصم الناس حول البديع ام هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتلأ بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلوا فيه فرضي عنهم قوم وانكرهم آخرون ، ام هل قبله الناس جميعاً واخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ واذا كان الاستاذ لا ينكر ان العرب اختصموا حول القديم والجديد في الشعر وفي النثر فهل يستطيع ان يعلل لنا هذا الاختصاص ؟ فليس من شك في ان انصار الجديد من العباسيين مثلاً لم يكونوا ضعافاً في اللغة العربية وآدابها ولم يعتدروا لانفسهم عن هذا الضعف بتعلقهم بالجديد وغلوهم فيه . اكان ابو نواس ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ اكان ابو تمام ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ اكان المتنبي ضعيفاً في اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد ابو نواس وانتصر للجديد ، وقد جدد ابو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبي وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم فانتصر لهم قوم وسخط عليهم قوم آخرون ونستطيع ان نؤكد للاستاذ الرافعي ان الادباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية كما يفهمون الفرنسية وآدابها وكان منهم مع ذلك من يؤثر اللاتينية واليونانية ومنهم

من يؤثر الفرنسية وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين ، فليس المذهب الجديد قائماً على جهل أو ضعف أو تعصب وإنما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله . قائم على الفهم قبل كل شيء . قائم على أن الدين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالا يحسه أنصار المذهب القديم ويرون ما لا يراه أنصار المذهب القديم ويشعرون بأنهم يحيون فيريدون أن يأخذوا بحظهم في الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذي هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .



ورأي آخر للاستاذ الرافعي يحسن أن نناقشه ولو قليلاً . فهو يرى أن من الخير لأنصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد وأن يتعلموا الأدب العربي من جديد ليأخذوا منه بالحظ الوفور فيسلوكوا فيه سبيل القدماء ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا في اللغة والأدب ما ليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثه وهي ملك للملايين من الأعمار ولطائفة طويلة من العصور فيجب أن نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئاً من عند أنفسنا . ونحن نعتز بأننا نخالف الاستاذ كل المخالفة في هذا الرأي ونسمع لأنفسنا بأن نراه عقيماً ونسمع لأنفسنا بأن نزعج أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونستخدمها أداة للفهم والافهام حظاً يجعلها ملكاً لنا ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها كلما دعت إلى ذلك الحاجة أو قضت ضرورة الفهم والافهام أو كلما دعا إليه الظرف الفني . لا يقيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة التي تفسد اللغة إذا تجاوزناها . فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً أو ندخل فيها أسلوباً جديداً ما دام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا أصلاً من أصول اللغة أو يخرجاً بها عن طريقها المألوفة ، ولولا هذا وأن اللغة ملك لابنائها يضيفون إليها ويدخلون فيها لما نمت اللغة ولما عاشت ولما استطاعت أن تفي بحاجات أهلها التي تتجدد وتتغير وتتجدد الأزمنة وتبدل الظروف . والكتاب

والشعراء في كل عصر وفي كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها فمنهم من يسعده الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهاكون عليها حتى تشيع وتصبح جزءا من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما أدخل ولا بما أضاف .



ومما يحسن أن ينبه إليه الاستاذ اليرافعي في رفق ولين أيضا أنه يسرف في سوء الظن بأوروبا وأمريكا وفي سوء الحكم عليهما ، ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوروبا وأمريكا ولا يفهمها ولا يذوقها فهو يخطيء في الحكم على أوروبا وأمريكا . وهو مسرف حين يظن « أن في أوروبا وأمريكا من الغفلة مذهباً ومن الرقاعة مذهباً ومن تسفل الشهوات مذهباً ومن الجنون مذهباً ومن كل شذوذ مذهباً من غير المذهب مذهباً . . . » هو مسرف في ذلك فليست أوروبا وأمريكا من السوء بحيث يظن ولو قد بلغنا من السوء هذا الحد لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله . ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها في أوروبا وأمريكا ليس شيئا جديداً وإنما هو شيء عرفه الإنسان منذ تحضر ومنذ فكر ، ويسوءنا أن نقول إن الإنسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضا فما استطاعت الديانات أن تقضي على اختلاف المذاهب ولا استطاعت اختلاف المذاهب أن يقضي على الديانات وإنما الإنسان إنسان فيه الخير وفيه الشر ، فيه الإيمان وفيه الإلحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الإباحة التي لا حد لها وفيه التحرج الشديد . والاستاذ اليرافعي كغيره من أنصار المذهب القديم مشفق كل الإشفاق على القرآن الكريم وعلى الإسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم . ونظن من السخف والأطالة التي لا تجدي أن نهون على الاستاذ ونهديء من روعه فليس ما يدعو إلى هذا الإشفاق ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين في نصره نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه

الاستاذ وأصحابه ويلبسونه . ذلك ان مذهبنا الجديد لا يقتل اللغة
ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها وانما يريد ان
تكون اللغة حية نلمية . ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ومن
ذكر التطور وآمن به فهو من انصار المذهب الجديد سواء ارضي ذلك
أم انكره .

طه حسين

المصدر : مجلة الهلال . المجلد / ٢٢ / ١ / ١ / ١٩٢٤ .

الجملة القرآنية

شكيب ارسلان ١٨٦٩ - ١٩٤٦

حضرة الاستاذ العبقري ، نابغة الادب ، وحجة العرب ، السيد مصطفى صادق الرافعي ، نفع الله به .

اراك قد استغربت قول احدي الجرائد العربية الصادرة في امريكا انك لو تركت « الجملة القرآنية » والحديث الشريف لكنت الآن الرجوع الذي لا ينزع ، ولبد مذهبك في البلاغة المذاهب كلها من قديم وحديث .

ويحق لك ولغيرك وايم الله ان يستغربوا هذا التمني الدال على مرض روعي عند بعض الناس لانه قد يجوز ان انسانا لا يعتقد بتنزيل القرآن ولكن لا يوجد عربي سليم اللوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول (ص) ولعبري ان الامر لكما قل ذلك الذي سألته سائل : هل يقال « فاذاقها الله لباس الجوع » فاجابه : ويحك ، هبك تنهم محمداً انه لم يكن نبياً اتهمه انه لم يكن عربياً .

ولكنك لم تلبث ان فهمت مغزى هذه النزعة الغربية ، وعبرت مما ظهر في تلك الجملة الموجزة من المرامي والمقاصد البعيدة ، فقلت وانت سيد القائلين « فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم اكن اراه من قبل حتى لكانها (المكروسكوب) وما يجهر به من بعض الجرائم مما يكون خفياً فيستعلن ودقيقاً فيستعظم وما يكون وكأنه لا شيء ومع ذلك لا تعرف العلل الكبرى الا به » .

نعم ان وراء الالكمة ما وراءها وان هناك دبائس خفية تظهر بعض اطرافها في هذه الجملة . ولكن دعني اقول لك انه ليس مرادهم العدول الى الركاة ولا مناصبة القرآن العداوة لمجرد كونه فصيحاً . وليس الامر من قبيل ما ذكره احمد فارس في (الفاريق) من ان بعض خدمة الدين معن كان يتكلم عنهم يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل اللبغ . ولا هو من نمط ما وراءه في (كشف المخبا عن فنون اوربا) من انه كان يعرب التوراة وهو في انكلترا فكان يقف على الترجمة العربية قسيس انكليزي شدا شيئا من العربية فكان كلما رأى لاحمد فارس جملة شم منها رائحة الفصاحة مسخها واستبدل بها جملة ركيكة . فكان الشدياق يعجب من امره وقد نقل عنه من هذا النسق جملا يستغرب لها الانسان من الضحك اذ يرى كيف كان ذلك القسيس يعتمد قلب العالي بالساقط والجيد بالردل تعمدا ويتهافت على الركيك تهافت اللب على الحلواء ويصرح بأنه انما يتوخى بذلك ابعاد الكلام عن شبه القرآن .

كلا يا أيها الأخ ، ان هذه الفئة لا تمج الفصاحة من حيث هي ، ولا تدين بالركاة التي كان يذنب بها فسوس احمد فارس فيسخر بهم ما يسخر ، ولا تحارب اللغة العربية نفسها ، ولكنها تحارب منها القرآن .

ان هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الاسلامية وتريد ان تتبدل بها كلام الجاهليه وكلام فصحاء العرب حتى من المخضمين والمولدين وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية . وهذه الفئة قد تعددت غاياتها في هذا المنزع ولكن قد اتفقت في الوسائل . فمنها من لا يجهل بلاغة القرآن وجزالته وكونه من العربية بمنزلة القطب من الرحي ، ولكنه يدس الدسائس من طرف خفي لا قصائنه عن دائرة الادب العربي وتزهيد الناشئة فيه بحجة كونه قديماً وان كل قديم هو بال . حتى اذا اثم لهم ما يبتغون من غض مكالمة القرآن في صدور الناس يكونون قد طعنوا الاسلام طعنة سياسية في أحشائه . . . على حين هم يزعمون ان الموضوع موضوع ادبي لغوي لا مدخل للسياسة فيه فيزلقون بهذه الدعوى المدحاض كثيرين ممن لو تفتنوا لما وراء هذه الدعاية البارزة في زي لغوي ادبي من المآرب

السياسية الخبيثة لكانوا منها على حذر بل لا تقبلوا عليها وصاروا قرآنيين . ولكن مع الاسف نقول ان الحوادث الاخيرة لاسيما ما جرى قبيل الحرب الكبرى الى ما بعدها قد اثبتت انه مازالت هناك فئة تلعب بفئة وتسوقها الى حيث تريد فلا تستفيق هذه من سكرتها الا وقد قضى الامر الذي فيه تستفتيان وهذه الدسياسة التي ظهر لكم مكنونها من جملة واحدة ان هي الا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود منها الاسلام لا القرآن من حيث كونه قرآنا ولا الفصلحة من حيث كونها فصاحة .

ولقد أشرتم الى ذلك من مقالكم الجليل فقلتم « لا أعرف من السبب في ضعف الاساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها الا واحدا من ثلاثة : فأما مستعمرون يهدمون الامة في لغتها وآدابها لتتحول عن اساس تاريخها الذي هي امة به ولن تكون امة الا به ، وأما النشأة في الادب على مثل نهج الترجمة في الجملة الانجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ، وأما الجهل من حيث هو الجهل او من حيث هو الضعف » .

فانا اقول ان الوجوه الثلاثة متوفرة في السبب ، ولكن الوجه الاول هو اقواها . واصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الامة في لغتها وآدابها خدمة لمباديء الاستعمار الاوروبي ، ومنهم من يشير باستعمال اللغة العامية بحجة انها اقرب الى الافهام ، ولكن منهم من لا يحاول هدم الامة في لغتها وآدابها لا حبا باللغة والآداب ولكن علما باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم . ولذلك ترى هؤلاء دعاة الى اللغة والآداب على شرط ان لا تكون ثمة قرآن ولا حديث وان تكون الصبغة لا دينية ، وحجتهم في ذلك حب التجدد وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلها من القديم الذي لا يتلاءم مع الروح المصرية في شيء . وآخرون حجتهم في ذلك النزعة القومية التي يزعمهم تناقض النزعة الدينية ، واصحاب النزعة القومية هؤلاء يقولون انها من باب التجدد وان روح القومية هي السائدة في هذا العصر . فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان . فأما اذا سألهم سائل قائلا : انكم انتم من دعاة التجدد من قراء الآداب الاوروبية لا تنكرون ان كتاب اوربا اليوم من فرنسيس والمان وانلكيز وطليلن واسبانيول وروس النخ الخ انما آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كال يونانية واللاتينية

وإن آيات التوراة والانجيل تدور على السنتهم وأقلامهم جارية فيها مجرى
الامثال لا يكاد يخلو من خطاب ولا كتاب ، حتى أن المنفضين منهم من
العقيدة يتكلمون بلغة الانجيل والتوراة وهذا كلمنسوا الذي لا يوجد حرب
على الدين أشد منه كان يجاوب بعض من اعترض عليه من أجل بعض
نقاط في معاهدة فرساي قائلا : ادخلوا في فرح المعاهدة تجدوها كما
تريدون . ومعلوم ان جملة « دخل في الفرع » هي آية انجيلية ادخل في
فرح سيدك وهذا شيء لا يمكن ان يحصى الا اذا احصيت رمال يبرين .
وانما نريد ان نثبت به كون التجدد والمعاصرة لم يمنعا بقاء لغات اوربا
وآدابها على صبغتها القديمة وماخذها من التوراة والانجيل ومن شعراء
يونان وخطباء رومة وإن ادباء اوربا في هذا العصر يستهجنون اختراع انشاء
جديد واسلوب غير مألوف ويحسبونه مخالفا للدوق ويتمثلون بمعان غابرة
لم يبق لها اثر . انظر هل بقي اثر للقوس والنشاب في اوربا وهل يوجد
أصرق في القدمة من القوس والنشاب والى هذا اليوم يقولون
il fait glechie de tout bois وترجمتها : ياخذ نشابا من كل خشب .
ومرادهم بها انه يستعين بأي قوة حصلت في يده . افتراهم وقد ارادوا
مراعاة الاحوال العصرية يقولون : يعمل بندقية من كل حديد . أو : يصنع
قنبلة من كل ديناميت . كلا لا يقولون ذلك ولا يرون الخلط بين العلوم
والآداب ولا يجدون التجدد في الفنون والصناعات داعيا الى تغيير اسلوب
الكتابة بحجة ان هذه التعابير كانت يوم لم يكن تليفون ولا تليفون ولا أشعة
رونجن . أفرايت كتابا اوروبيا يقول : طقت بمنطاد الفكر في سماء
الموضوع ، كلا ولا ما أشبه ذلك . ولا ينكر انه قد جدت في أوربا فرائد
وجمل لم تكن مألوفة في العصر السابقة كما جدت ايضا اصطلاحات في
كل عصر من اعصر اللغة العربية فليس جميع ما اصطلح عليه الناس في
ايام العباسيين كلن معروفا في صدر الاسلام أو في الجاهلية ، ولكن كل
ما يتجدد هنا أو هناك لابد من ان يرجع الى نصاب اللغة وينزل على
حكمها ولن تترك اللغة فوضى لا في شرق ولا في غرب . طالما ترنحت الاعطاف
عند ذكر الكاتب الفرنسي العظيم اناتول فرانس الذي توفي منذ بضعة اشهر ،
وكلن هذا الكاتب هو الصدر المقدم في الانشاء عند قومه لا يرون احدا في

منزلته بعد رنان وكان مما تميز به النزوع الى المذاهب الاجتماعية الجديدة والغلو في كره العقائد الدينية والعادات القديمة والنفور من النصرانية باجمعها حتى لقد صفة كثيرون مع الشيوعيين . وبالرغم من هذا فقد اتفق جميع من ترجموه لادن وفاته حتى من ادياء الفئة الاشتراكية والشيوعية على انه كان في إنشائه اصوليا استلذا مقلدا يحلو حذو راسين الشاعر الذي عاش قبل هذا العهد بمائتي سنة وانه حافظ على الطريقة الكتابية الاصولية المسماة عندهم « كلاسيك » اي الطريقة المدرسية وقيل للكاتب المشهور موريس بارس - وكان من انصار الديانة والكنيسة - افلا ترى مبادئ انتول فرانس وغلوه في الاشتراكية الخ ، فاجلبهم : قولو فيه من هذه الجهة ما شئتم الا انه حفظ اللغة . وهي جملة شهيرة يحفظها الجميع عن بارس .

نعم يقدر العربي ان لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلما ، ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف ، لانها هي الطبقة العليا التي تصح ان تكون مثالا . ولكن ليس هذا مراد هذه الفئة التي تريد حربا وتوري بغيرها تبغي نقض قواعد القرآن - التي هي السد الامني الحائل دون الاستعمار والثقافة الافرنجية بفروعها - وتأتي ذلك من طريق نبد القديم والبالي والاخذ بالجديد والحالي ، ولا يوجد مع الاسف كثيرون ممن ينتبهون لهذه السفسطة ويعلمون مرمى هذه الدعاية به ان كثيرا من ناشئتنا ومن علمتنا هم من فح الى فح ومن حملة هذه الاشراك ان القرآن حائل دون القومية العربية لا يفسح لها مجالا فتراها ينصبون له العداوة وامراض العقول كثيرة كأمراض الابدان ولكن امراض القلوب هي التي لا حيلة فيها . . . هذا وا بعضا من ادعياء الجديد - لا دماء الجديد - لا يحاربون القرآن ولا الشرع عن بحث وتدقيق ومقايسة ومقابلة يتبعون المعقول قديما كان او جديدا ويرتادون المفيد معرقا كن او محدثا كلا ، بل هم اختاروا مذهبهم من قبل فرجحوا كل جديد كينص كن وبدون محاكمة ، وذلك ليقال انهم رقا مصريون ، اما نظرية اخذ الاحسن من كل شيء واختيار الاوفق من ي جهة جاء فهذه ليسوا منها بسبيل ، وانما يؤثرون الشيء اذا علموا ان بعض الافرنجة اخذت به .

ولما وافقت هذه الفئة في تركيا على منع المسكرات لم يكن السبب في هذه الموافقة ضرر المسكرات او النهي الشرعي بل حرموا الخمر لمجرد كون امريكا حرمتها !

وخذ لك هذا المثال :

كنا في مجلس المبعوثين في الاستانة وكان زملائنا زهرا ب افندي الارمني الشهير ولم يكن علمه وذكاؤه باقل من شهرته وكان يصعب على مبعوث مهما كان قوي العارضة فاطح الحجة ان يخاصم زهرا ب لاسيما في التشريع . فاتفق ان بعض مبعوثي الترك من الموالعين بالجديد - لمجرد ادعاء الرقي المصري - اختلفوا مع زهرا ب في سن مادة قانونية ، فعدوا لها مجلسا خاصة وانبرى لزهرا ب اثنان من هؤلاء المصريين يجادلانه ويحاولان ان يحملاه على رايهما فبعد حوار طويل تغلب زهرا ب عليهما والزمهما بالحجة ولم يبق امامهما الا السكوت . الا ان زهرا ب اخطا في شيء وهو عدم معرفته عقلية هذه الفئة فبعد ان اخرسهما في الجدل عاد فقال لهما : وهذا ايضا وفق احكام شريعتكم (الاسلامية) التي تقول كذا وكذا . حدثنا الفلكي الرياضي فطين افندي مدير مرصد الاستانة : انه لما قال لهما زهرا ب هذا القول عادا فنبرا بغتة قائلين : اذا كان الامر كذلك فلا نقبل هذا الرأي . ومن بعد تلك الفتنة لم يعد زهرا ب قادرا ان يفتنهما بوجه من الوجوه فليس صواب الشيء وعدمه هو الحاكم عند هذه الفئة بل هو مصدر الشيء بدون نظر الى اي اعتبار آخر فان علموا كونه آتيا من طريق الدين او ملائما لحكم وارد في الشرع استمروا مذاقه قبل ان يلقوه ، وليس هذا منحصر في الترك وفي الفئة الثورانية منهم بل عندنا نحن من هذا النخل فسيل في مصر والشام وغيرهما .

وباليتك ترى هذه الفرقة على شيء من التحقق بالجديد فيما يلزم فيه الاخذ بالجديد من علم نافع او فن مفيد او صناعة دارة . فان العلم لا يجب ان يكون فيه قديم وجديد بل هو اصل يتفرع منه فروع كل يوم يتحت على الانسان ان يتبعها كلها ناظرا الى حقيقتها وصدق تجربتها وفائدتها للاجتماع .

كلا يدعيان قلماً رأيت من هذه الفرقة الا الادعاء الفارغ والتزوع الى
الثورة على ما يسمونه بالقديم وهم ينسون ان هناك مبادئ ثابتة وبديهيات
ليس فيها قديم وجديد وان الاثنين والاثنين اربعة من مائة الف سنة
فلا تدرك ان نعمل على ذلك ثورة وان المقولات العشر مما لا تتناوله الثورة
وان الثورة انما هي واجبة على الجاهل والوهم لا على الحق والعلم . وان
العلم لا يكون قديماً وان الادب لا بد ان يراعى فيه ذوق الامة وتاريخها
وعاداتها وعرفها وانه ليس بتجربة كيمائية .

هذا يا اخي هو المرمى الصحيح ممن اخذ عليك « الجملة القرآنية »
فاما الفئام الاخرى ممن عجز عن الفصيح فابفضه ممن يستأنس بالركيك
لانه هو الشيء الوحيد الذي يقدر عليه فهذه خطبها يسير وقلعتها اوهى
من ان يحمل مثل قلمك عليها .

لوزان : ٨ فبراير سنة ١٩٢٥

شكيب ارسلان

الادب واللفة القديم والحديث

محمد حسين هيكل

١٨٨٨ - ١٩٥٦

٢

لوت مسألة القديم والحديث مرة اخرى . وتلك مسألة اذا ثلوت لم يكن يسيرا ان تهذا . فهي عند بعض الكتاب صيحة حرب لا تلبث ان ترتفع حتى يهرع من يسمون انفسهم انصار القديم الى صفه القديم ينصرونه ، ومن يسمون انفسهم انصار الحديث الى صف الحديث يعزونه . واذا انتظم الكتاب صفوفا للنضال عن كتابتهم فويل للمحابر والافلام وويل للأوراق والصحف . اما القراء فلهم البشرى . ان لهم من ميدان هذه المعركة خير منظر تتراشق فيه الحجج مطمئنة تلو محتدمة طورا وتتجاوب الادلة مستقيمة حينما ملتوية احيانا . وما بالك بقوم يدفعون عن وجوبهم ويلبسون عن كيانهم . اوليست الكتابة حياة الكاتب . فدفاعه عنها دفاع عن الحياة . واذا كان المزارعون من اهل الريف ينشب احدهم اظافره في عنق جاره حتى ليقضي عليه ان حاول ليصد الماء عن مزرعته فان للكاتب بديلا من اقلامهم عن الاظافر يدودون بها عن حياض حياتهم كما يدود المزارع عن حوض حياته .

ومن العجب في امر معركة القديم والحديث التي تنشب هذه السنين ما بين آن وآخر في مصر انها تنشب بين اقوام يعلنون جميعا انهم على اللغة العربية وقوامدها حراس ، في حين ان قوما آخرين لهم بين كتاب

العربية اسم ومقام ولهم فيها تواليف ورسائل وغرضهم الظاهر في كتاباتهم العدول بالعربية عن أصولها وقواعدها وأساليبها وألفاظها ، بقون بعيدين عن المعركة ينتظرون ما ينجلي عنه غبارها ، آملين أن يكون لهم من ورائها مغنم . وهل رأيت الريحاني أو جبران خليل جبران أو من شائعهم يعيرون اعتراض أنصار القديم أو أنصار الحديث عنية أو التفاتنا . أم هم كأنما يقولون في سخرهم المطمئن وازدراءهم للمتنازعين: أولئك أقوام تطلقوا بالقشور دون اللباب . فليظفوا في معاركهم حول الألفاظ والتراكيب فلن يكون لهم من ورائها إلا التناحر . يومئذ يكون لجديدينا نحن ، هذا الجديد الممتلئ حياة وقوة ، هذا الجديد الشائر على أمة العرب العتيقة المتهمة ، هذا الجديد الطامح إلى حياة الغرب وعلمه وأدبه ، بل الطامح للفظه أن أتبع له بلوغه ، يومئذ يكون لجديدينا نحن الفوز على حين يبقى هؤلاء في معاركهم التي تنشب لغير غاية ، وتنتهي إلى غير نتيجة . وينجلي غبارها عن غير فكرة جديدة ، أو أمل في التقدم نحو فكرة جديدة.

هكذا من المعجب حقاً . فأنصار القديم هم الأساتذة : صادق غير ومصطفى صادق الرافعي والشيخ علام ومن نحا في أسلوبهم نحوهم . وأنصار الحديث هم الدكتور عزمي والدكتور صبري وأخوانهم . فلن نسل ما قديم أولئك وما حديث هؤلاء ترى المقالات تواجه المقالات والرسائل تنقض الرسائل . لكنك ترى هذه المقالات والرسائل جميعها مكتوبة بأسلوب عربي مبين . لم يصفع أحدها قواعد النحو والصرف بما تصفها به رسائل الريحاني وجبران . ولم تتركه الألفاظ خلالها حتى لتراك في حيرة قبل أن تصل إلى ما يريد أصحابها منها . فقيم إذن هذه المعارك يحتدم فيها الجدال وترتفع فيها جلبة الألفاظ وضجيجها حتى لتشبه فرقة البارود وقمعة السنان ؟

ما القديم وما الحديث ؟ مسألة يجب حلها لمعرفة حدود الخلاف بين الفريقين . فهل القديم في اللغة والأدب ما يرجع عهداً إلى عصور الجاهلية الأولى . أم هو ما اجتمع أيام حضارة العرب إلى حين بدأ

التدهور في أدبهم بعد أن تدهورت سيادتهم واستمجت حصارهم .
 ما نطن احداً ممن يسمون أنفسهم أنصار القديم يريد قصر اللغة والأدب
 في عصرنا الحاضر على ما كانا عليه في الجاهلية الأولى . فهل يقول لنا
 أحدهم بعد هذا أي لغة وأي أدب عربي يفضل ؟ ما نخالهم ينكرون
 لغة امرئ القيس وأدبه ليست لغة أبي النواس وأدبه . وإنك لتقرأ
 المعلقات وما عاصرها فتري فيها شيئاً غير الذي تراه في شعر العباسيين
 أو في شعر الأندلسيين . وإنك لتقرأ نثر الهمذاني فتراه غير نثر الجاحظ
 وغير نثر ابن المقفع وغير نثر أبي الفرج صاحب الأغاني . ثم أنت إذا
 عدلت عن الشعر والأدب إلى الفلسفة والتاريخ رأيت في رسائل الفلأبي
 وفي كتب ابن خلكان وابن خلدون صوراً من النثر متباينة . فمن أي
 الصور في النثر والشعر يرضى أنصار القديم ؟ وأي هذه الصور في نظرهم
 هي المثل الأعلى للغة وللأدب ؟ وهل يرى أحدهم أن يقف في أدبه وكتابه
 عند ما اشتعلت عليه ؟

كذلك ما نطن احداً ممن يسمون أنفسهم أنصار الحديث ينكر على
 هذا الميراث العربي في اللغة والأدب مجده وعظمته . بل ما نطن احداً
 منهم ينظر إلى ثورة التجديد التي يحمل لواءها جبران خليل جبران
 وأصحابه بعين مطمئنة . ومهما يعجب أحدهم بما تنتجه مدرسة الثورة
 هذه من بعض الثمرات ، ومهما يجد في مثل كتاب الإجنحة المتكسرة
 من فيض الخيال الشعري ، فكل واحد منهم جد حريص على بقاء الصلة
 بين الحاضر والماضي وثيقة متينة . ذلك بأنهم يعلمون أن كل حاضر
 لا يتصل بالماضي وشيك التوال .

قيم الخلاف إذا ؟ الخلاف في رأي أنصار القديم أن هؤلاء «المحدثين»
 قد انصرفوا عن العرب وأدبهم إلى الغرب وأدبه . وأنهم لذلك جهلوا
 من أساليب العرب أفصحها لفظاً وأبلغها عبارة واكتفوا بالقليل الذي
 هرسوا في مكاتبهم وحاولوا اكراه هذا القليل على احتمال ما امتلات
 به رؤوسهم من العلوم الحديثة فنزل بهم ما عرفوا من اللغة وأساليب
 الأدب إلى الاضطراب والركاكة . والخلاف في رأي أنصار الحديث أن

هؤلاء « الأقدمين » حبسوا أنفسهم في غيابات الماضي ووقفوا من الألفاظ ومعانيها والعبارة واتراكيبها موقف العرب ، جاهلين أو ناسين أن اللغة مظهر من مظاهر الحياة ، وأنها لذلك يجب أن تحتل أداء كل ما يريد الأحياء من صور ومعان على الوجه الذي يريدون أدائه به . فوقف بهم ذلك عن مجاراة الحضارة الحاضرة ، وعجزوا عن أداء ما تريده الحياة من صور هذه الحضارة ومعانيها .

والئن صدق هذا التصوير فالخلاف ليس بين القديم والحديث ، والقديم والحديث لا يمكن أن يكون بينهما خلاف ، وإن كان أبداً بينهما اختلاف . بل الخلاف بين أدب اللفظ وأدب الفكر . فالذين يسمون أنفسهم أنصار القديم يريدون البقاء في دائرة حضارة العرب يستعمرون تصوراتهم للأشياء وتصويرهم أياها بالألفاظ ، يعملون على إكراه الحضارة الحالية في قوالب الحضارة العربية . والذين يسمون أنفسهم أنصار الحديث يحاولون الفرار من بيت الحضارة القديمة ويعملون على أن يخلقوا لما أنشأته الحضارة الحديثة قوالب جديدة من اللفظ لا تتفق وما يرضاه فقه اللغة العربية وسرها .

مثل هذا الخلاف يرجع إلى قيام طائفتين مختلفتين في كل منهما واختلفت ثقافتهما عن الأخرى ، فتعذر عليهما التعاون الواجب لخلق روح قومية للثقافة والأدب . ولن يزال هذا الخلاف ما بقي الاختلاف بين الطائفتين في التهذيب والثقافة وما بقيت الأمة في علمها وأدبها كلا على سواها وعالة على غيرها . فيظل « الأقدمون » بين جدران قصور الماضي المجيد بحضارته وأدبه معجبين بمخلفاته ، ناسجين ثمرات أفهامهم وخيالاتهم على منواله ، قنعين بالنظر إلى الحاضر وأعماله وآماله من نوافذ هذه القصور ، فرحين بما قد يجدونه فيه من مشابهاة لما عندهم ، مؤمنين بأن ما لديهم خير وأبقى ، وبأن ما يرون من سناء والآلاء ليس إلا خلباً من برق وسراب من آل . فلذا حسن ظنهم بالحاضر قالوا إنما هو فروع هذا الجذع الذي جمعنا حوله وأوجب علينا أن نزيده قوة وصلابة.

ويظل « المحدثون » في فضاء الحاضر الحر الدائم مأخوذون بما أبدع الغرب فيه من ثراء وغنى في الحكمة والعلم والشعر ، ممثلة نفوسهم بمحبته وإجلاله ، متمثلة كل ما فيه من بهاء لا يبلى ، وجدة لا يهرمها شتاء حتى يعقبه ربيع أكثر بهاء وجدة . فلذا أدركوا رؤوسهم إلى قصور « الأقدمين » التي منها درجوا حاولوا أن يتصل ما بين كنوزها وهذه الحضارة الجديدة . فان تبسرت الصلة الصحيحة فذاك . وإن لم تتيسر فلا ضير أن تكون صلة أقل صحة ملائمت ترضى منهم هوى النفوس وتتكفي عندهم لبوسا للمعاني الجديدة والصور المستحدثة .

والحق أن اللغة العربية على ما خلفتها حضارة العرب كثيرا ما تستعصي على صور هذه الحضارة الحديثة . وليس عليها في ذلك ذنب ، وليس في طبيعتها دون الوصول إليه عجز . ذلك بأن اللغة أداة إن لم يدم صقلها بعلاها الصدا ، ثم كان فيها تناقل عن السير المظلم إلى حيث يحتاج إليها الدهن الفياض بمعان وصور جديدة . ولقد يبلغ من صدها أن يقبرها . وهذه الهيرودوتية واليونانية القديمة واللاتينية والاشورية وما إليها من لغات ، حملت أسمى صور الحضارة الإنسانية القديمة ثم أهملت فصارت قبورا لهاته الصور ، ينش العلماء اليوم لاستخراج ما تحتويه من كنوز ودفائن تضيف إلى سلطان الحاضر وعظمته سلطانا وعظمة . ولا ريب في أن اللغة العربية تنطوي من الكنوز على ما لو اطلعت عليه جميعا لوقفست أمام جلاله وبهائه مبهورا مقدسا . وذلك سر سحرها الأقدمين وأخذها أياهم عن أنفسهم . لكن اللغة العربية كائن حي لا تزال ولن تزال . وكل كائن حي لا يستطيع القيام دون الاشتراك مع سائر الكائنات التي تتصل به اشتراك تعاون وتنافس . وقد هدمت منشآت الحضارة الحديثة ما بين الدول من حدود وما كل يحيط بشمرات الفكر من قيود . فأصبح العالم كله كتلة واحدة ذات حضارة واحدة . وأصبحت عقول السكسون والجرمان واللاتين والعرب والهندوس والصين تتجلبوب ثمراتها وتتنافس آثارها وتتجاذب في نضال وتضامن . وأندفعت الأسم العربية واللغة العربية ، حتما مقضيا ، تغامر في المضمار وتعد كاهلها لاحتمال حضارة الإنسانية كلها بكل ما فيها من علم وفن وأدب . ولا مفر لها من أن يبلغ

اصفو صقالها ما يجعلها في حملها حضارة العالم تعدل كل لغة من لغاته .
فلذا اتاح القدر لاهلها ان كان لهم على الحضارة القلب يوما كانت بين
اللغات جميعا زينة وسحرا وبهرا .

ولعل هذه المعارك القلعية التي تنشب بين « الاقدمين » و « المحدثين »
أحدى الخطى في سبيل هذه الغاية . « فالأقدمون » يريدون ان يمسكوا
« بالمحدثين » لكي لا يندفعوا الى ما يندفع اليه الريحاني وجبران خليل
جبران . و « المحدثون » يحاولون ان يخرجوا « الاقدمين » من غياهبات
الماضي الى نور الحاضر وحرارته .

وذلك نضال غايته الكمينه حراس الطائفتين على التضامن والتعاون
في الحياة القومية لتؤدي كل ما أوجبه عليها الحياة لخير الانسانية جميعا .

لكن هذه المعارك لا تزيد على انها خطوة ضيقة . ودونك تلك الغاية
السامية تموزه خطى المعالقة وجهود الفحول . هؤلاء المعالقة الفحول
هم النوابغ يقف الواحد منهم من قومه موقف الهادي تتعلق به الأنظار
وتنفث لعلاته الأفتدة والقلوب . يعتصر ذهنه الفرد لب الحضارة جميعا
وينفثها من دوحه القوى في احاديث وقطص او في قصائد منظومة او في
كتب علم وفن ، فيتلقاها عنه قومه وقد لبست الفاظه ثيابا من المعاني
يجب ان تقرها معاجم اللغة راضية او كلرهة . ولهذا النابغة يخضع
« الاقدمون » و « المحدثون » جميعا . ليكون في عبورته ما فيها على قواعد
اللغة من خروج وشدوذ ؛ هي لغة الحضارة وروح العصر ؛ هي الجواب
الكافي لحاجة في النفوس تتطلع لسدها ؛ هي الاداء الصحيح لما يجول
بخاطر الانسانية من المعاني . والانسانية ميراث متجدد يسفر كل صباح
عن حظ منه جديد . فاللغة التي تؤدي حاجة الانسانية وما يجول
بخاطرها لا يمكن الا ان تكون الثمرة الناضجة لهذا الميراث والجماع الكامل
لكل ما كدسه الوجود من علم وروم ومن حس وتصور .

متى يتاح للغة العربية امثال هؤلاء النوابغ الذين ينشئون الادب

القومي ، ويفرغون في قوالبه المصقولة حضارة الانسانية بكل ما تنطوي عليه ؟ في ذلك سؤال جوابه للزمن . لكن اهل هذه اللغة بحاجة الى مجهودات صالحة يقوم بها المثات والالوف من ابنائها في مثابة وجد لاجتناء ثمرات مجهودات الاسم الاخرى وبثها في جو البلاد العربية . سيجد هؤلاء المثات والالوف من مجهودهم مشقة وعناء ، وسيقع بعضهم اعياء ويفر آخرون ياسا . لكن الحضارة شجرة من الاشجار الضخمة العظيمة الجذع التي لا تسرع الى المظهر والنمو ولكنها تسير في سبيله بمقاومة كل صعب متغلبة على كل عقبة ، وتبدو اول ظهورها ضئيلة لا يطمئن من لا يعرفها الى انها بالغة ما يبلغه امثالها من ضخامة وعظمة ، ولذلك يصد عنها ولا يعنى بتعمدها . وهذا هو شأن الكثيرين من اهل الشرق اليوم . اولئك يريدون المعالجة فيهيمنون باقتطاف زهر النبات الضعيفة سواقه السريع انقضاء اجله . وهم يكتفون بتفنى ظلال جدوع سقطت اوراقها وجفت اغصانها . اما ذرو العلم فلا يثنيهم عن تعمدها بحز ولا طمع . فلذا هي اوقت كان من ثمرها قطاف النابغة الهادي .

يوم يقيم النوايغ الادب القومي ، بعد ان ينشبر المجاهدون العلم والثقافة القومية ، تنتقل المعركة من ميدان القديم والحديث الى التنافس حول الكمال والقرب منه والابتعاد عنه ، ويومئذ يتشعب الكمال الى ما يريد النوايغ من صور ، ويومئذ يسلس قياد اللغة ويسرع تيارها الفيض الى حيث يحتاج اليه اللهن . ثم يكون التعاون الصادق بين ثمرات الفكر . وتكون هذه الثمرات لذاتها هي الغاية ان اصبحت اللغة سهلا عذبا كثير الزحام . ويومئذ ترى هؤلاء المقتتلين من « الاقدمين » و « المحدثين » قد انصرفوا عن نضالهم الجاضر الى ما هو خير وابقى ، ويرى اللغة اتصل ماضيها بحاضرها دائمة الالهة لتمثل ما تخلقه الحضارة من كل حديث .

لكن انصراف المقتتلين اليوم لن يحسم المعركة . وكيف تحسم في الحياة معركة والحياة تمور في نضالها الدائم الاتجاه نحو ما ترجوه الانسانية من كمال . انما يكون صلح الطائفتين المتنازعتين اليوم مثارا

القيام طوائف جديدة تقف في وجههما جميعا . ألم تر في نضال الفن كيف قام الآخذون عن الفلمنك فانشأوا اليوم شتى المذاهب ووقفوا ينصرونها في وجه المدرسة اللاتينية العريقة الاصل والحسب ؟ أو لم تر الى من قد يسميهم الاستاذ عزمي المكعبين Les cubis tes اذن فسيقوم عند بلوغها من صفو الصقل غايته أو تلك « المكعبون » ومن اليهم من الثائرين . واسيكون اثر هؤلاء في اللغة اثر السموم تدخل الى الجسم القوي فتزيده قوة وتوقيه من المناعة ما يقيه ويحفظه .



لا نطلب اليوم اذن الى « الاقدمين » و « المحدثين » أن يكفوا عن التضال مادام نضالهم خطوة في سبيل الكمال . انما الذي نرجوه ونطلبه ان يتضامن المثات والالواف من اهل اللغة العربية لتمثل لغتهم حضارة الانسانية وليحتمل كاهلها كل ثمرات الدهن الانساني ونطيب من الثقافة القومية فقد آذنت الساعة لقيام التواضع الذين ينفثون في الشرق العربي روح حياة وقوة ويخلعون على اللغة ثوب البهاء الذين يجدر بها ان تكسوه في هذه المدينة الحاضرة لتكون به جديرة بأبناء هذا الشرق مهد الحضارات الانسانية واكبرها مجدا وعظمة .

محمد حسين هيكل

المصدر : في اوقات الفراغ . الطبعة الثانية ١٩٦٨ د. محمد حسين هيكل .
مكتبة النهضة المصرية .

نشرت المقالة للمرة الاولى في جريدة السياسة بتاريخ ٢٢ ابريل ١٩٢٥ .

المرحلة الثانية

في الشعر الجاهلي

طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

الكتاب الأول

١

تمهيد :

هذا بحث من تاريخ الشعر العربي جديد ، لم يألّفه الناس عندنا من قبل . وإكاد أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقاً آخر سينزويون عنه أزواراً . ولكنني على سخطي وإثني ، وأزوار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث ، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده ، فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة . وليس سرا ما تحدثت به إلى أكثر من مائتين .

ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعاً ما أعرف أنني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي . وهذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره في هذه الفصول ، غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بأزوار المزور . وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوماً واشق على آخرين ، فسيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد .

والقد تناول الناس منذ حين مسألة القديم والجديد ، واشتد فيها اللجاج بينهم ، وخيل إلى بعضهم أنه يستطيع أن يقضي فيها بين المختصمين . ولكنني أعتقد أن المختصمين أنفسهم لم يتناولوا المسألة من جميع أطرافها ، فهم لم يكادوا يتجاوزون فنون الأدب التي يتعاطاها

الناس من نثر وشعر ، والأساليب التي تصطنع في هذه الفنون والمعاني ، والألفاظ التي يعتمد عليها الكاتب أو الشاعر حين يريد أن يتحدث إلى الناس بمواظف نفسه أو نتائج عقله . ولكن للمسألة وجه آخر لا يتناول الفن الكتلي أو الشعري ، وإنما يتناول البحث العلمي عن الأدب وتاريخ فنونه .

نحن بين اثنين : إما أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء ، لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل بحث والذي يتيح لنا أن نقول : أخطأ الأصمعي أو أصاب ، ووافق أبو عبيدة أو لم يوفق ، واهتدى الكسائي أو ضل الطريق ؛ وإما أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث . لقد أنسييت ، فلست أريد أن أقول البحث وإنما أريد أن أقول الشك . أريد ألا تقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وثبت أن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان .

والفرق بين هذين المذهبين في البحث عظيم ، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضا ، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود .

المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل ولا يمس في جملة وتفصيله إلا مساً رقيقاً . أما المذهب الثاني فيقلب العلم القديم رأساً على عقب . وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمح منه شيئاً كثيراً .

ولندع هذا النحو من الكلام العام والنوضح ما نريد أن نقوله بشيء من الأمثلة :

بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندوسها وننتهي فيها إلى الحق . فإما أنصار التقديم فالتقديم أمامهم واضحة معبدة ، والأمير عليهم سهل يسير . اليس قد أجمع القدماء من علماء الأمصار في العراق

والشلم وفارس ومصر والاندلس على ان طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الاسلام وقالت كثيرا من الشعر ؟ اليس قد اجمع هؤلاء العلماء انفسهم على ان لهؤلاء الشعراء اسماء معروفة محفوظة مضبوطة يتناقلها الناس ولا يكادون يختلفون فيها ؟ اليس قد اجمع هؤلاء العلماء على ان لهؤلاء الشعراء مقادير من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم روايتهم وناقله عنهم الناس ، حتى جاء عصر التدوين فلدن في الكتب وبقي منه ما شاء الله ان يبقى الى ايامنا ؟ واذا كان العلماء قد اجمعوا على هذا كله فرووا لنا اسماء الشعراء واضبطوها ونقلوا اليها آثار الشعراء وفسروها ، فلم يبق الا ان نأخذ عنهم ما قالوا وارضين به مطمئنين اليه . فاذا لم يكن لاحدنا بد من ان يبحث وينتقد ويحقق فهو يستطيع هذا دون ان يجاوز مذهب انصار القديم . فالعلماء قد اختلفوا في الرواية بعض الاختلاف وتفاوتوا في الضبط بعض التفاوت . فلنوازن بينهم والنرجح رواية اعلى رواية والنقش ضبطا على ضبط ، ولنقل : اصاب البصريون واخطا الكوفيون ، او وفق المبرد ولم يوفق ثعلب . لنذهب في الادب وفنونه مذهب الفقهاء في الفقه بعد ان اغلق باب الاجتهاد : هذا مذهب انصار القديم ، وهو المذهب الدائع في مصر ، وهو المذهب الرسمي ايضا ، مضت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومنهجها على ما بينها من تفاوت واختلاف .

ولا ينبغي ان تخدمك هذه الالفاظ المستحدثة في الادب ، ولا هذا النحو من التأليف الذي يقسم التاريخ الادبي الى عصور ، ويحاول ان يدخل فيه شيئا من الترتيب والتنظيم ؛ فذلك كله عناية بالقشور والاشكال لا يمس القلب ولا الموضوع . فما زال العرب ينقسمون الى بائدة وباقية ، والى علوية ومستعمرة . وما زال اولئك من جرهم ، وهؤلاء من ولد اسماعيل . وما زال امرؤ القيس صاحب « قفا بك ... » وطرفة صاحب « تخولة اطلال ... » وصمرو بن كلثوم صاحب « الالهبي ... » ، وما زال كلام العرب في جاهليتها واسلامها ينقسم الى شعر ونثر . والنثر ينقسم الى مرسل ومسجوع ، الى آخر هذا

الكلام الكثير الذي يفرغه أنصار القديم فيما يضعون من كتب وما يلقون على التلاميذ والطلاب من دروس .

هم لم يغيروا في الأدب شيئاً . وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئاً وقد اخلوا أنفسهم بالأطمئنان إلى ما قال القدماء وأغلقوا على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام .

وأما أنصار الجديد ، فالطريق أمامهم معوجة ملتوية ، تقوم فيها عقاب لا تكاد تحصى . وهم لا يكادون يمضون إلا في أناة وريث هما إلى البطء أقرب منهما إلى السرعة . ذلك أنهم لا يأخذون أنفسهم بإيمان ولا اطمئنان ، أو هم لم يزرعوا هذا الأيمان والاطمئنان . فقد خلق الله لهم عقولاً تجد من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضاء . وهم لا يريدون أن يخطوا في تزيخ الأدب خطوة حتى يتبينوا موضعها . وسواء عليهم وأفقوا القدماء وأنصار القديم أم كان بينهم وبينهم أشد الخلاف .

هم لا يطمئنون إلى ما قال القدماء ، وإنما يلقونه بالتحفظ والشك . ولعل أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئناناً . هم يريدون أن يدرسوا مسألة الشعر الجاهلي فيتجاهلون إجماع القدماء على ما أجمعوا عليه ، ويتساءلون : أهناك شعر جاهلي ؟ فإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مقداره ؟ وبم يمتاز من غيره ؟ ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج حلها إلى روية وأناة وإلى جهود الجماعات العلمية لا إلى جهود الأفراد . هم لا يعرفون أن العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة ، وعاربة ومستعربة ، ولا أن أولئك من جرحهم ، وهؤلاء من ولد إسماعيل ، ولا أن امرؤ القيس وبطرفة وابن كثون قائلوا هذه المطولات ؛ ولكنهم يعرفون أن القدماء كانوا يرون ذلك . ويريدون أن يتبينوا : أكان القدماء مصيبين أم مخطئين ؟

والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهب المجددون عظمة جليلة

الخطر ، فهي الى الثورة الادبية اقرب منها الى أي شيء آخر . وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يرونه يقينا ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه .

وليس حظ هذا المذهب منتهاً عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه الى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون الى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ . وهم قد ينتهون الى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها . وهم بين اثنتين : إما أن يجحدوا أنفسهم ويجحدوا العلم وحقوقه فيريحوا ويستريحوا ؛ وإما أن يعرفوا لأنفسهم حقها ويؤدوا للعلم واجبه ، فيتعرضوا لما ينبغي أن يتعرض له العلماء من الأذى ويحتملوا ما ينبغي أن يحتمله العلماء من سخط الساخطين .

وليس حظ هذا المذهب منتهاً عند هذا الحد ، بل هو يجاوزه للأذى . وربما كان الحق أنني أحب الحياة الهادئة المطمئنة وأريد أن اتلوق لذات العيش في دعة ورضا . ولكني مع ذلك أحب أن أفكر ، وأحب أن أبحث ، وأحب أن أعلن الى الناس ما أنتهي اليه بعد البحث والتفكير ؛ ولا أكره أن أخذ نصيبي من رضا الناس عني أو سخطهم عليّ حين أعلن اليهم ما يحبون أو ما يكرهون . وأذن فلاعتمد على الله ، والأحدثك بما أحب أن أحدثك به في صراحة وأمانة وصدق ، ولاجتنب في هذا الحديث هذه الطرق التي يسلكها المهرة من الكتاب ليدخلوا على الناس ما لم يألخوا في رفق وإناة وشيء من الاحتياط كثير .

وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الشعر الجاهلي والنصحت في الشك ، أو قل ألح على الشك ، فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر ، حتى انتهى بي هذا كله الى شيء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام ، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم

أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاهتمام عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي . وأنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النظرية ، ولكنني مع ذلك لا أتردد في إثباتها وإداعتها ، ولا أضعف عن أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرأه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء ؛ وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين .

وأنا أزعج مع هذا كله أن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره تصوراً واضحاً قوياً صحيحاً . ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر ، بل على القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى .

وستسألني كيف انتهى بي البحث إلى هذه النظرية الخطرة ؟ ولست أكره أن أجيبك على هذا السؤال ؛ بل أنا لا أكتب ما أكتب إلا لأجيبك عليه . ولأجل أن أجيبك عليه أجابة مقنعة يجب أن أتحدث إليك في طائفة مختلفة من المسائل . وسترى أن هذه الطائفة المختلفة من المسائل تنتهي كلها إلى نتيجة واحدة هي هذه النظرية التي ذكرتها منذ حين . يجب أن أحدثك عن الحياة السياسية الداخلية للأمم العربية بعد ظهور الإسلام ووقوف حركة الفتح ، وما بين هذه الحياة وبين الشعر من صلة . ويجب أن أحدثك عن حال أولئك الناس الذين غلبوا على أمرهم بعد الفتح في بلاد الفرس وفي الشام والجزيرة والعراق ومصر ، وما بين هذه الحال وبين لغة العرب وآدابهم من صلة . ويجب أن أحدثك عن نشأة العلوم الدينية واللغوية وما بينها وبين اللغة والأدب من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام وبعده ، وما بين اليهود هؤلاء وبين الأدب العربي من صلة . ويجب أن أحدثك بعد هذا عن المسيحية وما كان لها من الانتشار في بلاد العرب

قبل الاسلام وما احدثت من تأثير في حياة العرب العقلية والاجتماعية والاقتصادية والادبية ، وما بين هذا كله وبين الادب العربي والشعر العربي من صلة . ثم يجب أن أحدثك عن مؤثرات سياسية خارجية عملت في حياة العرب قبل الاسلام وكان لها اثر قوي جدا في الشعر العربي الجاهلي وفي الشعر العربي الذي انتحل وأضيف الى الجاهليين . وهذه المباحث التي اشرت اليها ستنتهي كلها الى تلك النظرية التي قدمتها : وهي ان الكثرة المطلقة مما نسميه الشعر الجاهلي ليست من الشعر الجاهلي في شيء .

والكني مع ذلك لن اقف عند هذه المباحث ؛ لاني لم اقف عندها فيما بيني وبين نفسي بل جاوزتها . واريد أن أجلوها معك الى نحو آخر من البحث اظنه اقوى دلالة وانفض حجة من المباحث الماضية كلها ، ذلك هو البحث الفني واللغوي . فسينتهي بنا هذا البحث الى أن هذا الشعر الذي ينسب الى امرئ القيس أو الى الأعشى أو الى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل والذيع قبل أن يظهر القرآن . نعم . وسينتهي بنا هذا البحث الى نتيجة غريبة ، وهي انه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث ، وإنما ينبغي أن يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله ، أريد أن أقول إن هذه الأشعار لا تثبت شيئا ولا تدل على شيء ، ولا ينبغي أن تتخذ وسيلة الى ما اتخذت اليه من علم بالقرآن والحديث . فهي إنما تكلفت واختُرعت اختراعا ليستشهد بها العلماء على ما كانوا يريدون أن يستشهدوا عليه .

فلذا انتهينا من هذه الطرق كلها الى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدمتها ، فسنجهد في أن نبث عما يمكن أن يكون شعرا جاهليا حقا . وأنا اعترف منذ الآن بأن هذا البحث صير كل العصر ، وبأنني أشك شكاً شديداً في أنه قد ينتهي بنا الى نتيجة مرضية ، ومع ذلك فسنحاوله .

منهج البحث

أحب أن أكون واضحاً جلياً وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن اضطرهم إلى أن يتأولوا ويتمحلوا ويندهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير والكشف عن الأفراض التي أرمي إليها . أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب ، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج إلى مناقشة . أريد أن أقول إنني سأسلك في هذا النحر من البحث منسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكورت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث . والناس جميعاً يظنون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تما . والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثراً ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانيين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث .

فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء . ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيها من قبل وخلصنا من كل هذه الاغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا وروعوسنا فتجول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضاً .

نعم ! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وأن ننسى

ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين ، يجب ألا ننتقيد بشيء ولا ندعن شيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء المواطنين ، وسنفل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين . وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب ، أو كانوا عجماء يتعصبون على العرب ؛ فلم يبرأ علمهم من الفساد ؛ لأن المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم وإكبارهم ، فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم ؛ ولأن المتعصبين على العرب غلوا في تحقيرهم وإصغارهم ، فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا .

كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الإسلام ، فاختصوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه ، ولم يعرضوا لبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعمره ويعلى كلمته . فما لاءم مذهبهم هذا أخلوه ، وما نافره انصرفوا عنه انصرافا . أو كان القدماء غير مسلمين : يهودا أو نصارى أو مجوسا أو ملحدين أو مسلمين في قلوبهم مرض وفي نفوسهم زيف ، فتأثروا في حياتهم العلمية بمثل ما تأثر به المسلمون الصادقون : تمصبوا على الإسلام ونحوا في بحثهم العلمي نحو الفضل منه والتصغير من شأنه ، فظلموا أنفسهم وظلموا الإسلام وأفسدوا العلم وجنوا على الأجيال المقبلة . ولو أن القدماء استطاعوا أن يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم وأن يتناولوا العلم على نحو ما يتناوله المحدثون لا يتأثرون في ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين ولا ما يتصل بهذا كله من الأهواء ، لتبركوا لنا أدبا غير الأدب الذي نجده بين أيدينا ، ولأراحونا من هذا العناء الذي نتكلفه الآن . ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها . وانت تستطيع أن تقول هذا الذي نقوله في كل شيء . قلوا أن الفلاسفة ذهبوا في الفلسفة مذهب (ديكلوت)

منذ العصور الاولى ، لما احتجج (ديكارت) الى ان يستحدث منهجه الجديد . ولو ان المؤرخين ذهبوا في كتابة التاريخ منذ العصور الاولى مذهب (سينيوبوس) لما احتجج (سينيوبوس) الى ان يستحدث منهجه في التاريخ . وبعبارة أدنى الى الإيجاز : لو ان الإنسان خلق كاملا لما احتجج الى ان يطمع في الكمال .

فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم . لنجتهد في ألا نتأثر كما تأثروا وفي ألا نفسد العلم كما أفسدوه . لنجتهد في ان ندرس الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الفضل منهم ، ولا مكتئين بنصر الإسلام أو النقي عليه ، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية أو تنفر منه الأهواء السياسية أو تكرهه العاطفة الدينية . فإن نحن حررنا أنفسنا الى هذا الحد فليس من شك في أننا سنصل ببحثنا العلمي الى نتائج لم يصل اليها مثلها القدماء . وليس من شك في أننا سنلتقي أصدقاء سواء اتفقنا في الرأي أو اختلفنا فيه . فما كان اختلاف الرأي في العلم سببا من أسباب البغض ؛ إنما الأهواء والمواطف هي التي تنتهي بالناس الى ما يفسد عليهم الحياة من البغض والعداء .

فأنت ترى ان منهج (ديكارت) هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والادب فحسب ، وإنما هو خصب في الاخلاق والحياة الاجتماعية أيضا . وأنت ترى ان الأخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم ، بل هو حتم على الذين يقرءون أيضا . وأنت ترى أنني غير مسرف حين اطلب منذ الآن الى الذين لا يستطيعون ان يبرءوا من القديم ويخلصوا من اغلال المواطف والأهواء حين يقرءون العلم أو يكتبون فيه إلا يقرءوا هذه الفصول . فلن تفيدهم قراءتها الا ان يكونوا أحرارا حقا .

مرآة الحياة الجاهلية يجب ان تلمس في القرآن لا في الشعر الجاهلي

على اني احب ان يطمئن الذين يكلفون بالادب العربي القديم ويشفقون عليه ويجدون شيئاً من اللذة في أن يعتقدوا أن هناك شعراً جاهلياً يمثل حياة جاهلية انقضت عصرها بظهور الإسلام ، فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون ، ولن يقطع السبيل بينهم وبين هذه الحياة الجاهلية يدرسونها ويجدون في درسها ما يبتغون من لذة علمية وفنية . بل انا اذهب الى ابعد من هذا ، فازعم اني سأستكشف لهم طريقاً جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها الى هذه الحياة الجاهلية ، او بمباراة اصح : يصلون منها الى حياة جاهلية لم يعرفوها ، الى حياة جاهلية قيمة مشرقة ممتعة مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في البطولات وغيرها ممن ينسب الى الشعراء الجاهليين . ذلك اني لا انكر الحياة الجاهلية وانما انكر أن يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي . فاذا اردت ان ادرس الحياة الجاهلية فلست أسلك لها طريق امرئ القيس والنايفة والاعشى وزهير ، لأنني لا أثق بما ينسب اليهم ، وإنما أسلك اليها طريقاً أخرى ، وادرسها في نص لا سبيل الى الشك في صحته ، ادرسها في القرآن . فالقرآن اصدق مرآة للعصر الجاهلي . ونص القرآن ثابت لا سبيل الى الشك فيه . ادرسها في القرآن ، وادرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه ، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها آبائهم قبل ظهور الإسلام . بل ادرسها في الشعر الأموي نفسه . فلست اعرف أمة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة في الادب ولم تجدد فيه إلا بمقدار كالأمة العربية . فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجربير وذو الرمة والاختل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب الى طرفة وعنترة والشمخ وبشر بن أبي خازم .

قلت : ان القرآن اصدق مرآة للحياة الجاهلية . وهذه القضية غريبة حين تسمعها ؛ ولكنها بدهية حين تفكر فيها قليلا . فليس من اليسر ان نفهم ان الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته إلا ان تكون بينهم وبينه صلة هي هذه الصلة التي توجد بين الاثر الفني البديع وبين الذين يعجبون به حين يسمعون او ينظرون اليه . وليس من اليسر ان نفهم ان العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبي فيه إلا ان يكونوا قد فهموه ووقفوا على اسراره ودقائقه . وليس من اليسر بل ليس من الممكن ان نصدق ان القرآن كان جديدا كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه ، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر . إنما كان القرآن جديدا في أسلوبه ، جديدا فيما يدعو إليه . جديدا فيما شرع للناس من دين وقانون ، ولكنه كان كتابا عربيا ؛ لغته هي اللغة العربية الادبية التي كان يصطنعها الناس في عصره ، أي في العصر الجاهلي . وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من الوثنية . وفيه رد على اليهود ، وفيه رد على النصارى ، وفيه رد على الصائفة والمجوس . وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم . ومجوس الفرس . وصائفة الحزيرة وحدهم ، وإنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها . ولولا ذلك لما كانت له فمية ولا خطر . ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأبذوه ، وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالاموال والحياة .

افتري احدا يحفل بى لو اني اخذت اهاجم البوذية او غيرها من هذه الديانات التي لا يدينها احد في مصر ؟ ولكنني اغيظ النصارى حين اهاجم النصرانية ، واهيج اليهود حين اهاجم اليهودية ، واحفظ المسلمين حين اهاجم الإسلام . وانا لا اكاد اعرض لواحد من هذه الاديان حتى اجد مقاومة الافراد ثم الجماعات . ثم مقاومة الدولة نفسها تمثلها النيابة والفصاء . ذلك لانني اهاجم ديانات ممثلة في مصر يؤمن بها المصريون وتحميها الدولة المصرية . وكذلك كانت الحال حين ظهر الإسلام : اهاجم الوثنية فعارضه الوثنيون . وهاجم اليهود فعارضه اليهود ، وهاجم النصارى فعارضه النصارى . ولم تكن هذه المعارضة هينة ولا لينة ،

وإنما كانت تقدر بمقدار ما كان لأهلها من قوة ومنعة وبأس في الحياة الاجتماعية والسياسية . فاما وثنية قريش فقد أخرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب واضطرت أصحابه إلى الهجرة . واما يهودية اليهود فقد ألبت عليه وجاهدته جهادا عقليا وجدليا ، ثم انتهت إلى الحرب والقتال ، واما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها للإسلام إبان حياة النبي قوية قوة المعارضة الوثنية واليهودية . لماذا ؟ لأن البيئة التي ظهر فيها النبي لم تكن بيئة نصرانية ، إنما كانت وثنية في مكة ، يهودية في المدينة . ولو ظهر النبي في الحيرة أو نجران للقي من نصارى هاتين المدينتين مثل ما لقي من مشركي مكة ويهود المدينة .

وفي الحق أن الإسلام لم يكد يظهر على مشركي الحجاز ويهوده حتى استحال الجهاد بينه وبين النصارى من جدال ونضال بالحجة إلى اصطدام مسلح ، أدرك النبي أوله وانتهى به الخلفاء إلى أقصى حدوده .

فأنت ترى أن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات أهلها العرب . فهو يبطل منها ما يبطل ، ويؤيد منها ما يؤيد . وهو يلقي في ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس . وإذن فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين والبحث عنها في القرآن .

فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والسيطرة على الحياة العملية ، والا فإين تجد شيئا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنتره أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية ! .

وأما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر ، يمثل لنا حياة دينية قوية تدمو

أهلها الى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدل . فاذا رأوا أنه قد أصبح قليل الفناء لجأوا الى الكيد ، ثم الى الاضطهاد ، ثم الى اعلان الحرب التي لا تبقى ولا تدر .

أفتظن أن قريشا كانت تكيد لابنائها وتضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحى في سبيلها بشرونها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا ما يمثلها هذا الشعر الد يضاف الى الجاهلين ؟ كلا ! كانت قريش متدينة قوية الايمان بدينها . ولهذا الدين وللإيمان بهذا الدين جاهدت ما جاهدت وضحت ما ضحت . وقل مثل ذلك في اليهود ، وقل مثله في غير أولئك وهؤلاء من العرب الذين جاهدوا النبي عن دينهم .

فالقرآن إذن اصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي . ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها ، وإنما يمثل شيئا آخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي ، يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدوة على الجدل والخصام أنفق القرآن في جهادها حقا عظيما . ليس القرآن قد وصف أولئك الذين يجادلون النبي بقوة الجدل والقدرة على الخصام والشدة في المحاوراة ! وفيهم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاوون ؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا الى حلها : في البعث ، في الخلق ، في امكان الاتصال بين الله والناس ، في المعجزة وما الى ذلك .

أفتظن قوما يجادلون في هذه الاشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالهجرة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغبوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهلين ! كلا ! لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية ، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة .

وهنا يجب أن نحتلط ، فلم يكن العرب كلهم كذلك ، ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك ؛ وانما كانوا كغيرهم من الامم القديمة وكثير من الامم الحديثة منقسمين الى طبقتين : طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والدكاء والعلم ؛ وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ .

القرآن شاهد بهذا . اليس يحدثنا عن أولئك المستضعفين الذين كفروا طلعة لسلادتهم وزعمائهم لا جهادا في الراي ولا اقتناعا بالحق ، والذين سيقولون يوم يسألون : (ربنا إنا اطعنا سلاطنا وكبرائنا فاضلونا السبيلا) . بلى ! والقرآن يحدثنا عن جفوة الاعراب وغلظتهم وامعائهم في الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الراقية التي تحمل على الايمان والتدين . اليس هو الذي يقول : (الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله) . اليس قد شرع للنبي أن يتألف قلوب الاعراب بالمال ! بلى . فالقرآن اذن يمثل الامة العربية على أنها كانت كغيرها من الامم القديمة ، فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبي يجادلهم ويجاهدهم ، وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ من استنارة أو امتياز والذين كانوا موضوع النزاع بين النبي وخطومه والذين كان يتالفهم النبي بالمال أحيانا .

والقرآن لا يمثل الامة العربية متدينة مستنيرة فحسب ، بل هو يعطينا منها صورة أخرى يدهش لها الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الاسلام ؛ فهم يعتقدون أن العرب كانوا قبل الاسلام امة معتزلة تعيش في صحرائها لا تعرف العالم الخارجي ولا يعرفها العالم الخارجي ، وهم يبنون على هذا قضايا ونظريات ، فهم يقولون ان الشعر الجاهلي لم يتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي أثرت في الشعر الاسلامي : لم يتأثر بحضرة الفرس والروم .. وأنى له ذلك ! لقد كان يقال في صحراء لا صلة بينها وبين الامم المتحضرة . كلا ! القرآن يحدثنا بشيء غير هذا ، القرآن يحدثنا بأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الامم بل كانوا على اتصال قوى قسمهم احزابا وفرقهم شيعا . اليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس

من حرب انقسمت فيها العرب الى حزبين مختلفين : حزب يشايح اولئك
وحزب يناصر هؤلاء ! اليس في القرآن سورة تسمى سورة الروم وابتدىء
بهذه الآيات : (ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم
سيفلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون
بنصر الله ينصر من يشاء) .

لم يكن العرب اذن كما يظن اصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين ؛
فانت ترى ان القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم . وهو
يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الامم في السورة المعروفة (لإيلاف
قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، ١٠١ ، ١٠٢) وكانت إحدى هاتين الرحلتين
الى الشام حيث الروم ، والاخرى الى اليمن حيث الحبشة أو الفرس .

وسيرة النبي تحدثنا ان العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب الى بلاد
الحبشة . ألم يهاجر المهاجرون الاولون الى هذه البلاد ! وهذه السيرة
نفسها تحدثنا بانهم تجاوزوا الحيرة الى بلاد الفرس ، وبأنهم تجاوزوا
الشام وفلسطين الى مصر . فلم يكونوا اذن معتزلين ، ولم يكونوا اذن
بنجوة من تأثير الفرس والروم والحش والهند وغيرهم من الامم المجاورة
لهم . لم يكونوا على غير دين ولم يكونوا جهالا ولا غلاظا ولم يكونوا في
عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس الى الاسم الاخرى ، كذلك يمثلهم
القرآن .

واذا كانوا اصحاب علم ودين ، واصحاب ثروة وقوة وبأس ،
واصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها ، فما
اخلقهم ان يكونوا امة متحضرة راقية لا امة جاهلة همجية . وكيف
يستطيع رجل عاقل ان يصدق ان القرآن قد ظهر في امة جاهلة همجية !

أرايت ان التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن انفع وأجدي
من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسوونه الشعر الجاهلي أرايت
ان هذا النحو من البحث يغير كل التفسير ما تعودنا ان نعرف من أسر
الجاهليين ،

الشعر الجاهلي واللغة

على أن هناك شيئاً آخر يحظر علينا التسليم بصحة الكثرة المطلقة من هذا الشعر الجاهلي ، ولعله أبلغ في اثبات ما نذهب إليه . فهذا الشعر الذي رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه . والأمر هنا يحتاج إلى شيء من الروية والإنابة . فنحن إذا ذكرنا اللغة العربية نريد بها معناها الدقيق المحدود الذي نجده في المعاجم حين نبحت فيها عن اللفظ اللغة ما معناه ، نريد بها الألفاظ من حيث هي الألفاظ تدل على معانيها ، تستعمل حقيقة مرة ومجازاً مرة أخرى ، وتتطور تطوراً ملائماً لمقتضيات الحياة التي يحيها أصحاب هذه اللغة .

نقول أن هذا الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية . ولنجتهد في تعريف اللغة الجاهلية هذه ما هي ، أو ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة أن شعرهم الجاهلي هذا قد قيل فيه . أما الرأي الذي اتفق عليه الرواة أو كادوا يتفقون عليه فهو أن العرب ينقسمون إلى قسمين : قحطانية منازلهم الأولى في اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز .

وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطوروا على العربية فهم العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتساباً ؛ كانوا يتكلمون لغة أخرى هي المبرانية أو الكلدانة ، ثم تعلموا لغة العرب العاربة فمحت لغتهم الأولى من صدورهم وثبتت فيها هذه اللغة الثانية المستعارة . وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة إنما يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم . وهم يروون حديثاً يتخلونه أساساً لكل هذه النظرية ، خلاصته أن أول من تكلم بالعربية ونسي لغة أبيه إسماعيل ابن إبراهيم .

على هذا كله يتفق الرواة ، ولكنهم يتفقون على شيء آخر أيضاً

أثبتته ، البحث الحديث ، وهو أن هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) والغة عدنان (وهي العرب المستعربة) . وقد روي عن أبيهم عمرو بن العلاء أنه كان يقول : ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا .

وفي الحق أن البحث الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضا . وأذن فلا بد من حل هذه المسألة .

إذا كان أبناء اسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب الذين نسميهم العربيه فكيف نعلم ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة ، حتى استطاع أبو عمرو ابن العلاء أن يقول إنهما لغتان متميزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التي لا تقبل شكاً ولا جدالاً ! والامر لا يقف عند هذا الحد ، فواضح جدا لكل من له إلمام بالبحث التاريخي علمة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية .

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل ، وللقراآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن وروود هذين الاسمين في التوراة والقراآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن إبراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقراآن والتوراة من جهة اخرى . وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويثبتون فيه المستعمرات . فنحن نعلم أن حروباً عنيفة

شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من المسألة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة. فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين الفريقين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لا سيما وقد رأى المؤلف وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل ؛ فلذلك وهؤلاء ساهيون ..

ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب ، قد اقتضى أن تبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين : ديانة النصارى واليهود .

فأما الصلة الدينية فثابتة واضحة ، فبين القرآن والتوراة والأنجيل اشتراك في الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمي الى التوحيد ، وتعتمد على أساس واحد هو هذا الذي تشترك فيه الديانات السماوية السامية . ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كاللموسة بين العرب وأهل الكتاب . فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العنانية واليهود ؟

وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع للمسيح . فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت الى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية . وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان امرين : التجارة من جهة ، والدين من جهة أخرى .

فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشا كانت تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة .

وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش ويحج إليها العرب المشركون في كل عام ، والتي أخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعاً من السلطان قويا ، والتي أخذ هؤلاء العرب المشركون يجعلون منها رمزا للدين قوي كأنه كان يريد أن يقفه في سبيل انتشار اليهودية من ناحية والمسيحية من ناحية أخرى . فنحن نلمح في الأساطير أن شيئا من المنافسة الدينية كان قائما بين مكة ونجران . ونحن نلمح في الأساطير أيضا أن هذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت إلى حرب الفيل التي ذكرت في القرآن .

فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ، ونهضة دينية وثنية . وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية .

وإذا كان هذا حقا - ونحن نعتقد أنه حق - فمن المعقول جدا أن تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأمم التاريخية المجددة التي تتحدث عنها الأساطير . وإذن فليس ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم ، كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس ابن بريماس صاحب طروادة .

أمر هذه القصة إذن واضح . فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضا . وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى . وإذن فنستطيع أن نقول أن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة

العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة ، وإن قصة « العاربة » و « المستعربة » وتعلم اسماعيل العربية من جرّهم ، كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه .

والنتيجة لهذا البحث كله تردتنا إلى الموضوع الذي ابتدأنا به منذ حين ، وهو أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحا . ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئا كثيرا من الشعر الجاهلي قوما ينتسبون إلى عرب اليمن إلى هذه القحطانية العاربة التي كانت تتكلم غير لغة القرآن ، والتي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء : إن لغتها مخالفة للغة العرب ، والتي أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير اللغة العربية .

ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف إلى شعراء هذه القحطانية في الجاهلية لا نجد فرقا قليلا ولا كثيرا بينه وبين شعر العدنانية . نستغفر الله ! بل نحن لا نجد فرقا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن . فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويله ؟ أمر ذلك يسير ، وهو أن هذا الشعر الذي يضاف إلى القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية في شيء ، لم يقله شعراؤها وإنما حمل عليهم بعد الإسلام لأسباب مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الأسباب التي دعت إلى انتحال الشعر الجاهلي في الإسلام .

● طه حسين

المصدر : في الشعر الجاهلي ص ١ - ٣٠ ، طه حسين ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م الطبعة الأولى .

نقض كتاب في الشعر الجاهلي

رأي

حضرة صاحب الفضيلة مفتي الديار المصرية في هذا الكتاب

عبد الرحمن قراعة ١٨٦٢ - ١٩٣٩

اطلع على هذا الكتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » حضرة صاحب الفضيلة العلامة التحرير ، والقادة الشهير ، مولانا الاستاذ المحقق الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتي الديار المصرية ففضل قلمه البليغ - أيده الله - بكتابة ما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الرحمة ، وناشر لواء الحكمة وقائد النطق الى الحق ، وعلى آله وصحبه ومن ثبتهم الله على الهداية بقوله الثابت الى يوم الدين ، فلا يضرهم من ضل ما داموا من اهل العزم والبصيرة واليقين .

وبعد فان الباطل ما برح يحارب الحقيقة الاسلامية بسيوفه المفلولة وشبهاته الضئيلة ، ثم يرجع خائباً بغير جدوى . وقد عاد اليوم الى جولة يدفعه اليها نفر من المتأثرين بكتب الناعمين الى معاداة دين سيد المرسلين ، سقطوا على ما فيها من تضليل فالتفتوا منه ما راق لهم ، وظلوا يعرضونه على انظار قرائنا واسماع الطلاب من ابنائنا ، زاعمين انه بضاعة جديدة هي ثمرات قرائعهم ونتائج افكارهم ، محلولين بذلك

تقويض بناء قامت فضائله الشامخة على أساس متين من الحقائق
الراسخة . فاستاء من عملهم هذا أهل العلم الصحيح والأدب الصريح .
ومن هذه الكتب رسالة عنوانها (في الشعر الجاهلي) عرف صاحبها
بالتعصب لكل ما فيه كيد للإسلام وحط من جلاله وفضائل عظمائه
وآله . وقد احتوت هذه الرسالة على مزاعم وأباطيل يجمعها كلها وصف
واحد هو الاستخفاف بالحقائق والتعصب لمقيدة خاطئة افتتن مؤلف
الرسالة بها . فانبرى له حضرة العالم المحقق والفهامة المدقق (السيد
محمد الخضر حسين التونسي من علماء الجامع الأزهر بمصر وجامع
الزيتونة بتونس) فحل هذه الرسالة تحليلا علميا نزيها ، رد فيه ما انتحلته
إلى أهله ، وعاد به إلى أصله ، ودحض الأباطيل بالأدلة الواضحة ، ونبه
إلى مغامر الكتاب المردود عليه ، ودل على المرامي التي يرسم إليها ، وأبان
عن مواطن ضعفه ومكامن سخفه . والمبري لأنه قد خدم بهذا العمل
الجليل العلم المتين والأدب الرفيع خدمة تحول بها شر الكتاب المردود
عليه إلى خير . جزاه الله عن الدين والعلم والحق أفضل ما يجزي به
عباده الصالحين المخلصين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الرحمن قراه



بسم الله الرحمن الرحيم

محمد الغضنفر حسين ١٨٧٦ - ١٩٥٨

تمهيد :

نهضت الامم الشرقية فيما سلفه نهضة اجتماعية ابتدأت بطلوع
كواكب الاسلام ، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث وفتحت
عيون هذه الامم في طريقة الحياة المثلى .

سادت هذه النهضة وكان لها الاثر الاعلى في الافكار والهمم والاداب ،
ومن فروعها نهضة ادبية لغوية جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني
امية ، واستوت على ساقها في ايام بني العباس .

امسك بيدك كتب التاريخ والادب ملتصقا الحقيقة بلذكاء موفون
وقلب سليم ، فلا احسبك تصدر عنها الا بنفس مطمئنة لاجلال اوائك
الذين درسوا ادب اللغة وخاضوا في فنونه فامتعوا البحث ، وكانوا القدوة
الحسنة في حسن التصرف وحكمة البيان .

تمتع الشرق بنهضتيه الاجتماعية والادبية حقبا ، ثم وقف التعليم
مند غاية واخذ شأنا غير الشأن الذي تسمو به المدارك وتنمو به نتائج
العقول ، فاذا غفوة تدب الى جفون هذه الامم ولم تكد تستفيق منها الا
ويده اجنبية تقبض على زمامها .

هب بعض اولي الحكمة منا يقلبون وجوههم في العلل التي مست
امم الشرق فقعدت بهم سنين عددا ، وبعثوا اقلامهم من مراقدها تصف
هذه العلل وتتلر الناس موتة الياس والجبن والخمول ، وتلقي عليهم
دروسا في اسباب الحياة ووسائل الخلاص .

التفت الشرق الى ما كان في يده من حكمة ، وإلى ما شاد من مجد ، وإلى من شب في مهده من أعظم الرجال . أخذ ينظر الى ماضيه ليميز ابنائه بين ما هو تراث آبائهم وبين ما يقتبسونه من الغرب ، وليشعروا بما كان لهم من مجد شامخ فتأخذهم العزة الى أن يضموا الى التالد طريفا ، وليذكروا أنهم ذرية أولئك السراة فلا يرضوا أن يكونوا للمستبدين عبيدا .

أنشأ اولو الأحلام الراجحة من الزعماء والكتاب يأخذون بما يظهر من جديد صالح ولا ينكثون أيديهم من قديم نافع ، فاستطاعوا بهذه الحكمة والروية أن يسلكوا قلوب الأمة في وحلدة ، ويخطوا بها الى حياة العلم والحرية والاستقلال .

نظر الى هذه النهضة الزاكية من لا يرغبون في تقدم هذه الأمم الى خلاصها ولو خطوة ، وعرفوا أن بأيدي هذه الأمم كتابا فيه نظم اجتماعية وآيات تأخذ في شرط ايمانهم به الا يلينوا لسلطة شأنها أن تسوسهم على غير اصوله ، فما كان من هؤلاء القوم الذين يستحثون لإرهاق الأمم الا أن يبتغوا الوسيلة الى فتنة القلوب وصرفها عن احترام ذلك الكتاب ، والغاية تقويض بناء هذه الوحدة السائرة بنا الى حياة سامية وعز لا يبلى .

فسقت طائفة عن أدب الاسلام ، وأرهفت أقلامها لتعمل على هذه النخلة الخالدة ، غير مبالية بسخط الأمة ولا متحرجة مما سينطق به التاريخ من وضع يدها في يد خفية لا شأن لها الا نصب المكاييد لامة كان لها العزم النافذ والكلمة العليا .

تلهج هذه الطائفة باسم حرية الفكر وهي لا تقصد الا هلكا الفن الذي أكتب عليه صباحها ومساءها وهو النيل من هداية الاسلام والغض من رجال جاهدوا في سبيله بحجة وعزم وإقدام . ويكفي شاهدا على رياء هؤلاء الرهط أنهم يقيمون ماتم يندبون فيها حرية الفكر ، ثم

ينصرفون ويقولون فيما يكتبون : للحكومة أن ترهق الشعب وترغمه على ما تراه أمرا لا نقا . ولو سبق ظنك الى أن مؤلف كتاب في الشعر الجاهلي هو عينهم الناظرة وسهمهم الذي يرمون به في مقاتل أمتهم الغافلة ؛ لخلت بينك وبين هذا الظن إذ ليس لي على هذه الظنون الغالبة من سبيل .

فالقلم الذي يناقش كتاب « في الشعر الجاهلي » إنما يطل موطئا يفيظ طائفة احتجلت بهذا الكتاب وحسبته انطعنة القاضية على الاسلام وفصل العرب « ورد الله الدين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا » .

محمد الخضر حسين

المصدر : نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » . تقديم مفتي الديار المصرية « عبد الرحمن قراة » . مقدمة المؤلف : محمد الخضر الحسين . عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ - ١٩٢٧ م) .

(منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث)

للاستاذ الشهير صاحب الامضاء

محمد عرفة ١٨٩٠ - ١٩٧٣

أظن أن الصحف لا تأبى عليّ نشر هذا النقد للشعر الجاهلي. الدكتور طه حسين وإن ليس لأحد سبيل عليها إذا نشرته لأنه لا يتعلق بدينه ولا بإثبات كفره بما كتبه في الشعر الجاهلي ولا بإثبات أنه ظلم في الدين الإسلامي الذي تقام شعائره في مصر فيكون مستحقاً للعقوبة المنصوص عليها في القانون المصري . وإنما هو مناقشة هادئة علمية محضة في المنهج الذي اصطنعه الدكتور في البحث في الشعر الجاهلي يتبين منها أهلاً المنهج الذي سلكه في البحث علمي منطقي يرضى عنه العلم أم هو منهج خاطيء لا يحترمه العلم ويحتقره المنطق ويرى أنه من المغالطات .

إننا سنحاول ذلك وستكون النتيجة كما سيراه القاري أن منهج الدكتور في البحث من ضلالات العقول ومغالطات الوهم ، وأنه ليس يسلك هذا المنهج إلا الذين لم يمارسوا صناعة المنطق ولم يمارسوا على صناعة البرهان ، وكانوا سطحيين في بحوثهم لم يتمموا إلى الغور ، ولم يعمدوا الرمي ، وغرضنا من ذلك أمور ثلاثة :

(أولها) أن تسقط دعوى الدكتور طه حسين بأن ما سلكه في البحث منهج علمي حديث وأنه بذلك يحشر نفسه في زمرة العلماء حشراً في عداد (؟) المخترعين والمبتكرين والمستكشفين وليس يعلم إلا الله ما ينال هؤلاء العلماء من الأذى في مضاجعهم بانتساب الدكتور اليهم وحشره نفسه قسراً في زمرةهم .

(ثانيها) ان احمي شباب مصر من عدوى ذلك المنهج ومن ان يتاثروا
الدكتور في طرائقه الفكرية . فان مستوى البحث في مصر لما ينضج بعد ،
وذويوع امثال طرائق الدكتور مما يكون ضغفا على ابلالة .

(ثالثها) ان يعلم الدين يدينون بالاسلام في مصر ان دينهم لم يصادمه
علم ولا عقل كما يدعي الدكتور ويفتري ، وحاشا الاسلام ان يصادمه
علم او عقل ، وانه اذا كان ثم ما يصادمه فليس العلم والعقل وانما هو
الجهل المخزي والباطل الشائن والعقل الفج الذي لم يستكمل بصد
شرائط الانتاج - سيء ذلك الدكتور طه حسين ولا يرضيه ، ولكنني
لست اتوخي رضاه ولا اتحرز من مساعته وانما اتوخي رضى الحق
واتجنب مساءة الصواب ، فاما من عندهما فلا علي ان يكونوا غاضبين
وليس يدخل في غرضي ان يقتنع الدكتور طه حسين فانه ليس ممن يرجي
منهم اقتناع فانه ليس طالب حق وانما هو طالب رواج . وليس ممن يعينهم
الصواب وانما ممن يعينهم الريح ، فهو كالتاجر همه ان تروج بضاعته
لا ان تنقد فيعلم جيدها من رديتها ، وكما ان التاجر اذا بصرته عيب
بضاعته ناكرك وجاحلك ، كذلك الدكتور اذا المسته عيب ما يقول بيده
جحد واستكبر ، لان ذلك يقف دون رواجه وربحه - وايها يريده (١) .

ان الذي افسد على الدكتور امره اعتقاده ان امته امية فهو يلقي
اليها مباحثه على عواهنها لا يعني بتمحيصها ونفي الزائف عنها ، عالما
بانه ليس عندها من ملكة النقد ما يبين عيبه ويظهر شينه ، وقد مد له
له في هذا الاعتقاد انه يرى المعجبين برأيه والمقرطين لعلمه (٢) مهما كان
فيه من الباطل والخطا .

الا فليعلم الدكتور بعد انه ليس ينشر بحوثه في امة وحشية متبدية
كقبائل الزنوج وانما هو ينشرها في امة متحضرة متمدينة ضربت في العلم

(١) النار : هذا الحصر خطأ بين فان مطلب الرجل الاول صرف الناس من الدين
وحملهم على الالحاد والزندقة وفرضه الاول من هذه الشهرة بالفلسفة والتزلف
للافرنج وانما رواج الكتاب وربحه ففرض ثالث ان صح ان يكون على حقارة فرضا .

بسهم وأخذت منه حظاً ، وإن بني قومه فيهم من ينقدون الآراء ويعلمون حقها من باطلها ، ويعلمون المغالطات مهما بولغ في تزيتها ، وأنهم لم تستعص عليهم نحل الفلاسفة ومعتقداتهم في الآلهيات والأخلاق والسياسة والاجتماع فنقدوها ، وعلموا زائفها من خالصها ، فكيف تستعصي عليهم آراء سطحية تتعلق بتاريخ أو شعر ؟ وأنهم إن كانوا قليلاً ففي استطاعة هؤلاء القليل أن يبينوا لجمهرة الأمة عثرات الرأي وكبوات الأفهام .

جاء شقيق عارضاً ومعه ان بني عمك فيهم وملاح

نفى الدكتور طه حسين في الفصل الذي عنوانه (الشعر الجاهلي واللغة) وجود إبراهيم واسماعيل وبناءهما الكعبة وهجرتهم إلى مكة وتعلم اسماعيل العربية من العرب العاربة الذين هم من قحطان وإن كان قد ورد ذكرهما في التوراة والقرآن . نفى ذلك الدكتور وليس له اختيار في هذا النفي لأنه مضطر أمام الدليل القطعي ، والدليل الذي اضطره إلى ذلك هو أنه ثبت أن لغة قحطان أي لغة جنوب جزيرة العرب تخالف اللغة التي يتكلم بها أهل الحجاز فنسبتها إلى اللغة العربية كالنسبة بين اللغة العربية وبين أي لغة سامية ، فإذا كانت هذه القصة صحيحة وكان اسماعيل وبنوه قد تعلموا العربية من القحطانية ، فكيف بعد ما بين اللغة العربية العدنانية واللغة القحطانية ؟

نحن إذن بين امرين إما أن نقبل هذه القصة ونرفض ذلك الدليل القطعي أو العكس ، ولا مندوحة تجوز رفض الدليل القطعي فلا بد من رفض هذه القصة وانكارها والأذعان للدليل القطعي : ننكرها بجملتها فلم يوجد إبراهيم واسماعيل فضلاً عن بنائهما الكعبة وهجرتهم إلى مكة وتعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، ونحن مضطرون إلى ذلك وإن حدثنا القرآن والتوراة عنهما فإن ورود هذين الاسمين فيهما لا يكفي لوجودهما التاريخي .

هذا دليل الدكتور وسنبداً في مناقشته قبل الدخول في تفصيلات المناقشة — نذكر مقدمة ينبغي أن تعلم وهي أن القرآن لم يمرض لحديث

تعلم اسماعيل العربية من قحطان وانما الذي عرض له وجودهما وهجرتهما وبنائهما الكعبة ، وانما الذي عرض لتعلم اسماعيل العربية من القحطانية هم مؤرخو اللغة . وبعد فسنسلم للدكتور جدلا كل ما قاله عن البعد بين القحطانية والعدنانية بعنا يجعلهما لغتين مستقلتين ومن انه لو تعلم اسماعيل من القحطانية الكانت اللغتان متفقتين أو متقاربتين .

ولكننا نقول له ان دليلك لا ينفي الا ان اسماعيل تعلم اللغة العربية من القحطانيين فانما وجودهما وهجرتهما الى مكة وبنائهما الكعبة وهي الامور التي عرض لها القرآن فلا ينفيها ولا يتعرض لها ، فمما يتفق مع دليلك ان يكون ابراهيم واسماعيل قد وجدا وهاجرا الى مكة وبنيا الكعبة وتعلم اسماعيل وابناؤه العربية من غير القحطانيين من العرب الذين خلقهم الله ان يتكلموا العربية الحجازية التي بقيت الى مجيء الاسلام ، فالدليل القطعي لا ينفي الا شيئا واحدا وهو تعلم اسماعيل وبنيه العربية من القحطانية ، فمن الواجب ان يقتصر به على ذلك ولا يعدي الى القصة جميعها فينفيها اذ لا منافاة بينه وبين بقيتها . ومثل الدكتور في ذلك مثل من يسمع مؤرخين احدهما اللورد كتشنر كان عميد الدولة البريطانية في مصر والاخر يقول انه كان عميدها في مصر سنة ١٩٢٠ فيقول : ان التاريخ يفيد ان اللورد كتشنر غرق في زمن الحرب العظمى التي انتهت قبل هذا التاريخ فما قاله المؤرخان كذب ولم يكن اللورد كتشنر عميدا لانكلترا في مصر وقتا ما . كذب المؤرخين واكذب القصة جميعها والواجب المنطقي لنفي كونه عميدا في زمن سنة ١٩٢٠ ولم يعد النفي الى كونه عميدا ولم يكذب القرآن فيما قاله وهو لم يعرض لما نفاه الدليل وانما عرض لغيره .

فيادكتور دليلك اقصر من دعواك : انت تدعي نفي وجود ابراهيم واسماعيل وهجرتهما الى مكة وبنائهما الكعبة وتعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، ودليلك انما ينفي الاخير وهو تعلم اسماعيل العربية من القحطانية ، فاما ما عدا ذلك فلا ، ويسمي علماء المناظرة ذلك بمنع التقريب والتقريب الدليل على وجه يستلزم المطلوب ، ويقولون في مثل ذلك

ان التقريب غير مسلم أي أنك سقطت الدليل على وجه لا يستلزم المطلوب
فمثلك مثل من ادعى ان هذا الشبح انسان ويستدل على هذه الدعوى
بأنه متحرك بالارادة وكل متحرك بالارادة حيوان ، نعم الدليل مسلم
ولكنه لا يستلزم المطلوب وهو انه انسان .

فالمنطق يأمرك اذا نفي الدليل شيئاً ان نقصره على ذلك الشيء ولا
نعدّه الى ما عداه ، وقد رأيت في مثال اللورد كتشنر كيف نخطئ اذا
عدينا النفي الى غير ما اقام عليه الدليل - ولو اردنا ان نصوغ دليلك
في قالب منطقي لكان هكذا : لو كانت 'الحجازية' اصلها القحطانية لما بعد
ما بينهما هذا البعد لكنهما متباعدتان ، اذن فليست الحجازية اصلها
القحطانية ، هذه النتيجة فقط ولكنك تزيد فيها ما يأتي : لم يوجد
ابراهيم واسماعيل ولم يبنيا الكعبة ولم يهاجرا الى مكة . وهذا هوس
ليس منطقياً ويظهر ان الدكتور طه علم ان دليله لا ينتج عن تكذيب القرآن
فيما ذكره فلم يرتب التكذيب على الدليل ولم يقل (واذن) التي يستعملها
دائماً في كلامه وقال فواضح جداً لكل من له الملم بالبحث التاريخي عامة
ويدرس الاساطير والقصص خاصة ان هذه النظرية متكلفة مصطنعة في
عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية ، او اقتصادية ، او سياسية .
وهو بين شرين لا مفر منهما اما ان يكون اجترأ على تكذيب القرآن في
وجود ابراهيم واسماعيل بدون دليل وليس بيده الا قوله فواضح جداً -
وحينئذ تكون دعوى لا دليل عليها ، والدعوى ان لم تقم عليها بينة لم
يعبأ بها واما ان يكون قد كذب القرآن بذلك الدليل ، وقد علمنا انه اقصر
من دعواه ولا ينتج تكذيب القرآن .

هذا وقد رأى القراء اننا لم نناقش الدكتور على قلعة ان القرآن
نص يقيني وهو حجة على كل ما خالفه ، وانما ناقشناه على قاعدة
انه نص تاريخي كنص أي مؤرخ من البشر تنزلاً منا ، وبيننا له ان دعواه
لم تتم لان الدليل العقلي الذي استعمله لا ينهض فلم تلزمه بنصوص
الدين لئلا يقال ان ذلك لا يلزمه الا المتدين وانما الزمناه بالادلة العقلية
المشتركة للانسانية كلها من تدين ومن لم يتدين ولا يظن ظان ان ادلة

الدكتور الحديثة تقف عند هذا الحد من العبث والبطلان ، بل ان لها لونا آخر من اللون العبث والبطلان وهو ما سنبينه .

يزعم الدكتور طه ان قصة ابراهيم واسماعيل موضوعة وضعها اليهود لغرض وهو انهم كانوا يريدون ان يثبتوا القرابة بينهم وبين العرب ليعيشوا معهم عيشة راضية وقبلتها مكة لغرض سياسي وديني لانهم كانوا يريدون ان ينصل نسبهم باصل من تلك الاصول المأجدة ، وقبلها الاسلام لغرض ديني . وهو انه يريد ان يثبت صلة بينه وبين اليهودية .

هكذا زعم الدكتور وليس معه نص تاريخي يفيد ذلك وليس بيده الا ان ذلك يمكن ان يكون قد كان ، واذا تصور على هذه الحال كان منسجما ونحن نقول له يا دكتور ان التاريخ لا يثبت بمثل ذلك وليس كل ما يمكن ان يكون قد كان يجب ان يكون قد كان ، ولا يثبت الامر بان هذه العلة يجوز ان تكون له . وان مثلك في ذلك مثل مؤرخ يأتي بعد مائتي سنة يقول : يزعم المؤرخون ان امريكا اشتركت مع فرنسا في حرب المانيا في الميدان الغربي ، وهذا باطل فاين امريكا من فرنسا ان بينهما المحيط الاطلسي على سمته . القصة مكذوبة وقد اخترعها بعض الامريكان ليقرب الشعبين الامريكي والفرنسي بعضهما من بعض ، ان هذه القصة تفيد انهما حاربا معا جنبا لجنب عدوا مشتركا فهي تدعو الى تآلف الشعبين فقد وضعت لذلك ، وان الذي يدعو الى ان توضع علوم الاوائل كلها موضع الشك ولا يثبت الا ما قام العلم على اثباته لا يسوغ له ان يطلب منا الاقتناع بمثل هذه الظنون والافهام وليس عنده من الحججة الا ان ذلك يمكن ان يكون قد كان ، فيجب ان يكون قد كان اللهم الا اذا كان يدعو الى رفض تقليد الماضين الى تقليده هو ، وان قارئ كتابه يحتاجون الى مقدار عظيم من البلاهة والعمالة حتى يقتنعوا بامثال تلك الحجج التي هي كما قال الاول .

حجج نهافت كالزجاج تخالفا حقا وكل كاسر مكسور

اذا اراد الدكتور ان يفتح الامة بكتابه فعليه اولا ان يبدأ بالغاء مقولها

وعكس منطقها السليم ، وإحالة تلك العقول عن فطرتها ، حتى يكون على غرار عقله . ثم يلقي إليها بعد أمثال تلك الاوهام وحينئذ تقنع بها وتصدق ويتم له ما يريد ولكن : دون ذلك وينفق (١) .

الا لايقولان الدكتور بعد اليوم : المنهج العلمي الحديث ولا البرهان العلمي ، ولا يتمسحن باعتاب العلماء ، فقد اطلعنا القراء على قيمة نهجه الحديث ومنطقه الجديد فعلموا ان ذلك ليس منطق العقلاء وانما هو منطق البله والاشمار والمرودين .

وبعد فكتاب الشعر الجاهلي ان كان ألفه مؤلفه كتابا في المغالطات ، والمثلة على القياس الذي لم يستكمل شروط الانتاج ، والاضرب العقيمة والخبجة الخداج ، فهو كتاب جيد في بابه واف بالغرض الذي قصد اليه . وان كان ألفه مؤلفه كتابا في تاريخ الشعر والادب فليس من ذلك في قليل ولا كثير .

ولو ان في بلدنا مجمعا علميا منظما لحكمته بيني وبين الدكتور ولرضيت حكمه فيما رميت به دعوى الدكتور من انها دعوى يقيم عليها ادلة أقصر منها تارة ، ويدعيها بدون برهان تارة ، ويثبت الشيء بانه ممكن تارة اخرى ، والكان من وراء ذلك التحكيم الخير ، فانه اذا حكم علي تواريت خجلا وارحت الناس من سماع هذا النقد وامثاله ، واذا حكم على الدكتور حمى شباب الامة من التورط في آرائه وحماها ايضا من عدوى ذلك المنهج الخاطيء في البحث - اما والبلد ليس فيها مثل المجمع فادعو المشتغلين بالتتقق ان يبدوا آراءهم فيما بيني وبين الدكتور من خلاف ، انهم ان فعلوا ذلك خدموا العلم والحقيقة ومن اولى من هؤلاء بخدمة العلم المظلوم والحقيقة المهيضة .

محمد عرفة
استاذ بمعهد الاسكندرية

(١) تنمة المثل وينفق الحمار - والامثال لا تضر وما كل قارىء يعرف المثل فتفيه النقط عن ذكر الحمار الراد بنفاقه نفاق كتاب الدكتور .

(المنار) قد بينت في مقالي الذي نشرته في الجزء الماضي طريقة الدكتور طه حسين في البحث والاستدلال في قواعد بسط الاستاذ الشيخ الشيخ محمد عرفة غراب الكلام على اثنتين منها وهما الدعوى بدون دليل والاستدلال بما لا يدل على المطلوب ، وهو ضرب من المغالطة الواضحة وقد كبر من شأنها بتمنيه عرضها على مجمع علمي لو وجد او بعرضها على المشتغلين بعلم المنطق ليعلم ايهما الخاطيء في البحث ، وحسبنا من علم الجمهور - اهل المنطق الفني ومن دونهم من اهل المنطق الفطري - بسفسة الدكتور ومغالطاته انه لم يدافع عنه احد من الملاحدة ولا اعضاء جمعيته وحزبهم ولا قراضوه ولا اثنوا عليه كما فعل بمضهم بالدفاع عن علي عبد الرازق اذ كان احلق منه في المغالكة والسفسطة .

نعم ان بعض التلاميذ والموام قد يفترون بخلافته فالواجب بيان ضلاله واضلاله في مسائل الكتاب لا في الاستدلال عليها فقط .

المصدر : مجلة المنار ج ١٠ مجلد ٢٧ يناير ١٩٢٧ .
ملاحظة : الملاحظات والمقالات الموقعة باسم المنار هي بقلم صاحب « المنار » الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٢٥) م . ح .

نقد كتاب الشعر الجاهلي

محمد فريد وجدي ١٨٧٨ - ١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد خاتم
النبيين ، وعلى اخوانه المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

مقدمة الكتاب

اما بعد فقد قرأت في الجرائد منذ شهور ، تقاريط لكتاب وضعه
الاستاذ الدكتور طه حسين ، اسماه ((في الشعر الجاهلي) ، فقلت في نفسي
مدرس الآداب العربية ، في الجامعة المصرية أراد أن لا يقصر ثمرة جهوده
العقلية على تلاميذه ، فنشرها ليستفيد منها الكافة ، فحبذا لو احتذى
شأله جميع المدرسين . ولكني لم ألبث أن قرأت فصولا ضافية الديول
لبعض شيوخ الادب في المدارس المصرية ، يشنون فيها على هذا الكتاب
حربا طاحنة ، تذهب باليابس والاخضر ، باعتبار أنه قد استطرد الى ذكر
مسائل اتبع فيها غير سبيل المؤمنين ، بل جحد بعض ما نص عليه الكتاب
المبين . لم تمض غير أيام حتى قرأت في الجرائد ان علماء الجامع الازهر
قد اجتمعوا وقرروا ان في كتاب الدكتور طه حسين كفرا صريحا ، وطلبوا
الحكومة بمصادرته ، ومنع مؤلفه عن التدريس ، كيلا يفتن نابتة الامة
بما يبثه فيها من الاضاليل . وبينما الناس ينتظرون جواب الحكومة اذا
بالدكتور يعلن انه لم يقصد الطعن في الدين ، وانه يؤمن بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر الخ الخ .

هذه الحقائق المتصلة من الحوادث التي اثارها هذا الكتاب حفزتني الى الاطلاع عليه . فرايت فيه اخطاء اجتماعية وبسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها ، والفيت الدكتور لاضطراره الى تصيد الاسباب التي حملت ذوي النفوس المريضة على اختلاق الشر ونسبته الى الجاهليين ، قد عول على كتب المحاضرات ، وهي قرارة الاكاذيب ، ومستنقع المفتريات من كل نوع . فجاء كتابه بما حمل من اوزار المفترين ، وبما غلا هو فيه من تقصي اقراءات المتناظرين ، وتسويلات المتنافسين ، من القلادة الاعلى ، طامسا معالم اكبر تورة اجتماعية حدثت في العالم ، الا وهي ظهور الديانة الاسلامية ، وما استتبع انتشارها من سقوط دول وقيام دول ، وفناء لغات وشعوب في لغات وشعوب ، وتبدل مبادئ واصول بمبادئ واصول ، وطروء عهد جديد على الانسانية انتقلت به درجات كثيرة في معارج العلم والفلسفة والاخلاق وال عمران .

لا ندعي هنا ان الدكتور طه حسين قصد الي تشويه جمال هذه الثورة الكبرى في كتابه ، ولكنه بغلوه في تحري اسباب الاختلاق ، على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق ، وبالعوامل التي حملت عليه ، وبالطامع التي دفعت اليه ، ولم يسر على ذلك ما يقضي به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص ، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على اصدار الاحكام جزافا في تركيب المسلمين الاولين ، وتاليف مجتمعاتهم ، مما لا يتفق واثار هذه الثورة التي قاموا بها في عالم الاجتماع والعلم والمدينة ، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصومها ومناظروها قديما وحديثا .

فبينما علماء الغرب لا يتمالكون انفسهم من الدهش من قوة هذه الحركة الاجتماعية التي انبعثت من بلاد العرب فجأة فرجت العالم كله رجاء اذهلته عن كل شيء الا عنها ، ولا يزال دريها يرن في آفاقه ، يصعب علينا ان نرى واحدا منا يضع كتابا بالغرض قليل الخطر ، هو اثبات ان الشر الجاهلي مختلق ، يكون اثره على قارئه ان يحترق هذه الثورة الكبرى ، ويستخف برجالها الذين اخذوا حظا من تمثيلها ، والاضطلاع بلعابها ، وقد امت العالم ببركات لا يزال يعترف لها بها الى اليوم .

فإذا كان الانجليزي يفخر بأن آباءه كانوا اول من فكر في وضع حد لحكم الفرر ، وإذا كان الفرنسي يفخر بأن اسلافه اول من فكر في تعيين حقوق الانسان الطبيعية ، فهلا يفخر المسلمون بان اوائهم كانوا بايعاز من دينهم او من اعلن الناس كافة بأن الانسانية قد بلغت سن الرشد ، وانها أصبحت لا يصح ان تخضع لطوائف تنتحل لنفسها حق الوصاية عليها ، وان السلطان للجماعة لا للفرد ، وان المعول على العقل لا على الموروثات ، وان الايمان بالدليل لا بالتقليد ، وان التمايز بالمزايا لا بالجنسية ولا بالقومية ، وان الحكم بالشورى لا بالاستبداد ، وان الدين هو الفطرة التي فطر الله النفوس عليها ، لا الرسوم ولا الاشكال التي يزينها الوهم ويولدها الخيال ، وان اصل كل الاديان واحد ، وما فرق الناس شيئا واحزابا إلا قادتهم بما صوروه لهم من الاباطيل والاضاليل الخ ، قلت فهلا يفخر المسلمون بهذه العراقة في الاصول العالية مع الفاحرين . ويتحققون ان لهم اكبر اثر في ترقية الانسانية مع العاملين ؟

اني ما كدت اتم قراءة كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدني مدفوعا لوضع نقد عليه استهدف به غرضين : (اولهما) مناقشته في المسائل التي تتعلق بتكوين الامة الاسلامية ، ولا يتفق حكمه فيها والمقررات التاريخية ، ولا الاصول الاجتماعية ، وارى الاغضاء عنها ضارا كل الضرر بنابذة هذا الجيل ، وهم في هذا الدور من الانتقال السريع .

(وثانيهما) مقابلة اول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه ، من العناية ، وهذه العناية لا تعنى في عالم العلم غير النقد والتمحيص .

فالله ارجو أن يجعل عملي هذا خالصا من شوائب المراءاة والمماراة وان ينفع به الناس انه الموفق للهداية ، المعين على بلوغ الكفاية .

● محمد فريد وجدي

المصدر : نقد كتاب الشعر الجاهلي . مقدمة الكتاب تأليف محمد فريد وجدي ، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين . القاهرة الطبعة الاولى ١٩٢٦

الاحاد في الجامعة المصرية

الدكتور طه حسين المتخرج من الجامعة المصرية والمدرس بها القى محاضرات فيها وجمعها في كتاب سماه « الشعر الجاهلي » وقد طعن فيه على الاسلام والقرآن ، فهاج الرأي العام ، وتناول كتابه الادباء والكتاب، بالرد والتفنيد وقد كلف فضيلة شيخ الازهر ورئيس المعاهد الدينية لجنة من علماء الازهر بالنظر في الكتاب ووضع تقرير عنه فقامت بذلك ورفعت لفضيلته التقرير الآتي :

وهذا نصه كما جاء في مقطع يوم الاحد ٢٦ شوال سنة ١٣٤٤ .

كتاب الشعر الجاهلي

رأي لجنة العلماء فيه

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الازهر .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد فقد اجتمعت اللجنة المؤلفة بأمر فضيلتكم من الموقعين عليه لفحص كتاب طه حسين المسمى « في الشعر الجاهلي » بمناسبة ما قيل عنه من تكذيب القرآن الكريم واطلعت على الكتاب وهذا ما ترفعه الى فضيلتكم عنه بعد فحصه واستقراء ما فيه .

يقع الكتاب في ١٨٣ صفحة وموضوعه انكار الشعر الجاهلي وأنه منتحل بعد الاسلام لأسباب زعمها - وقال انه بنى بحثه على التجرد من كل شيء، حتى من دينه وقوميته عملاً بمذهب (ديكارت) الفرنسي . والكتاب كله مملوء بروح الالحاد والزندقة ، وفيه مغامر عديدة ضد الدين مبنوثة فيه ، لا يجوز بحال أن تلقى إلى تلامذة لم يكن عندهم من المعلومات الدينية ما يتقون به هذا التضليل المفسد لمقائدهم ، والموجب للخلف ، والشقاق في الأمة ، وإثارة فتنة عنيفة دينية ضد دين الدولة ودين الأمة .

وترى اللجنة أنه إذا لم تكافح هذه الروح الالحادية في التعليم ، ويفتعل هذا الشر من أصله ، وتظهر دور التعليم من (اللا دينية) التي يعمل بعض الأفراد على نشرها بتدبير واحكام تحت ستار حرية الرأي اختل النظام وفشت الفوضى واضطرب حبل الأمن لأن الدين هو أساس الطمأنينة والنظام .

الكتاب وضع في ظاهره لانكار الشعر الجاهلي ، ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر ، ومعولاً لهدم الأديان ، وكأنه ما وضع إلا ليأتي عليها من أصولها وبخاصة الدين الاسلامي ، فإنه تدرج بهذا البحث إلى انكار اصل كبير من أصول اللغة العربية من الشعر والنثر قبل الاسلام مما يرجع إليه في فهم القرآن والحديث . هذا ما يرمي إليه الكتاب في جملة : ولنذكر نبذاً منه بعضها كفر صريح ، وبعضها يرمي إلى الالحاد والزندقة فتقول :

قال في صفحة ٢٦ ما نصه (للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل) وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبت وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل ابن ابراهيم إلى مكة) .

انكر المؤلف بهذا هجرة (١) سيدنا ابراهيم مع ولده اسماعيل عليهما

(١) عبارة المخلول نص في انكار ابراهيم واسماعيل انفسهما فضلاً عن هجرتهما فلماذا يذكر التقرير انكاره لهجرتهما فقط ويسكت عن انكاره لوجودهما . هذا وانكار ابراهيم واسماعيل مصادمة صريحة للكتب السماوية والشرائع الالهية وللتواتر والتاريخ .

« المنار »

السلام وقال : ان ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى في سورة ابراهيم حكاية عنه عليه الصلاة والسلام (واذا قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيتي ان نعبد الاصنام ، رب انهن اضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم * ربنا اني اسكنت من ذريتني بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا) وقال في الصفحة نفسها (ونحن مضطرون الى ان نرى في هذه القصة - يريد قصة الهجرة - نوعاً من الحيلة لاثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة اخرى) .

وهو في هذا النص يصرح بان القرآن اختلق هذه الصلة بين اسماعيل والعرب ليحتل على جلب اليهود وتأليفهم ، ولينسب العرب الى اصل ماجد نوراً وبهتاناً لأسباب سياسية او دينية ، وهذا من منتهى الفجور والفحش ، والظلم على القرآن الكريم في اثباته أبوة ابراهيم للعرب في قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم : الآية)

وقال في صفحة ٢٧ (وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة - الهجرة المذكورة - في القرن السابع للمسيح الى ان قال في صفحة ٢٨ اذا فليس ما يمنع قريشاً من ان تقبل هذه الاسطورة التي تفيد ان الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم كما قبلت روما قبل ذلك ، وبأسباب مشابهة اسطورة أخرى صنعتها اليونان تثبت ان روما متصلة باينياس بن بريام صاحب طرواده ، امر هذه القصة إذا واضح فهي حديثة العهد قبل الاسلام ، واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني ، وسياسي أيضاً ، واذا فيستطيع التاريخ الادبي واللغوي الا يحفل بها عندما يريد ان يتعرف اصل اللغة العربية الفصحى) وهو تكذيب صريح لقول الله تعالى (واذا بوانا لبراهيم مكان البيت الا تشارك بي شيئاً وظهر بيتي للطائفين والقائمين والراكع السجود ، واذن في الناس

بالحج يأتوك رجلا وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق) وقوله تعالى
(واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن
طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) الى غير ذلك من الآيات
التي في هذا الموضوع وهو فوق تكليبه للقرآن يقول ان فيه تدليسا
واحتمالا لاسباب سياسية ودينية من أجلها اختلق هذه الاخبار - بهذا
وامثاله يقرر المؤلف ان القرآن لا يوافق بأخباره ولا بما فيه من التاريخ .

واكم يترك هذا الكفر الفاحش في عقول الطلبة من اثر سيء ؟ وهم
لعقائدهم ودينهم ، وملذا بقي : القرآن من ثقة وحرمة في نفوسهم بعد
هذا التكذيب .

او قال في صفحة ٣٣ (وهناك شيء بعيد الاثر لو أن لدينا أو لدى غيرنا
من الوقت ما يمكننا من استقصائه أو تفصيل القول فيه ، وهو أن القرآن
الذي تلي بلغة واحدة ، ولهجة واحدة هي لغة قریش ولهجتها ، لم يكد
يتناولها القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته ، وتعددت اللهجات
فيه ، وإباینت تباینًا كثيرا الى أن قال : انما نشر الى اختلاف آخر في
القراءات يقبله العقل ويسیغه النقل ، وتقضيه ضرورة اختلاف اللهجات
بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها ، وألسنتها ، وشفاهها
لتقرأ القرآن كما كان يثلوه النبي وعشيرته من قریش فقرائه كما كانت
تتكلم الى آخر ما قال .

وهذا تصريح منه بأن القراءات لم تكن منقولة كلها عن النبي صلى
الله عليه وسلم ، بل هي من اختلاف لهجات القبائل ، فالسبع المتواترة
ليست عنده واردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم في أصول
الدين أن السبع متواترة ، وأن طريقها الوحي فمنكرها كافر .

وعدا ما سردناه توجد صحائف عديدة فيها مغلر مؤلة منها ماقاله
في صفحة ٨١ (وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان
الاسلام يجدد دين ابراهيم) وفي الصفحة التي قبلها (أما المسلمون فقد

ارادوا ان يثبتوا للاسلام اولى في بلاد العرب كانت قبل ان يبعث النبي ،
وان خلاصة الدين الاسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي
اوحاه الله الى الانبياء من قبل) وهو في هذا يكذب قوله تعالى (ثم اوحينا
اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقوله تعالى
(ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا)
الى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الموضوع ، ومنها غير ذلك كثير مما
هو مبثوث في الكتاب .

ولا ريب في ان هذا هو عين ما كان يطمع به المشركون على القرآن في
مبدأ امره قال تعالى في سورة الفرقان (وقل الذين كفروا ان هذا الا فك
افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا اساطير
الاولين اكتتبتها فهي تعلي عليه بكرة واصيلا) .

فاللجنة ترفع الى فضيلتكم ما وصلت اليه على سرعة من الوقت مما
سطره المؤلف من الكفر الصريح ، وتترك ما ينطوي في ثناياه من الاسناد
والزندقة مما لا يخفى على الناظر .

نرفعه مطالبين فضيلتكم والحكومة بوضع حد لهذه الفوضى الالحادية
بخصوصا التي تنبت في التعليم لهدم الدين بمعول الزندقة كل يوم فما
نفرغ من حادثة الا ونستقبل حوادث لا تدع المؤمن مطمئنا على دينه .

نطالب فضيلتكم والحكومة بذلك حرصا على ابناء الدولة ان يتفشى
هذا الداء فيهم وهم رجال المستقبل ، وسيكون بيدهم الحل والعقد في
مهام الامور .

ونحن لا نفهم كيف تصرف اموال المسلمين واوقافهم على تعليم نتيجه
هذا الالحاد الذي يبثه هذا الداعي ويتقاضى عليه مرتبا ضخما من هذه
الاموال .

وهل بهذه الطريقة وعلى هذا النحو تخدم وزارة المعارف ابناء الامة ورجال
الغد وبني صرح التعليم والتربية ؟

نسأل الله أن يوفقكم لما فيه المصلحة والسلام .
٢٦ سوال سنة ١٣٤٤

الامضاءات

محمود الديناري . عبد المعطي الشرشمي . محمد عبد السلام القباني
عبد ربه مفتاح . عبد الحكم عطا . محمد هلائي الابياري . عبد الرحمن
المحلاوي . محمد علي سلامة .

المصدر : مجلة التار ج ٢ المجلد ٢٧ . ١٢ مايو ١٩٢٦ .

تحت رؤية القرآن: المعركة بين الجديد والقديم

مصطفى صادق الرافعي

تبيينه

نلفت القراء الى اننا في هذا الكتاب انما نعمل على اسقاط فكرة
خطرة ، واذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه فقد تكون غدا فيمن
لا نعرفه ، ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا جهلنا من نجهله
يلطفه منه ، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه .

والفكرة لا تسمى بأسماء الناس ، وقد تكون لآلف سنة خلت ثم
تعود بعد آلف سنة تأتي ، فما توصف من بعد الا كما وصفت من قبل
ما دام موقعها في النفس لم يتغير ، ولا نظنه سيأتي يوم يذكر فيه
إبليس فيقال : رضي الله عنه .

ونحن مستيقنون أن ليس في جدال من نجادلهم عائدة على انفسهم ،
إذ هم لا يضلون الا بعلم وعلى بينة ، فمن ثم نزعنا في أسلوب الكتاب
الى منحنى بياني نديره على سياسة من الكلام بعينها ، فان كان فيه
من الشدة أو العنف أو القول المؤلم أو التهكم ، فما ذلك اردنا ، ولكننا
كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجر الأول
بل عظة الثاني ، ولهذا في مناحي البيان أسلوب ولذلك أسلوب غيره ؛
ألا وان أقبح من القبح ما جعله يسمى قبحا ، وان أحسن من الحسن
ما جعله حسنا ، ولكل معنى باعتباره موضع ، ولكل موضع في نظره
وصف ولكل وصف في غرضه تعبير ، ولكل تعبير أسلوبه وطريقته ؛
فهذا ما ننبه اليه .

ولو كان أصحابنا غير من هم في الأثر والمنزلة لكان أسلوبنا غير ما
هو في النمط والعبرة ، والسلام .

الرافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على رسله وانبيائه .

اللهم هبى لنا الخير ، واعزم لنا على الرشد ، وآتنا من لدنك رحمة ، واكتب لنا السلامة في الراي ، وجنبنا فتنة الشيطان ان يقوى بها منضع ، او نضعف لها فيقوى ، ولا تدعنا من كواكب هداية منك في كل ظلمة شك منا ، واعصمنا ان تكون آثاؤنا في الحق البين مكان الليل من نهاره ، او تنزل ظنوننا من انيقين النير منزلة الدخان من ناره ، نسالك بوجهك وتوسل اليك بحمدك ونسوك بأفئدة عرفتك حين كذب غيرها فافرت ، وآمنت بك فزلزل غيرها واستقرت .

واما بعد ؛ فاني قد نظرت فلذا كل ما كنت أريد ان أقوله في هذه الكلمة قد كتبه في هذه المقالات ، فهي لا تدع مسألة ولا تترك شبهة ولا تزال تأخذ بيد القارئ فتضعها على غلطات اصحابنا المجددين ، بل المبددين ، واحدة بعد واحدة ، وشيئا بعد شيء ، فهو منا في برهان لاخ من حيث بدأ الى حيث ينتهي ، كالنجم : لا يزال بعين منه أين مشى وكيف تلفت .

وما رأيت فئة ياكل الدليل الواحد أدلتها جميعا كهؤلاء المجددين في العربية ، فهم عند انفسهم كالجمرة المتوقدة : لا يشبعها حطب الدنيا ولكن غرفة من الماء تاكل الجمرة ؛ وهم مخدولون بقوة الله ، اذ ليس فيهم رجل فصيح بليغ يكون لهم كالتعبير من الطبيعة عن هذا المذهب ، حتى يثبت مذهبهم فلا يدفع ويقوم فلا ينقص ، ولن يأتي لهم هذا الرجل ، فلو انه اتفق لهم لكان أشد أعدائهم ، ولا غلظ فيهم النكاية ، فما يزال ينقصهم أبدا ، ولن يتموا به أبدا ؛ وذلك من عجيب تقدير الله في العربية ، لمكان القرآن منها ، حتى لا يدخل في طمع أحد ولا تناله يد متناول ، فهو محفوظ بالقدر كما ترى ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وإن طائفة من الذباب لو أصابت لها حاميا مدافعا من النسور
فجاءت تطنُّ بأجنحتها لتلوذ به وتنضوي إليه ، ثم قصف النسور قصفة
بجناحيه لأهلكها أو بعثرها وشردها ، وهو كان في وهما ملاذا وكان
عندها حمى فذلك مثل القوم وما يحتاجون إليه من الرجل البليغ إذا
التمسوه فأصابوه !



أما أنه ليس يقوم العقل ما يسمى عقلا ، ولكن ما يسمى غرضا
وحاجة ورغبة واضطرابا ؛ فأهواء امرئ من الناس جاعلة له عقلا غير
محفل من لم تدعه نفسه الى مثل هذه الأهواء ، وإن كان أمرهما واحدا
بعد ومن ههنا اختلافه مع هؤلاء المجددين ، فإن لهم اغراضا لا مناص
أن تجعل لهم عقولا يحسبها وعلى مقاديرها في المصلحة والمفسدة ،
وهم صور من ضمائرهم ، فليس في الملحد يكون ضمير مؤمن ، ولا في
الفاجر ضمير تقى ، ولا في المستهتر ضمير ورع ؛ ومن ثم وجب أن
تنحدرهم الأمة وأن تقرهم في ذلك الحيز من تخيلاتهم وأوهامهم ، فهم
من الأمة إذا غلبت هي عليهم ، وليسوا منها إذا غلبوا عليها ، ما مثلهم
إلا كالرمل والحصى : تكون في مجرى الماء العذب فتكون شيئا من طبيعته
وتحدث فيه لونا من الحسن والرونق ، وإذا هي خيال من شعر النهر ،
حتى إذا خرجت مع الماء وانسأغت في حلق من يجرعه كانت بلاء وأذى
وانقلب للماء سببة ورمي بها ورميت به !

وهم يريدون بأرائهم الأمة ومصالحهم ومراشدتها ، ويقولون في ذلك
بما يسهو طفيانهم على القول واتساعهم في الكلام واقتدارهم على الثثرة ،
حتى إذا فتشت وحقت لم تجد في أقوالهم إلا ذواتهم وأغراضهم
وأهواءهم يريدون أن يبتلوا بها الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم ،
كالسلول يصفحك ليلفك تحيته وسلامه فلا يلفك إلا مرضه وأسباب
موته !

ولقد كان من أشدهم غراما وشراسة وحمقا هذا الدكتور « طه حسين » أستاذ الآداب العربية في الجامعة المصرية ؛ فكانت دروسه الأولى « في الشعر الجاهلي » كفرا بالله وسخرية بالناس ، فكذب الأديان وسفه التواريخ وكثر غلظه وجهله ، فلم تكن في الطبيعة قوة تعينه على حمل كل ذلك والقيام به الا المكابرة واللجاجة ؛ فمر يهدي في دروسه ، لا هو يثبت الحقيقة الخيالية ولا يترك الحقيقة الثابتة ، وأراد أن يسلب أهل العلم ما يعلمونه كما يسلبك اللص ما تملك بالجرأة لا بالحق . وبالحيلة لا بالافتناع ، وعن غفلة لا عن بيئية . وما يضحكني الا أن أرى هذا الأستاذ واثنين أو ثلاثة من أشباهه يريدون أن يكونوا ثورة في الأدب العربي ، ونسوا أنهم إنما يريدون ذلك لا أنهم خلقوا لذلك ، فكان « طه » في الجامعة كالممثل : إنما وسيلته أن يتصنع ويجترىء ويزور ، فلما نزعنا عنه ثوب الرواية . . نزعنا في الثوب الحادثة والرواية والممثل جميعا ، ورجع طه حسين وهو طه حسين . وأين هو أو مثله من وسائل القدرة ، وما وسائلها الا القلم الذي لا يجارى ، والفكر الذي لا ينقض ، والخيال الذي لا يلحق ، والقوة المستحصدة ، والطبع المستجيب ، والكلام الذي تراه حيا ساميا فتحسبه ينبع من موضع يد الله في النفس الانسانية ؟

على أن أستاذ الجامعة إنما يقلد الهدامين من جبابة العقول في أوروبا ، وأنه منهم ولكن كما تكون هذه الكرة الجغرافية المدرسية التي تصور عليها القارات الخمس — من كرة الأرض التي تحمل القارات الخمس . . . ولايسر عليه أن يملك أوروبا أو أمريكا من أن يملك عقلا كتلك العقول التي يحاول مثل عملها في غير هندستها ولا حكمتها ولا سموها ولا معانيها ؛ وظنك أنت قد غرست في جناح غراب ريشة من الطاووس لتكون زرعا ينبت الريش من مثله فينقلب الغراب من ذلك يوما يزدهي ويتخايل ويبرق ويرف بألوانه وتحاسينه ، فانه لينقلب طاووسا قبل أن تعد طه حسين عبقريا فيلسوفا . . . ! فالرجل متخلف الذهن تستعجم عليه الأساليب الدقيقة ومعانيها وأكبر ما معه أنه يتحلق ويتدهى ويتشبه بالمفكرين ولكن في ثوب الرواية . . . !

هو وأمثاله المجددون يسمون كتابا وعلماء وإدباء ؛ إذ كان لا بد لهم من نعت وسمة في طبقات الأمة ، غير أنهم على التحقيق غلطت إنسانية تخرجها الأقدار في شكل علمي أو أدبي ليعارض بها صوابا كاد يهمله الناس ، فيخشى الناس أن يتحيف الخطأ صوابهم أو يذهب به ، فيستمسكون بحبله ويشدون عليه ، ويعود ذلك الصواب بمد ظهور الخطأ الذي يقابله ووقوفه بإزائه موقف العدو من العدو ، كأنما ظهر دليله لا نقيضه ، فيعرف اناس وجه الحاجة اليه ، ومكان الفناء فيه ، وضرورة النفع به ، وكان وشيكا أن يضع ، فكانهم استنقلوه ، وكل ذلك مما يكبره ويرفعه ويبين عنه أحسن إبانة وأوضحها ، وكل ذلك مما يغرى به الحرص على سنة طبيعية قاهرة لا تدافع ؛ وما زالت هذه من عجائب حكمة الله فيما يحوط به هذا الدين الإسلامي وكتابه العربي الخالد ، فكلما وهن عصر من عصوره رماه الله برنديق فاذا الناس أشد ما كانوا طيرة وأبلغ ما كانوا دفعا ومحلما ، وإذا الدين أقوى ما كان فيهم وأثبت ، وإذا الزنديق كأنما سيق اليهم من جهنم ليقول لهم : هلم اليها ! فيقول ميسم النار عليه : إياكم وإياها !

فالمجددون الملحدون هم جزء من الخطأ يخرج من عمله جزء من الصواب ، وما أشبههم بالمواد السامة يدافه قليلها في الدواء لتكون قوته من قوتها ، فاذا ما زجته عادت فيه غير ما كانت وهي في نفسها لا تزال كما هي .

وما نريد أن نزيد « طه » على ما قلنا فيه مما ستقرؤه في هذا الكتاب ، ولكننا نرجو أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود اليها ، فإنه الا يكن بها لا يكن بغيرها ، وأنها الا تكن به تكن بغيره .

وقد كان أمره وأمر أصحابه كما يكون من الوباء يمر بالدنيا مرة فيصيب منها ولكنه يترك في أيدي أطبائها المصل الواقي منه أبد الدهر ؛ ولقد تركوا لنا هذا الكتاب ؛ فالله نسال أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، نافعا بهذه النية ، مثوبا بهذا النفع ؛ وله الحمد في الأولى والآخرة .

مصطفى صادق الرافعي

المصدر : تحت راية القرآن ، الحركة بين القديم والجديد . الطبعة الأولى .
الكتبة الاهلية بمصر ١٩٢٦ • المقدمة .

الجامعة في مجلس النواب

ثم كان يوم الأحد الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦ ،
فعرضت ميزانية الجامعة في مجلس النواب ، فإذا غضب الله وإذا
مقتت الأمة كما ترى فيما نقله عن « جريدة الاهرام » القراء بحروفه
محصولا من مضبطة المجلس :

قال الأستاذ « صبري أبو علم » بعد أن أتى على تلخيص الجامعة
وبدئها وإلحاقها بوزارة المعارف وأنها بعد ذلك لم تكن الا قانونا ومكانا
وأعلنا من اعلانات السياسة :

... إن كل الظواهر تدل على أنها أخرجت المشروع بدون أن
تستكمل بحث الوسائل الفنية والإدارية التي يتم بها المشروع ، ودليلي
على ذلك أنه عند البدء في إنشاء القسم العلمي كانت محاضرات الكيمياء
لم يبدأ في تدريسها الا في أوائل نوفمبر بسبب اشتغال استاذ الكيمياء
في وظيفة سكرتير عام الجامعة ، أما دروس الكيمياء العملية فلم تبدأ
الا في ٣ يناير لعدم اعداد المعامل اللازمة لها ، وكذلك تدريس علم
الجيولوجيا لم يبدأ الا في أوائل فبراير ، وسبب ذلك أن استاذ ذلك
العلم كان عميد الكلية وقد استغرقت ظروف تنظيم كلية العلوم وتكوينها
كل أوقاته وجهوده ولم يكن هناك بناء خاص للمعامل كما أن الأدوات
العلمية اللازمة لم ترد الا قبل الامتحان ببضعة أسابيع ، من ذلك
سيتضح أنه كان سر خفي يدفع القائمين بالأمر الى اعلان افتتاح الجامعة
من غير تهيئة الوسائل اللازمة لها من حيث استعداد الطلبة وأهليتهم
لتلقي الدروس ؛ ومن حيث اختيار الاساتذة وفهمهم لآحوال الطلبة
الذين سيتابعونهم في تلقي الدروس منهم ؛ مع أن القانون الصادر بتكوين
الجامعة تكوينا جديدا صدر صدر بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩٢٥ على
أن يعمل به من يوم نشره .

أذكر أننا عند بحثنا في تصرفات وزير المعارف السابق سمعنا من سعادته أن معظم الإصلاحات التي أشار بإدخالها على مناهج التعليم كان الغرض منها تلبية الجامعة المصرية بطلبة يمكنهم أن يتابعوا دروسها. ومعنى هذا أنه إذا كانت الفكرة من هذه الإصلاحات إعداد طبقة من الطلاب تكون قادرة على تلقي علوم الجامعة ، فكان من الواجب أن يتأخر إنشاء هذه الأقسام حتى يتسنى للطلاب الالتحاق بالجامعة ، ولذا لا أفهم السر في إنشائها بمثل هذه السرعة ، وفي محاولة الهروب من رقابة البرلمان ، في الوقت الذي تعيش فيه الجامعة على الأموال العامة .

ظهرت الجامعة وعليها طابع الاستعجال ، فمن سرعة في تقرير إنشائها ، أتى اندفاع في تكوينها وفي تعيين المدرسين اللازمين لها .

أنشئت بقرار من مجلس الوزراء ، وهذا غير كاف من الوجهة العلمية ، فلا أظن أن جامعة تنشأ بين يوم وليلة إذ أن الجامعات نتيجة تطور مستمر للعلوم والمعارف ؛ أنها تنمو وتتطور أو تكون وتتشرب بالنظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

ثم أفاض الخطيب فيما وقع من الخلط والخبط في الجامعة وتوظيف رجالها .

جلسة يوم الاثنين

[١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦]

خطبة الأستاذ عبد الخالق عطية

حضرات النواب :

نصف مليون جنيه ! نصف مليون جنيه ! أجل نصف مليون جنيه احتملته خزائن البلاد ثمنا لقصر الزعفران ومصروفات الجامعة المصرية التي لم تنشأ على صورتها الحاضرة إلا منذ سنة ١٩٢٥ دون أن تقول

البلاد كلمتها في هذا الشأن ، والآن يطلب منكم أن تصادقوا على ثلاثمائة ألف جنيه أخرى لتكون مصروفات لهذه الجامعة في السنة الحالية .
مبالغ ضخمة وأرقام جسيمة يضجّ وبها طول ما يضجّ من ثقلها صغار الممولين ودافعوا الضرائب من هذه البلاد .

أقول ذلك ولا أراني مبالغا ، ولكني أودّ أيضاً ألا تستروحوا من كلامي رائحة الكراهة للعلم أو للصد عن ورود مناهله ومعاهده ، فإني أعتقد أن كل مال وإن عزّ يهون في جانب الغاية العظمى والغرض الأسمى الذي من أجله أنشئ ، وينشأ مثل هذا المعهد ، ولكني أعود وأقول إن الشرط كل الشرط لذلك أن نبتدىء في أعمالنا من حيث يجب الإبتداء ، والقيد كل القيد أن تكون الأنظمة التي وضعت والأساليب التي روعيت من شأنها أن تؤدي إلى هذه الغاية وتحقق ذلك الغرض . عند ذلك يستحب الانفاق ، بل يجب السخاء .

يا حضرات النواب : بالأمس تكلم حضرة الزميل الاستاذ صبري أبو علم عن الغرض من انشاء الجامعة والغاية منها ، ولكنه كان في بيانه مجمّلا ، فقد مر على ذلك مرّ النسيم ، واني أرجو واستميتحكم علواً في أن أراني مضطرا اليوم لإبداء شيء من التفصيل في هذا الموضوع ، حتى تكون المقدمات مرتبطة مع النتائج التي اقترحنا ارتباطا واضحا منسجما ، وهذه النتائج هي ذات العلاقة والرابطة فيما يتعلق بالمال المطلوب منا التصديق عليه اليوم .

إن الجامعة ، في أي بلد من بلاد العالم ، خاضعة دائما لكل كائن لنوامس العمران ، تبتدىء جنينا « أي فكرة » ، ثم تخرج طفلا ، ومن هنا يبتدىء دور الانشاء ثم تترعرع فتصير صبيا بعناية أصحابها ، ثم تنمو فتصبح شابا ، ثم كهلا ؛ ثم شيخا يجمع اختبارات القرون وتجلوئها ؛ وحينئذ تكون جديرة بالبلبل حرية بالإسماع .

أيها السادة :

كلنا نعرف إن ما ينفق على الطفل أقل مما ينفق على الصبي ، وما يقتضيه حال الصبي أقل مما يقتضيه حال الشاب ، وهكذا الحال بالنسبة للكهل والشيوخ ، خصوصاً في مثل المسألة التي نحن في صدددها .

إذا فهمنا ذلك ووعيناه فمأذا ينبغي أن أقول وما ينتظر أن أرمي إليه ؟ دخلت الجامعة في دور جديد فأصبحت أميرية منذ مارس سنة ١٩٢٥ وأصبحت تعتمد في حياتها الجديدة على الأموال المشتركة ، أي على المال العام ، وهو مال الأمة ، فيحق لحضراتكم بما لكم من الولاية على هذا المال ويقضي عليكم واجب التحري واللمة — أن تعرفوا إذا طلب منكم أن تصرفوا : لماذا تصرفون وكم تصرفون ؟ الواجب أن نشجع عندما يجب التشجيع ، وننتقد عندما يجب الانتقاد ، بحيث لا نترك مسألة تمر علينا دون تشجيعها أو انتقادها على حسب ما تقتضى به المصلحة .

لقد كنت أريد أيها السادة أن الدين ادخلوا الجامعة في الدور الجديد يفتنون إلى أن الطبيعة تأبى العفورة . كنت أرجو ذلك ، ولكن بكل أسف أقرر أن السياسة التي تملكها شهوة التغيير والتبديل ، والتي ركب أكتافها شيطان العجالة فكانت تسمى إلى المظاهر لا إلى الحقائق ، وإلى الأشكال لا إلى الموضوعات ، وهكذا أبرزت لنا وللبلاد جامعة في ثياب المبالغة ، بينما هي لا تزال قزما من الأقزام ، وأرادت أن تقوم تلك الجامعة على أرجلها كأنها خلق سوي بينما هي طفلة في المهد ؛ ولو كان الأمر وقف عند هذا الحد لكان ، ولكن الذي لا يهون أننا احتملنا مبالغ ضخمة في سبيل الأشكال لا في سبيل الموضوعات ، وأننا مستهترون — إذا لم نبادر إلى علاج حاسم — لمصروفات لا بد أن تتضخم تضخماً كبيراً

ثم فاض الاستاذ في الكلام على إدارة الجامعة ومدرسيها وإسرافها وتخطيها ببيان مستفيض ، ثم قال :

مسألة طه حسين

هذا فيما يختص بأمر التعليم :

بقيت هناك نقطة أخرى لا بد من التنبيه إليها :

حدث يا حضرات الأعضاء حادث بالجامعة المصرية ، وقام من ناحيتها صوت أفقدها عطف الكثيرين ، قد أدى الى فتنة أو كاد ، والأشد والآنكى أن البلاد لم ينلها حظ ولم تنلها مصلحة ظاهرة أو خفية من إثارة ذلك الموضوع الذي تعرض له صاحب ذلك الصوت حتى كان يقال ولو من طريق التساهل : إن الحسنات تكافأت مع السيئات . وأظن أن حضراتكم بعد هذا البيان قد فطنتم الى ما أريد وتبينتم أن الصوت المعنى بقولي هذا هو كتاب « الشعر الجاهلي » ذلك الذي تضمن طعنا ذريعا على الموسوية الكريمة والعيسوية الرحيمة ، وعلى الاسلام دين الدولة المصرية بنص الدستور .

أيها السادة : ان العقائد كانت وما زالت في الشرق وفي الغرب أيضا عواطف حساسة متوثبة متيقظة متاججة ولو ظهرت خادمة ؛ فالرجل العاقل يجب عليه ان يبتعد عن كل ما يهيجها ، والرجل العالم حقا الذي يفهم البيئة التي يعيش فيها والوسط الذي يكتنفه ، يجد من غلمه متسعا لا نهاية له لمعالجة الاصلاح والعيوب الكثيرة دون ان يجد نفسه مضطرا في وقت ما الى ان يلج هذا الباب الذي قد يترتب على ولوجه الكثير من الحوادث الجسام والامور العظام .

يا حضرات النواب ، أرجو ان لا يتناول علينا متناول أو يتقول علينا متقول أو يمتن علينا ممتن بأنه أشد منا غيرة على حرية العلم والتعليم وأعظم منا رغبة في تأييد حرية الرأي والتفكير . انه لا توجد في العالم حريات مطلقة ، ولو كان الامر كذلك لذهشت امراض بحكم حرية الرأي ، ولو كان الامر كذلك لقام في البلاد من يهاجم نظام الحكم اعتمادا على حرية الرأي ، ولو كان الامر كذلك لقام في البلاد من يبت مبادئ الفوضوية أو

البلشفية استنادا الى حرية الرأي ، ولكن الحرية - يا حضرات الاعضاء - محدودة وتنتهي عندما تبتدىء بالتصادم مع مقتضيات النظام والقانون . انت حر في كل ما تريد ، ولكن حاذر ان تقع تحت سلطة القانون .

إن التعليم حر بنص الدستور ، وليس منا من يعارض في ذلك ؛ ولكن الدستور قال أيضا : ان التعليم حر الا اذا اخل بالنظام العام ، اذا كان منافيا للدب . والإخلال هنا معناه ان يترتب على تقرير الرأي حدوث فتنة او احتمال حدوثها ، وعند ذلك يقف القانون حدا حائلا ، لان المصالح العامة مقدمة على الشهوة ؛ فعلى الذين يفهمون حرية الرأي كما حددها القانون ، وعلى الذين يعقلون حرية التعليم كما يعنها القانون ، ان يفهموا اننا اذا تعرضنا لهذه المسألة فإنما نريد ان نكون دائما في دائرة القانون .

ايها السادة : ان تصرفه هذا الشخص كان ايضا مخالفا للوق ، لانه مدرس بالجامعة المصرية ، وهي معهد اميري يعيش من اموال الحكومة المثلة للامة ، فهو يتقاضى مرتبه من هذه الهيئة التي دينها الاسلام ، فلم يكن من المفهوم ولا من المعقول ولا من حسن اللوق ان يقوم هذا الشخص فيبصق في وجه الحكومة التي يتقاضى مرتبه من اموالها بالظمن على دين رعيته من اقلية او اكثرية . اننا اذ نسلم اولادنا للحكومة ليتعلموا في دورها نفعل ذلك معتمدين على ان بيننا وبينها تعاقدنا ضمينا على ان الديانات محترمة لا نقول تعاقدنا ضمينا فقط ، بل صريحا ، لان الحكومة تعني بتعليم الدين في مدارسها وتضعه في مناهجها ، واذا كان الامر كذلك فعلى الذين يريدون ان يحرقوا بخور الالحاد ان يحرقوه في قلوبهم ، لانهم احرار في عقائلهم ، او ان يحرقوه في منازلهم ، لانهم احرار في بيئاتهم الخاصة ، اما ان يطلقوه في اجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن ان نفهمه باي حال من الاحوال « تصفيق حاد » واغرب ما في هذا التصرف ان صح ما بلغني من إدارة الجامعة اشترت من مؤلف هذا الكتاب كتابه ! اشترته يا حضرات النواب من اموال الامة المتوترة بهذا العمل ! فلان كان هذا الكتاب سيدرس في الجامعة فتلك ثلثة الانبي ، وليس لنا على

هذا الامر تعليق ، اما اذا كان الغرض من شراء الكتاب اتقاء ضرر أنتشاره فهذا ايضا تصرف غير معقول ، لان مال الامة لا يجوز ان يدفع اجرا ومكافاة على اساءة للامة ، ولان هذا التصرف في حد ذاته من المكافاة وهذه المكافاة قد حلت حيث كانت تجب الاساءة وحيث كانت تجب المجازة ، هذا كله ان صبح ما سمعته من ان ادارة الجامعة قد اشترت هذا الكتاب .

وزير المعارف : اما فيما يختص بمسألة كتاب « في الشعر الجاهلي » فقد قلت لحضراتكم في الجلسة الماضية اننا نطمح في ان تكون الجامعة معهدا طلقا للبحث العلمي الصحيح ، وليس معنى هذا اننا نرضى ان تكون كراسي الاساتذة منابر تلقى فيها المطلعون في اي دين من الاديان قصد النيل من كرامته او التهجم على حرمة ، وانما واجب الاساتذة ان يتحاشوا ذلك في كتاباتهم ومحاضراتهم ، وحلقة كتاب « في الشعر الجاهلي » حصلت كما تلمنون في عهد الوزارة السابقة ، فلما توليت الوزارة اردت ان اقف على حقيقة الامر ، فسالت سعادة مدير الجامعة عن الاجراءات التي اتخذها اناء هذه الحلقة ، فاجاب بان الجامعة منعت انتشار الكتاب بشراء جميع النسخ من المكاتب وحصرتها في مخازنها ، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لمنع طبع نسخ اخرى منه ، وقد اكد لي سعاده ان ما يؤخذ عليه المؤلف لم يلقه على طلبته في الجامعة كما ظن ، وان المؤلف صرح على صفحات الجرائد بانه مسلم ولم يقصد الطعن في دين من الاديان او المس بكرامته « ضجة » .

هذا ما اكده لي مدير الجامعة ، اما فيما يختص بالمبلغ الذي دفع ثمن الكتاب فاني اصرح بانني لو كنت مسؤولا لما رضيت بهذا التصرف ، وباني موافق على استرداده اذا كان لا يوجد مانع قانوني يحول دون ذلك

اما فيما يختص بالاجراءات الاخرى فلا يخفى على حضراتكم ان المؤلف مسافر الى اوربا من شهر يونيو عقب تأليف الوزارة مباشرة ولم يعد بعد ، فلا يمكن ان اتخذ من الان اجراءات في غيابه ، وعلى كل حال فاني اهد ببحث المسألة ...
فرفعت الجلسة .

ثم اعيدت .

الرئيس (١) ترفع الجلسة للاستراحة . فرفعت الجلسة ثم اعيدت .

(١) هو دجل الامة العظيم ونابغة الشرق كله ونادرة الملك صاحب العولة سعد باشا لظهور.

خطبة الاستاذ القاياتي

الشيخ القاياتي : سادتي النواب ، كان بودي ان تمر بنا ميزانية الجامعة فنتقبلها هاتفين مصفقين ، لانها ميزانية امنية طالما تمنيناها ، وغاية كثيرا ما رجوناها ، لاننا نعتقد ان وجود جامعة مصرية انما هو طريق الى الفلاح المرجو ، والى الحرية المطلوبة ، والى الاستقلال الحقيقي المنشود ، ولكن الله تعالى اراد - او ان غير الله ممن يجرون على ما لا يجوز - لهم ان يجروا عليه ارادوا - ان تمر علينا هذه الميزانية ونحن نئن من الالم ، ونتضرع من الحزن ، ونبكي من المصيبة التي كنا نرجو ان تكون نعمة كبرى .

انا لا اريد ان اتكلم عن الجامعة باعتبار ادارتها ، ولا باعتبار ما يدرس فيها ، ولا باعتبار كفاية مدرسيها وموظفيها بعد الذي ادلى به حضرات الاعضاء المحترمين من البيانات في هذا الشأن ، ولكن الذي اريد الكلام فيه من غير إطالة هو موضوع كتاب « في الشعر الجاهلي » الذي افقه الدكتور طه حسين وهو ابن الجامعة البكر الذي كانت تنفق عليه من مائل الامة وما كان يظن ابدا ان يقابل هذا الاحسان بالعقوق الى درجة ان يضربها بضرب دين الاسلام دين الاغلبية .

ذكر حضرة النائب الاستاذ عبد الخالق عطية ملاحظات كثيرة عن هذا الكتاب وعن وقعه على الامة ، وتأثيره في قارئيه وسامعيه ، حتى لقد قال بحق : « انه اثر فتنة او كاد » . والحق ان يقال انه ما كان من المظنون ان يوجد بين المسلمين في مصر من يجرؤ على الدين الى هذا الحد الذي بلغه الشيخ طه حسين .

قبايح متعددة : ما بين تكذيب لصحيح التاريخ وتكذيب لنصوص القرآن ، وسب التحاليل الى الله والى النبي محمد والى موسى عليه السلام .

وقبل ان اتعرض لسرد ما جاء في هذا الكتاب او سرد شيء منه ، اريد ان اظهر لكم شدة اندهاشي مما نقله معالي وزير المعارف عن حضرة مدير الجامعة ، من ان هذا الكتاب لم يلق على الطلبة ، يعني ان الدكتور طه حسين لم يلق على طلبته ما جاء في هذا الكتاب . اندهشنا من هذا القول لان المؤلف نفسه صرح في مقدمة كتابه انه القاه على الطلبة ، ولست ادري كيف يمكن ان يكون حقا ما قيل من انه لم يلقه على طلبته بعد ان يقرر هو بنفسه بانه القاه عليهم .

اصوات : ماذا قبائل ؟

الشيخ القاياتي : قال في مقدمة الكتاب : « هذا نحو من البحث في تلريخ الشعر العربي لم يالغه الناس عندنا من قبل ، واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبان فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا ، وتكني على سخط أوائلك وازورار هؤلاء ، اريد ان اذيع هذا البحث ، او بعبارة اصح ، اريد ان اقيده ، فقد اذعته قبل اليوم حين تحدثت به الى طلابي في الجامعة ، وليس سرا ما تحدثت به الى اكثر من مائتي شخص » .

هذا قول المؤلف في مقدمة الكتاب ، ولست افهم كيف يقال بعد ذلك إنه لم يلق هذا الكتاب على طلبة الجامعة ، وأن يترتب على ذلك ما رتبته الجامعة من منع استئذ أن يرد عليه في الجامعة بعد أن سمحت له بذلك ، بعلة ان الكتاب لم يلق على الطلبة حتى يرد عليه في نفس الجامعة .

لقد جاء هذا في هذا الكتاب تكذيب صريح للقرآن، ونسبة صريحة للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه متحايل وكذب صريح على التاريخ ؛ لا يجوز ابدا ان نهمل ولا ان نترك صاحبه دون تدقيق معه في البحث ويكون حسابنا معه عسيرا . انني اعرف انه من الكرم والمروءة ان يعفو الإنسان عن أساءه إليه ؛ ولكن من الظلم والتهجم على المصلحة ان يعفو الإنسان عن أساءه الى غيره ، او عن طعن في وطنه او دينه « تصفيق » .

إن الدولة اعلنت في دستورهما أنها دولة إسلامية ، وإن دولة إسلامية لا تحافظ على دينها من أن يمس ولا على كرامتها أن تجرح لى دولة أعوذ بالله أن تكون مصر من أمثالها !

لقد بلغت الدرجة بالدكتور طه حسين أن يذكر في كتابه أن حادثة إبراهيم واسماعيل - التي نص الكتاب العزيز عليها - حادثة لا يعول عليها التاريخ ولا يمكن التسليم بها ، وإنما هي حادثة أرجعها المسلمون لسبب مخصوص هو سبب سياسي أكثر منه دينيا .

وقد جاء في كتابه بالصفحة ٢٦ ما يأتي :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ؛ والقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي » .

معنى هذا أن دعوى الله أن شيئاً حصل لا ينهض دليلاً على أن هذا الشيء حصل ؛ والله يعلم أن هذا يساوي في قوله إن الله كذاب فيما قال !

ثم جاء الصفحة المذكورة :

« ... فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها . ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، والقرآن والتوراة من جهة أخرى ؛ وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات ، فنحن نعلم أن حروباً عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المسالة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة ؛ فليس بعيداً أن يكون هذا الصلح الذي استقر عليه الرأي بين المغيرين

وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون .

وقد جاء بالصحيفة ٢٧ ما يأتي :

« وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن السابع للمسيح » .

كلمة « الاسطورة » يا حضرات الزملاء لا تقال إلا للخرافات أو الترهات ، فالقول بأن هذه القصة التي وردت في كتاب الله العزيز خرافة ، يعنى أن الله يخرف ونحن نؤمن بتخريفه « مقاطعة » .

أنا والله لا أريد التشنيع ، ولكنني أريد أن أذكر حقيقة ، أريد أن أقول لا قوم لا يرون رأينا ويدعون أن البحث أمر واجب وحر وأنه لا يجوز لنا أن نقبّد حرية الناس في آرائهم — أقول لهم إننا لا نقيد حريتهم في عقائدهم ، ولكننا نقيد آراء تلقن أولادنا وتشاع على أفراد الأمة ما بين متعلم وغير متعلم ، ولا بد أن يكون ذلك داعية الضلال والفسوق ، فإذا لم أطل بينكم الليلة في سرد النصوص الواردة في هذا الكتاب وذكر العبارات الشنيعة التي لا تدل إلا على زندقة ، فلأنني لا أريد إدخال لحزن على قلوبكم ، ولأنني لا أود أن أرى دموعكم تسيل جزعا على دينكم وشرف دولتكم .

إننا لا نتكلم في هذا إلا بباعث المحافظة على الدين ، وليس ذلك بالأمر الذي يهم المسلم دون غيره ، فإن كرامة الأديان على السواء يجب أن تكون محفوظة .

إنني لا أسمع ولا أقبل أن يطمعن أحد في دين المسيح عليه السلام ولا أقبل أن يطمعن في دين موسى عليه السلام ، بالنسبة التي لا يرضى بها

أحد أن يطعن على دين محمد عليه السلام ؛ فإن حرمت الأديان يجب أن تكون موفورة .

إنني لا أخشى أن يقال إننا نتكلم متعصبين تعصبا دينيا ، لأنه إذا كان التعصب الديني هو المحافظة على كرامة الأديان جميعا فإنني أول المتعصبين .

كنت أود بعد أن قرأت لكم كلمات المؤلف أن أقرأ لكم كلمات الله فيما كذبه المؤلف ، ولكنني لا أظن أنكم في حاجة إلى ذلك .

نريد أن نشبت في تاريخ عملنا أننا لا نقبل أبدا أن يتهور متهور على الدين تهورا يحط كرامته وكرامة الدولة ، فإن الطعن في دين الدولة طعن في الدولة ، هو طعن في كل فرد من أفرادها . لا نرضى أن يسجل علينا التاريخ أنه قد فتح بيننا هذا الباب ، ونشر بيننا هذا الكتاب ، وقامت عليه الضجة التي قامت ، ثم يمر علينا كما يمر السحاب دون أن ينل المسيء جزاء إساءته ؛ لا أريد أن يقال : طعن في الدين وشهر به ومر الأمر على مجلس النواب وخرج الطعن نظيفا شريفا بدون جزاء !

إن الرحمة واجبة ، ولكن ليس في الدين ؛ وقد أوجب الدين أن يرجم بعض من يرتكب الجرم ؛ فما بالكم فيمن يدعى أن الله كاذب ، وأن النبي كاذب وأن المؤمنين جاهلون لا يفرقون بين الحق والباطل ؟

ولا يجوز أن يكتفى مطلقا بأن المؤلف صرح في الصحف أنه مسلم ؛ وأنني ألفت نظركم إلى أن الدكتور المؤلف لم تسمح له نفسه - مع أن الموقف كان شديدا والإلحاح عليه كثيرا - أن يكتب كلمة يشرح بها ما قال وأن يبرره بمعنى يفهم منه خلاف ما فهمناه .

إذا كان قد ارتد بكتابه ثم رجع إلى الإسلام بعد ذلك فهو مسلم ، ولكن التوبة لا تغفر الذنب ولا تعفى من العقوبة ؛ وقد كنت أريد أن أقترح اقتراحا خاصا ولكنني أطلعت على اقتراح لحضرة عبد الحميد البنان بك ووافقته عليه .

الرئيس : تلا اقتراح حضرة عبد الحميد البناني بك ونصه :

« اقترح على المجلس الموقر تكليف الحكومة :

اولا - مصادرة وإعدام كتاب طه حسين المسمى « في الشعر الجاهلي »
بمناسبة ما جاء فيه من تكذيب القرآن الكريم ، واتخاذ ما يلزم لاسترداد
البلغ المدفوع إليه من الجامعة ثمنا لهذا الكتاب .

ثانيا - تكليف النيابة العمومية رفع الدعوى العمومية على طه حسين
مؤلف هذا الكتاب لظنه على الدين الإسلامي دين الدولة .

ثالثا - إلقاء وظيفته من الجامعة وذلك بتقرير عدم الموافقة على
الاعتماد المخصص لها » .

ثم تلى اقتراح حضرة محمود لطيف بك وهذا نصه :

« اقترح بعد البيانات التي سمعها المجلس الموقر عن كتاب « في الشعر
الجاهلي » أن يقرر المجلس رغبته الى الوزارة في معاقبة مؤلف هذا الكتاب
الذي أهان في مؤلفه الشرائع السماوية والانبياء ، وإهان فيه دين الدولة
الرسمي ، وأن تتخذ الوزارة ما يحفظ المعاهد العلمية من أن تكون مقاما
لمثل هذا التهجم ، مع اتخاذ اللازم لاعدام النسخ الموجودة من هذا
الكتاب » .

الرئيس : هل يريد مقدم الاقتراح الاول أن يؤخذ الرأي على اقتراحه
فقرة فقرة ؟

عبد الحميد البناني أفندي : نعم .

محمود وهبة القاضي بك : اذكر أن الشيخ طه حسين كتب في
الجرائد أنه مؤمن بالله ونبيه وكتبه ورسله واليوم الآخر « ضجة » .

معنى هذا أنني ممتنع عن الكلام ما دمت غير راغبين فيه .

بيان رئيس الحكومة(*)

رئيس مجلس الوزراء : أريد أن أقول كلمة في هذا الموضوع ، فقد ذكر معالي وزير المعارف العمومية أن هذا الكتاب طبع ونشر في عهد الوزارة السابقة ؛ وحين تشكلت هذه الوزارة وجدت برئاسة مجلس الوزراء خطبا من حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر يطلب فيه من الحكومة أن تتخذ إجراءات خاصة في موضوع هذا الكتاب ، وأذكر منها رافع الدعوى الجنائية على المؤلف ؛ فطلبت من وزير المعارف بحث هذا الموضوع ، فبحثه وكتب لي خطبا بين فيه نتيجة بحثه باشتراك مدير الجامعة وما رأى اتخاذه من التدابير اللازمة لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل في المستقبل . وقد وافقته على ما أوثقه وكتبت لفضيلة شيخ الأزهر بما قرره وزير المعارف ووافقته عليه ، من حبس الكتاب ، أي منعه انتشاره ، وبأن المؤلف قد اعتذر بما بينه معالي وزير المعارف ، وأخبرت فضيلته أيضا بما اعتزمته الحكومة من اتخاذ التدابير لمنع تكرار وقوع مثل هذا العمل من أي أستاذ بالجامعة ؛ فموافقتي على ما قرره وزير المعارف يعتبر عملا حكوميا صدر من رئيس وزارة مسؤول عنه . وأني أفهم أن يظهر المجلس استيلاءه من الكتاب ، أو أن يترك لوزير المعارف الحرية في اتخاذ إجراءات علاوة على ما اتخذ من قبل ، أما أن يقرر المجلس قرارا يخالف ما اتخذته الوزارة من الإجراءات ، أو أن يلزمها بالقيام بعمل معين زيادة على ما عملته وبما وعد به وزير المعارف ، فيكون هذا انتقادا لأجراءاتها في هذا الموضوع ويعرضها للمسؤولية الوزارية .

الرئيس : لم أفهم القصد من هذا القول ، فهل تريد ألا يتخذ المجلس

قرارا ؟

رئيس مجلس الوزراء : الاقتراح المروض الآن يعتبر في نظري انتقادا للوزارة ويعرضها لمسألة الثقة .

(ب) قلت : هو الرحموم عدلي يكن باشا .

الرئيس : تريد اذن طرح مسألة الثقة بالوزارة .

رئيس مجلس الوزراء : نعم .

الرئيس : حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء يرى انه اذا قرر المجلس قرارا يخالف ما اتخذه من الاجراءات فان ذلك يدعو الى طرح الثقة بالوزارة .

رئيس مجلس الوزراء : قلت انه اذا قرر المجلس قرارا ما يخالف الاجراءات التي اتخذت وما وعد به وزير المعارف العمومية ، فان ذلك يدل على عدم ثقة المجلس بالوزارة .

وزير المعارف : قلت ان مؤلف هذا الكتاب غير موجود بمصر ، ووعدت انه عند حضوره يبحث المسألة وأسأله فيها . وبعد ذلك يتخذ ما يترأى من الاجراءات ونعرض كل ذلك على المجلس .

الرئيس : ولكن المجلس ينظر الآن في الغاء وظيفة .

رئيس مجلس الوزراء : لا شك ان من حق المجلس الغاء أية وظيفة شاء وهذا لا يعارض فيه مطلقا .

انت اذن تعارض في احالة المؤلف على النيابة ؟

رئيس مجلس الوزراء : اعتبر ان في تكليفنا بذلك عدم اتيان لما قمنا به من الاجراءات ، وهذا يدعوني . . .

الرئيس : يعني ان الوزارة لا تود تكليف النيابة بالتحقيق ؟

وزير المعارف العمومية : لا تعارض الوزارة في ذلك بعد سؤاله ، واذا تبين لها ان هناك جريمة ؟

الرئيس : يعني ان الوزارة تعد بتكليف النيابة بالتحقيق اذا اتضح لها بعد سؤال المؤلف ان هناك جريمة ؟

رئيس مجلس الوزراء : قلت اننا اتخذنا ما يجب اتخاذه من الاجراءات.

الرئيس : ولكن للمجلس الحق في ابداء رغبات .

رئيس مجلس الوزراء : اذا كان الغرض ابداء رغبة فهذا شيء آخر ؛ اما تكليف الحكومة امرا فلا يعد ابداء رغبة من المجلس .

الرئيس : يجوز للمجلس ان يكلف الحكومة باشياء بما له عليها من حق الرقابة الداخلة في اختصاصه ؛ فهل تأبى الحكومة ذلك ؟ فاذا كنتم تعدوننا بقبول ذلك فهذا حسن ، والا فان ذلك يكون اساسا لمبدإ جديد يلزم بحته .

رئيس مجلس الوزراء : هذه المسألة من اختصاص السلطة التنفيذية ، وللمجلس الحق في ابداء رغبات بخصوصها ، فتبحث الحكومة هذه الرغبات لترى اذا كان من الممكن تنفيذها ام لا ، فاذا اتأكدت للحكومة ان هناك جريمة امكن معاقبتها .

الرئيس : هل حضراتكم موافقون على الرغبات التي تليت عليكم ؛ اعني المصادرة وتكليف النيابة العمومية برفع الدعوى والغاء الوظيفة .

محمود لطيف بك : ان الاقتراح الذي قدمته برغبة يوفق بين رأي المجلس والوزارة .

الرئيس : هناك اقتراح برغبة ، فاما ان ترفضوه او تقبلوه .

فكري اباطة بك : ان في نصوص هذه الرغبة متناقضات ، مثلا : انه غير ممكن مصادرة الكتاب الا بحكم .

الرئيس : قيل ان ادارة الجامعة اشترت هذا الكتاب وحسبته لتمنع بذلك تداوله ؛ فهل يكتفي حضرة مقدم الاقتراح بذلك ام يريد اعدامه ؟ .

عبد الحميد البنان « أفندي » : أريد اعدامه .

الرئيس : هل تمنع وزارة المعارف في اعدام هذا الكتاب ؟

وزير المعارف : ان وزارة المعارف لا تمنع في ذلك .

الرئيس : بقيت النقطة الثانية ، وهي تكليف النيابة العمومية بإقامة الدعوى ضد المؤلف ؛ فهل ترى الحكومة - اذا وافق المجلس على ابداء هذه الرغبة - في ذلك اعتداء على اختصاصها ؟

عبد الخالق عطية أفندي : أرى ان المسألة تتعلق بالصيغة أكثر منها بالموضوع ، لانه ربما يتبادر الى الذهن ان المقصود بلفظة « تكليف » الزام النيابة برفع الدعوى العمومية ، فلذلك اقترح ان تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة « تكليف » .

الرئيس : اذا استبدلت كلمة « تكليف » المذكورة بالاقتراح بكلمة « تبليغ » فهل لدى الحكومة ما يمنعها من تنفيذ هذه الرغبة اذا وافق المجلس على ابدائها ؟

رئيس مجلس الوزراء : لقد تصرفت الحكومة في هذا الموضوع بما رأيته مناسباً ؛ فتكليف المجلس اياها بان تقوم بأكثر مما فعلت يفيد ان ما اتخذته من الاجراءات لم يكن كافياً ؛ وأرى لهذا انه يجب عليّ أن أعارض في ذلك !

الرئيس : لا يمكننا أن نقبل هذا مطلقاً ، لان للمجلس اختصاصات وحقوقاً ؛ فله ان يبدي رغبات ، ويطلب طلبات ، فلذا لم تستطع الحكومة تنفيذها وجب عليها ان تبين له اسباب ذلك ؛ اما اذا رأت الحكومة انه ليس للمجلس مبدئياً ان يكلفها او يدعوها الى العمل ، فاننا لا نقبل ذلك ولا يمكنني ان اراس هذا المجلس اذا لم يكن ذلك من اختصاصه « تصفيق حاد » .

. لقد أبدى المجلس فيما مضى رغبات أهم من هذه بكثير ، فلم تعترض على تنفيذها ؛ وبصفتي رئيس مجلس النواب لا يمكنني أن أقبل ما تقوله الحكومة ، من أنه ليس من اختصاص المجلس أن يبدي رغبة كهذه ، خصوصاً وإنها ترمي إلى إعطاء القضاء ما هو من حقوق القضاء !

رئيس مجلس الوزراء : لا تقول الحكومة أنه ليس من اختصاص المجلس إبداء رغبات ، ولكنها تقول إنها تصرفت في الموضوع ، فإذا وافق المجلس على هذه الرغبة فكانه يقول إن ما قامت به الحكومة لم يكن كافياً .

الرئيس : إذا كانت موافقة المجلس على إبداء هذه الرغبة تفيد أن تصرف الحكومة في هذه المسألة لم يكن كافياً فإن له هذا الحق .

رئيس مجلس الوزراء : للمجلس الحق إلا أن هذا يعتبر اعتراضاً على تصرف الحكومة .

الرئيس : أنه اعتراض بلا شك ، ولكن إذا رأى المجلس أن هذا الاعتراض في محله فما رأى الحكومة في ذلك ؟

فكري بإباضة بك :

حضرات الزملاء المحترمين ! أشار حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء إلى تصرفات الحكومة في هذا الموضوع إجمالاً ، ولكننا لم نطلع على تفاصيل هذه الإجراءات ، فمع تمسكنا بما لنا من حق إبداء رغبات ، يهمنا أن نطلع على تفاصيل ما قامت به من التصرفات حتى يمكننا أن نحكم عليها ، ولكن بما أن الفرصة لا تسمح لنا ولا تمكنا من أن نحكم فيها إذا كانت هذه التصرفات كافية أم لا ، فلذلك أقترح تأجيل النظر في هذا الموضوع حتى نطلع على التفاصيل التي أشرت إليها .

الرئيس : أن الحكومة لم تبين لنا هذه التفاصيل ، ولكنها تقول أن مطالبة المجلس إياها بالقيام بغير ما قامت به يعتبر اعتراضاً على تصرفاتها ، حقيقة أن طلب المجلس يعتبر اعتراضاً ولكنه في محله !

فكري اباطة بك : يمكنها استيفاء الموضوع في فترة التاجيل .

الرئيس : ان الموضوع مستوفى .

وزير الحقانية : يظهر لي ان المسالة تكاد تكون من اختصاص وزير الحقانية .

يريد المجلس الموقر ان يبدي رغبة بتقديم مؤلف كتاب « الشعر الجاهلي » الى المحاكمة .

واقول الحكومة انها تصرفت في هذه المسالة بطريقة مخصوصة قبل ان تثار في المجلس ويقول معالي وزير المعارف ان هذه المسالة محل نظر الوزارة ، وانها ستتخذ فيها ما تراه من الاجراءات ؛ فهل هناك فارق بين رغبة المجلس وما وعد به معالي وزير المعارف ؟ لا اظن ان هناك فارقا للمجلس ان يبدي رغبة بتبليغ النيابة العمومية لاقامة الدعوى ضد الكتاب ، ولعالي وزير المعارف ان ينظر في هذه الرغبة ويتصرف فيها بما رآه ، واظن ان هذا اليق بكرامة المجلس ، لانه وهو الهيئة التشريعية اذا امر برفع الدعوى العمومية وجاء الحكم فيها مخالفا لرأيه فيكون معنى هذا ان رأي المجلس لم يكن في محله ، اما اذا تركت المسالة للحكومة وراى ان تقيم الدعوى العمومية ثم صدر الحكم ببراءة المؤلف فلا يؤاخذ المجلس بشيء وتتحمل الوزارة وحدها مسؤولية تصرفها .

الرئيس : يجوز ان يكون تبليغ النيابة من ضمن الاجراءات التي تتخذها الوزارة في هذه المسالة ، وتبليغ النيابة هذا لا علاقة له بالحكم في الدعوى .

وزير الحقانية : الذي فهمته ان الاقتراح يومية الى تكليف النيابة برفع الدعوى العمومية .

الرئيس : ستستبدل كلمة « تبليغ » بكلمة « تكليف » ، واظن ان تبليغ النيابة عن جريمة ارتكبت حق واجب على كل فرد .

وزير الحقانية : لا نزاع في ذلك .

عبد الحميد البناني أفندي : أوافق على أن تستبدل بكلمة « تبليغ » كلمة « تكليف » .

وزير الحقانية : يمكنني أن أقول أن سبب عدم تبليغ النيابة ربما كان مبنيًا على أن كتاب « الشعر الجاهلي » مكروه من الأصل ، وكان من الواجب احتقاره وعدم اذاعته بين الجمهور ؛ ولما كان التبليغ يقتضي نشر الكتاب في الجرائد واذاعته بين أفراد الأمة ، رأت الوزارة أن لا تبليغ النيابة ؛ استهانة بما احتواه الكتاب وتحقيرا لشانه !

فإذا رأى المجلس مع ذلك ضرورة لتبليغ النيابة فلا مانع من أن يبدي هذه الرغبة ، على أن تكون من ضمن الإجراءات التي تتخذها الحكومة .

الرئيس : تقدم اقتراح برغبة ؟

عبد الحميد البناني أفندي : لا مانع عندي من أن تكون هذه الرغبة ضمن ما تتخذه الوزارة من الإجراءات .

الرئيس : هل يعد معالي وزير المعارف بذلك ؛ لأن هناك جريمة ارتكبت ويريد المجلس التبليغ عنها ؟

وزير الحقانية : إننا نقدر رغبات المجلس حق قدرها ، ولم يبدر المجلس أي رغبة إلا نفذتها الحكومة ؛ فلماذا يطلب من معالي وزير المعارف أن يعد من الآن ؟

الرئيس : ما الداعي لهذه المعارضة الشديدة ؟ المسألة في غاية البساطة ، وهي : هل توافق الحكومة على تنفيذ هذه الرغبة أم لا ؟

عبد الحميد البناني أفندي : أعدّل اقتراحي بأن يضع معالي وزير المعارف هذه المسألة موضع البحث حتى إذا رأى . . .

وزير المعارف : أوافق على هذا التعديل .

الرئيس : لقد تم الاقتراح ومن حق المجلس أن يصدر قرارا بخصوصه ؛ فهل يوافق معالي وزير المعارف على تبليغه النيابة ؟

وزير المعارف : اني موافق على تعديل حضرة عبد الحميد البناني أفندي .

الرئيس : التعديل هو أن يقوم معالي وزير المعارف بتبليغ النيابة ؛ فهل تعد بذلك ؟

الدكتور احمد ماهر : أرجو أن ترفع الجلسة للاستراحة .

الرئيس : ترفع الجلسة للاستراحة عشر دقائق ..

كلمة جريدة الاهرام القراء

الوزارة تعرض مسألة الثقة

رشدي باشا وعنلي باشا في بيت الامة ليلا

تفاصيل المسألة - تسويتها

عرضت أمس وأول من أمس على مجلس النواب ميزانية الجامعة ومن اسبوعين مضيا انتشرت في الجواشعاعات مختلفة عن الجامعة ، فان روح التذمر والاستياء التي بدت بين النواب من تصرفات وزير المعارف السابق في شؤون وزارة المعارف تناولت تصرفاته في أمر الجامعة أيضا وهي تصرفات اجتمعت الكلمة على انها خرقوا القانون في كثير من المسائل الهامة ، بل قامت على اساس من الفوضى التي لم تراعى فيه للقانون حرمة ..

ومنذ ذلك الحين راجت اشاعات شتى ، فقيل ان هناك فكرة ترمى الى الغاء قانون الجامعة وترك كل مدرسة عالية او كلية قائمة مستقلة ، مع ابقاء كليتي الاداب والعلوم كل كلية منهما على حدة الى ان يتيسر انشاء جامعة بالمعنى الصحيح على اساس متين منظم ، راجت غير ذلك من الاشاعات ، وراينا مدير الجامعة الاستاذ احمد لطفي السيد بك يتردد على بيت الامة عدة مرات فابل فيها دولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول للدفاع عن الجامعة او عن مصر الجامعة .

ومن المسائل التي ثارت حولها الاشاعات ايضا مسألة كتاب « الشعر الجاهلي » الذي اخرج به الدكتور طه حسين الاستاذ بالجامعة واستنكر العلماء وغير العلماء بعض ما احتواه من العبارات الماسة بالدين ، فان كثيرين من النواب يستنكرون بقاء الدكتور طه استاذ بالجامعة بعد ان اجتمعت كلمة العلماء على خروجه هلى الدين . وكان صاحب الفضيلة النائب المحترم الشيخ مصطفى القاياتي قد اعلن عزمه على استجواب رئيس الوزارة في هذا الشأن . ثم بدلت مساع حثيثة لحمله على العدول عن الاستجواب ، ثم ابدل الاستجواب بسؤال نشرناه منذ ايام على ان يكون الرد عليه كتابة .

ولم يرد رئيس الوزراء على السؤال واشيع ان كثيرين من النواب سيعرضون مسألة الدكتور طه حسين على المجلس اثناء بحث الميزانية وقيل ان بعضهم سيطلب الغاء وظيفته ، فبدل اصدقاء الدكتور طه حسين مساعي حثيثة للوصول الى اقناع الدين ينوون المطالبة بالغاء الوظيفة بالعدول عن ذلك ، على ان يكتفى في المجلس باستنكار عمل الاستاذ طه .

وحدث امس ان ثارت المناقشة في مجلس النواب في شأن كتاب « الشعر الجاهلي » ومؤلفه ، والقيت الخطب مما يراه القراء بنصه في محضر جلسة المجلس المنشورة في غير هذا المكان .

وقدم النائب المحترم عبد الحميد البناني أفندي نائب الجمالية اقتراحاً من ثلاثة أقسام :

- ١ - إبادة كتاب الشعر الجاهلي .
- ٢ - إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة .
- ٣ - إلغاء وظيفته .

وقد سلم معالي وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح ، وتكلم دولة عدلي باشا رئيس الوزراء عن القسم الثاني ، وجرت بينه وبين دولة الرئيس الجليل مناقشة اشتركت فيها وزير المعارف والحقانية ، انتهت بأن ذكر عدلي باشا أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرفات الحكومة وذكر مسألة القة بالوزارة !

وكان الأمر قد أبلغ إلى دولة باشا (*) فترك مجلس الشيوخ مسرعاً إلى مجلس النواب .

وكان جو المجلس مملوءاً كهرباء ، فاقترح النائب المحترم الدكتور أحمد ماهر رفع الجلسة عشر دقائق للاستراحة ، ولما رفعت ذهب الرئيس الجليل إلى مكتبه بمجلس النواب وتبعه إليه عدلي باشا ورشدي باشا وبقياً معه عشر دقائق .

وكان دولة الرئيس الجليل سعد باشا متعباً فاستقل سيارته إلى داره .

واتفق بعض النواب على تأجيل الجلسة إلى غد ، لأن الساعة كانت قد أوشكت على العاشرة تقريباً ، وليكون هناك متسع من الوقت لتسوية المسألة .

وأعيد الجلسة في الساعة العاشرة وثلاث برئاسة حضرة صاحب

(*) قلت : كان رحمه الله وقتئذ رئيساً لمجلس الشيوخ .

السعادة مصطفى النحاس باشا ، فطلب أعضاء كثيرون التأجيل لتأخر الوقت ، فاجلت .

وعلى اثر ذلك ذهب حضرة صاحب المعالي فتح الله بركات باشا الى ورشدي باشا الى بيت الامة ، كما قصد إليه صاحب المعالي فتح الله بركات باشا ومحمد محمود باشا ، وتكلم عدلي باشا في ظروف الحادث ، وذكر انه قام على سوء تفاهم ، فإنه لم يقصد تحدي المجلس في سلطته . وظل عدلي باشا ورشدي باشا في بيت الامة الى ما قبل منتصف الليل بثلاثي ساعة . وبعد انصرافهما سألنا بعض الوزراء عن النتيجة فقالوا لنا « إن الحادث سؤي وانتهى وأصبح كأنه لم يكن » .

وعلى اثر ذلك ذهب حضرة صاحب المعالي فتح الله بركات باشا الى النادي السعدي ، حيث كان بعض اصحاب المعالي الوزراء وبقي هناك نحو نصف ساعة مع كثيرين من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ يتسامرون .

ولا شك انه كان مما يؤسف له كثيراً ان ينتهي الدور البرلماني الحاضر بخلاف يقوم حول مسألة كمسألة أمس بعد ان سار مجلس النواب والوزارة في مختلف شؤون الدولة الخطيرة بتمام الاتفاق والوئام ، وان تثير الحكومة مسألة الثقة بسبب كتاب سلمت - إذ اقترت مصادره وقبلت إيداعه - بضرر ما فيه ، كتاب نعرف ان الاغلبية العظمى من الامة - وفي مقدمتهم العلماء والمتعلمون - لا ترضى عنه ولا عن مؤلفه .

جلسة يوم الثلاثاء

الرئيس : ننتقل الى استئناف النظر في ميزانية الجامعة .

عبد الحميد البناني افندي : قدمت اليوم بلاغا الى النيابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين فيما كتبه طعنا على الدين الاسلامي ؛ وبناء على ذلك لم يبق محل للقسم الثاني من اقتراحي الذي قدمته أمس في هذه المسألة ؛ وبما ان مصادرة الكتاب لا يمكن ان تكون الا بحكم ، وهذا تابع بطبيعة الحال للقضية المطلوب تحقيقها ، فانه لم يبق محل للقسم الاول

ايضا في اقتراحي ؛ وأما فيما يختص بالقسم الثالث فاني أكتفي بتصريح
دولة رئيس الوزراء ومعالي وزير المعارف بالنظر في هذه المسألة وبحثها
بما تستحقه من العناية .

وبناء على كل هذا قد سحبت اقتراحي .

الرئيس : وهو كذلك .

نقول : وتسلمت النيابة الدكتور طه حسين ، وتم طبع هذا الكتاب
وهو معلق بعد في ميزانها أما الى وأما الى(*)

(*) قلت : وامتت النيابة التحقيق وحفظت القضية ، وكان كتاب الحفظ وما تضمنه
من اسباب ، بابا من ابواب الادب في معارضة كتاب الدكتور طه حسين بك لم يؤن
بذكره قراؤه .

المصدر : تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد ، الطبعة الاولى : المكتبة
الاهلية بمصر ١٩٢٦ ، الفصل الاخير من الكتاب .

الدعوة الى الاتحاد بالتشكيك في الدين

كتاب (في الشعر الجاهلي)

ظهر بمصر في اواخر السنة الماضية كتاب بهذا الاسم من وضع الدكتور طه حسين مدرس الآداب في (الجامعة المصرية) واحد اركان جمعية دعاية الاتحاد بمصر ، بنى بحثه فيه على منهج البحث في الآداب وغيرها غريب هو ان يبنى على الشك في كل ما روي عن المتقدمين او تكذيبه وان اجمعوا عليه ، وعلى التجرد من الدين والجنسية والوطنية ، وجميع الروابط القومية والمالية . وهو بناء على هذه القاعدة يعطى فيما ثبت بنص القرآن المجيد وفي جميع ما صح عند علماء الملة الاسلامية من الروايات الدينية والتاريخية والادبية ، دع ما ليس له اسانيد تصل الى درجة الصحة كتواريخ سائر الامم ومروياتها . حتى انه تجرأ على التصريح بتكذيب القرآن المجيد فيما اثبتته من بناء ابراهيم واسماعيل لبית الله الحرام بمكة المكرمة ، وشكك في آيات أخرى وفي احاديث وزوايات كثيرة من صدقه فيها من تلاميذ الجامعة او غيرهم من الدهماء ينبد الدين وراء ظهره ويمشي عاريا مجردا من الوازع النفسي الذي ينهى عن الفواحش والمنكرات ، فيستحل جميع ما قدر عليه من اموال الناس وامراضهم اذا عنت له وأمن العقاب عليها في الدنيا . وحينئذ يكون كالدكتور طه حسين في فلسفته واحكامه التي كان منها عد افسق الفساق في التاريخ كآبي نواس من كبار المصلحين ، ونشر اخبار فسقه في صحيفة السياسة وفيه من ترغيب الناس فيها .

ان قلعة الدكتور طه حسين التي جرى عليها في كتابه هذا وفي غيره هي ان الفلسفة العليا التي يتوقف عليها وصول الانسان الى العلم الصحيح

في الآداب والتاريخ وغير ذلك هي أن يكذب الله ورسله وأفضل البشر بعد الرسل كالخلفاء الراشدين وأئمة العلم والدين ، أو يشكك في أقوالهم على الأقل ، ويأخذ بالقبول والتسليم ما فيه طعن في الإسلام ، وفي سلفه الصالح وكبار أئمة وأن لم يقله إلا بعض فساق المسلمين ومن لا ثقة بصدقه منهم ومن غيرهم ، ثم ماذا ؟

ثم يستبدل بها نظريات بل ضلالات اخترعتها مخيلات ملاحدة الأفرنج وكذا دعاة النصرانية الذين تعلموا وربوا على الطعن في الإسلام وجعل مدار معيشتهم من جمعياتهم الدينية على تشكيك المسلمين بدينهم أن لم يقدروا على تحويلهم عنه وجعلهم أعداء له . ويزين ذلك بخلاصة اللفظ وشقشقة اللسان والقلم ، وسفسطة الجدل ، ولماذا ؟

لأجل أن تنحل روابطهم الملية ، وتزول عقيدتهم الدينية ، وتفسد ملكاتهم الأدبية ، فيقبلوا بارتياح أن يكونوا تابعين لدول الاستعمار الأجنبية ، فإن لم تكن هذه اللام لام العلة والغاية ، فلا بد أن تكون لام الصيرورة والعاقبة .

إن موضوعات هذا الكتاب هي من دروس للدكتور طه الأديبة التي يلقيها على تلاميذ الجامعة المصرية لأجل أن ينسلخوا من الإسلام الذي صار قديماً رثاً بالياً في نظره !! ويصيروا أمة جديدة لا يدينون بدين ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يابون الخنوع لكل حاكم وإن كان أجنبياً .

وكذلك فعل صديقه واحد أركان جمعيته الشيخ علي عبد الرازق في كتابه « الإسلام وأصول الحنم » فأرضيا بذلك دول الاستعمار ودعاة النصرانية فأنيا على هذا أجل الشناء كما أثنيا على ذلك . وكنا عندهم محل الرجاء .

ظهر هذا الكتاب وأنا في مكة المكرمة فرايت في الجرائد خبره وقيام رجال العلم والدين بالرد عليه والطعن فيه ومطالبة الحكومة بمصادرته

ومنهم قراءته ورأيت فيه ان الحكومة (عاقبته) بشراء نسخ جميع الكتاب منه دفعة واحدة بدلا من ان يبيعها هو في عدة سنين - وحفظها لدى وزارة المعارف - ولا ندري لماذا ؟

ولما رجعت الى مصر لم يتح لي الحصول على نسخة منه وإنما اطلمت امس على نسخة منه استمرت ساعة واحدة او اقل من ساعة فتصفحت فيها أهم صحائفه .

ورأيت قبل هذا في الجرائد اضطرابا في مجلس النواب اذ طلب بعض اعضائه عقاب هذا المعتدي على دين الحكومة الرسمي وهو من عمالها واخراجه من المدرسة الجامعة حرصا على عقائد طلبتها وآدابهم ، وكان هذا الاضطراب يؤزل الى استقالة الوزارة المدلية لان صاحب الدولة رئيسها ووزير الداخلية فيها رأى انه لا حق لمجلس النواب في مطالبتها بما طالبا فطفق يرد على بعض النواب ، وانبرى صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول رئيس المجلس لمناقشته والدفاع عن حقوق المجلس حتى اعتقد الحاضرون ان الجلسة لا تنتهي الا باستقالة الوزارة ، ولما كان اتفاق هذه الوزارة مع المجلس هو قطب الرمح لاتحاد الامة المصرية بعد طول الشقاق اقترح بعض الاعضاء تأجيل الفصل في هذه المسألة الى الجلسة التالية لتلك الجلسة ، وذهب في تلك الليلة كل من صاحبي الدولة رئيس الوزارة ورئيس مجلس الشيوخ حسين رشدي باشا الى بيت الامة فسمرا مع دولة سعد باشا سمرا طويلا انتهى بالاتفاق على قبول ما صرحت به الحكومة في مسألة الدكتور طه حسين وهو انها تعمل ما يجب عليها وان يطلب بعض النواب من النيابة العامة اقامة الدعوى على الدكتور طه حسين - وهكذا كان .

طلب بعض النواب محاكمة الدكتور طه حسين فطلبته النيابة العامة للتحقيق معه ، وعين جماعة من كبار علماء الجامع الازهر لمناقشته ومناقشة وكلائه في القضية ، وقد ظهر من ضعف هؤلاء العلماء في المناقشة ما كان مدعاة الامتناع والاسى من اهل الدين والتقوى ، وقال بعض الملاحدة

ان علماء الازهر ارادوا ان يشبوا كفر الدكتور طه حسين فاقبت هو
كفرهم !!

ليست هذه القضية قضية فرد اسمه طه حسين يشك ويشكك في
الدين فقط - بل هي اعظم من ذلك - ولا هي قضية استاذ في مدرسة
الجامعة المصرية اعطي حقاً رسمياً في افساد عقائد الطلبة في المدرسة
الجامعة الرسمية وتجريدهم من دينهم - وان هذا لعظيم جداً جداً -
ولكن وراءه ماحو اعظم منه وهو الذي يفقهه اهل الفقه في مصر وفي أوروبا
وسائر العالم وبه كانت القضية اعظم واكبر شأناً من قضية فرد اشتهر
بعدم التدين وبالصد عن الدين ، واعظم واكبر شأناً من كونها قضية استاذ
في الجامعة المصرية اعطي حقاً رسمياً من الحكومة يثبت رأيه على زيغه -
أي يافساد عقائد الطلبة .

بماذا كانت هذه القضية اعظم من هذا الامر الذي اعترفنا بأنه عظيم
جداً جداً جداً ؟

يذكر قراء المنار اننا كتبنا في احدى المقالات التي استنكرنا فيها جريمة
كتاب الشيخ علي عبد الرازق ان احد اذكى الاسرائيليين في مصر صرح
في محفل ادبي بان قضيتته هي قضية التنارع بين مدرسة الجامعة الازهرية
الدينية ومدرسة الجامعة المصرية اللادينية ، او التنارع بين الدين والالحاد
في البلاد المصرية ، ولعلمهم يذكرون أيضاً ان الشيخ علي عبد الرازق هدد
خصومة في بعض المقالات التي نشرها في جريدة السياسة واندوهم الخيبة
والفشل في مقاومته ومحاكمة الازهر له ، ثم ظهر ان وزير الحفانية ورئيس
الحزب الحر الدستور يعارض في محاكمة هيئة كبار علماء الازهر له
بحسب قانون الازهر ، ولما اصر رئيس الوزارة في ذلك الوقت (يحيى
ابراهيم باشا) على وجوب محاكمته وعضده اكثر اعضائها استقلال وزير
الحفانية هو وسائر الوزراء الذين من حزبه الحر الدستوري كما هو
مشهور ولم ينس الجهور .

وهذا الدكتور طه حسين قد جعل كتابه الجديد هدية الى صاحب الدولة عبد الخالق باشا ثروت وزير الخارجية في الوزارة الحاضرة واحد الاركان المؤسسين للحزب الحر الدستوري وصدرة باسمه ، وفهم الكثيرون ان رئيس الوزارة صاحب الدولة عدلي باشا قد ناضل مجلس النواب واشتدت الملاحه بينه وبين صاحب الدولة سعد باشا رئيس المجلس لاجله حتى كاد يسمح بترك الوزارة في هذه السبيل .

ومما يعلمه الجمهور مع هذا ان جريدة السياسة التي هي لسان الحزب الرسمي هي اللسان غير الرسمي لهؤلاء الذين يطعنون في الاسلام ويحاولون هدم دعائمه الدينية واللغوية والادبية كالشيخ علي عبد الرازق والدكتور طه حسين وغيرهما ، وهناك جريدة اخرى اسبوعية تمت الى هذا الحزب بسبب ، وهي تهزأ بالدين ورجاله في كل عدد ولو بغير سبب .

ومما يعلمون مع هذا ان الملاحدة والزنادقة قد كثروا في مصر ، وانهم صاروا يجاهرون بالدموة الى الالحاد ، وإلى تقليد زعماء الترك في المروق منه والتفصي من جميع مقوماته ، والانسلخ من جميع مشخصاته ، وتقليد ملاحدة الفرنج واباحيهم دون أهل الدين منهم الذين يبدلون الملايين في تأييد دينهم ونشر دعوته في العالم ، ومن هؤلاء الملاحدة اصحاب المناصب العالية والدانية .

فمن فكر في هذه المقدمات كلها يعلم ان قضية الدكتور طه حسين هي قضية التنارع بين دين الاسلام والجهر بالالحاد الصريح كما كانت قضية الشيخ علي عبد الرازق كذلك - وقد صرح بهذا فيهما بعض كتاب الجرائد الاوربية في مصر وفي اوروبا نفسها ، فلذا يرى الدكتور طه حسين منها تعد تبرئته في عرف الشرق والغرب انتصارا للكفر على الايمان ، والالحاد على الاسلام ، وثارا للملاحدة من المسلمين ، وشبهة في حزب الاحرار الدستوريين ، تجرى سائر الملاحدة على العطن في الدين وانه لم يبق بين اتباع الحكومة المرية خطوات الحكومة التركية الحاضرة الا قليل ولا أقول أكثر من هذا ولا حاجة الى قول يعرفه جماهير المفكرين من شرقيين وغربيين ، لا من المصريين وحدهم .

ولن يمكنني مع هذا ان اقول ان الحزب الحر الدستوري في جملته مغبون ومظلوم في جعل جريدة السياسة لسان حاله في كل ما تنشره خارجا عن الخطة السياسية الوطنية للحزب كالحملة على الدين ورجاله ودعوتها الى تجديد الامة المصرية بثقافة جديدة تحل روابط الثقافة الاسلامية وتحل محلها ، فلنا نعرف من اعضائه المسلمين الصادقين الصائمين ، بل ربما كان في اعضائه من يكره كثيرا مما نشرته في سبيل سياسة الحزب ايضا . او قول ايضا ان ما اشرت اليه من سبب نضال صاحب الدولة عدلي باشا لمجلس النواب هو المعقول دون ما قيل وما انتشر من كون المراد به الدفاع عن طه حسين وكتابه . واقول ثالثا ان صاحب الدولة ثروت باشا لا يعقل ان يكون قد استشير في تصدير كتاب (في الشعر الجاهلي) باسمه ، او انه رضي بذلك على علم بما في الكتاب .

ثم اقول رابعا ان النيابة العامة اذا قررت عدم محاكمة طه حسين ، وان القضاء اذا براه بعد محاكمته من عقاب الطعن في الدين والتكذيب القرآن وكذا التوراة ، فلا يكون هذا ولا ذاك براهنا منطقيا ولا قانونيا على تعمد نصر القضاء الكفر على الايمان ، والالحاد على الاسلام ، لان كلا من رجال النيابة والقضاء المشتركين في هذه القضية قد ينظرون ويحكمون بمقتضى الالفاظ التي يقولها الخصوم في مجالس التحقيق والمحاكمة ، وقد يغفلون عن كون كلام طه حسين ووكلائه مخالفا لكل ما فهمه رجال الدين وجماهير المسلمين والغربيين في كتاب الدكتور طه حسين . ومن كون فهم هؤلاء الجماهير يجب ان يكون له قيمة بل اكبر قيمة في ادانته فان العبرة او الصمدة في اثبات طعنه في الدين واهائنه له بما يفهمه جماهير الناس منه ، لا بما يمكن ان يقال في تاويل الكلام والجدال فيه ، وقد فهم العرب والافرنج جميعا ان الكتاب طعن صريح في القرآن والنبي وسلفه المسلمين الصالحين واثمتهم ، ونكتفي بنشر برقية واحدة مما جاء من اوردية في ذلك :

راي اوردية في قضية الدكتور طه حسين :

لندن في اول نوفمبر - لمراسل الاهرام الخاص - نشرت جريدة « الدايلى تلغراف » اليوم مقالا رئيسيا جاء فيه ما ياتي :

« ليس في العالم دين لا يوجد بين معتنقيه عدد من الهرطقة .
 فالدكتور طه حسين رجل جسر فلا بد أن ينال جزاءه بالاضطهاد .
 فمن ينتقد القرآن فهو كافر لأن القرآن منزل بحروفه . وهذا يعني أن
 الوحي لا يقتصر على ما يقوله القرآن ، بل يشمل أيضاً معنى ذلك القول
 كما فسره المفسرون القدماء . ثم إن المسلم المتمسك بدينه يود أن يذهب
 إلى أبعد من الإيمان بوحى القرآن ويريد من الكتاب أن يكون الحجة
 الفاصلة في الأدب العربي وينكر على كل إنسان أنه يستطيع الاتيان بمثل
 لغته العالية . فمن الصعب على العقل الغربي أن يقبل هذا . على أن
 المؤمنين أنفسهم قد يجدون مثل هذه الصعوبة ، فقد سأل اثنان من
 الصحابة النبي مرة كيف يقرأ آية قراها كل منهما قراءة مناقضة للآخرى
 فأجاب أن القرآن أنزل عليه بسبع قراءات . ويظهر أن النبي لم يكن
 هو نفسه يكتب القرآن ، بل أنزل عليه بواسطة جبريل ، ثم توقفت هذه
 البلاغات المكتوبة المرسلة من السماء وجعل النبي يتكلم بصوت الوحي
 والصحابة يكتبون ما يقول وقد نبه مرة إلى إحدى الآيات قائلاً أنها وحي
 من الشيطان فنسخت .

« ليس في العالم عقيدة يسهل الدفاع عنها إذا شاء الناقدون البارعون
 تفنيدها أمام جمهور يميل إلى النقد . ومع ذلك فلما لم يكن الوحي هو
 القوة التي جعلت للقرآن ذلك السلطان فما هي تلك القوة ؟ لقد أوجد
 القرآن أحد الأديان العظمى التي يعتنقها الجنس البشري وهو منذ ألف
 سنة من أعظم القوى الموجودة في العالم » ١ هـ .

(المنار) اقتصرنا على هذه البرقية لأن صاحب الجريدة الانكليزية
 زاد على وصف طه حسين بالهرطقة (يعني محاربة الدين) أن أيده في
 هرطقته بأمور تشير إلى تخطيطها بالإيجاز ، وشهد للقرآن شهادة معقولة
 نصفع بها وجه الملاحدة ودعاتها الذين يحاولون سلب هذه القوة من
 المسلمين والذين لا يفقهون سر المعجز القرآن ، فنقول :

(١) إن الكاتب الانكليزي علل كفر من ينتقد القرآن بأنه منزل

بحروفه واستنبط من هذا ان تفسير القدماء للقرآن يدخل في معنى الوحي . . ومراده ان من ينتقد تفسير المتقدمين كان كافرا كالذي ينتقد عبارة القرآن المنزلة . يشير الى ان طه حسين قد يضطهد بمخالفته لتفسير قدماء العلماء ! وكأنه يلقنه بذلك نوعا من اساليب الدفاع .

وجوابه ان هذا خطأ كبير فانه لم يقل أحد من علماء المسلمين وأئمتهم إن تفسير أحد من القدماء له حكم نص القرآن نفسه ، وكثيرا ما نرى متأخري المفسرين يخالفون بعض المتقدمين في تفاسيرهم حتى مفسري الصحابة منهم . . نعم ان اجماع أهل الصدر الاول من الصحابة والتابعين على تفسير آية معتبر من أدلة الشرع الواجب اتباعها ، ولكن مخالفه لا يعد كافرا الا اذا كان أمرا معلوما من الدين بالضرورة وكان المخالف غير حديث عهد الاسلام - او كان قد علم به واكلمه أو جحدته . فالمدار في التكفير على اعتقاد المخالف ان هذا من قطعيات الدين المنصوصة في القرآن ومخالفته أو جحدته مع ذلك .

(٢) قال : ان المتمسك بدينه يود أن يذهب الى أبعد من الايمان بوحى القرآن النخ وجوابه أن كل من قرأ القرآن أو سمعه من أهل المعرفة الصحيحة باللغة العربية والنون السليم في آدابها من المسلمين وغير المسلمين كانوا - وما زالوا - يؤمنون بما ذكر الكاتب الانكليزي من خصائص المسلم المتمسك بدينه وهو أن القرآن « هو الحجة الفاصلة في الادب العربي ، وأنه لم يستطع ولن يستطيع أحد الاتيان بمثل لغته العالية » . ولا نسلم للكاتب قوله إن العقل الغربي يصعب عليه أن يقبل هذا فضلا عن قوله ان المؤمنين انفسهم قد يجدون هذه الصعوبة . وذلك ان العقل الغربي السليم لا يمكن أن يحكم في امر لا يعرفه وهو ليس محالا للذاته .

من المنصوص في القرآن والمعروف بالتواتر الاجماعي من تاريخ الاسلام ان النبي (ص) قد تحدى عرب قريش وهم أفصح العرب لغة ثم تحدى سائر الخلق بالاتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله ، وجعل هذا آيته

الكبرى على كونه وحياً من الله وصرح بأنهم لن يستطيعوا ذلك فقال حاكياً عن الله تعالى (ولن تفعلوا) فلو قدر أحد من الكافرين به وكان أكثرهم كافرين أن يأتوا بسورة من مثله لأتوا بها لابطال دعواته والاستراحة من تعادي القبائل بمقاتلته ، ولكن ظهر عجزهم وعجز جميع الخلق عن الاتيان بسورة من مثله في بلاغته واهم عن الاتيان بمثله في هدايته أعجز ، فهذا النوع من اعجازه قد اعترف به الكاتب الانكليزي وغيره من الغربيين . ولكنه امتري في اعجازه ببلاغته لانه لا يعرف لغته فهذا العجز حجة للمسلمين الذين يعرفون البلاغة العربية والذين يجهلون منها الاماجم وعوام العرب على اعجاز القرآن وصدق وعد الله عز وجل ، وهي حجة واقعية قطعية لا يمكن المراء والجلل فيها ، ولا مجال هنا للزيادة على هذا وقد بسطناه في مواضع من التفسير وغير التفسير .

(٣) زعمه ان اثنين من الصحابة (رض) سالا النبي (ص) مرة « كيف يقرأ آية قراها كل منهما قراءة مناقضة للآخرى فاجاب ان القرآن نزل عليه بسبع قراءات » .

هذا النقل او الزعم باطل ، وله اصل حرافه او لم يفهمه الناقل ، كذاب خصوم الاسلام فيما ينقلون عنه . ونحن نذكر اصله الصحيح ، ليعلم من يريد العلم الحق كيف يكون الاختلاف والتحريف .

اقول اولاً ان قراءة القرآن بالسبعة الاحرف وردت في حديث مستقل غير حديث اختلاف بعض الصحابة في القراءة فقد روى أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن عباس (رض) ان رسول الله (ص) قال « اقراني جبريل على حراف فلم ازل استزيده ويزيد لي حتى انتهى الى سبعة احرف » وفي بعض الروايات ان النبي (ص) قال له « هون على امتي - و : ان امتي لا تطيق ذلك » كما في صحيح مسلم من حديث ابي بن كعب ، وهذه علة منصوطة في سبب تعدد القراءات تنافي أن تكون لتصحيح ما اختلف فيه بعض الصحابة .

ثم اقول ان الاختلاف وقع بين عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام

(رضي الله عنهما) في بعض آيات سورة الفرقان كما في الصحيحين وكل منهما ادعى أن النبي (ص) اقراه كما قرأ فطلبه عمر بردائه وأخذه إلى النبي (ص) وقص عليه ما سمعه منه مخالفا لما اقراه (ص) ، فصدق كلا منهما بأنه هو الذي اقراه كما قرأ وقال « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقراوا ما تيسر منه » وواقع مثل ذلك لغيرهما . ولم يذكر أحد من الرواة ما اختلف فيه عمر وهشام ، فمن أين أخذ هذا الانكليزي قوله ان قراءة كل منهما كانت مناقضة للآخرى ؟ هذا اذا كان قد عبر بما يدل على المناقضة المعروفة في اللغة العربية أو اصطلاح علماء المناظرة عندنا . فاما اذا كان تعبيره بمعنى المخالفة التي تصدق باللفظية بحيث لا ينقض معنى كل قراءة معنى الاخرى فيكون كلامه صحيحا . وفي الفرقان الفاظ كثيرة اختلف القراء في قراءتها منها المتواتر الذي يعد قرآنا ، ومنها غيره وهو لا يعد قرآنا ، فالاول قراءة (ويجعل لك قصورا) بضم لام يجعل وبجزمها ، وقراءة ضيقا من قوله تعالى (واذا القوا منها مكانا ضيقا) بتخفيف الياء وبتشديد ياءها ، وأمثال ذلك مما لا يتناقض معناه .

(٤) قوله : ويظهر أن النبي لم يكن هو نفسه يكتب القرآن « الخ وهذا لا يحتاج الى استنباط منه او استظهار فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم امياً – وأميته من دلائل نبوته – لا يكتب شيئا وانما كان يكتب له اصحابه كل ما يوحى به اليه ويحفظونه ويقرءونه كما يقرأه صلى الله عليه وسلم في الصلوات الخمس وفي خروجه كل يوم . والذين اختلفوا من الصحابة في بعض الالفاظ من سورتي الفرقان والنحل سمعه بعضهم من بعض في الصلاة .

(٥) قوله عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه نبه مرة الى احدى الآيات قائلا انها وحى من الشيطان فنسخت » غير صحيح ، وهذه هي المسألة المعروفة بمسألة الفرانيق وقد كتب شيخنا الاستاذ الامام مقالا مسهبا في تحقيق الحق فيها يراجع من شاء في المجلد الرابع من المنابر او في ملحقات تفسير الفاتحة المطبوع عرازا .

(٦) قوله « ليس في العالم عقيدة يسهل الدفاع عنها » الخ هذا نفي مطلق لا يجزم به عقل منطقي ، فالدفاع عن وجود الله ووحدةانيته وحكمته من اسهل الامور وقد جزم بها اكثر البشر من جميع الملل والنحل والمنكرون لها على قلتهم لم يسمموا براهينها من اهل العلم الصحيح ، ومن سمع ذلك ومازى فيه فشانه كشان السوفسطائية الذين انكروا الحسنيات ومازوا فيها فلا يعتد بانكارهم اذ مقتضاه انه لا يثبت في العالم شيء ، وهذا جهل ما وراءه جهل .

واما شهادة الكاتب الانكليزي التي حمله استقلال عقله على التصريح بها فهي أن سلطان القرآن الروحي الذي حدث به ذلك الانقلاب العظيم في البشر واوجد احد الاديان العظمى فيهم وهو منذ ألف سنة ونيف « من اعظم القوى الموجودة في العالم » - اذا لم يكن هذا السلطان وهذه القوة قوة الوحي الالهي وسلطانه فاي شيء هما ؟ وهذا بمعنى ما قلناه وكتبناه مرارا وهو ان اعجز القرآن بهديته ، اعظم من اعجازه ببلاغته ؛ وقد صرح بمعناه غير هذا الكاتب من حكماء الغرب .

إننا نكتفي في هذه المقالة بل العجالة بتنبيه الاذهان لخطر هذا الكتاب وامثاله من مكتوبات الدكتور طه حسين واخوانه دعاة الاتحاد والولياتهم وندع الرد على قضايا كتابه في الشعر الجاهلي او الادب الجهلي الى الذين وجدوا من فراغ الوقت ما شغلوه بالرد على قضايا الباطلة وشبهاته العاطلة . ووجه الخطر انه دعوة الى الكفر والالحاد وتحقير الدين والصمد عنه ولا سيما في نابتة المدارس العليا وغيرهم ونحن ما زلنا نذكر الامة بخطر هؤلاء وضرورهم منذ بلغنا انهم افوا جمعية للتعاون على افساد الدين في مصر ، وكان اول من بلغنا هذا الخبر بعد وقوفه عليه المرحوم الشيخ محمد مهدي احد اساتذة البلاغة والدين في دار العلوم ثم في مدرسة القضاء الشرعي التي صار وكيلها . ثم بلغنا في العام الماضي ان لهم او لبعضهم صلة خفية بجمعية يهودية في مصر الجديدة تساعدهم على سعيهم هذا . والله اعلم .

ولا شك عندنا في ان هذا الافساد هو افعل اسباب ما يتفاقم خطبه

في بلادنا هذه من تهتك النساء والشبان واستباحة الاعراض وانحلال
روابط البيوت وذهاب الصحة والثروة ، وكلنا الاستعداد لقبول تعاليم
البلشفية وغيرها من بدع الافرنج التي لا تقوى بنية دولتنا ولا بنية امتنا
الاجتماعية والعلمية بدون الدين على ما تقوى عليه من احتمالها بني دول
اوربة وشعوبها بعلومها ونظمها وقوتها العسكرية .

(فان قيل) ان الدكتور طه حسين قد صرح حين اتهم بهذه التهمة
بانه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله (قلنا) ان مثل هذا التصريح المجمل
المبهم في مقام دفع التهمة لا يسلب منا لغتنا ولا عقولنا فتغير فهمنا لكننا
وغيره من مكتوباته ومقالاته .

اهكذا يكتب المؤمنون ؟ يضعون كلام الله المنزل موضع الشك بل
ينظمونه في سلك الاساطير الخرافية ثم ينقضونه بنظريات مخترعة لبعض
اعداء الاسلام ؟ الايمان بكتب الله هو التصديق اليقيني بكل ما انزله الله
تعالى فيها مع الاذعان النفسي والعملي له ، فكيف يصدر عن صاحب
هذا الايمان ما ذكرناه وما لم نذكر من تشكيك في القرآن فتكليب مقرون
بالهزؤ ؟ فترجيح لطلعن اعدائه فيه على نصوصه .

الايمان بالرسول (ص) هو تصديقه اليقيني القطعي في كل ما جاء به
عن الله تعالى مع الاذعان النفسي والعملي لذلك وهو يقتضي تعظيمه وتوقيره
وتعزيزه أي نصره وتفخيمه . وتقديم حكمه على كل حكم ، واننا نرى له
في هذا الكتاب ما نرى من التكذيب والهزؤ ، ونراه اذا ذكر النبي الذي
يلبى ملته فانما يذكره كما يذكره الكافرون به بلا تعظيم ولا صلاة
ولا سلام عليه ؟

قد كان يمكن لطله حسين أن يذكر شبهات اعداء الاسلام على بناء
ابراهيم واسماعيل لبيت الله تعالى (مثلا) بطريق الحكاية عنهم ، وكان
من مقتضى الايمان أن يقفي عليها بالرد ، أو يجري فيها على قاعدته
(التشكيك) على الاقل ، أو يقول ههنا نظريات مردودة عندنا معشر

المسلمين - او عند المسلمين - اذا لم يشأ أن يعد نفسه منهم - بنص القرآن الصريح الذي وصف في بعض سوره بأنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) ولكنني لم أر فيما قرأت من الكتاب جملة تدل على أن كاتبه مسلم او يدين بدين ، وسأعود إن شاء الله تعالى الى النظر فيه ، فان وجدت شيئاً من ذلك أثبتته له .

. وصفوة القول فيه انه لو لم يكن قاصداً متعمداً متوخياً تجريد تلاميذه من دينهم ووطنيتهم ، لادخر هذه الفلسفة لنفسه دونهم ، وإن شاء ربي عليها أولاده الذين سماهم بأسماء الافرنج دون أسماء المسلمين ، عداوة لهذه اللغة وهذا الدين .

المصدر : مجلة المنار ج ٨ - ٢٧٣ نوفمبر ١٩٢٦

ملاحظة : محرر المنار هو الشيخ رشيد رضا .

كتاب في الشعر الجاهلي

نعاية الى الالحاد والزندقة

وطعن في الاسلام

تمهيد :

اتيت الي النظر ثانية في هذا الكتاب وقرأت الكثير من كتبه وفصوله في فـرص متفرقة - فحكمت بقراءتها حكما تفصيليا لا شك فيه بمثل ما أجملته في مقالتي الاولى ، بعد تلك النظرة العجلى ، حكمت بأن الدكتور طه حسين ما ألف هذا الكتاب لتحقيق ما يمكن الوصول اليه من الشعر الجاهلي يقينا او ظنا أو شكاً ، بل ألفه لاجل الطعن في الاسلام ، والصد عن سبيل الايمان ، والدعوة الى الزندقة والالحاد ، هذا هو المقصد ، والشعر الجاهلي والادب العربي وسيلة اليه .

وقد كنت أردت أن أقرأه كله وأحصي ما فيه من المظالم والابسين بطلانها ، ثم رأيت أن خلس الفراغ من أيام الجمع لا تمكنني من ذلك الا في عدة أشبه ، فراجعت الى رأيي الاول وهو ترك الرد التفصيلي للذين صنفوا والذين لا يزالون يصنفون كتباً خاصة في ذلك يعني كل منهم برد نوع من ابطال الكتاب وصاحبه أو برد عدة أنواع منها كما فعل (مصطفى صادق أفندي الرفاعي) و (محمد فريد أفندي وجدي) ، فان هذا قد بين اغلاطه وجهله من الوجهة العلمية والتاريخية : دون ضلالاته الدينية ، وكأنه رآه مفيداً من هذه الوجهة بهدمه للاسلام المعروف عند أكثر المسلمين لعله يكون وسيلة وتمهيداً للاسلام الصحيح ، اسلام القرآن الكريم اذ كان كتب مقالات في جريدة الاخبار ارتأى فيها أن المسلمين لا يمكن أن يكونوا

مسلمين كما يجد الا اذا تركوا الاسلام المعروف عندهم وارتدوا عنه معتقدين بطلانه ، ثم دعوا الى الاسلام الآخر . وقد حفظت هذه المقالات عندي لابين ما فيها من خطأ وصواب عند سنوح الفراسة .

وانني ابداً الآن ببيان خطة الدكتور في دعايته الالحادية وما مهد لها به في كتابه الجديد (في الشعر الجاهلي) من الدعاوى والقواعد الخادعة مع تنفيذها وبيان ما فيها من التعارض والتناقض ، ثم اقفى على ذلك ببيان اهم مطالعته في الدين الالهي وفيما ختمه الله واكمل به ببعثه خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

الفصل الاول

المقاصد والاصول والمقدمات التي جرى عليها الدكتور طه حسين

في طعنه في الاسلام ودعوته الى الالحاد

(١) ان الدكتور طه حسين قد اخذ على عاتقه ان يحارب دين الاسلام والامة الاسلامية بالطعن فيهما وصراف الناس عنهما الى الزندقة والاباحه . ذلك شأنه في مصنفاته من (ذكرى أبي العلاء) الى (في الشعر الجاهلي) وفي مقالاته التي نشرها في جريدة السياسة تحت عنوان (حديث الاربعاء) الى مقاله الاخير (العلم والدين) وهي خطة قد ابتدعها بعض اليهود في اورية لافساد دين النصرانية على اهلها ، ويقال ان لبعض اعضاء جمعية الالحاد والزندقة هنا صلة ببعض الجمعيات اليهودية .

(٥) (*) ان من اساليب الدكتور طه حسين المعروفة في كل ما كتبه انه يخترع مسائل يجعلها من قبيل القضايا المسلمة بما يزينها به من خلاصة القول ، ثم يستدل بها ، او يورد عليها بعض الشبهات ويرد عليها دفاعاً عنها ، وهذا كثير في كتابه هذا وسنذكر امثله عند بيان بطلانه .

(*) هكذا يتسلسل الترقيم في المجلة م. خ .

(٦) أن من أساليبه أنه يشكك في المسائل الثابتة بضروب من خلاطة المغالطة أو السفسطة ، ويزين هذا التشكيك لقارىء كلامه ويحاول حمله على قبوله بدهوى أن الشك في كل شيء هو الطريق اللاحظ الموصل للعلم الحق والفلسفة الصحيحة والتجديد ، فيجب على طالب الحقيقة أن يقبله ولو على سبيل الفرض بأن يفرض أن ما يؤمن به إيماناً يقينياً هو باطل لا حقيقة له ، لأجل أن يكون سالكا للمنهج الذي زعم أن الذي نهجه وأشعره للناس هو الفيلسوف (ديكارت) البحث عن حقائق الأشياء ، وهو تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل (ص ١١) أو ليلذ عقله بالشك والقلق والاضطراب (ص ٥) أو ليتمتع بلذة قبول كل جديد ونبد كل قديم ولا سيما إذا كان إسلامياً . فيكون من المجددين الذين يكونون أشد شكاً في القديم أو « أشد ما يملكهم الشك حين يجدون من القدماء ثقة واطمئناناً » (ص ٥) يعني أن جل لدتهم وغبطتهم في هدم ما بنه المتقدمون .

(٢) أنه قد بين في التمهيد من كتابه هذا المذهب الذي يجري عليه هو وأخوانه المجددون للالحاد والإبادة وزينه بقوله (ص ٢) « أريد أن لا تقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وثبت أن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان » .

(٣) أنه ذكر الفرق بين هذا المذهب ومذهب القدماء بزعمه فقال : « والفرق بين المذهبين في البحث عظيم فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان والرضاء ، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب ، وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود » اهـ

ثم وصف هؤلاء المجددين وثمره مذهبهم بقوله (ص ٦) « والنتائج اللازمة لهذا المذهب الذي يذهب المجددون عظيمة جليلة الخطر ، فهي إلى الثورة الأدبية أقرب منها إلى شيء آخر . وحسبك أنهم يشكون فيما كان الناس يروونه يقينياً ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه » اهـ

ثم وصفهم بما هو أبعد في الصراحة مدى من ذلك وهو قوله « وهم قد ينتهون الى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » .

(٤٤) انه فصل اجمال هذا المذهب بما أوجبه على هذه الطائفة بقوله « نعم . يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل من يتصل به ، وأن ننسى كل ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين . يجب أن لا نتقيد بشيء ولا نلتصق بشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح ، ذلك اننا اذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسندخل الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنفل عقولنا بما يخالف هذه القومية وهذا الدين ، وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء غير هذا ؟ » اه بحروفه .

(٧٧) من مناهج الدكتور طه حسين في مباحثه العلمية والادبية ، ومقاصده اللاحادية الاباحية ، انه يعمد الى شيء من الباطل كالخرافات او الروايات التي لا تصح فيقرن به شيئا من الحق المشابه له ليوهم المطلع على كلامه ان حكمهما واحد . ثم انه يجعل الباطل هو الحق الذي لا مزية فيه ولا مراء ، اذا كان مشككا في الاسلام او مزريا به وصادا عنه ، كما جمع بين خرافات الجاهلية في الجن وثلقينهم الشعر للشعراء ، وبين ما ثبت في الكتاب والسنة من وجود الجن وإيمان بعضهم وكفر بعض - ليوهم المسلمين أن هذا من ذلك ، كل منهما خرافات .

(٨٨) من منطق الدكتور طه حسين في البحث والاستدلال انه يجعل بعض جزئيات الاخبار التي توافق هواه قواعد كلية ، وحججا علمية ، لا يتسرب اليها شيء من الشك الذي فرضه في كل كلام قديم حتى الكلام القديم الاثلي وهو كلام الله تعالى - وان لم ترو بسند صحيح ، ولم تمحص بنقد ولم تثبت بدليل ، كزعمه ان سعد بن عباد قد قتله المسلمون قتلا لما زعم من ذنوبه وادعوا ان الجن قتلته ، وسيأتي بيان ما فيه من الكذب المتعمد ، فكيف اذا كانت تلك الجزئيات مأخوذة بالتسليم ، ومن هذا انه جعل وقائع الاحوال في العصبية القومية بين العرب أصلا يحمل عليه ما

ليس منه حتى ادخل في عمومهم المهاجرين والانصار الذين الف الله بين قلوبهم بالاسلام فاصبحوا بنعمته اخوانا كما يشهد لهم القرآن والتاريخ الصحيح الثابت بالتواتر .

(٩) من منهج الدكتور طه أنه يأخذ كلام بعض أعداء الاسلام في الطعن فيه بالقبول ، والا يجري فيه على قاعدته في رد كلام المتهم بعداوة او عصبية - ولا بقاعدة (باكون) التي ادعى أنه لا يحيد عنها في مباحثه ، فقد وابناه ينتحل بعض كلام دعاة النصرانية الذين جعلت جميعياتهم الدينية رزقهم ومادة معيشتهم وتكريمهم الطعن في الاسلام ودعوة أهله الى تركه ، من حيث يطعن في روايات أئمة المحدثين الذين يتقربون الى الله تعالى بتمحيص الروايات مهما يكن موضوعها حتى أن بعضهم صحح بعض ما بعد طيناً في الاسلام او يغري بالطعن فيه . وحكموا بالضعف ثلثة وبالوضع أخرى على احاديث لا يختلف عاقلان في صحة معناها وتأيدها للاسلام .

(١٠) من سنن الدكتور طه ودأبه أنه يخترع للقضايا والمسائل الصحيحة والمختصرة المفتراة منه عللا باطلة يفتجرها افتجارا للطعن في الاسلام كما علل ما زعمه من اختراعهم للشعر الجاهلي بأنهم كانوا محتاجين الى ذلك لتأييد لغة القرآن وكما علل به انتساب العرب العدنانيين الى اسماعيل بن ابراهيم وما علل به تسمية الاسلام بملة ابراهيم الخ الخ .

الفصل الثاني

(١) تفنيذ زعمه أنه هو واعوانه طلاب علم يقيني في الشعر الجاهلي :

زعم الدكتور طه حسين او يوههم تلاميذه وقراء كتابه أن الغاية الشمينة النفيسة الغالية التي ينسى هو واخوانه المجددون للالحاد والزندقة قوميتهم ودينهم وما يتصل به من كتاب ربهم وسنة رسوله لاجل الوصول اليها هي تحقيق الحق في الشعر الجاهلي - ونحوه من الادب

العربي وتاريخه — فان لم ينتهوا بعد تكذيب كل قديم فيه والبحث الجديد الى اليقين فحسبهم الانتهاك الى الرجحان: (ص ٢ و ٣) .

ثم قال ان اول شيء يفجأ به القارئ انه بالحاحه في الشك والحاح الشك عليه اخذ يبحث ويفكر ويتدبر حتى انتهى به ذلك كله « الى شيء الا يكن يقينا فهو قريب من اليقين . ذلك ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الاسلام » ثم صرح بان المسلمين هم الذين اختلفوا هذا الشعر واخترعوه ، وقد اشرك المفسرين والمحدثين والمتكلمين في هذا الاختلاق والاختراع لانه يريد ان يعتقد تلاميذه ان جميع علماء المسلمين كانوا كذابين افكين حتى ائمة الدين منهم .

لكنه نقض كل ما كان بناء في هذا الفصل وهو الاول التمهيدي وهدمه في آخره بعد : بعد ان اطل فيما اراد ان يجعله قاعدة مسلمة في سبب ما قذف به علماء المسلمين من الاختلاق فقال (ص ١٠) .

« فلذا انتهينا من هذه الطرق كلها الى غاية واحدة هي هذه النظرية التي قدمتها فسنجهد في ان نبحت عما يمكن ان يكون شعرا جاهليا حقا . وانا اعترف منذ الآن بان هذا البحث عسير كل العسر ، وباني اشك شكاً شديداً في انه قد ينتهي بنا الى نتيجة مرضية ، ومع ذلك فسنحاوله » اهـ .

فقصارى فلسفة الدكتور واخوانه دعاة الالحاد انهم يدعون تلاميذ الجامعة المصرية وغيرهم من قراء العربية ان يتجردوا من دينهم وهدايتهم التي هي مناط سعادة الدنيا والاخرة حسب اصول الإيمان ، وان يتجردوا من جنسيتهم ووطنيتهم التي بها يعتزون ويتناصرون ويحافظون على شرف الاستقلال والحرية القومية وابعاء ذل العبودية — وان يلقوا انفسهم بعد هذا التجرد في تيار من بحر الحيرة والاضطراب في اثبات الشعر الجاهلي يدفعهم شك ويتلقاهم ريب ، ولا ينتهون الى نتيجة مرضية — (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) والشك باليقين ، والحيرة والاضطراب بالسكينة والطمأنينة (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) .

أما والله أن هذا مذهب باطل ، لا يرضاه لنفسه فاضل ، وتجارة لا يختار بضاعتها المزجة عاقل ، وإن هؤلاء المجدين للإلحاد والاباحة لا يقصدون هذا الشك ، ولا يتلذذون به وإنما يتوخون التشكيك لغيرهم لينتظموا في سلك ملاحدة أوربة الذين نسب إليهم صد أهلها عن النصرانية ، إن لم يكونوا كلهم مستأجرين لذلك من المستعمرين الطامعين ، أو من الباشفيين وأمثال الباشفيين .

(٢) تصريحه بأنهم دعاة كفر وجحود للدين :

وصف الدكتور طه حسين هذا الشك في آخر الصفحة الثانية بأنه سينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود ، وقال في وصفه أهله مجددي الإلحاد (في ص ٦) « وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه » اهـ .

وهذا تصريح منه بأنهم يتعمدون الكفر والإلحاد والدعوة إليه حتى فيما يعلمون أنه حق - وهذا معنى الجحود نفي ما في القلب إثباته ، وإثبات ما في القلب نفيه . قال عز وجل (وجحدوا بها واستيقنوا أنفسهم) أقول : ومنه أيضاً قوله تعالى خطباً للنبي صلى الله عليه وسلم (فاتهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والدكتور طه يعرف هذا المعنى ، ويقصد به جحد القرآن وتكذيبه حتى فيما يعلم هو وأوليؤه أنه حق ، وليس عند المسلمين إجماع على حق لا شك فيه إلا على كتاب الله الذي سبحانه في وصفه (ذلك الكتاب لا ريب فيه) ورسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وما تواتر من سننه . فهو يقصد جحود القرآن وما فيه والرسالة والسنن حتى المتواترة - وقد أكد أودته لهذا المعنى بقوله « وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها » . وأما الشعر الجاهلي وغير الجاهلي فأقواء رواية مظلون ، وما عداه فمشكوك فيه أو مردود . فليس فيه شيء أجمعوا على أنه لا شك فيه ، ولا أنه لا يباح الشك فيه .

(٣) بطلان ما علل به ترك الدين والقومية وما يتصل بهما :

جعل الدكتور طه الاصل والقاعدة للبحث عن الادب العربي وتاريخه وجوب نسيان الدين وكل ما يتصل به ، أي من علم وهو الكتاب والسنة ومن عمل وهو العبادات والفضائل والآداب الاسلامية ، وكذلك القومية ومشخصاتها — وعطل ذلك بان عدم تركهما يضطر الباحث الى المحاباة وارضاء العواطف وبغل العقل بما يلائم القومية والدين ، وان هذا هو الذي افسد على المتقدمين عملهم دون غيره (ص ١٢) .

نقول في تفنيد هذا الزعم الذي اراد ان يجعله من القضايا المسلمة :

(اولا) ان مسألة الشعر الجاهلي من المسائل النقلية التي لا يمكن اليقين فيها إلا بالنقل المتواتر ، فاذا كان هذا لم يحصل فيما مضى فلن يحصل الآن ولا في المستقبل لان موضوعه الزمن الماضي ، واذا كان اليقين فيه متعذرا بقي الظن ، وما دونه من شك ووهم وطريقة علماء الاسلام المتقدمين في ترجيح بعض الروايات على بعض فيه وفي كل منقول ان ينظر في حال الرواة من حيث الصدق والامانة وجودة الحفظ واضدادها ، وعدم معارضة الرواي غير الثقة للثقات — والثقة لمن فقه في العدالة — ومما يشترطونه في عدالة الراوي الا يكون متمصبا للرأي او مذهبا وداعية له . وان لا يروي عن علم انه لم يلقه ، وان يكون السند الصحيح متصلا بالعدول ، خاليا من العلل والشذوذ .

هذا ما يروونه من جهة التثبت من الرواة — واما مروياتهم فيشترط فيها ان تكون ممكنة في نفسها فلذا كانت مشتملة على ما يقوم الدليل على امثاله لم يعتدوا بها الخ ، وبهذه الشروط ردوا كثيرا من روايات الاحاديث واخبار التواريخ ، ودموا كثيرا من الرواة بالضعف والوهم والكذب وتعمد الوضع .

واجدر الناس بالثبوت والصدق في ذلك ودقة النقد علماء الدين من المحدثين وغيرهم لانهم يدينون الله بتحري الصدق ويؤمنون ايمانا

قطعي، بأن الله يعاقبهم في الآخرة على الكذب واتباع الهوى . فلا إيمان هو الذي جعل عملهم أصبح العلم ، ورواياتهم الجدر روايات الأمم وأحقها بالتمحيص ، وقبول الصحيح منها ورد الضعيف . وقد اعترف لهم بهذه المزية المنصفون من علماء أوربة .

فإذا كان هؤلاء قد قصروا في نقد ما روي من الشعر الجاهلي بمثل دقتهم في نقد رواية الحديث فما على الدكتور طه أن صدق في زعمه أنه يقصد الوصول في رواية الشعر الجاهلي إلى شيء قريب من اليقين إلا أن يتبع خطتهم ويسير على منهاجهم ، ومنه أن يدين الله بالتزام الصدق والأمانة ، والاجتناب الكذب والخيانة ، اهتداء بقوله تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون) - الآية - ويقول رسوله (ص) في حديث الصحيحين وغيرهما « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان » فهذا النهج الإسلامي أصبح وأسلم وأقرب إلى الامكان من قاعدة باكون كما فهمها الدكتور طه ، وهي أن ينسى الإنسان جنسه ودينه وما يتصل بذلك لأجل البحث عن امر لا مطمح في الوصول إلى الحق اليقين فيه ، ولا يعقل أن تقول ذلك العالم الرياضي مثل هذا في تحقيق مسائل نظرية عن الأمم الخالية .

(ثانيا) أن نسيان الجنس ومشخصاته إن كان ممكنا فإن نسيان الدين ليس بممكنا ، فكيف يأمر به ويوجهه على الناس - وب الناس لم يكلفهم ما ليس في طاقتهم كما قال تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) نعم أنه يعني بنسيان تركه وهو لازمه وقد استعمل فيه حتى في القرآن فهو يدعو إلى ترك الدين قطعا ، وإنما السبيل إلى تركه الارتياح فيه ، فهو لذلك يشكك فيه .

(ثالثا) أن الدكتور طه يعلم أن الدين مبني على الإيمان ، والإيمان هو التصديق اليقيني المقترب بالأدلة ، ويعلم أنه ليس من الممكن تركه بمجرد امر أمر لأنه هو الحاكم على العقل والوجدان ، وإنما غرضه بهذا اقناع تلاميذه المقلدين ، الذين لم يصلوا في الدين إلى علم اليقين ، أن

الايمن والعلم بالحقائق ضدان لا يجتمعان ، ليصدهم بهذا عن الايمان والاسلام ، ويوهمهم انهم بهذا دون سواء يمكن ان يكونوا فلاسفة مجددين وأحرارا اباحيين .

(رابعا) نقلت الصحف ان الدكتور طه لما شعر بإمكان مؤخذه على افساد عقائد طلبة الجامعة المصرية والطعن في دين الامة والمولة ، كتب كتابا الى رئيسه مدير الجامعة المصرية قال فيه انه يؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر - ورغب اليه ان ينشر هذا الكتاب فنشره دفعا عنه فان كان مؤمنا كما كتب فكل ما في القرآن وكل ما اجمع عليه المسلمون من سنة رسول الله (ص) المتواترة قطعي عنده لا يحتمل الشك ، لان الشك ينافي الايمان بالضرورة العقلية ، وينص قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) وامثاله من كتاب الله تعالى فكيف يتفق هذا مع قلده « وجوب الشك في الدين وكل ما يتصل به » الا ان دعواه الايمان ، وتصريحه بالشك في القرآن ضدان لا يجتمعان ، بل نقيضان لا يدخلان في حكم الامكان .

(خامسا) هب ان المؤمن يمكنه ان يشك ، ولكن كيف يعقل من طالب اليقين في الشعر الجاهلي - وهو لا سبيل اليه كما صرح به - ان يوجب على نفسه ترك اليقين في ايمانه وما يتصل به لطلب ما اعترف بانه يشك شكاً شديداً في انه قد ينتهي به نتيجة مرضية منه ؟ ان الصادق في طلب اليقين يطلبه في كل شيء يمكن الوصول اليه فيه ، فما له يرغب عن اليقين في الدين بعد حصوله ؟ ثم يرغب في طلبه في الشعر الجاهلي مع عدم امكانه ، او مع الشك في الوصول الى ما يقرب منه فيه ؟

(سادسا) هب ان في الامكان الانتهاء في معرفة الشعر الجاهلي الى اليقين وهو ما يرجوه الدكتور - وحق له الا يرجوه لانه محال وانما يرجى الممكن - فهل من المعقول ان نتوسل لهذا اليقين القليل الجدوى ، بترك يقين الايمان الذي يثمر السعادة في الدنيا والعقبى ؟ اليس هذا من الخرق وافن الرأي ، واستبدال الذي هو ادنى بالذي هو خير ؟

(سابعا) هب أن اليقينين متساويان في انفسهما ، وفي ثمرتهما وفائدتهما ، فكيف يتصور تعارضهما في الحصول والثبوت ، ومواقف تحصيل المفقود منها على بلل الموجود ، والمعقول المعروف في المنطق أن اليقيني لا يناقِي اليقيني ، فلا بد إذن أن يكونا أو يكون أحدهما غير يقيني ، ومن المعروف من طباع البشر أن النقد خير من النسيئة المسلوية له - فكيف إذا كان النقد هو الأفضل والانفع ؟

(ثامنا) نذكر الدكتور طه وأعضاء حزبه ، وجمعيته الذين يدعون الاسلام والايمان - ومنهم من لا يدعي ذلك - بعرض قلعتهم : « وجوب نسيان الدين وما يتصل به » على قوله تعالى « قال رب لما حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا » (*) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » والمراد بالعمى هنا عمى البصيرة لا البصر ، فهل يقول الدكتور طه أن هذه المذكرى لا تتناولها لأنه اعمى البصيرة والبصر معا فإذا حشر لا يمكنه أن يقول : وقد كنت بصيرا ؟

كل هذه حجج ناهضة ودلائل بينة على أن الغرض من هذا الكتاب افساد دين طلبة الجامعة ، وكل مستعد للكفر والالحاد من العامة ، لا تحصيل ما يقرب من اليقين في الشعر الجاهلي والأدب العربي ، فإنه قد صرح بأنه يشك شكاً شديداً في الوصول إلى نتيجة مرضية منه ، وكلها تثبت سوء نيته في الظن في الاسلام ، واضلاله فيما زعمه من طلب تحقيق مسألة الشعر الجاهلي .

(كتاب الشهاب الراصد)

بعد كتابة ما تقدم وجمعه وقبل طبعه اهدى إلينا الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي الشهير كتابه (الشهاب الراصد) وهو بحث تحليلي انتقادي ورد علمي تاريخي على كتاب (في الشعر الجاهلي) وهو كتاب حافل ممتع أبطل به ما ادعاه الدكتور طه حسين من اتباع الفيلسوف ديكرت ، وهدم به ما بناه من قواعد الجهل لا تثبت الحق في الشعر الجاهلي كما زعم ، وسنعود إلى تقريره بعد أن نطالع جل فصوله ، وصفحاته تزيد على الثلاثمائة بقطع المنار ، وثمن النسخة منه ١٥ قرشا مصريا تضاف إليها اجرة البريد ويطلب من مكتبة المنار بمصر .

المصدر : مجلة المنار ج ٩ م ٢٧ ديسمبر ١٩٢٦ .

طه حسين

ديكارت

شيخان من انصار القديم قرأ كتاب « الشعر الجاهلي » الذي اذعته منذ اسابيع . وكانا قد سمعاه قبل ان يظهر ، وكانا قد ازمعا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرأه كله او بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفي . والله يصرف الكون كما يريد ، ويجري الاقدار فيه كما يحب ، وقد اراد الله ان يظهر اسم ديكارت وفلسفته منذ ثلاثه قرون وان يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وان يتغلغل تأثير ديكارت كاسم ارسططاليس عنوانا لطور من اطوار الحياة الانسانية العامة التي تلزم الاجيال مهما تختلف بها الازمنة والامكنة . اراد الله هذا كله ، واراد معه شيئا آخر هو ان يظل ديكارت مجهولا عند طائفة من شيوخ الادب في مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدركون كيف يؤكل ، وان دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وان عرفوا كيف تشرب القهوة والشاي ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . واذا اراد الله امرا فلا مرد له . وليس لنا ان نلصق للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الادب العربي اسم ديكارت وفلسفة ديكارت في العصر الذي يحرص الانسان فيه على ان يعلم كلما استطاع ان يعلم .

ومن غريب الامر ان شيوخ الادب يرون ويكتبون كما كان يرى الادباء القدماء ويكتبون : ان الاديب « هو من يأخذ من كل شيء بطرف » كذلك قال شيخ الادب في دار العلوم ، وانما اريد لاستاذ الشيخ علام ، قال ذلك في « السياسة » منذ اسبوعين ، ولم يكن في ذلك مجددا ، وانما كان يحكي القدماء ويردهم . وقد كان المبرد حريصا كل الحرص على ان يأخذ الاديب من كل شيء بطرف ، وظهر ذلك في كتاب الكامل ظهورا واضحا حتى انك

لترى فيه بابا قال المبرد في عنوانه : « باب نذكر فيه من كل شيء شيئا » .
وكتب الادب العربي القديمة كلها قائمة على هذا النحو من تصور الادب
والاديب . والاستاذ الشيخ علام واصحابه يرون رأي القدماء ، ويكتبون
ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، بل يجهلون ديكرات وفلسفته
وأثره البعيد في حياة العقل والشعور كما قلنا .

وهم يجهلون ناسا آخرين غير ديكرات ، وأشياء أخرى غير فلسفة
ديكرات ، ولكنهم مع ذلك يرون أنهم أدباء ، وأنهم قد الموا من كل شيء
بطرف . ومعدرتهم في هذا قائمة : فديكرات ليس شيئا وفلسفته ليست
شيئا ، والحق عليهم ان يلموا من كل « شيء » بطرف . فأما ما ليس
« شيئا » فلا ينبغي ان يلموا به بقليل ولا كثير . فلذا اردت ان تعرف
لم لا يكون ديكرات شيئا من الأشياء ، ففي جواب ذلك قولان : احدهم
ان الشيء الذي ينبغي ان يلم الادباء بطرف منه هو الشيء الرسمي الذي
اشتمل عليه برنامج التعليم الرسمي في وزارة المعارف . فعلى الاديب ان
يلم بعلوم العربية وان يلم بالرياضيات والطبيعية . وليس في البرنامج
الرسمي لوزارة المعارف ذكر ديكرات ولا فلسفة ديكرات . واذن فهما
ليسا في الورقة الصفراء . . . واذن فليس الاديب مكلفا ان يلم منهما بطرف
لانهما ليسا شيئا .

هذا أحد القولين . وهناك قول آخر وهو ان الشيء الذي ينبغي ان
يلم الاديب منه بطرف هو الشرقي القديم . . . استغفر الله العظيم واتوب
اليه ، بل هو العربي القديم . مصر الفراعنة ليست شيئا ، ومصر اليونان
والرومان ليست شيئا . وليس الاديب مكلفا ان يلم منها بطرف ، واقسم
ما يعرف ، الاستاذ الشيخ علام واصحابه لها طعما . . استغفر الله العظيم
واتوب اليه ، بل الشيء هو العربي القديم الذي لا يتجاوز بلاد العرب
والشام والعراق في العصور العربية الاولى والاندلس في بعض عصورها
الاسلامية . فأما مصر الفاطميين والمماليك ، فأما افريقيا الشمالية فليست
شيئا وللادباء ان يجهلوا ، وهم يجهلونها باذن الله . واذن فأوروبا ليست
شيئا . واذن فديكرات ليس شيئا وفلسفته ليست شيئا . وجعل أوروبا

وديكارت وفلسفته ليس من الامور التي تعاب على الاديب . ورحم الله شيخنا من شيوخنا في الازهر اراد ان يرفع في يوم من الايام ظلامه الى المحافظة فلم يستطع ان يكتب ما كان يريد ، فاستعان بأحد « ابناء المدارس » معتذرا او مفاخرًا بأنه لا يحسن مثل هذا السخف الجديد . فلشيوخ الادب ان يعتذروا او ان يفاخروا بانهم يجهلون ديكارت وفلسفته لانهما ليسا شيئا ، وخير من ذلك واجدى ان ينكب الاديب على فقرة من فقرات الحريري ، او مقامة من مقامات البديع ، او بيت من شعر امرئ القيس .

ولكن حظ الاديب سيء أبدا ، واثت لم تنس بعد حرفة الادب التي قتلت ابن المعتز ، وتنتفت لحيه الحريري ، وحالت بين لفظ الادب وبين الورود في القرآن ، فالادب لديد ولكنه شؤم على اهله . ومن شؤم الادب على الادباء ان كتابا ظهر في هذه الايام يقال له « الشعر الجاهلي » ويجب على الادباء ان ينقدوه وينقضوه ويهدموه ويهدموا كتابه ، ويتقربوا بهذا النقد والتقص والهدم الى الله او . . الى الشيطان ، وقد اقساموا ليفعلن . وقد بداوا يفعلون فما هي الا ان اعترضهم هذا الشجى وهو اسم ديكارت وفلسفة ديكارت .

والحق ان نقول بان موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفة كان بديعا لا يخلو من فكاهة وظرف . فاما احد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في اول هذا الفصل واللذين اهدي اليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء انه لا يعرف ديكارت ولا مذهبه ، وانه يظن او يرجح ان مذهب ديكارت قريب من المذاهب الاسلامية ، وان صاحب « الشعر الجاهلي » قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه او كما قال الشيخ ، واما الآخر فعزیز عليه ان يتكبر او يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود ان يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون ان يذكرهم او يشير اليهم ، فلم لا يستغل في امر ديكارت حيا او ميتا يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الاموات فلم يجد وبحث بين الاحياء فلم يجد من كتب عن ديكارت او اشار اليه ، وهو لا يعرف لغة ديكارت ولا لغة اجنبية اخرى . واذا

فليلحاً الى احد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه امر ديكارت ، ويلخص له فلسفته ، حتى اذا استقام له ذلك في صفحات او اسطر تكلم عن ديكارت وفلسفته كلام العالم المحقق واثبت لصاحب «الشعر الجاهلي» انه لا يفهم ديكارت ولا يحسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الاهرام » فعرف من امر ديكارت وفلسفته ما لم يعرف هذا الشيخ المسكين .

وانا احد الذين يعرفون لغة اجنبية واحد الذين يحسنون لغة ديكارت ، واحد الذين قرأوا ما كتب عن ديكارت . وانا اريد ان اهدي الى الشيخين بحثا عن حياة ديكارت وفلسفته لیتما به ادبهما ويستعينا به على هدم كتاب الشعر الجاهلي ، والتهام صاحب هذا الكتاب التهاما . وانا مخلص فيما اكتب ، فانا احب ان يلتهمني الشيخان لاني اعرف ان حقيقيهما ان استطاعا ازدرادي فستعجز معدتاها عن هضمي .

انا اهدي الى الشيخين بحثي عن حياة ديكارت ، ولكني اهديه اليهما على ان يقرأه ويفقهاه فقها « حسنا » لا يشبه فقهما « للشعر الجاهلي » ولا للسان العرب ولا لما كتب الرافي او املي السكندري . وانا اهدي هذا البحث الى الذين يعرفون ديكارت من المتفرجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك اني اعلم من امر ديكارت ما لا يعلم الناس في مصر . فقد كنت اريد ان اضع فيه كتابا واضطرني ذلك الى كثير من البحث والتحقيق والى الوان من الاستقصاء والاستقراء . ولكني لا آسف على ما لقيت من عناء ، فقد وصلت الى نتائج غريبة قيمة لو اعلنتها في فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دي فرائس ولاعلن لها المجمع العلمي الفرنسي افلاسه . . . لا تضحك ولا تعجب فلست احدثك الا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه . ويكفي ان تعلم اني استكشفت طائفة من الكتب المخطوطة التي كتبت في النصف الثاني للقرن السابع عشر بعد ان مات ديكارت بسنين قليلة ، والتي كانت محفوظة في مكتبة الملك الخاصة ، حتى اذا كانت الثورة الفرنسية ، وتبدد ما في القصر ضاعت هذه الكتب ولم يستطع ان يظفر بها الذين انشاوا المكتبة الاهلية في باريس

بعد الثورة واخذت اسرة من الاسر الشريفة تتوارث هذه الكتب ، حتى انتهت الى صديق لي فرنسي ، كان يدرس معي ، وهو يقيم في ريف بورجونيا ، فدعاني في بعض فصول الصيف ان اقضي عنده اياما ففعلت ، واظهرني على مكتبه آباءه ، فاذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرستها معا ، ولم نستوف درسنا بعد ، وسنقدمه الى السوربون يوم نستوفيه ، وسننشر هذه الكتب على الناس ، وسنودع اصولها المخطوطة المكتبة الاهلية ببليس ، وسيعلم الناس يومئذ انهم لم يؤثروا من العلم عن ديكرت الا قليلا ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ ان هذه الطبعة الرسمية التي نشرتها في اثني عشر مجلدا ضخما لا تشتمل الا على ما كان يكتب ديكرت ليلهو ويعبث ويلهي الناس عن فلسفته الصحيحة .

قد يكرت كارستطاليس يذهب في الفلسفة مذهبين مختلفين احدهما يولنه الى الناس ، فانهم يستطيعون ان يفهموه وان يسبقوه ؛ والاخر يحتفظ به لنفسه ، وللاصفياء من تلاميذه ولا يذيعه في الجماهير لانه اعسر وادسم من ان تحمله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسية بالقسم الاول من آثار ديكرت ، فمهدت الى عالمين من اكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره فعلا ، ووقع هذا القسم في اثني عشر مجلدا ضخما كما قلت لك . ولكن من يقرأ هذه الطبعة الرسمية او هذه المطبوعة الرسمية - على راي وحيد - ويقارن بينها وبين ما سننشره قريبا سري ان ديكرت كان غريبا حقا . فقد كان ياتلف من : - خصين يختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : احدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حيناً ، وباللاتينية حيناً آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل اليك انه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما اقامه ارستطاليس وتلاميذه ، ذلك لانه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يالها الناس ، هي نسيان القديم والبراءة منه كله ، واقتراض انه لم يكن ، حتى اذا قرأت هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد جديدا ، ولا شيئا يشبه الجديد ، وانما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من الحدود والقضايا والاقيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه ابا الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثاني هو الذي

لفتنا وبهرنا ، لما فيه من غرابة كنا ننتظر كل شيء الا ايها . ذلك ان ديكارت لم يكن مسيحيا ولا فيلسوفا ولا من اصحاب التجديد ولا من انصار هذه الحقائق الثابتة التي افها الناس ، وانما كان مسلما ديانا متصوفا مغرقا في التصوف شطاحا مسرفا في الشطح . انتهى به هذا كله الى شيء لا يستطيع ان اسميه الا « اظهار الكرامات » . ولعل احسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكارت ان الخص لك في شيء من الاجاز بعض ما كتبه ديكارت عن نفسه ، وما وجدناه في الكتب (المخطوطة) التي حدثت عنها آنفا .

ولد ديكارت في القرن السادس عشر ، للمسيح ، وكانت أسرته فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما شب ارسلته اسره الى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان اليسوعيون يعلمون . اتقن اللاهوت وفلسفة المصور الوسطى واللغتين اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكيا حاد الدهن مستعدا للنقد والشك ، فاضطربت نفسه اضطرابا شديدا حين احس تناقضا بين قواعد اللاهوت وفلسفة ارستطاليس . ولكنه لم يظهر من هذا الشك شيئا لانه كان محافظا كابويه واساتذته اليسوعيين . على انه لم يكذب يدع المدرسة حتى سئم الحياة التي وجهه اليها ابواه ، وهي حياة الحرب ، فانصرف الى السياحة ولقي في هولندا رجلا شيخا من اليهود يقال له دروكلكسيس بن كراباك . قال ديكارت : كان لهذا الشيخ تأثير غريب في نفسي ، لا ادري اكان مصدريه ذكاه وفطنته أم غرابة شكله ، واختلاف اطواره العجيبة . كان قصيرا ضخما عريض ما بين الكتفين ، صغير العينين غائرهما ، ولكن عينيه كانتا شديديتي التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الاذنين ، دقيق الانف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، فاما صوته فلا أعرف اني سمعت صوتا يشبهه . أما في حديثه العادي فكان غليظا متهدجا أشبه شيء بالرعد ، فاذا ناقش او ناظر في العلم كان نحيف الصوت حاده خلاب الحديث ، ولا أعرف اني رايت عالما يحيط بمثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الاولون والاخرون ، كان يهودي الجنس والمولد ، ولكنه لم يكن يهودي الدين .

واحسب انه قد ورث شيئا من آباءه الذين خالطوا المسلمين مخالطة شديدة في اسبانيا . كان غنيا ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، الا انه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ؛ وكان يعجبني في بيته شيئا : مائدته ومكتبته ، تحدثت اليه في الفلسفة وفي اللاهوت فسمع مني ، وتحدث الي ، وما هي الا ان فتنت به وشغف بي ، واصبحت لا استطيع عن لقائه صبرا . وقد كان في حديثه الي ماهرة لبقا بلقي الي اغرب الآراء ، وكأنه يحدثني عن الجو والمطر ، حتى اذا آنس مني اطمئنا اليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لي عن دخيلة نفسه ، فاذا هو لا يؤمن بالمسيحية ولا اليهودية ، ولا يحب الالحاد ولا الملحدين ، وانما اتخذ لنفسه دينا كنت اسمع به ، ولا أعرف من حقيقته شيئا . فلما رغبت اليه في ان يظهرني على دقائق هذا الدين اطلال الصمت ، ثم قال في هدوء : ما أحب ان أظهر لك هذا الدين ، وانما أحب ان يظهر لك الدين نفسه فاتبعني ، ثم مضى بي الى مكتبته واستخرج سفرا ضخما دفعه الي ، وقال اقرا هذا ، فاذا فرغت منه فلنتحدث ، ثم تركني ومضى . ونظرت في الكتاب فاذا هو باللاتينية واذا هو ترجمة لكتاب كتبه أحد المسلمين في القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين ويقال لصاحبه الحلاج (T) ولم أكد امضي في هذا الكتاب حتى احسست كان بيني وبين الحقائق سترا صفيقا ؛ وكان هذا الستر اخذ يرتفع شيئا فشيئا ويظهر لي من ورائه عالم بديع غريب غلاب ، واخذت نفسي تمتلئ شوقا الى هذا العالم وهياما به . انفتحت في قراءة هذا الكتاب اياما ثلاثة ، فلما فرغت منها انكرت نفسي وانكرت ما حولي من الاشياء ومن حولي من الناس . ولقيني دروكلكسيس فلم يظهر عجبيا ولا انكلورا ...

واذا كنت لا ازال حيا الى الآن ، واذا كنت قد استطعت ان انشر

(١) الفت الاستاذ لويس ماسينيون الى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين فانا اعلم انه يعني بهذا الكتاب وصاحبه وانه قدم الى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم .

في الناس كتباً أصعبتهم ، واكتب لنفسى كتباً قراوها ، وإذا كان صوتي قد وصل الى أقصى أطراف الأرض ، وتنافس الملوك في عشري والاستثنائي ، فأنا مدين بهذا كله لدور كلكتيس بن كراباك . ذلك أني خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتونا ، أريد أن أعلن الى الناس إيماني بهذا الدين الجديد ، وأناضل عنه بما أملك من قوة ، ولكنه حال بيني وبين ذلك ، وكان يقول لي في هدوء : احذر أن يصيبك ما أصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ، ولا تنفع الناس ، والحياة أعلى وأنفس من أن تبدل في غير نفع ، فلكم ما أنت فيه وأنفق حياتك في التسبيح والتقديس ، وأنفع الناس ما استطعت الى نفعهم سبيلا .

من ذلك الوقت آثرت العزلة ، وعشت هذه المعيشة التي كان الناس يحبون من أمرها .

وفي الحق أن حياة ديكلوت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها في موقد له لا يخرج منه الا مضطرا ، وكان يقسم وقته أربعة أقسام : أحدها لما يحتاج اليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد في هذه العناية اقتصادا شديدا ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم الا بما يمسك عليه الحياة ؛ والثاني ينفقه في الكتابة والتأليف فيما ينفع الناس في هذه الحياة العاجلة ، والثالث في التفكير الفلسفي الاشرافي ، والرابع في التسبيح والتقديس اذ اخذتني غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كان بن كراباك . وكان لترديده إياها تأثير عظيم في حياته العملية والعقلية . قال ديكلوت :

« بينا أنا في موقدي ذات يوم أردد ما تعودت ترديده من صيغ التسبيح والتقديس اذ اخذتني غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كان سقف البيت قد انشق منه حجما وأعرض منه جناحا ، وكان هذا الطائر الهدد ، ولكنه أكبر منه حجما وأعرض منه جناحا ، وكان هذا الطائر قد وقف قبالة الموقد محمدا في منصتا لما أقول ، وكأنه قد انكر صحتي ونومي فقل في لغة لاتينية تبينتها في وضوح وجلاء : عجبا لهذا الصامت

النائم والظلم يدور ، وشيخه في خطر ، فاستيقظت لهذا الصوت في شيء من الانزعاج ، ونظرت فلم أر شيئا ، ولكنني اشفقت على درو كلكتيس وأردت ان أراه فسعيت اليه من فوري ولم أكد اسأل عنه حتى حدثت انه مريض ، وان الطبيب يخشى عليه . فادخلت عليه ، فاذا هو في سريره شاحب ضعيف يتردد نفسه قويا في صدر فلرغ ، فجثوت عنه سريره ، واخذت ادعوه في رفق ، وكأنه كان نائما فلاحبه وقال : هائلا قد اقبلت ، لقد ارسلت ادعوك وكنت اخشى ان افارق هذه الحياة قبل ان اراك ، فهل جاءك رسولي ؟ قلت من رسولا ؟ قال : برييش ، قلت ان هذا اسم لم اسمعه من قبل ، قال : ولكنك رأيت مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدد ويتكلم لاتينية سيرون ، فاحفظ اسمه فسينفعك ، وادعه كلما احتجت الى شيء شاق ومره بما شئت فستجد منه طاعة واخلاصا ونصحا ، واعلم انه موكل بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضي حاجاتهم ، لا يجد في ذلك مشقة ولا عسرا ، وهو فوق العلة ، وفوق الملوث حتى تنقرض طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة الهند قبل المسيح بالآلاف السنين ، واشرف على بناء الاهرام ، واملى ما كتب فيها من طلائم ، واعان فيثاغورس ، ووافق افلاطون في سياحته ، ولزم العلاج وابن الفارض ومحيي الدين بن العربي ، وسيلزمك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لا بد من أن تسيحها في الأرض ، فانت مضطر الى زيارة البيئات الصوفية في بغداد والقاهرة وتلمسان وفارس ، على أي مؤد اليك امانة يتناقضها زعماء الصوفية ويتوارثونها وهي لهم نافعة فخلها فانت زعيم الصوفية بعدي .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب اشبه شيء بعلب النشوق التي يصطنعها الشيوخ في مصر وقال : احتفظ بها ولا تفتحها الا حين يطلب ذلك اليك صديقنا برييش ، واحفظ عني هاتين الصيغتين تستقبل بأولاهما النهار وباخرهما المساء ما حييت . ثم همس بالصيغتين في اذني على انهما سر لا يباح الا لزعميم . وما هي بعد ذلك الا ان اضرب جسمه اضربا شديدا ثم هذا وقد فارقت الحياة ،

واذا برييش قد ظهر في الغرفة ، وقال في هدوء : « انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لاهله فليس لك به شأن فخرجت » .

وهنا يصف ديكاوت حزنه على صاحبه في عبارات مؤثرة حقاً ، ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلادع حزن ديكاوت ولاتم ما أنا فيه من ذكر حياته الغريبة .

اصبح ديكاوت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار بالصيفة التي اداها اليه درو كلكسيس . وما كاد يستقر في موقفه حتى جاء برييش فقال : ما انت وهذا الموقد ، وما انت والكتابة والتفكير ؟ هلم الى سياحتك . قال ديكاوت لبرييش : ولكني لم اعد لهذه السياحة شيئاً ، فدعني ادبر امري . قال برييش : ومتى دبر الصوفية لانفسهم امرا ! قم فانطلق معي . ومضى في الجو قريبا من الارض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، واذا جرة ضخمة من الفخار قد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلها ديكاوت . قال برييش : امتط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات . ففعل ، واذا الجرة تصعد به في الجو حتى اشفق على نفسه ، ولكن الجرة ماضية ، ماضية في الجو لا تلوي على شيء ، والطائر مواز لها يمضي في دافق ويتلو في اعجاب خطبة من خطب سيسرون التي القاها في مجلس الشيوخ الروماني يعتف بها كاتيلينا . وهو يحلل هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضيا على هذا النحو ، واذا برييش يقول لصاحبه : انظر الى الارض ، فينظر فلا يرى الا امواجاً تلتطم وتصطخب ، فيسال صاحبه اين نحن ؟ فيجيبه نحن نعبّر البحر الى الاسكندرية ، وانتصف النهار ، واحس فيلسوفنا الجوع والظما ، فيسال الطائر : من لنا بطعم وشراب ؟ قال برييش : والعلبة التي اهداها اليك المس درو كلكسيس اين هي ؟ هي معي . اذن فاخرجها وافتحها . فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه الا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محببة مصفقة ، واذا فتين وفتيات قد اقبلوا اليها من الجو مسرعين ، واذا هي تامرهم بلغة لا يفهمها ديكاوت فيسائل صاحبه ما هذه اللغة ؟ فيجيبه : هي

اللغة السريانية التي لا بد لك من ان تتعلمها بعد حين . وما هي الا لحظات حتى وقفت الجرة في الجو لا تتقدم ولا تتأخر ، ونصبت أمامها في الجو مائدة فخمة صفت عليها الصحافه والاكواب من الذهب والفضة ، واقمت عليها الوان من الطعام لا عهد لديكارت بلذتها وحسن مذاقها في الفم وموقعها في المدة ، فاكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصدح بأنغام اللذيدة حلوة ، حتى اذا تم له من ذلك ما اشتهى رفعت المائدة ، واستخفى كل شيء ، وأقبلت الفتاة السريانية مبتسمة قائلة في ظراف وخفة : والان فادخني علبتي ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفي فيها ، وتستأنف الجرة سيرها في الجو . ويأخذ بريبيش في قراءة لخطبة التاج التي القاها ديموستين على الاتينيين محلا مستنبطا اسرار البلاغة اليونانية . فلذا سأل ديكرات عن حبه اللاتينية واليونانية قال : انا موكل بالادب احبه وانفق فيه حياتي ، ولست اوشر ادبا على ادب ، وانما احيط بالاداب كلها ، وانت تعلم ان الاديب يجب ان يلم من كل شيء بطرف ، قال ذلك ادباء العرب وسيقوله في آخر الزمان منهم رجل يقال له الشيخ غلام . واذا كنت قد تلوت عليك خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك لانك تعرف اللغة اللاتينية واليونانية . وسأتلو عليك غدا قصيدة عربية وضعها رجل يقال له خلف الاحمر ، ونسبها الى شاعر يقال له النابغة الذبياني ، وهي قصيدة جيدة لا يشك سامعها في انها قديمة ، وقد استشهد النحاة بشيء كثير منها على قواعد النحو العربي . قال ديكرات : واي فائدة في تلاوة هذه القصيدة او غيرها من الشعر العربي ، وانا اجهل لغة الحلاج ، ولا استطيع ان اقرأ هذا الكتاب القيم كتاب الطواسين الا في هذه الترجمة اللاتينية التي نشرت في القرن الثالث عشر والتي أرجح انها لا تخلو من خطأ . قال بريبيش : نستعرف اللغة العربية وتقتنها اذا امسيت ، فليس يباح لك ان تدخل بلدا دون ان تعرف لغة اهله ، واذا كنت ستزور اطرافه الأرض كلها فستعرف لغات الناس جميعا ، قال ديكرات : ومن لي بذلك ؟ قال بريبيش : انا لك به ، انظر الى هذه العلبة الصغيرة ، انها تحتوي اللغات جميعا ، فيها اقراص تشبه اقراص التصناع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات ، فلذا اشرفنا على البلاد العربية فسادفح اليك قرص اللغة العربية

تردده فإذا أنت أقدر الناس على أن تنشد وتفهم وتنقد ما ينسب إلى امرئ القيس من شعر ، وما يضاف إلى تأبط شرا من سخف ، وما يحكى عن قس بن ساعدة من وعظ وارشاد ، وإذا أنت من أقدر الناس على مناقشة سيويه والخليل والمبرد فيما تركوا من قواعد النحو والعروض والقافية والصرف ، فانتظر . وانتظر ديكارت حتى إذا مالت الشمس إلى الغروب نظر فإذا من تحته مدينة يموج الناس فيها موجا . قال لصاحبه ما هذه المدينة ؟ قال : هي مدينة طنطا يحتفل الناس فيها بمولد السيد أحمد البدوي . فلزدد هذا القمص ، ففعل . وقال بربيش كلمات هوت لها الجرة إلى الأرض ، ونظر ديكارت فإذا هو واقف على قدميه . قال له بربيش ضع هذه القلنسوة على رأسك لتستخفي عن أعين الناس ففعل ، ومضى مع صاحبه يزور المولد ويجلس في كل خيمة لحظة ثم دخلا المسجد واختلطا بالشيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين .

وعلى هذا النحو الذي يفصله ديكارت تفصيلا ممتعا قضى صاحبنا سنتين كاملتين مطوفا في أقطار الشرق الاسلامي كله متقنا لغاتها وعاداتها ، ذاكرا مع الذاكرين ، متيما مع المتيمين ، دائرا مع الدائرين ، يلتهم النار حينما ويبتلع الزجاج آخر ، وينتطق بالحيات والأفاعي ، ويمشي على الماء ويطير في السماء . ويزور الجن في الأرض السابعة ، والملائكة في السماء الرابعة ، حتى إذا قضى من هذا كله وطرا وعلم من أسرار الكون ما يضره الشرق وحده ، عاد إلى هولاندا فمكث في مواعده أشهراً يكتب ويفكر ويقدم ويأتيه بربيش كل مساء فيقضي عنده ساعة ثم ينصرف . حتى جله ذات يوم فقال : احسب أنك قد احببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا بد لك من رحلة أخرى ليست أقل مشقة ولا نفعا من رحلتك الأولى فقم على اسم الله . فقال ديكارت : ألا تنتظر اشراق النهار ؟ قال : كلا ، وما أنت والنهار والليل ؟ الجرة تنتظر وعلبتك كفيلة بحاجات السفر وعلبتي كفيلة بتعلم اللغات ، وسألو عليك في هذه الرحلة آيات المانية وروسية لم تظهر بعد ، لأن أصحابها لم يخلقوا ولكنهم سيخلقون وسيحدثون هذه الآيات فيعجب بها الناس ،

سألتو عليك ما سيحدثه جوت وهنري هين وتلستوي وغيرهم من اعلام
الشعر والنثر والفلسفة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ،
ثم سألتو عليك كتابا يكتبه بعد سنين يهودي يتاثر بمذهبك اسمه سبينوزا
سيكتب في الاخلاق والفلسفة متأثرا بهذا الكلام الفارغ الذي تكتبه
للناس في اوقات الفراغ . وسيظن انه وصل الى الحق وسيلقى من الناس
اكبارا واحتقارا . وقد استصعبت كتابا شرقيا عربيا سيظهر في الربع
الاول من القرن العشرين في مدينة القاهرة وهو كلام فارغ ككلامك هذا
الذي تنشره على الناس ، واسمه يدل على انه فارغ وهو كتاب « في
اوقات الفراغ » الذي سينشره على الناس كاتب ظريف مفكر يجد حيناً
ويصبت أحياناً ، أديب ولكنه يحب السياسة ويرشح نفسه للانتخاب
في مجلس النواب ، واسمه محمد حسين هيكل . فانت ترى ان رحلتنا
ستكون قيمة سهلة ، ولا سيما حين ألتو عليك كتابا باللغة العربية
سيضعه مصري في القرن التاسع عشر يقال له محمد عبده ويترجمه في
القرن العشرين عالمان يقال لأحدهما مصطفى عبد الرزاق وللآخر برنار
ميشيل ، وسترى ان هذا الشيخ المصري المسلم متأثرا تماما بفلسفتك
هذه الفارغة التي تفسد بها عقول الناس ، وتنشئ لهم بها طمعا جديدا ،
سيمكنهم من استعباد البخار والكهرباء والماء والهواء والصعود الى
السماء . قم بنا .

فقلما واستطلى فيلسوفنا جرحه ومضيا نحو الشمال ، واستمرا في
رحلتها ارباما ، واليالي متنقلين من ادب الى ادب ، ومن فن الى فن حتى
استقبلهما في صباح يوم مشرق جبل شاهق لا يصل الطرف الى قمته ،
قال ديكورت : أين نحن ؟ قال بريبيش نحن في أقصى الارض من ناحيتنا
الشمالية ، وهذا الجبل الذي نراه هو سورها الذي ياخذها من جميع
أطرافها . قال ديكورت مصفقا : هذا جبل قاف . قال بريبيش نعم هو
جبل قاف . قال ديكورت ليس وراءه الا الماء الذي لا حد له طولا ولا عمقا ،
والذي لا يحيا فيه شيء ، قال بريبيش أخطأت فستري ان في هذا الماء
حياة واحياء . قال ديكورت : ماذا تقول ؟ سنقتحم هذا الجبل ؟ قال
بريبيش : وما جئت بك الا لنقتحمه . ان من ورائه قوما ينتظرونك لتنشر

فيهم الدعوة الى الحق ، وتخرجهم من الظلمات الى النور ، دع هذه الجرة
 فهي لا تغني عنك شيئا . قال ديكورت . وكيف نصعد في هذا الجبل ؟
 قال بريبيش : اترى الى هذا السحاب المتراكم ، ستهبط منه سحابة
 تحملنا الى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا شيء اشبه بمرية من الذهب
 الخالص ، فيه وسائد من الحرير والاستبرق ، وأكواب ملء بعضها من
 الشاي وبعضها من القهوة ، وبعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائر
 مختلفة منها الطويل والقصير ، والضخم والنحيف ، ولكنها كلها عطرة
 ارجة يتوضع منها نشر يشبه العنبر ، وفيها شيشة وجوزة ، وفيها نرد
 وشطرنج ودومينو وما الى ذلك من ادوات اللعب . اجلس الفيلسوف
 ومعه بريبيش واخذ في تدخين الشيشة لانه كان قد جرب ذلك في دمشق
 فاحبه . اما بريبيش فآخذ يدخن الجوزة لانه كان كثير الاختلاف الى حي
 من احياء القاهرة في باب الشعرية ، وهناك تعلم هذا النحو من التدخين .
 وصعدت بهما السحابة في السماء حتى انتهت بهما الى قمة الجبل ، فهم
 ديكورت بالخروج فامسكه بريبيش قائلا : لا تخرج حتى تشرب قدحا
 من اللبن وكأسا من القهوة وحتى نتنشق ، فكل هذه الاشياء من ثمرات
 الارض التي نتركها ، والا بد من ان ندوقها الآن لنضمن لانفسنا العودة الى
 هذه الارض احياء أو أمواتا ، فان نحن لم نفعل فسيقوم جبل قاف حائلا
 بيننا وبين الارض آخر الدهر . شربا ودخنا وخرجا . فاذا طائر عظيم لا
 يستطيع الطرف ان يحيط به قد حلق كأنه ينتظر امرا ، قال ديكورت
 ماذا ارى ؟ قال : هذا الطائر الذي تراه هو بلاجوست ، وهو السفينة
 التي يتخذها الاحياء فيما وراء جبل قاف لمواصلاتهم فامتط هذا الطائر
 فساكون معك ، وسترى انه يقطع في لحظات ما تقطعه سفنكم في ايام .
 واستقر على جناح الطائر وما هي الا لحظات قصار حتى هوى بهما الى
 جزيرة عظيمة فيها غابات كثيفة ومروج خضر ، ولكن اهلها قصار لا يتجاوز
 ارتفاع اجدهم شبرا ، عراض لا يتجاوز عرض احدهم مترا وهم يضحكون
 ابدا ، ولهم فيما بينهم حديث كقصص الرعد وهم يدخنون ولكن بأذانهم
 يدخل الدخان في احدى الاذنين فيخرج من الاخرى ، وليس لكل واحد
 منهم العين واحدة قد استقرت في وسط جبهته ، ولكنها ضخمة متوقدة
 يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكورت : ولكني لا افهم شيئا مما يقولون ،

قال بريبيش : هذا قرصهم فازدروه تفهم لغتهم . واخذ ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال لصاحبه : ألسنت ترى معي ان هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شبيها شديدا ، قال بريبيش : هي أصل اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ آلاف السنين انتصرت فيها الديمقراطية على الاشراف فاجلثهم عن بلادهم ، فعبروا جبل قاف ، وهنا في ارضكم اثر فيهم الجو ، فأخذ من عرضهم وزاد في طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامت كهيئات الناس وقاماتهم ، ومضوا في طريقهم حتى انتهوا الى الأرض التي تسمى الآن بلغاريا . فاحتلوها واستعمروها . وهم الذين تحدثوا الى فقهاء المسلمين عن أرض تشرق فيها الشمس ستة أشهر فليس فيها ليل ، وتغيب عنها ستة أشهر فليس فيها نهار ، وقد وضع فقهاء المسلمين احكاما فضحية لاهل هذه البلاد تمس اوقات الصلاة بنوع خاص وقد جئت لتنشر الاسلام في هذه الأرض ، فعلم الناس كيف يؤقنون الصلاة حين تشرق الشمس وحين تغيب ، وامض بنا فإن « قاطرينا » تنتظرك في قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال بريبيش : هي ملكة هذه الجزيرة حدثتها عنك وانباتها بنبتك ، فهي تنتظرك وقد زارها من قبلك درو كلكيس وزارها الحلاج وزارها فيثاغورس قال ديكارت : هي اذن خالدة لا تموت قال بريبيش : ان الخلود لم يكتب لاحد ، كل شيء هالك الا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الاعمار ، فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وانما تعد بالآلاف . وقد ولد قاطرينا سنة ٣٥٠٥ قبل المسيح وملوك هذه البلاد اذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبا بالعام الذي سيموتون فيه . وقاطرينا تعلم انها ستموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الالمان من مدينة باريس في الحرب العالمية الكبرى التي ستكون في ذلك الزمان وهي مشوقة الى ان تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقي لها من الدهر في عبادة وتقرب الى الله تاركة امر الملك لولي العهد الذي يبلغ من العمر الآن ألفي سنة ، واسمه ساباتييه بن ارابيشا . ومضيا حتى انتهيا الى القصر ، فلذا فخامة وضخامة وتراف لا عهد لفيلسوفنا بها ، واذا الملكة القصيرة العريضة تنظره مبتسمة ، واذا هو لم يكذب يجلس اليها حتى اخذت تتحدث اليه وتساله ، واتصل مجلسهما ساعات فتنت فيها الملكة بفلسفة

ديكارت فنتة لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليستريح الا كارهة ،
واخذ فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها ويفقهها في الدين والتصوف ،
وهي به مشغوفة ، ولكن جو هذه الجزيرة لا يلائم طبيعة اهل هذه الارض
فقد اخذ ديكارت يلاحظ ان قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك الى برييش
فقال له : ألم أنبئك ان اهل البلاد حين هاجروا الى ارضكم ضاقوا وطلوا
حتى اصبحوا امثالكم ؟ فاهل ارضكم اذا جاءوا الى هذه البلاد قصروا
وعرضوا حتى صبحوا كغيرهم من سكانها ، ولكن السن كانت تقدمت
بديكارت فلم يستطع ان يقاوم امتداد جسمه من ناحية وانكماشه من
ناحية اخرى فتوفي عام ١٦٥٠ .

وقد وصف برييش في كتاب ارسله الى الحكومة الفرنسية مع جثة
ديكارت مقدار ما اصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا الفيلسوف قبل
ان تنتشر مذاهبه القيمة في رعيته . قال برييش في آخر كتابه : والراي
عندي الا يسافر الزعماء الذين سيخلفون ديكارت الى ما وراء جبل قاف
الا في منتصف الالف الثالث بعد المسيح ، ففي ذلك الوقت قد يتشابه
ويتقارب ما دون الجبل وما وراءه بحيث يصبح طول الناس جميعا اربعة
اشبار وعرضهم اربعة امتار ، وفي ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد
تقدم ويستطيع الناس ان يقتحموا جبل قاف ، ويعبروا بحر كاف ،
ويصلوا الى جزيرة نون في سهولة ويسر . قال برييش على اني الموكل
بهؤلاء الزعماء فلا اسمح لاحد منهم بزيارة قاهرته او اسبغها ستاجاتيه بن
ارابيشا الا حين يثين الاوان لهذه الزيارات .



هذا ما احببت ان اهديه الى الشيخين الجليلين من حياة ديكارت ،
وانا اعتمد على ذكائهما في فهم فلسفته من هذا الفصل فللرجل من
من الفلسفة : احدهما سخيف ضعيف هو الذي اعتمدت عليه في كتب
الشر الجاهلي ، لاني لست من اهل التصوف ولا القاديين على الشطح
والنطح ، والاخر قيم متمتع خصب لديد يلتمس في كتب الحلاج

ومحيي الدين بن العربي ، وفي كتاب الديري وشمس المعارف الكبرى
وفي رسالة صغيرة توجد في مكتبة الاستاذ الجليل احمد زكي باشا بقسم
المخطوطات يقال لها « دومة في نومة » .



اما بعد فإني أقسم لصاحب المعالي وزير المعارف ، ولوكيلها
وسكرتيرها العام ، وأعضاء مكتبها الفني ، ولناظر دار العلوم وأساتذتها
وتلاميذها لو سئل تلميذ أوروبي عن ديكارت في امتحان الشهادة الثانوية
رجله كما يجهله اساتذة هذه المدرسة العالية لحيل بينه وبين الشهادة
التي يطلبها ، واذن فانا اقترح عليهم أحد امرين : إما أن يكلفوا أحد
العلماء بإلقاء محاضرات في تاريخ الفلسفة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع
خاص ليستطيعوا أن يكونوا أدباء وأن يلموا « من كل شيء بطرف » وأما
أن يأخذوا هذا الفصل الذي اكتبه ملخصا فينشروه ويأخذوا الاساتذة
والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغي أن يكون في مدارسنا العالية استاذ
أو طالب يجهل اسم ديكارت أو فلسفته أو أثره في هذا العصر الحديث .

● طه حسين

المصدر : من بعيد ، ص ٢٠٩ - ٢٢٥ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد الثاني عشر .
يقول طه حسين في مقدمته لكتاب « من بعيد » ، وهو في غالبية فصوله رد على معركة
« الشمر الجاهلي » أن فصوله كتبت في الفترة بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٠ ، بينما صدرت
الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٥ ، أما مقالة « ديكارت » فقد كتبت طبع صدور
الردود المنيعة على كتاب « في الشمر الجاهلي » ونشرت في جريدة السياسة عام ١٩٢٦ .

في الشعر الجاهلي

إبراهيم عبد القادر المازني

تأليف الدكتور طه حسين

استاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

من أشق مباحث الأدب العربي ، ذلك العهد الذي يسمونه « بالجاهلية » وإن كان ما اثره الرواة عنه وقالوا إنه انحدر إلينا منه ، لا يختلف عن جني غيره من المصور الإسلامية في شيء . فالروح واحدة ، والنظرة إلى الحياة متفقة . والوجهة متحدة ، والكلام مستقيم على أوزان وقواف غير مضطربة بين هذه المصور ، وأسلوب التفكير نهج غير متعدد ، حتى العبارة نفسها لا يكاد يتورها تغير جوهري . فما هو هذا العصر الجاهل إذن ؟ إنه عصر يمر فيه الفقهاء ومن يبغون أن يقيموا حداً بين الإسلام وما قبله ، أما مؤرخ الأدب فمعلومة إذا أنكر أن له سمة يتميز بها وينفرد فالجاهلية التي انتهت إلينا ما روى من أخبارها وأيامها هي جاهلية دينية واجتماعية إذا شئت ، ولكنها من حيث الأدب شيء آخر مختلف جداً لا يسع الأديب إلا أن يقف حيالها متردداً شاكاً بل رافضاً كما فعل الأستاذ الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » .

ولكل أدب أنفته السلاجة وجدائته المتعثرة كما لكل شيء آخر في هذه الحياة — يصلق هذا على الجماعات صدقه على الأفراد ، وعلى العلوم والآداب وسائر ما ينشأ في دنيا هذه . ولكن الأدب العربي ليس له أول يعرف ولا نشأة توصفه إذ أقدم ما وقع إلينا منه — على قول الرواة — بشعم كلاه . إن صح هذا الخبر ، ونعني بذلك

ان هذا القديم مستو بالغ اشده ، وان الاطوار الاولى التي لا بد ان يكون الادب قد قلب فيها ومر بها ، كغيره من آداب الشعوب الاخرى ، حتى تنامي شبابه على النحو الماثور ، تقول ان هذه الاطوار مفقودة ضائعة لا سبيل الى العلم بها والوقوف عليها الا تخيلا والا بالطبع في التخيل على غرار ما حدث للآداب الاخرى التي وقفنا على اصولها ونشأتها ، والا بان نرسم لانفسنا خط التطور طبقا للسنن الطبيعية « قالشعر الجاهلي » وصف غير صادق لان جاهلية الادب مطوية مع الازمان التي غبرت ، وليس من المعقول ، والا من القبول ، ان يكون هذا الشعر الماثور او ما قالته العرب لانه شعر ناضج متساق الاغراض مطرد النظام ، فيه فن وصناعة ، ثم هو بعد ذلك تعبير فيه خلط بين الادب والدين .

وليس ثم ما يمنع ان يكون هناك شعر قيل قبل الاسلام ، بل الذي يرفضه العقل هو الا يكون الشعر قد قيل قبله ، ولكن هل ما يعزى من الشعر الى من عاشوا في العصر الجاهلي صحيح النسب غير ملزق بهم ؟ وهل اذا سالت هذا الشعر عن نسبه ينتمي اليهم ويعزى بهم ام ينطق تكوينه ومنحاه واسلوبه بأنه دعى دخيل ؟! هذان هما السؤالان اللذان يلقيهما كل اديب على نفسه . وقد تناولهما الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلي » وطرح السؤالين جميعا وكان جوابه الرفض !

ولم يأخذني الدكتور طه على غرة بهذا الكتاب فما اعرفني قرأت شيئا من اخبار هذه الجاهلية او شعرها او خطبها الا نازعني في امره شك ضعيف او قوي ، والا حكى في صدرى منه اشياء كثيرة او قليلة . واشهد ان الدكتور كان بارعا في بسط رأيه وفي ابراز الشبهات التي تحوم حول هذا وتضعف الثقة بنسبته الى الجاهليين ، وفي تأكيدها ايضا . ومن واجب كل متادب ان يطلع على هذه الرسالة التي جاءت - على خلاف عادة الدكتور - خالية من كثير من حشوه المألوف ونحسب ان لا خلاف في ضرورة هذا البحث مهما تكن النتيجة التي يخرج بها المرء ، وان من الجملة ان نسترسل في الاستئمان الى ما جاء في الكتب

القديمة وان كان كل شيء يدعو الى الريب ويفري بالنقد ، وان نوصد بأيدينا في وجوهنا ابواب التفكير مخافة ان يظن بنا العقوق والتمرد على ما خلف لنا السلف ، او مدفوعين الى ذلك بحكم النزعة الانسانية الى التسليم ، فما زال التصديق أسهل من البحث ، والاقرار أسير من النقد ، والجمع أهون من الوزن وأمتع وألذ أيضا . وما من احد نزع الى لنقد الا اضطر ان ينبذ بعض ما يقع اليه وفي هذا الاطراح خسارة متوهمة .

والنقد مهمة قاسية ، وما اكثر ما تكون بغيضة الى القراء ، ولكننا لا نعرف احدا احرى بالمطف وأحق بان تلين له الاثثة من الناقد ، فهو لا يجد - كالكيميائي - كل شيء حاضرا مهيا في معلمه ، وليس امامه شيء من تلك الملاحظات المنظمة المدونة التي تغني عن الشهود وتقوم مقام المائدة ، بل عليه ان يفحص كل ما تقع عليه يده ليستجلي غوامضه ويمحص حقائقه ، ان كان ثم حقائق يمكن استخلاصها ، وان يخطو بحذر ويتوخى الاحتياط اذ كان العقل الانساني نزاعا الى التساهل ميلا الى تناول ما يتطلب الدقة . بغير احتفال او تدبير . وما رأيت احدا ينكر فائدة النقد ومزيته وضرورته . ولكن الاقرار بذلك أسهل من المعاناة . وحسبك ان تفكر في القرون العديدة التي مضت وعصور المدينة التي انقضت قبل ان يظهر « فن » النقد في العالم ، حتى في عصرنا هذا لا يامن المرء على الطالب ان يقع في الاخطاء القديمة . لان النقد يجيد بالمرء عن اتجاه الدهن في العادة . وقد تعلم ان الميل اللدني هو التصديق والترديد حتى حين يختلف ما يتلقاه بالتصديق عما انتهى هو اليه من الآراء والملاحظات .

السنا في حياتنا اليومية نتقبل بلا تمييز او تمحيص ما يتأدى الينا من الاشاعات والانباء التي لا نعرف لها مديا ولا ندري ما مصدرها ؟ وقد نشذ أحيانا عن ذلك ونجنح الى الشك والتشكيب عن أصل الخبر وقيمته ونحاول امتحانه ولكن هذا لا يكون منا الا بدافع من سبب خاص ، اما اذا كان ما يتصل بنا غير مستحيل في ذاته ولا بعيد التصديق

ولم يبلغنا ما ينقصه أو ينفيه فانا نردده ونفرح به وقد نضيف اليه ونزيد عليه !

وقد لا يجهل القارئ أن المرء حين يلقي نفسه في الماء تكون حركاته الطبيعية الأولى من شأنها أن تؤدي إلى الفرق . وأن السباحة معناها اعتياد المرء الامتناع عن هذه الحركات اللدنية والقيام بغيرها ، وكذلك النقد ليس بالمادة الطبيعية وإنما هو شيء يكتسب .

وقد تخالف الدكتور طه إذا عز عليك التخلي عما درجت عليه ، أو توافقه على كثير أو قليل مما يذهب إليه إذا أثرت التعويل على العقل والمنطق ، ولكنك لا تستطيع على الحاليين إلا أن تقدر جهده وإلا أن تقر بقيمة هذا البحث الطريف . وما من ريب في أن الأكثرين يشق عليهم أن ينفضوا أيديهم مما عاشوا مطمئنين إليه ، غير أن الشعر الجاهلي لا يصيبه شيء ، فهو باق كما هو ، لم يحرقه الدكتور ولا سواه من خلق الله وكل ما يجد أن نسبته تتغير أو تصحح . وما أحق ذلك بأن يكون رواية ممتعة . . . وإنما لذلك في كتاب الدكتور .

وهنا موضع التحرز : فلسنا نقول أن بحث الدكتور طه قاطع في إثبات ما ذهب إليه وما نشايه عليه من الرفض ، ولكننا نقول أن حجته أقوى من حجة القلماء . وأن رسالته ليست أكثر من باب فتحه لطالب الأدب الجاهلي إذا أراد أن يصل إلى نتيجة يسكن إليها العقل ، وإنما لم يخل من المأخذ ولم تبرأ من السقاط وأن أولها خير من آخرها ، وصدرها أمتن من عجزها ذلك أنه لم يوفق في التطبيق ولم يأت بشيء له قيمة ، ولو زهيدة ، حين أراد أن يتناول الشعر الجاهلي بالتفلية بعد أن مهد لذلك يبحث أسباب الانتحال ودواهيته .

ولا بأس من أمثلة تجلو للقارئ ما نريد .

يقول الدكتور في رسالته أن « امرئ القيس » يعني وشعره قرشي اللغة لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه وأحراجه وما يتصل بذلك

من قواعد الكلام ، ونحن نعلم . . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة
الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ؟ بل في
لغة قريش خاصة ؟ سيقولون نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان وكان
أبوه ملكاً على بني أسد وكانت أمه من بني تغلب وكان مهلهل خاله ،
فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن ولكننا نجعل
هذا كله ولا نستطيع أن نثبت أنه من طريق هذا الشعر الذي ينسب إلى
امرئ القيس ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل .

وأذن فنحن ندور : « ثبت لغة امرئ القيس الذي نشك فيه ! »
إلى أن يقول « وأصعب من ذلك أنك لا تجد مطلقاً في شعر امرئ القيس
لفظاً أو أسلوباً أو نحوه من أنحاء القول يدل على أنه يمني فمهما يكن
امرئ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته
الأولى قد محيت من نفسه محو تاماً ولم يظهر لها أثر ما في شعره ؟ نظن
أن أنصار القديم سيجعلون كثيراً من المشقة والعناء ليعطوا هذه المشكلة » .

فامرؤ القيس يمني ، والشعر المعزو إلى امرئ القيس عدناني اللغة
قرشياً . وهذا حسن ولكن أحسن منه أن الدكتور حين تناول الأبيات
النسوبة إلى امرئ القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر — وأن
كانت كلها عدنانية قرشية !! رفض مثلاً هذين البيتين :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وفاء بكل كل

وقبل هذا البيت الذي يتلوها :

إلا أيها الليل الطويل ألا نجلى يصبح وما الاصباح منك بامثل

فلماذا ؟ أهو يمني اللغة دونهما ؟ أففيه شيء يخالف لغة عدنان
وقريش التي نزل بها القرآن من حيث اللفظ أو الإعراب وما يتصل
بذلك من قواعد الكلام ؟ أم وقعت المعجزة وبلغ من تأثر الشاعر بلغة
عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محو تاماً في هذا البيت فقط ؟

وقد وقع الدكتور في مثل هذا الخطأ عينه لما تناول شعر عبيد
وعلقمة وعمرو بن قميئة ومهلل وابن حنظلة وطرفة بن العبد الخ الخ
وإن اختلفت القبائل .

وهو مع جنوحه الى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق
وإن كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقية ونعني بها زعمهم أنه
'خرج في يوم مطير الى ضاحية البصرة وانتهى الى غدير فيه نساء . فقال
ما أشبه هذا اليوم بيوم دائرة جلجل ثم انصرف فصاح النساء به :
« يا صاحب البغلة » وعز من عليه الا ما حدثهن بحديث دائرة جلجل قالوا
فقص عليهن قصة امرئ القيس وأنشدن قوله :

الا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ومن سقاطه أنه يذكر « ابتلال » اللفظ ، ويعني انه مانوس غير
حوشي ، ويتكلم على المثانة والجزالة ويريد بهما حشو الكلام بالغريب
الذي يحتاج المرء في فهمه الى مراجعة معاجم اللغة . وهو ما لا يغتفر
لرجل تدوق الادب بله من يدرسه في الجامعة ، ومن ذلك قوله عن
قصيدة جلة في رثاء كليب أنها شعر « لا ندري يستطيع شاعر او شاعرة
في هذا العصر الحديث أن يأتي بأشد منه » سهولة وليناً وابتدالاً ؟ »
والأبيات التي يشير اليها هي :

جل عندي فعل جساس فييا	حررتي عما انجلي او ينجلي
فعل جساس على وجدي به	قاصم ظهري ومدن اجلى
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتي جميعاً من حل
هدم البيت الذي استحدثته	وانشئ في هدم بيتي الاول
خصني قتل كليب بلظى	من ورائي ولظى مستقبلي
لبس من ييكى ليومية كمن	انما ييكى ليوم ينجلي

وهي أبيات ليس فيها ابتلال بالمعنى المفهوم . ومن نظرياته ان لغة
الكلام عند العرب قبل الاسلام كانت وعرة حوشية !! انظر قوله « فان

قصيدة هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على اقل الناس حظا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه ، وما هكذا كانت تتحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الاسلام بما يقرب من نصف قرن « فمن ادراك يا دكتور ؟ » وبها لها من صورة معكوسة للغة في ذهن الدكتور !!

وقد اطلنا جدا والصحيفة لا تتسع للافاضة . ولذلك نختم كلامنا بان الباب الثالث من الكتاب اشبه بتخبط الطلبة منه بإبحاث الاساتذة قليته استغنى عنه . وان الدكتور ليحسن جدا الى نفسه اذا تحاشى الخروج من النقد العام الذي يسهل مع التحصيل ، الى النقد الطبعي او الدراسات الفردية .

● ابراهيم عبد القادر المازني

المصدر : قبس الريح . ص ١٧٦ - ١٨٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٠
صدرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٧

— ٢٠٩ — القديم والجديد م-١٤

قرار النيابة العامة

قضية الدكتور طه حسين

وصلت اليينا نسخة من هذا القرار فاذا هو يؤيد ما كتبه الكاتبون من علماء الشرع ومن علماء القوانين ومن سائر طبقات العارفين من اثبات جهل طه حسين فيما كتبه وطمعته في الدين الاسلامي وتكذيبه للقرآن وتقليده في ذلك لبعض دعاة النصرانية ، واننا ننقل منه ما سبقتنا الي تلخيصه جريدة الاخبار الفراء للثقة بها قالت :

أصدر حضرة صاحب العزة محمد بك نور رئيس نيابة مصر قرارا مسهبا عن البلاغات التي قلمت ضد الدكتور طه حسين لتأليفه كتابا اسماه الشعر الجاهلي ويقع هذا القرار في ست عشرة صفحة من القطع الكبير وقد تناول في مقدمته الاشارة الى أسماء الاشخاص المبلغين وهم الشيخ خليل حسنين الطالب بالقسم العالي بالازهر وفضيلة شيخ الجامع الازهر وحضرة عبد الحميد افندي البنان عضو مجلس النواب .

ثم اتى القرار على التهمة التي وجهها المبلغون الى الدكتور وهي انه طعن في الدين الاسلامي في مواضع اربعة من كتابه .

(الاول) ان المؤلف اهان الدين الاسلامي بتكذيب القرآن في أخبره عن ابراهيم واسماعيل .

(الثاني) ما تعرض له المؤلف في شان القراءات السبع المجمع عليها .

(الثالث) ينسبون للمؤلف انه طعن في كتبه على النبي صلى الله عليه وسلم (طعننا فاحشا من حيث نسبه .

(الرابعة) أنكر المؤلف أن للإسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين
إبراهيم .

عن الأمر الأول

تتلو القرار الكلام عن الأمر الأول باستفاضة واسعة وذكر أقوال
الذكور طه في الشعر الجاهلي ولغة العرب وعاب طريقة المؤلف في
الاستدلال والاستنتاج ثم انتقل إلى تعرضه لإبراهيم وإسماعيل فقال :

أن الذي نريد أن نشير إليه إنما هو الخطأ الذي اعتاد أن يرتكبه
المؤلف في أبحاثه حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهي بأن يرتب عليه
قواعد كأنها حقائق ثابتة كما فعل في أمر الاختلافات بين لغة حمير وبين
لغة عدنان ، ثم في مسألة إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء
الكنبة إذ بدأ فيها بإظهار الشك ثم انتهى باليقين (١) بدأ بقوله « للتوراة
أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل والقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن
ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما
التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن
إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها » إلى هنا أظهر الشك
لعدم قيام الدليل التاريخي في نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم
انتهى بأن قرر في كثير من الصراحة قوله « أمر هذه القصة اذن واضح
فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني »
الخ فما هو الدليل الذي انتقل به من الشك إلى اليقين .

هل دليله هو قوله « نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة
نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين
الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى . وإن أقدم عصر
يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ
اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية وربثون فيه المستعمرات »

(١) أي بالجزم .

الخ وان ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العتيقة بينه وبين وثنية العرب من غير اهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة بين الدين الجديد وبين ديانتى النصرى واليهود ، وانه مع ثبوت الصلة الدينية يحسن ان تؤيدها صلة ملادية الخ .

اذا كان الاستاذ المؤلف يرى ان ظهور الاسلام قد اقتضى ان تثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصرى ، وان القرابة المادية الملققة بين العرب واليهود لازمة لاثبات الصلة بين الاسلام وبين اليهودية فاستغلها لهذا الغرض فهل له أن يبين السبب في عدم اهتمامه أيضا بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الاسلام وبين النصرانية - وهل عدم اهتمامه هذا معناه عجزه أو استهائه بأمر النصرانية ؟ وهل من يريد توثيق الصلة مع اليهود بأي ثمن حتى باستغلال التلفيق هو الذي يقول عنهم في القرآن (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

ان الاستاذ ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان اذ أن كل ما ذكره في هذه المسألة انما هو خيال في خيال ، وكل ما استند عليه من الأدلة هو : (١) فليس يبعد أن يكون (٢) فما الذي يمنع (٣) ونحن نعتقد (٤) واذن فليس يمنع قريشا من ان تقبل هذه الاسطورة (٥) واذن فنستطيع ان نقول :

فالاستاذ المؤلف في بحثه اذا رأى انكار شيء يقول لا دليل عليه من الأدلة التي طلبها الطرق الحديثة للبحث حسب الخطة التي رسمها في منهج البحث ، واذا رأى تقرير أمر لا يدل عليه بغير الأدلة التي أحصيناها له وكفى بقوله حجة !

سئل الاستاذ في التحقيق عن أصل هذه المسألة (أي تلفيق القصة) وهل هي من استنتاجه أو نقلها فقال : هذا فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه في كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب أن شيئا مثل هذا الفرض يوجد في بعض كتب المبشرين ولكن لم أفكر فيه حتى

بعد ظهور كتابي . على أنه سواء كان هذا الغرض من تخيله كما يقول أو من نقله عن ذلك المبشر الذي يستتر تحت اسم هاشم العربي فانه كلام لا يستند الى دليل ولا قيمة له . على أننا نلاحظ ان ذلك المبشر مع ما هو ظاهر من مقاله من غرض الطعن على الاسلام كان في عبارته اظرف من مؤلف كتاب الشعر الجاهلي لانه لم يتعرض للشك في وجود ابراهيم واسماعيل باللدات ، وانما اكتفى بان انكر ان اسماعيل ابو العرب وقال : إن حقيقة الامر في قصة اسماعيل انها دسيصة لفقها قدماء اليهود للعرب تزلفا اليهم الخ .

كما نلاحظ أيضا ان ذلك المبشر قد يكون له عدوه في سلوك هذا السبيل لان وظيفة التبشير لدينه غرضه الذي يتكلم فيه ، ولكن ما عدو الاستاذ المؤلف في طرق هذا الباب وما هي الضرورة التي ألجأته الى ان يرى في هذه القصة نوعا من الحيلة الخ .

وان كان المتسامح يرى له بعض العذر في التشكك الذي اظهره أولا اعتمادا على عدم وجود الدليل التاريخي كما يقول فما الذي دعاه الى ان يقول في النهاية بعبارة تفيد الجزم : « امر هذه القصة اذن واضح فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني الخ » مع اعترافه في التحقيق بان المسألة فرض افتراضه .

يقول الاستاذ : « انه ان صح افتراضه فان القصة كانت شائنة بين العرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام استغلها وليس ما يمنع ان يتخذها الله في القران وسيلة لاقامة الحجّة على خصوم المسلمين كما اتخذ من غيرها من القصص التي كانت معروفة وسيلة الى الاحتجاج او الى الهداية » وهاشم العربي يقول في مثل هذا : ولما ظهر محمد رأى المصلحة في اقرارها فأقرها وقال للعرب انه انما يدعو الى ملة جدهم هذا الذي يعظمونه من غير ان يعرفوه . فسبحان من اوجد هذا التوافق بين الخواطر (!!)

ان الاستاذ المؤلف اخطأ فيما كتب واخطأ ايضا في تفسير ما كتب

وهو في هذه النقطة قد تعرض بغير شك لنصوص القرآن وتفسير نصوص القرآن وليس في وسعه الهرب بادعائه البحث العلمي منفصلاً عن الدين فليفسر لنا إذن قوله تعالى في سورة النساء (انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ويعيسى واليوسف ويونس وهارون وسليمان) .

وقوله في سورة مريم (اذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً . واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً) وفي سورة آل عمران (قل آمنا بالله وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) .

وغير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي ورد فيها ذكر ابراهيم واسماعيل لا على سبيل الامثال كما يدعي حضرته . وهل عقل الاستاذ يسلم بان الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه ان ابراهيم وان اسماعيل رسول نبي مع ان القصة ملفقة ؟ وماذا يقول حضرته في موسى وعيسى وقد ذكرهما الله سبحانه وتعالى في الآية الاخيرة مع ابراهيم واسماعيل وقال في حقهم جميعاً (لا نفرق بين احد منهم) ؟

الحق ان المؤلف في هذه المسألة يتخبط تخبط الطائش ، ويكاد يعترف بخطئه لان جوابه يشعر بهذا عندما سألنا في التحقيق عن السبب الذي دعاه اخيراً لان يقرر بطريقة تفيد الجزم بان القصة حديثة العهد قبل الاسلام فقال ص ٣٨ من محضر التحقيق : هذه العبارة اذا كانت تفيد الجزم فهي انما تفيده ان صح ان فرض الذي قامت عليه وربما كان فيها شيء من الغلو ولكنني اعتقد ان العلماء جميعاً عندما يفترضون فروضا علمية يبيحون لانفسهم مثل هذا النحو من التعبير فالواقع انهم مقتنعون فيما بينهم وبين انفسهم بان فروضهم راجحة .

والذي نراه نحن ان موقف الاستاذ المؤلف هذا لا يختلف عن مواقف

الاستاذ هوار حين يتكلم عن شعر امية بن ابي المصلت وقد وصف المؤلف نفسه هذا المؤلف في ص ٨٢ و ٨٣ من كتابه بقوله :

« ومع اني من اشد الناس اعجابا بالاستاذ هوار وبطائفه من اصحابه المستشرقين وبما ينتهون اليه في كثير من الاحيان من النتائج العلمية القيمة في تاريخ الادب العربي وبالمناهج التي يتخفونها للبحث فاني لا استطيع ان اقرا مثل هذا الفصل دون ان اعجب كيف يتورط العلماء احيانا في مواقف لا صلة بينها وبين العلم » .

حقا ان الاستاذ المؤلف قد تورط في هذا الموقف الذي لا صلة بينه وبين العلم لغير ضرورة يقتضيها بحثه ولا فائدة يرجوها ، لان النتيجة التي وصل اليها من بحثه وهي قوله : « ان الصلة بين اللغة العدنانية وبين اللغة القحطانية كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة ، وان قصة العاربة والمستعربة وتعلم اسماعيل العربية من جرهم كل ذلك حديث اساطير لا خطر له ولا غناء فيه » ما كانت تستدعي التشكك في صحة اخبار القرآن عن ابراهيم واسماعيل وبنائهما الكعبة ثم الحكم بعدم صحة القصة وباستفلال الاسلام لها لسبب ديني ونحن لا نفهم كيف اباح المؤلف لنفسه ان يخلط بين الدين وبين العلم وهو القائل بان الدين يجب ان يكون بمعزل عن هذا النوع من البحث الذي هو بطبيعته قابل للتغيير والنقض والشك والانكار (ص ٢٢ من محضر التحقيق) واننا حين نفصل بين العلم والدين نضع الكتب السماوية موضع التقديس ، ونعصمها من انكار المنكرين وطعن الطاعنين (ص ٢٤ من محضر التحقيق) ولا ندري لم يفعل غير ما يقول في هذا الموضوع ؟ لقد سئل في التحقيق عن هذا فقال : ان الداعي اني اناقش طائفة من العلماء والادباء والقلماء والمحدثين وكلهم يقررون ان العرب المستعربة قد اخذوا لغتهم عن العرب العاربة بواسطة ابيهم اسماعيل بعد ان هاجر وهم جميعا يستدلون على آرائهم بنصوص من القرآن ومن الحديث فليس لي بد من ان اقول لهم ان هذه النصوص لا تلزمني من الوجهة العلمية .

اما الثابت في نصوص القرآن فقصة الهجرة وقصة بناء الكعبة وليس

في القرآن نصوص يستدل بها على تقسيم العرب الى عربية ومستعربة ولا على أن اسماعيل أبو العرب العدنانيين ولا على تعلم اسماعيل العربية من جرهم . ونص الآية التي تثبت الهجرة (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجمعو أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا) لا يفيد غير اسكان ذرية ابراهيم في وادي مكة أي ان اسماعيل هو جرهم به صغيراً (كنص الحديث) الى هذا الوادي فنشأ فيه بين اهله وهم من العرب وتعلم هو وإبنائه لغة من نشأوا بينهم وهي العربية لان اللغة لا تولد مع الانسان وانما تكتسب اكتساباً ، وقد اندمجوا في العرب فصاروا منهم ، وهذا الاندماج لا يترتب عليه أن يكون جميع العرب العدنانيين من ذريته اذ الحكم بهذا يقتضي ان لا يكون مع اسماعيل احد منهم حتى لا يوجد غير ذريته وهو ما لم يقل به احد ويا ليت الاستاذ المؤلف حدا حذو ذلك المبشر هاشم العربي في هذه المسألة حيث قال « ولا اسماعيل نفسه باب للعرب المستعربة ولا تملك احد من بنيه على أمة من الامم وانما قصارى امرهم انهم دخلوا وهم عدد قليل في قبائل العرب العديدة المجاورة لمنازلهم فاختلطوا بها وما كانوا الا كحصاة في فلاة » (تراجع صحيفة ٣٥٦ من كتاب مقالة في الاسلام) - ولو ان المؤلف نقل هذا لنجا من التورط في هذا الموضوع . واما مسألة بناء الكعبة فلم نفهم الحكمة في نفيها واعتبارها اسطورة الاساطير اللهم الا اذا كان مرده ازالة كل اثر لابراهيم واسماعيل ولكن ما مصلحة المؤلف في هذا ؟ الله اعلم بمراده (١) .

عن الامر الثاني

تناول القراء الامر الثاني الخاص بالقراآت وبعد تحصيله قال « ونحن نرى ان ما ذكره المؤلف في هذه المسألة هو بحث علمي لا تعارض بينه وبين الدين ولا اعتراض لنا عليه » .

(١) القار : الذي فهمه الناس من كلامه ان مراده الطعن في الاسلام وصدد الناس عنه .

عن الامر الثالث

تناول القرار مسألة نسب النبي صلى الله عليه وسلم وبعد ان حللها قال « ونحن لا نرى اعتراضاً على بحثه على النحو من حيث هو وإنما كل ما نلاحظه عليه انه تكلم فيما يختص بأسرة النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه في قریش بمبارة خالية من كل احترام بل بشكل تهكمي غير لائق ولا يوجد في بحثه ما يدعو لایراد العبارة على هذا النحو » .

الامر الرابع

تناول القرار الامر الرابع وبعد تحليله قال « ونحن لا نرى اعتراضاً على ان يكون مراده بما كتب في هذه المسألة هو ما ذكره ولكننا نرى انه كان سيء التعبير جداً في بعض عباراته كقوله : ولم يكن احد قد احتكر ملة ابراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها . لقد اخذ المسلمون يرددون دين الاسلام في خلاصته الى دين ابراهيم هذا الذي هو اقدم وانقى من دين اليهود والنصارى . وكقوله : وشاعت في العرب اثناء ظهور الاسلام وبعده فكرة ان الاسلام يجلد دين ابراهيم في عصر من العصور .. لان في ايراد عباراته على هذا النحو ما يشعر بانه يقصد شيئاً آخر بجانب هذا المراد خصوصاً اذا قربنا بين هذه العبارات ، وبين ما سبق له ان ذكره بشأن تشككه في وجود ابراهيم وما يتعلق به » .

عن القانون

نصت المادة (١٢) من الامر الملكي رقم (٤٢) لسنة ١٩٢٣ بوضع نظام دستوري للدولة المصرية على ان حرية الاعتقاد مطلقة .

ونصت المادة (١٤) منه على ان حرية الرأي مكفولة ولكل انسان الاعراب عن فكره بالقول او بالكتابة او بالتصوير أو بغير ذلك في حدود القانون .

ونصت المادة ٤٩ منه على ان الاسلام دين الدولة فلكل إنسان إذا حرية

الاعتقاد بغير قيد ولا شرط وحرية الرأي في حدود القانون فله ان يعرب
عن اعتقاده وفكره بالقول او الكتابة بشرط ان لا يتجاوز حدود القانون .

وقد نصت المادة ١٣٩ من قانون العقوبات الاهلي على عقاب كل تعد
يقع باحدى طرق العلانية المنصوص في المادتين ١٤٨ ، ١٥٠ على احد الاديان
التي تؤدي شعائرها علنا . وجريمة التعدي على الاديان المعاقب عليها
بمقتضى المادة المذكورة تتكون بتوفر اربعة اركان .

١ - التعدي .

٢ - وقوع التعدي باحد الطرق العلنية المبينة في المادتين ١٤٨ ، ١٥٠
عقوبات .

٣ - وقوع التعدي على احد الاديان التي تؤدي شعائرها علنا .

٤ - القصد الجنائي .

عن الركن الاول

لم يذكر القانون بشأن هذا الركن في المادة إلا لفظ (تعد) وهذا لفظ
عام يمكن فهم المراد منه بالرجوع الى نص المادة باللغة الفرنسية وقد عبر
القانون فيه عن التعدي outrage والقانون قد استعمل لفظ outrage
هذا في المواد ١٥٥ و ١٦٠ عقوبات أيضا ولما ذكر معناها في النص العربي
للمواد المذكورة عبر في المادة (١٥٥) بقوله (كل من انتهك حرمة) وفي
المادتين ١٥٩ ، ١٦٠ باهانة فيتضح من هذا - ان مراده بالتعدي في المادة
١٣٩ هو كل مساس بكرامة الدين أو انتهاك حرمة أو الحط من قدرة
أو الازدراء به لان الاهانة تشمل كل هذه المعاني بلا شك .

وحيث إنه بالرجوع الى الوقائع التي ذكرها الدكتور طه حسين والتي
تكلمنا عنها تفصيلا وتطبيقها على القانون يتضح ان كلامه الذي بحثناه تحت
عنوان (الامر الاول) فيه تعد على الدين الاسلامي لانه انتهك حرمة هذا

الدين بأن نسب الى الاسلام انه استغل قصة ملفقة هي قصة هجره اسماعيل بن ابراهيم الى مكة وبناء ابراهيم واسماعيل للكعبة . واعتبار هذه القصة أسطورة وأنها من تنفيق اليهود . ، وأنها حديثه العهد ظهرت قبل الاسلام الى آخر ما ذكرناه تفصيلا عند الكلام على الوقائع وهو بكلامه هذا يرمي الدين الاسلامي بأنه مضلل في أمور هي عقائد ثابتة ، وواردة في القرآن باعتبار أنها حقائق لأمرية فيها كما أن كلامه الذي بحثناه تحت عنوان (الامر الرابع) قد اورده على صورة تشعر بأنه يريد به اتمام فكرته بشأن نسب النبي صلى الله عليه وسلم فهو إن لم يكن فيه طعن ظاهر إلا أنه اورده بعبارة تهكمية تشف عن الخط من قدره - وأما ما ذكره بشأن القرآن مما تكلمنا عنه في الامر الثاني فإنه بحث بريء من الوجهة العلمية والدنيوية أيضا ولا شيء فيه يستوجب المؤاخدة لا من الوجهة الادبية ولا من الوجهة القانونية .

عن الركن الثاني

لا نزاع في هذا الركن أيضا لان التعدي وقع على الدين الاسلامي الذي إذ أنه اورد في كتاب الشعر الجاهلي الذي طبع ونشر وبيع في المحلات العمومية والمؤلف معترف بهذا .

عن الركن الثالث

لا نزاع في هذا الركن أيضا لان التعدي وقع على الدين الاسلامي الذي تؤدي شعائره علنا وهو الدين انرسمي للدولة .

عن الركن الرابع

هذا الركن هو الركن الادبي الذي يجب ان يتوفر في كل جريمة فيجب إذا لمعاقبة المؤلف أن يقدم الدليل على توفر القصد الجنائي لديه ، وبعبارة أوضح يجب أن يثبت أنه إنما اراد بما كتب أن يتعدى على الدين الاسلامي فلذا لم يثبت هذا الركن فلا عقاب .

انكر المؤلف في التحقيقات انه يريد الطعن على الدين الاسلامي ، وقال انه ذكر ما ذكر في سبيل البحث العلمي وخدمة العلم لا غير - غير مقيد بشيء ، وقد اشار في كتابه تفصيلا الى الطريق الذي رسمه للبحث ، ولا بد لنا هنا ان نشير الى ما قرره المؤلف في التحقيق من انه كمسلم لا يرتاب في وجود ابراهيم واسماعيل وما يتصل بهما مما جاء في القرآن ولكنه كمال مضطر الى ان يدع لناهج البحث فلا يسلم بالوجود العلمي التاريخي لابراهيم واسماعيل فهو مجرد من نفسه شخصيتين وقد وجدنا المؤلف قد شرح نظريته هذه شرحا مستفيضا في مقال نشره بجريدة السياسة الاسبوعية بالعدد نمرة ١٩ الصادر في ١٧ يوليه سنة ١٩٢٦ ص ٥ تحت عنوان (العلم والدين) وقد ذكر فيه بالنص « فكل امري منا يستطيع ان فكر قليلا ان يجد في نفسه شخصيتين متماثلين إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت اليه امس ، وتهدم اليوم ما بنته امس . والاخرى شاعرة تلذ وتالم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وترغب وترهب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل ، كلتا الشخصيتين متصلتان بمزاجنا وتكويننا لا نستطيع ان نخلص من إحداهما فما الذي يمنع ان تكون الشخصية الاولى عالمة باحثة ناقدة ، وان تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة الى المثل الاعلى .

ولسنا نعترض على هذه النظرية باكثر مما اعترض به هو على نفسه في مقاله حيث ذكر بعد ذلك : « ستقول وكيف يمكن ان تجمع المتناقضين ؟ ولست أحاول جوابا لهذا السؤال وإنما أحولك على نفسك الخ ولا شك في ان عدم محاولة الاجابة على هذا الاعتراض انما هو عجزه عن الجواب ، والمفهوم انه قد اورد هذا الاعتراض لانه يتوقعه حتى لا يوجه اليه .

الحقيقة انه لا يمكن الجمع بين النقيضين في شخص واحد وفي وقت واحد بل لا بد من أن تتخلى حدى الحالتين للاخلاى وقد اشار المؤلف نفسه الى هذا في نفس المقال في سياق كلامه على الخلاف بين العلم والدين حيث قال بشأنهما : « ليسا متفقين ولا سبيل الى أن يتفقا الا أن ينزل أحدهما لصاحبه عن شخصيته كلها » .

اما توزيع الاختصاص الذي اجراه الدكتور بجعله العلم من اختصاص القوة العاقلة والدين من اختصاص القوة الشاعرة فلسنا ندركه ، والذي نفهمه ان 'العقل هو الایساس في العلم وفي الدين معا ، واذا ما وجدنا العلم والدين يتنازعان فسبب ذلك انه ليس لدينا القدر الكافي من كل منهما — اننا نقرر هذا بناء على ما نعرفه في انفسنا اما الدكتور فقد تكون لديه القدرة على ما يقول وليس ذلك على الله بعسير .

نحن في موضع البحث عن حقيقة نية المؤلف فسواء لدينا صحت نظرية تجريد الشخصيتين عالمة ومندبنة او لم تصح فاننا على الفرضين نرى انه كتب ما كتب من اعتقاد تام ولما قرأنا ما كتبه بامعان وجدناه منساقا في كتابته بعامل قوي متسلط على نفسه ، وقد بينا حين بحثنا الواقع كيف قاده بحثه الى ما كتب وهو وان كان قد اخطأ فيما كتب الا ان الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر .

وحيث انه مع ملاحظة ان أغلب ما كتبه المؤلف مما يمس موضوع الشكوى وهو ما قصرنا بحثنا عليه وانما هو تخيلات وافتراسات واستنتاجات لا تستند الى دليل علمي صحيح فانه كان يجب عليه ان يكون حريصا في جرائه على ما اقدم عليه مما يمس الدين الاسلامي الذي هو دينه ودين الدولة التي هو من رجالها المسؤولين عن نوع من العمل فيها وان يلاحظ مركزه الخاص في الوسط الذي يعمل فيه — صحيح انه كتب ما كتب عن اعتقاده بان بحثه العلمي يقتضيه ولكنه مع هذا كان مقدرا لمركزه تملما وهذا الشعور ظاهر من عبارات كثيرة في كتابه منها قوله :، واكاد اثق بان فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبان فريقا آخر سيزورون عنه ازواراً ، ولكنني على سخط اولئك وازوار هؤلاء اريد ان اذيع هذا البحث .

ان المؤلف فضلا لا ينكر في سلوكه طريقا جديدا للبحث هذا فيه حذو العلماء من الغربيين ولكنه لشدة تأثر نفسه مما أخذ عنهم قد تورط في

بحثه حتى تخيل حقا ما ليس بحق ، او ما لا يزال في حاجة الى اثبات
انه حق — انه قد سلك طريقا مظلمة فكان يجب عليه ان يسير على مهل
وان يحتاط في سيره حتى لا يصل ولكنه اقدم بغير احتياط فكانت النتيجة
غير محموده .

وحيث إنه مما تقدم يتضح أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن
والتعدي على الدين بل ان «العبارات الماسة بالدين التي اوردها في بعض
المواضع من كتابه انما قد اوردها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده ان
بحثه يقتضيها .

» وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر

» فلذلك « تحفظ الاوراق اداريا .

رئيس نيابة مصر

القاهرة في ٣ مارس سنة ١٩٢٧

(المنار) قد أثبت رئيس النيابة أن الدكتور طه حسين طعن في الدين
الاسلامي وكذب القرآن بما سبقه اليه بعض دعاة النصرانية فكان هذا في
طعنه أقرب منه الى الأدب — وأثبت أن مطاعنه التي شكها منها المسلمون
وطلب بعض رجال الدين ورجال النيابة البرلمانية محاكمته عليها لم تستند
الى دليل علمي صحيح وانما هي تخيلات وافتراضات باطلة وهو قد
أثبت بما ذكره إرتداداه عن الإسلام ، وأنه كان مقدرا نتيجة عمله وسوء
تأثيره في المسلمين كما صرح به بغير مبالاة — ثم أن الرئيس مع هذا قد
أرتأى أن الدكتور طه يعتقد أن ما كتبه حق وأنه يقتضيه البحث العلمي
ولم يقصد به مجرد الطعن والتعدي — وأنه لهذا لم يجد وجها قانونيا
لمحاكمته فأمر بحفظ الاوراق الخاصة بقضيته اداريا .

وقد رأينا الناس متعجبين من هذه النتيجة ومخالفين لرئيس النيابة
في استنتاجه ، على اعجابهم بدقة فهمه وحسن تفنيده لتلك المظالم .
وقد سبق لي أن بينت في المنار ما فهمته من غرض الدكتور طه حسين وهو
تشكيك طلبة الجامعة المصرية وسائر من يقرأ كتابه في الدين الاسلامي

بل افساد اعتقادهم وتجريئتهم على الكفر ، لانه ليس من الغلووة والبلادة بحيث يعتقد ان تلك « التخيلات والافتراضات » أدلة علمية على حقيقة طعنه فهو لا يعتقد ان ما كتبه حق الا من حيث انه لا يؤمن بان كتاب الله هو الحق الذي « لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ثم اقول اذا كان من يطعن في دين الدولة والاممة طعنا صريحا لا يستند الى دليل ولكنه هو يعتقد - يباح له ذلك قانونا ولا يحاكم ولا يعاقب فكيف يعقل ان يكون الطعن في الدين ممنوعا ومن الضروري انه لا يطعن فيه الا من يعتقد بطلانه من ملحد أو متدين بدین آخر ؟ الا ان هذا القرار يجرا كل كافر بالاسلام على الطعن فيه ، وهل يطعن فيه الا كافر به ؟

هذا وان الدكتور طه قد استقال من التعليم في الجامعة عقب صدور هذا القرار لما فيه من الاهانة له واثبات جهله فبادر مدير الجامعة احمد لطفي بك السيد الى تلافي الامر وحمل وزير المعارف على ان لا يقبل استقالته ففعل ، فلم بهدأ من لم يكن يعلم رأي كل من مدير الجامعة ووزير المعارف في الدكتور طه حسين ، وقد طبع كتابه ثانية بعد حذف ما انكر المسلمون منه وهو باق في الجامعة فمن شاء فليرض ومن شاء فليغضب (ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

محمد احمد الفمراوي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوثين بالحق ،
والمخبرين بالصدق عن الله .

وبعد فهذا نقد لكتاب ظهر من قبل باسم ، ثم ظهر بعد باسم ،
وحوى في الحالين باسم العلم كثيرا مما يجهله العلم .

ظهر كتاب « في الشعر الجاهلي » منذ أكثر من عشرين سنة فسخطه
الناس سواء العامة منهم والخاصة ، لا لانه حوى حقائق ينكرونها ولكن
لانه حوى دعاوى خالفت ما يعرفون من أساسيات الدين واللغة والتاريخ .
وكان فيما استلفتني من ذلك دفاع صاحب الكتاب عن كتابه باسم العلم ،
وادعاؤه أن ذلك الذي سخطه الناس إنما هو نتيجة بحث اخذ فيه بمنهج
البحث العلمي الصحيح . وهي دعوى لم تكن لتستحق التمحيص لولا أن
الراي العلمي في بلدنا هذا لم يتكون أو ليس له صوت مسموع . فلو كان
في مصر راي علمي مسموع الصوت ما أمكن أن يلقى ذلك الكتاب الفج
دروسا على طلبة حديثي العهد بالدور الثانوي لا يستطيعون تمحيصا
لراي يلقيه عليهم استاذهم كأحدث ما يتفق مع النهج العلمي الحديث .

عندئذ صحت العزيمة على تناول ضلب ذلك الكتاب بنقد يكشف
عن طريقته العلمية هي أم غير علمية ، ويقرن بعض اجزاء الكتاب الى
بعض ليتبين أمتوافقة هي فيما بينها أم متخالفة ، فان الطريقة العلمية
يمرقها المشتغلون بالعلم وهم يبيننا غير قليل ، وتوافق اجزاء الكتاب

الواحد ضروري ان كان ذلك الكتاب قد صدر عن تفكير صحيح . واقل فوائد هذا النوع من النقد انه اذا احسن القيام به يسد ابواب المراء على اهل المراء والشك ، ويخيرهم بين ان يلحنوا للحق او ان يصيروا مثلاً وسخرية في العقلاء .

وكان من اثر ذلك العزم ان ظهرت سلسلة كلمات في جريدة « البلاغ » (١) تنقد كتاب « في الشعر الجاهلي » من الناحية العلمية ، احقاقاً للحق وانصافاً للعلم والدين . وهي كلمات كدنا ننزل على رأي بعض اولي الفضل فنجمعها اذ ذاك كتاباً ، لولا ان ذلك لم يكن من قصدنا حين كتبناها ، وان الكتاب الذي كتبت في نقده كان قد صدر ورفع من الاسواق ، فلم نسترح اذ ذاك الى نشر النقد كتاباً وقد طوى المنقود .

لكن المنقود عاد فانبعث بعد ان غير من زيه وان لم يغير من حقيقته فلم نجد بداً من ان نعيد ذلك النقد ونجمله بعد التعديل المناسب نواة لنقد اوسع يتناسب مع التضخم في الكتاب المنقود . فكتاب « في الادب الجاهلي » هو مثل كتاب « في الشعر الجاهلي » بروحه وغايته وطريقته ، لم ينتفع فيه صاحبه بنقد الناقدين على تعدد نقدهم وصوابه وانني لا اعرف في عهدنا هذا كتاباً لقي من عناية النقاد على تنوعهم ما لقي ذلك الكتاب . وهم لم يحنوا به لانه جاء بقيم يستدعي اكبارهم ، اذ كل ما كتب الكاتبون فيه كان تخطئة له في صميمه ودلالة على عيوبه ، وانما عنوا به لانه تعرض بالهدم للثابت مما يكبر الناس من دين ولغة وتاريخ . فهي عناية كانت اشبه بعناية الطب اذا هب لمكافحة مرض تتهدد جراثيمته الناس .

وفي رأينا ان اعراض صاحب ذلك الكتاب عن الانتفاع بذلك النقد

(١) في النصف الثاني من سنة ١٩٢٦ .

الكثير الصائب يدل على الروح الذي يحركه والفرض الذي يحركه
والفرض الذي يسمى اليه من كل ما نطق وما ينطق من زخرف يزعم
به التجرد من الهوى والجري على سنن العلم والحديث ، وان اخر اوجه
كتاب « في الادب الجاهلي » وفيه ما فيه من اغلاط « الشعر الجاهلي »
لدليل قصور عن ادراك الحق ، او عناد يخرج صاحبه من دائرة طلاب
الحق .

اما نوع تلك الاغلاط ، وبعد ما بين الكتاب وبين العلم وسننه في
النظر والبحث ، فهذا ما نرجو ان يتبينه القارئ من هذا النقد التحليلي
لذلك الكتاب .



المقدمة

صاحب الكتاب والتجديد في الادب

ولصاحب الكتاب نداء يلجأ اليه كلما اراد تزيين رأيه وتشويه رأي
مخالفه للناس هو نداء التجديد . فهو المجدد ومخالفه غير مجدد ، وهو
نصر الجديد ومخالفه نصر القديم . وكلمة التجديد هنا ، ككلمتي القديم
والحديث ، من الكلمات المبهمة التي يحتاج معناها الى تحديد . ثم هي
هنا من الكلمات المنقولة عن مدلول مادي الى مدلول معنوي . والخطر
الذي يصحب مثل هذا النقل هو ان ينتقل مع الكلمة جوها الذي كان
يصحبها في استعمالها الاول فيصير معها في استعمالها الثاني ، فان لامثال
تلك الكلمات أجواء تنتقل معها في تداولها ، كما للكواكب أجواء تنتقل معها
في سبحها وتنقلها . فاذا علقت الكلمة ذات الجو بمدلول جديد علق به ما
كان يحيط بها في استعمالها الاول من استحسان او استقباح ، وسرى
ذلك الى النفوس خفية فتستحسن او تستقبح من غير ان تدري لذلك
سببا .

فالناس يستحسنون في المديكات الجديد ويفضلونه على القديم .

فالبس الجديد مثلاً والمسكن الجديد خير عندهم من مثله من القديم .
 وهم ياخذون في ذلك بتجاربهم فهم فيه على صواب . لكن اذا نقل ناقل
 القدم والجدة الى المعنويات فبدأ يكلم الناس عن الادب القديم والادب
 والجديد ، والمدينة القديمة والمدينة الجديدة ، والحياة القديمة والحياة
 الجديدة . كان الناس منه على خطر وبدأوا يستقبحون ويستحسنون
 من غير أن يكونوا غالباً على صواب في الاستقباح أو الاستحسان :
 يستحسنون المدينة الجديدة ولعلها شر من المدينة القديمة ، ويستقبحون
 الادب القديم ولعله خير من الادب الجديد . وهم لا يفعلون ذلك لانهم
 يرون مدينة خيراً من مدينة وأدباً شراً من أدب ، ولكن لأن الجدة فيما
 الفوا من المحسوسات مقرونة عندهم بالتفضيل فيجرون المعنويات مجرى
 الماديات فعوا من غير قصد ، ويفاضلون بين الجديد والقديم في الادب كما
 يفاضلون بين الجديد والقديم في اللباس ، ويقعون طبعاً في نفس الخطأ
 الذي يقع فيه طالب المنطق حين يستعمل في قياس واحد لفظاً واحداً
 مشتركاً بين معنيين مختلفين . والناس معذرون اذا فعلوا هذا ، اذ ليس
 منتظراً من جمهورهم أن يكونوا منطقيين مدققين أو أن يحذروا سوء استغلال
 قانون الربط أو القرآن النفسي (Association Law) . انما الذي
 تقع عليه تبعة ذلك الخطأ الخفي البالغ هو ذلك الذي يستغل امثال تلك
 الالفاظ من غير حق وينقلها عما ينطبق جوهاً عليه الى ما لا ينطق جوهاً
 عليه . واذا كان هذا الاستغلال منتظراً أو على الاقل لا يمكن منعه في
 الدعايات الحزبية ، حيث تراعى المصلحة ولا تراعى الحقيقة ، فان الابحاث
 العلمية والادبية يجب أن تبرأ منه اذ يجب أن يكون للحقيقة فيها المكان
 الاول .

وكتاب الادب الجاهلي يستغل هذا النوع من الالفاظ الى حد كبير ،
 فهو لا يسأم الكلام عن القديم والجديد والادب القديم والادب الجديد ،
 وانصر القديم وانصر الجديد ، وصاحبه دائماً يريد بانصر القديم
 مخالفه وبانصر الجديد اتصاره ، فهل هناك فيما يدعو اليه في ادب اللغة

شيء جديد يستحق ان تفترق الكلمة فيه فيكون انصاره هم المجددين ،
ويكون اُعداده هم الجامدين ؟

هذا سؤال يحتاج جوابه الى النظر في طريقة صاحب الكتاب في الادب:
وفيما جاء به من مذهب في فهم الادب وتاريخه ومن رأي في اصلاحهما ،
ثم فيما ساق في كتابه من بحث . ونظن أنك ستري اذا عرضنا عليك هذا
كله ان امر صاحب الكتاب ومن معه اهن كثيراً مما يصورون ، وانهم في
صميمهم مقلدون لا مجددون ، وكثيراً ما يسيئون التقليد .

● محمد احمد القمراوي

المصدر : النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي القديمة + ص ٤١ - ٤٢ . تأليف :
محمد احمد القمراوي منشورات دار الحكمة . بيروت ١٩٧٠
ظهرت الطبعة الاولى للكتاب عام ١٩٢٩ من المكتبة السلفية - القاهرة .

تقريظ المطبوعات الحديثة

النقد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي »

مؤلفه الاستاذ الفاضل محمد احمد الفمراوي خريج مدرسة
المطمين العليا بمصر ثم جامعة لندن في انكلترا ، وله مقدمة حافلة بقلم
امير البيان الامير شكيب ارسلان طبع في المطبعة السلفية بمصر سنة
١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م وصفحاته بفهرسه دون مقدمته ٣٢٥ واثمن النسخة
١٥ قرشا .

اما كتاب (في الادب الجاهلي) الذي وضع هذا الكتاب لنقده
بالاسلوب الذي يسمى بالتحليلي فهو كتاب للدكتور طه حسين الذي
كان استاذ ادب اللغة في كلية الآداب من الجامعة المصرية ، واخرج منها
في هذه الاثناء ثم عزل من وزارة المعارف . وكان سماه « في الشعر
الجاهلي » لخص فيه دروسا في آداب اللغة العربية ألقاها على
تلاميذه في الجامعة كان أهم مقصد له فيها نعت سموم الالحاد
في ارواحهم بالتشكيك في عقائد الاسلام . بل صرح فيه بتكذيب القرآن
العظيم ، فضج المسلمون في غير الجامعة ضجيجا شديدا بالانكار عليه ،
وكتبوا مقالات كثيرة وألفوا كتباً ورسائل في نقض مطاعنه وغيرها من
جهالته ، فكان يطير بذلك سرورا لانه سبب لطيران شهرته وعلو مكانته
عند منافقي المسلمين اعداء الاسلام من الافرنج وغيرهم ولا سيما الملاحدة
ودعاة النصرانية منهم ، وهما الفريقان اللذان قد أيد دعائيهما وكان مكتبه
في الصد عن الاسلام أضر من كل ما كتبوه . ولكن آل ذلك الى مطالبة
النيابة العامة مقاضاته الى محكمة العقوبات واصدار رئيسها عقب التحقيق
قرارا في شأن كتابه شديد الوطأة عليه ، وابلغ من كل ما كتب من الطعن

فيه ، الا أنه لم يثبت عنده أنه سيء النية في طعنه ، بحيث يحكم القاتلون بعقابه ، ولكن جاء في صيغة القرار ما يدل على سوء النية . وقد أمرت الحكومة بمصادرة الكتاب وجمع ما بقي من نسخته ومنع نشرها فنفل ذلك .

ذلك بأن مجلس النواب المصري كان قد ثار عليه يومئذ ثورة شؤمى وارتأى وجوب عقابه ومنعه من التدريس وكان رئيسه الزعيم الاكبر سعد باشا زغلول يرى ذلك ولكن تصدى لمظاهرة الدكتور والدفاع عنه زعماء الحزب الدستوري الذي ينتمي اليه ، فلما اشتد سعد باشا عليه بلغ من انتصار عدلي باشا له أن بلغ سعد باشا أنه يستقيل من الوزارة اذا عوقب طه حسين - وكان عدلي رئيس الوزارة الائتلافية بعد الصلح بينه وبين سعد باشا - فاضطر سعد باشا الى الاغماض والافضاء - فكان هذا اقرب ضعف رأيناه من سعد باشا ، واغرب قوة وشدة عزيمة عرفناها من عدلي باشا . . . والملاذ ؟ لاجل ابقاء طه حسين في الجامعة المصرية ينفث سموم الإلحاد والزندقة فيها .

بيد أن الدكتور طه حسين اضطر في اثناء هذه المحنة أن يصرح بقول ينجو به من عقاب الحكم عليه بتعمد الطعن على القرآن ومعاداة الاسلام فصرح في كتاب كتبه الى رئيس الجامعة يقول فيه انه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولكن مثل هذا الاقرار لا يكفي في اثبت رجوعه عما كان قاله وفعله منافيا للاسلام فان اهل الكتاب يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله اجمالا وهو لم يأخذ طعنه في القرآن الا عنهم ، وانما كان يجب أن يقر بأنه يؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين وأن كل ما فيه حق لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن ما قاله منافيا او معارضا لذلك فهو خطأ .

ثم انه اضطر بعد هذا الى أن يحذف اصرح ما قيل انه تكذيب القرآن ومناف للاسلام والايمان من كتاب (في الشعر الجاهلي) ويزيد فيه بعض المباحث ويعيد طبعه مسميا اياه (في الادب الجاهلي) وهذا الكتاب الثاني

هو الذي ألف الاستاذ الغمراوي كتابه في نقده ، واثبت ما فيه من الجهل ومنافاة الاسلام والتشكيك فيه ، ولكن طه حسين لا يبالي نقدا ولا تقضا . ولا يرد على ناقد ولا ناقض ، لانه ان فعل هذا يظهر جهله للمغرورين بعلمه من تلاميذه وغيرهم ، وربما كان أكثرهم لا يقرعون كلام الذين يردون عليه ، وما هو بالذي يتحرى الحق وما ينفع الناس فيرجع عما يظهر له خطوه فيه .

اما مقدمة الامير شكيب للكتاب فلو لم يكتب في النقض الاجمالي لكتلبي الدكتور طه حسين او كتابه ذي الثوبين او الاسمين — لما احتيج الى غيرها . واما كتاب الاستاذ الغمراوي نفسه فهو لم يغادر صغرة ولا كبيرة فيه الا احصاها ، وحكم عليها حكما تحليليا عادلا ، ولعمر الحق ان طه حسين وكتبه الخلافة الافسادية لا يستحقان كل هذه العناية واتما عني العلماء والادباء بالرد عليه لما راوا من عناية بعض الوزراء والكبراء به وبما يكتبه وبدفاعهم عنه ، ولهذا زاد الامير شكيب على الاستاذ الغمراوي القاء ذنبه على وزارة المعارف ووضع ذنبها على برلمان البلاد وذنب البرلمان على الامة المصرية .

ان دعاية الالحاد التي ينفث سموها طه حسين في ارواح طلبة الجامعة وقد دون اصولها في كتابه هذا مبنية على قاعدة التجديد تجديد الادب — وان سادته فيها كتب دعاة النصرانية وكتب بعض المستشرقين ولاسيما اعداء الاسلام منهم كالدكتور مرجيلوث الانكليزي المشهور — وان اسلوبه فيها — هو ذم كل قديم في الاسلام وكتبه وآدابه واثمتها والتشكيك في كل حق وحسن منها بعبارات التهكم والاستهزاء ، واما حجته فيها فهي انها مقتضى النقد التحليلي الذي يزعمون أنه من وضع الافرنج وما هو من وضع الافرنج بل كان معروفا عند سلفنا علماء العرب وادبائهم ، فمنه ما تراه في مقدمة حكيمنا ابن خلدون من نقده لكتب التاريخ ومنه ما كتبه كثير من العلماء والادباء في نقضهم للشعر ولبعض كتب العلم كنقض شيخ الاسلام ابن تيمية لكتاب اساس التقديس للامام الرازي ونقض علم المنطق .

واذا قرأت كتاب النقد التحليلي للاستاذ الغمراوي فانه يثبت لك ان

الدكتور طه حسين لا يملك من هذا النقد الا خلاصة اللفظ ، فيما سداه
الدموى ولحمته الجهل ، وحسبك اعتماده فيه على الشك ، وانما الشك
دون الظن ، والظن دون العلم ، وقد بينا هذا في المنار من قبل .

وفي كتاب الغمراوي من الحجج القيمة على جهلة ملا يمكن رده . وفيه
من الفوائد العلمية والقول الحق في المسائل المبحوث فيها وفيما حوالها
ملا يستفني عنه طلاب الادب فنحث القراء على مطالعته والاستفادة منه .

المصدر : مجلة المنار ج ٤ مجلد ٢٢ ابريل ١٩٢٢ .

حماة القرون الوسطى

سامي الكيال ١٨٩٨ - ١٩٧٢

... لقد قضي الامر ، واسدل الستار على الفصل الاخير من رواية « حماة القرون الوسطى » التي انتهت بفصل الدكتور طه ليس من الجامعة فحسب بل من مركزه في الوزارة ايضا !... وليهنا حماة الدين الان فكانما كان الدين الحنيف على شفا جرف هار منذ كان الدكتور في بيئته العلمية ، وان فصله عن هذه البيئة قد سند الدين من الانحدار في الهلوية زاعدا له جلاله وللإسلام قدسيته !

هذا هو هيكل الرواية التي قام بتمثيلها جماعة يسيطرون على مقادير أمة يربو مدد نفوسها على الخمسة عشر مليوناً . ومصر اليوم تتبوء زعامة الشرق في ميدان التجديد الادبي وتناضل عن كرامة العقل وصون حرية الفكر من كل عبث ، ومع ذلك ، ولاسباب واهية لا يسندها منطق يضيق صدر وزير المعارف في حكومة صدقي باشا - الرجل الدبلوماسي المرن كما يقولون - من عميد كلية الآداب الدكتور طه لثباته على الحق وعناده في صون استقلال الجامعة من العبث ومن أن يكون هذا المعهد العلمي الخطير المعوبة بيد الاهواء السياسية تحركه كما تشاء !.. نعم ! لهذه الاسباب الواهية التي تذرع بها الوزير يزعرعون أقوى لبنة في بناء « الجامعة المصرية » ويقصون عنها أكبر زعيم حر عرفته الآداب العربية في طور بعثها الجديد . ويحاولون أن يبرروا خطيئاتهم وأن يستروا أغلالهم وأن يكسبوا عطف الراي العام الذي لفظهم بمجاجة وقرف فماذا يعملون ؟ لا شيء !... لهم سوى اثارة الشعور الديني وإعادة تمثيل هذه الأسطورة السمجة - وعهدنا بالاساطير أن تكون رائعة الصور - تحت قبة البرلمان الصدقي .

ويهيج هائج كالثور ويندب حظ الدين ويشفق على الاسلام من الارتطام
بضخرات الملحين - وكانما الاسلام غشاء رقيق تكفى اقل همسة ان تمزق
هذا الفشاء ! - وبعد مناورات مفضوحة ينقلب البرلمان الى حلقة من
حلقات الذكر ينفخ في اوارها ابليس قد لبس كسوة مشايخ العلماء وما هي
فترة حتى ينتهي اولياء الله الصالحون - وما اكثرهم في هذا الزمن - من
غزوتهم الكبرى وقد كللت رؤوسهم باكاليل الفار لتثبيتهم الاسلام بعد ان
كلت اسسه على هلوية من الفناء - كما يزعمون !!



لقد دلنا التاريخ على ان كثيرا من الهيئات الحاكمة حينما تفلس في
سياستها العرجاء تلجأ الى الوهي الاسس وتقع في امر الاغلاط ولسنا
نريد في كلمتنا هذه ان نعرض الى سياسة صدقي باشا في الحكم فليس
هذا من شأننا نحن ولكن هذا الحادث يدلنا بكل صراحة على ان هذا
الرجل لم يكن ذلك الداهية الفد الذي كنا نعتبره ، الى حين غير بعيد ، من
كبار الموهوبين بين رجالات الشرق العربي . لان هذه الاغلاط في فصل
اكبر موهوب عرفته الاداب العربية في تاريخها الحديث يرجع عاها الى
صدقي باشا مباشرة قبل ان يرجع الى غيره ممن بيدهم مثل هذه الامور .

ان الدكتور طه حسين ، هو المص شخصية في تاريخ ادبنا الحديث .
هذا حق لا يستطيع ان يمارى فيه احد . فهو الذي خلق الحركة الادبية
الجديدة ، وهو الذي نفخ روح التجديد في قلوب الشباب ، وهو الذي
رسم اوضح السبل في طريق رواد الادب . بل نستطيع ان نقول - ونحن
نتحمل تبعه هذا القول مفاخرين - انه اول اديب عربي اسس مدرسة ادبية
جديدة للبحث والاستقراء مما نشره من آراء طريفة وبحوث ناضجة وكتب
خالدة . وان كثيرا من الشباب وقراء الادب في الشرق العربي مدينون
بثقافتهم الادبية لآرائه المختمة وبحوثه القيمة التي فتح بها فتحا جديدة
في تاريخ الادب العربي . وهذا الذي دعا الادباء في كل قطر عربي ان يهتموا
بحادث الدكتور طه الذي لا يمسه شخصيا كما نعتقد بل يمس الجامعة

في صميمها ذلك لان الدكتور طه هو الاديب الوحيد الذي اضطلع بهذا العبء الخطير واخذ على عاتقه تجديد دراسة الادب العربي بنفس الطرق التي جددت بها اداب الامم الحية .

واذا كان الدكتور طه لم يبلغ رسالته العليا كما يريد بسبب هذه الصدمات التي تواجهه بين حين وآخر فيكفيه فخرا انه فتح الطريق بجرأة قوية وضم حول فكرته أقوى شخصيات الادب الذين يتهجون نهجة في البحث والاستقراء ، وكتاب « فجر الاسلام » وغيره وغيره مما تلده المطابع المصرية لبعض اساتذة الجامعة وكثير من شباب التجديد في مصر والشرق العربي — ان هذه البحوث تطمئننا تماما على ان مدرسة الدكتور طه قد بدأت ثمر اطيب الثمرات الناضجة ، وان جموع الرجعيين الذين اصبح يمثلهم حلمي عيسى باشا ومحاولاتهم باقصاء الدكتور طه عن حرم الجامعة التي ننظر اليها كموئل علمي لبعث حضارة العرب — ان هذه المحاولات الخاسرة التي وفقوا اليها الآن لن يتاح لها ان تجثم طويلا في اقدس موئل علمي ، وانها لا بد زائلة مع الايام القريبة ، وان يافوخ الوزارة الصديقة سيتحطم حيث يقوم على انقاضها منجد العلم ممثلا في شخصية الدكتور طه المحبوبة .

* * *

عندما اعلن « غاليله » في العام ١٦١٠ م ان منظاره استطاع ان يكشف للعين عن أقمار السيار « جوبتر » — اي المشتري — اتهمه اعداؤه من من طغمة رجال الكنيسة في العصور الوسطى ، وهم في التفكير كبعض المعممين في هذا العصر الذين تلو ادمغتهم المحجوبة عن النور عمائم كالبرج ثقيلة الوطاء — لقد اتهموه بالتجديف والكفر بالله . وعاضدهم كثير من المبشرين الذين استندوا في حملتهم الى نصوص الكتاب المقدس كما هاجمه اللاهوتيون ورؤساء محكمة التفتيش ومجمع الكرادلة ، ولم يقف الامر عند مهاجمته وتاليب العوام عليه بل اضطهدته الكنيسة وعذبتة وسجنته طيلة ايام حياته بعد ان اعلنت « محكمة التفتيش » قراها بنقض نظريته — وتضييق حقول هذه المجلة عن سرد ملخص قصته — ومع ذلك فقد ظن

اعدادهم بهم المثلث النكراء قد استطاعوا ان يخفوا صوت « غاليليه »
وان يقضوا على تعليمه قضاء لا يجعل لها اي ارتباط بعالم المعرفة الإنسانية.

وفي العام ١٩٢٦ وفي وضع القرن العشرين يحول الدكتور طه تجديد
الادب العربي ويعمل على تجديده بنفس الطرق التي جدت بها آداب الامم
الحية ، وعلن صراحة انه من الواجب « حين نستقبل البحث من الادب
العربي وتاريخه ان ننسى مواطننا القومية وكل شخصياتها ، وان ننسى
عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان ننسى ما يضاد هذه العواطف
القومية والدينية ، اي ان الواجب يقضي علينا الا نتقيد بشيء ولا نلصق
شيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك اننا اذا لم ننس هذه العواطف
وما يتصل بها فنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف وسنغل عقولنا بما
يلائمه » وبعد ان يعرض الى طريقة القدماء في البحث يقول : « ولنجتهد
في الاثار كما تأثروا وفي الافساد العلم كما افسدوه . ولنجتهد ان ندرس
الادب العربي غير حافلين بتمجيد العرب او الغض منهم ، ولا معنيين
بالملامة بينه وبين نتائج البحث العلمي والادبي ، ولا وجلين حين ينتهي
بنا هذا البحث الى ما تأباه القومية او تنفر منه الاهواء السياسية او تكرهه
العاطفة الدينية » ثم تحدث الدكتور طه بصراحته المهددة : « اذا نحن
حررنا انفسنا الى هذا الحد فليس من شك في اننا سنصل ببحثنا العلمي
الى نتائج لم يصل الي مثلها القدماء . . » ولا يكاد يخضع الدكتور طه
بحوثه الادبية الى مثل هذه النظريات ويفسح المجال للعقل ان يبحث ويفكر
لوصول الى نتائج خطيرة في الادب العربي حتى يتنوله خصومه الموتورون
بشتائم مقلدة ليست في شيء من ادب العلماء ولا تمت باية صلة الى آداب
المناظرة النزيهة . وهذه النظرية التي بسطها الدكتور طه تعد جديدة في
الادب العربي ، والنفس الاسنة عدوة كل جديد . اذن فلا بد . في نظرهم ،
ان تحمل هذه النظرية عداء للدين . . . ويحاول غير واحد من ادمية الادب
ومن دجاجة الدين ان يكيدوا للدكتور طه فيوقعون بعض التوفيق وتثور
العامة وانصاف المتعلمين ضده ثم لا يلبث ان يتمزق غشاء هذه الاسطورة
وان تهدا العاصفة مما لا يجهل اي قاري عربي .

وتصطدم وزارة صدقي باشا . في هذه الايام الاخيرة مع الدكتور طه الذي لم يقرأها على تصرفاتها في كثير من الامور ، ويحتفظ الاحتفاظ الكامل بمقيدته السياسية وبكرامة العلماء فتحنق حقنا شديدا وبغلي صدرها بالحق ونحاول ان نكيد له فتعصب عينيهما وتبحث عن مخرج لها من هذا المازق فلا تجد غير اثرة قضية كفر طه حسين فتثيرها ولكن كمن يشير عاصفة في فنان ! وينتهي الامر بفصله ويوعز الى فضيلة شيخ الجامع الازهر ان يقوم بتمثيل دور قسيس من قسوس محاكم التفتيش فيفضي بحديث كله سخف وهراء ثم يطلب الى رئيس الدولة بعد ان يشكره على صنيعة ان يجمع كتب طه حسين وان يببدها حرقا كأنما نحن لسنا في صميم القرن العشرين بل في عمايت القرون الوسطى !

ان حماية الاسلام - كما رد الدكتور طه في حديثه على شيخ الازهر - لا تكون بفصل طه حسين من الحكومة لانهم لن يمنعه في فعله من أن يتكلم وان يكتب وان يكون له تلاميذ وان يلتقي بتلامذه القدامى انما تكون حماية الاسلام بتحويل نظم الحكم كلها : تكون بتحريم الربا واغلاق المصارف ومنع الحكومة ان تستفيد من اموالها في البنك الاهلي وغيره من البنوك ومنع ان تبيع الخمر وتجبى عليها الضرائب واغلاق دور الفسق والفسوق الى آخر ما يتضاد وروح الدين الحنيف والشريعة السمحاء .

في الحق ، ان وزارة صدقي باشا لا تبحث عن عقيدة الدكتور طه وايمانه الديني بل انها تبحث عن نفسيته وايمانه السياسي . وقد عجمت עוד هذه النفسية غير مرة فرائها صلبة في الحق لا تميل مع الاهواء . وآلمها ان يكون الدكتور طه غير مطواع وان يكون صاحب كرامة وأنفة وضمير حي فاقترفت جنايتها كان ممثلو رواية « حماة القرون الوسطى » غير لبقين ولا موافقين في تمثيل ادوارهم الباردة فوا اسفاه .

سامي الكيالي

الحديث س ٦ ع ٥ ايار ١٩٢٢ .

المرحلة الثالثة

الطربوش أم القبعة ؟

رايان لكاتبين قديرين

مصطفى صادق الرافعي

دكتور محمد عزمي ١٨٨٩ - ١٩٥٤

ان الجدل بين انصار الطربوش وانصار القبعة هو في الحقيقة جدال بين عقليتين تتنازعا انظار الشرق العربي الان ولكل فريق ادلة وحجج جديرة بالنظر والتأمل . وقد راينا ان نطلب الى كاتبين من اقدر كتابنا ان يبين كل منهما رايه في هذا الشأن فالسيد مصطفى صادق الرافعي يدافع عن الطربوش والدكتور محمود عزمي يناضل من القبعة .

لماذا استمسك بالطربوش ؟

بقلم مصطفى صادق الرافعي

لا تسأل ما الطربوش ولكن من لابسها ولا ما القبعة ولكن من حاسلها ، فان القبعة والطربوش كلاهما كسائر العروض التجارية لا قيمة لكائن ما كان منها الا ان يمضي منفعة ويرجع مالا ويخرج في صورة عمل لينقلب في صورة اجر كان هذه الارض بما عليها قضية مالية عند منقطع كل استدلال من ادلتها برهان عن الفضة أو الذهب .



(*) سال الحاج مصطفى الترنسالي ، في انه يوجد افراد في بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعوائد الفوائد عليهم ، هل يجوز ذلك ؟

الجواب : اما لبس البرنيطة ، اذا لم يقصد به فاعله الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره ، فلا يمد مكفرا ، واذا كان اللبس لحاجة ، من حجب شمس او دفع مكروه او تيسير مصلحة لم يكره ذلك ، لزوال معنى التشبه .

« فتوى للشيخ محمد عبده عام ١٩٠٢ » م.خ.

ونحن نبتاع ما شئنا منذ أصبح العالم كله سوقا واحدة لا تنفك عروضها من سفر والقلب ، فان صاحب الحاجة أدري بسداد حاجته وأبصر كيف يتولاها ، فخذائي أنا مثلا تجد فيه متانة العربية الألمانية وثيلبي تكاد تستعمر جنسي لأنها من أنجلترا . . . ولكنني عند الطربوش والقبعة أجد حنا تقف اليه ذاتيتي الفردية فلا أدري ثمة موضع انفراد ولكن موضع مشكلة ، ولا أعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة مني .



ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع الى الجنس والواحد الى الجملة وأجدني من الامة في مثل المنزلة التي يقرأ فيها العدد المجموع فلا يطلق عليه ما كان يسمى به وهو أرقام مفردة ويكون العدد مثلا من خمسة وأربعة وستة فيقرأ مجموعها ستمائة وخمسة وأربعين ، وأنه لو ذلك لولا منزلة الضم والاتصال وتكوين الجملة التي هي أصل في حساب الاجناس .



فالقبعة على رأس المصري منفردا بها دون قومه بائنا من جملتهم ، إنما هي مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعي والارتكاس في منطق الجملة المصرية ونفي لهذا الرقم من عبارة مجموعة . بل هي في الرجال مشتقة من المصدر ، نفس المصدر الذي يخرج منه التهتك في النساء وكلاهما منوع من المخالفة وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها الأفضلية شرقية علما وإن كان فيما وراء ذلك ضرب من القول في توجيه القبعة ومذهب من الرأي في الاحتجاج لها .

غير أن المذاهب الفلسفية لا يعجزها أن تقيم لك البرهان جدلا محضا على أن حياة المرأة الفاضلة أن هوأا رذيلة في الفن . . . وأن هوأا مرض وضعف وكيت وكيت ، ثم تنتهي به الفلسفة الى أن تجعله من البلاهة والغفلة . وما الغفلة والبلاهة الا أن تريد فلسفة من فلسفات الدنيا أن تقحم في كتاب الصلاة مثلا فصلا في . . . في . . . في الدهارة .



لا يهولنك ما أقدر لك من أن القبعة على رأس المصري في مصر تهتك
أخلاقي أو تهتك سياسي أو تهتك ديني أو من هذه كلها معا ، فانك
لتعلم أن الدين لبسوها لم يلبسوها الا منذ قريب ، بعد أن تهتك
الأخلاق الشرقية الكريمة وتحطت أكثر عقدها وقاربت الحرية المصرية
بين النقائص حتى كادت تختلط الحدود اللغوية ، فحرية المنفعة مثلا
تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد فلا يقال الا أنه وجد منفعته فصدق
ووجد منفعته فكذب ، وما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدا
محدودا الا جهل القدماء وفضيلة القدماء ودين القدماء وهذه الثلاثة :
الجهل والفضيلة والدين هي أيضا في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد...
متراذفات لمعنى واحد ومتى أزيلت الحدود بين المعاني كان طبيعيا أن
يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى وأصبح الباطل باطلا
بسبب ، وحقا بسبب آخر . ولم يعد يحكم الناس الا مجموعة من
الأخلاق المتنافرة تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من
لا تكون من أهوائه ونزعاته ، واحتاج الناس بالضرورة الى قوة تفصل
بينهم فصلا مسلحا... فيكسبون القانون بمدنيته قوة همجية تضطره
أن يعد للوحشية الانسانية ويدفع هذه الوحشية أن ترصد له وتترشح
بجرائمها لا اعتراضه . وما القبعة على رأس الشرقي الا حد طمس حدا
وفكرة هزمت فكرة ووذيلة قالت لفضيلة . انا جئت فاذهبي .

ما هو الاكبر من شيئين لا حد بينهما للصفر وما أصغر شيئين لا حد
بينهما للكبر ؟



انها الفوضى كما ترى ما دام الحد لا موضع له في التمييز ولا مقر
له في العرف ولا فصل به في العادة ومن هنا كان الدين عند قوم اكبر
كلمات الانسانية في كل لغاتها وأملأها بالمعنى وكان عند آخرين أصغرها
وأفرغها من المعنى وما كبر عند أولئك الا من أنه يسع الاجتماع الانساني
وهو محدود بغاياته العليا ، ولا صفر عند هؤلاء الا بأن الاجتماع لا يسعه
فلا حد له كأنه معنى متوهم لا وجود له الا في حروف كلمته .



فجماعة القبعة لا يرون لانفسهم حدا يحدونها به من اخلاقنا او ديننا او شريقتنا وقد مراقوا من كل ذلك ولا اعرف احدا منهم الا علمته موضع قطع او تمزيق في هذا النسيج الشرقي الثمين . وانت ترى منهم من اوفى على الخمسين من عمره ومنهم من جاوزها ومنهم دون ذلك على حين تلويح القبعة فيهم لا يرجع الى ابعد من مدة القملط للطفل الرضيع في حول او حولين .

افليس لنا ان نسالهم اين كانوا من قبل وكيف ضل بهم الطربوش بعد هذه السن ؟



ولكن الطربوش لم يضيق وانما ضاقت العقول او ضاقت الاخلاق وهذه الامة منكوبة بالتقليد والمقلدين فهلا زيا مخترعها او اصلاحها في زي معروف ، فاذا كانوا عاجزين عنهما فهلا عقلوا سخافة هذا التقليد وشؤم هذه المتابعة ؟

يقولون ان الطربوش يوناني ونقول انه يوناني معرب فهو في الفاظ الحياة كالفاظ مثله في اللغة وقد أصبح رمزا من رموزنا ففيه من ذلك قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما ابودعه التاريخ من قوميتنا وسماني اسلافنا او فيه سر القوة الخفية التي تجمعننا حول المعاني الاهتبارية برمز تتمثل فيه تمثل الوطن في الراية . وهو عندنا كالاصطلاح في الحفلة الرسمية على ثوب رسمي لا بد منه لكل من يحضرها ليتسق به نظمها شئت ام ابئت . وقد تقول ان في الشرق ضروبا اخرى غير الطربوش كالعمائم والقلائس فنقول لك ان الاصطلاح واقع عليها كذلك وهذا الاصطلاح عينه هو الذي ينفي القبعة ويلحق لابسها بالفئة الاجنبية .

انا اعرف ان منا قوما يرى احدهم في ظن نفسه انه قانون من قوانين التطور فهو فيما يلابسه لا ينظر الى انه واحد من الناس بل واحد من

النواميس ... وكانها حادثة لها مآلتها الفعالة فريد أن يكون على ما تقتضيه تلك المادة الوهمية القائمة بنفسه ... ومن هنا الثقل والدعوى الفارغة وما هو أكبر من الثقل وإفراغ الدعوى فإنه لحق أن يكون بعض الناس أنبياء ولكن أقبح ما في الباطل أن يظن كل إنسان نفسه نبيا .

أنا استمسك بالطربوش لأنني أريد الدقة في التعبير الذي تعبر به نفسي حين تعلن عن نسبتني وقوميتي فالطربوش وما في حكمه مما وقع الاصطلاح عليه إنما هو تدقيق في التعبير بالفكر وإخراج لهذا الفكر في إصدق ما يدل عليه وأصرح ما يؤديه . ثم اني مستيقن ان الأفكار الشرقية أو الإسلامية تحت القبة هي غيرها تحت الطربوش لان تغيير الرمز يتغير به ما كان يلهمه وهذا لا يكبر فيه أحد فقد عاد الأمر الى صبغة نفسية كما ترى .

وانت تعلم ان النفوس تضع من أحلامها في كل ما تلايسه حتى تصنع كل جامد من المادة بأثر من آثارها كأن الإنسان لا يكون إنسانا الا بتحويله كل ما حوله في ألوان إنسانية . والمذنية هي التي تزيد في هذه الأحلام وتنوع منها أنواعها وألوان ذلك ما كان للرؤوس غطاء الا ما غطاها الله به من هذا الشعر الكثيف المسترسل يضرب الى المنكبين ويورد على الصدفين والعنق ويتم تملامه باللحية كثة مرسل . وذلك أفضل الاغطية وأوفاهما بالحاجة وأودها على الجسم بالصحة والعافية لولا النفس وأحلامها .

فنحن من الطربوش أو القبة بأزاء مظهر فيه أحلام النفس كما فيه المنفعة لا بد من الاعتبارين جميعا . وما نظن أحلام النفس الشرقية كأحلام النفس الغربية الا اذا أزيح الحد الذي يفصل بينهما .

وها هنا أمر لا بد من التنبيه اليه وذلك أن الأوروبيين لا يتخلون من القبعات الا اغطية للطريق فهم ينزعونها في مجالسهم وبيوتهم وأماكن عملهم ومن ثم كان بناؤها عندهم على أحكام الطرق وأرواح الشارع وهندسة الثلج والضباب والرطوبة ، ولادهم تعمي الشمس فيها أكثر السنة

ولا تبصر اذا ابصرت الا في اشعة قليلة . فمن سخافة التقليد بل من الغفلة ان ننزع نحن الى ما اتخلوه وننشأ على الوقاية من شمس أرضنا بهذه الوقاية المحكمة في حين انه ان لم نجعل بيننا وبين الشمس ونورها وحراها ملازمة فنبرز لها ونعتادها من الصغر ونلقاها بوجوهنا - هيأتنا ذلك لضرباتها عند أيسر الأسباب وبهنت فينا قوة الاحتمال ولم نعد نصلح لهذا الجو بعد ، ولعله لا تمر بضعة أجيال حتى تظهر جنائتنا على أعقابنا في لعنة تعد ضربة من ضربات الطبيعة .

وأعلم أن ما يزينونه للشرقي من فضائل القبة أن هو الا منطق شهوات في جملة وقد تسمع الجائع المصائم يتكلم عن الطعام فتري كلاما في معانيه معان أخرى لا يعلها غير الجائع الا حماقة ساعته .

ولم أعرض في هذه الكلمة للجانب الديني ففيه كلام آخر يجمل اللعنة لعنتين ١٠١٠ وفي واحدة لما يذهب بالقبة .

لماذا ليست القبة ؟

بقلم الدكتور محمود عزمي

■ تفضل « الهلال » فسألني ان أفضي لقرائه بسبب لبسي القبة . فعدت ، من جانبي الى نفسي أسألها تاريخ هذا السبب وتطورات ، فان له عندي تاريخا وتطورات .



وقد رجع بي التفكير في هذا الصدد الى أيام الصبا ، أيام كنت بالمدرسة الثانوية ، وأيام ظهرت كتب « قاسم أمين » عن المرأة والحجاب . فقد أثر في ذبوع بعض ما تضمنته الكتب من آراء ، ثم قراءتي هذه الكتب بالذات ، اثرا عجيبا جعلني أمقت الحجاب مقفا شديدا يرجع الى اعتبار خاص هو اعتباره من أصل غير مصري وهو اعتبار دخوله الى العادات المصرية عن طريق تحكم بعض الفاتحين الأجانب وتعلق بعض الوطنيين بالتقليد المزدول .



وكننت في تلك الايام منتظم الذهاب الى القرية امضي فيها فترة
المعطة المدرسية كلها فكنت ارى مظاهر السفور الطبيعي عند القرويات
اثناء عملهن واثناء راحتهن ، وكننت اقارن بينه وبين ما هو متجل منه
داخل دار الانار ، فكان حنقي على اولئك الاجانب من الفاتحين
« الاسلاميين » يزيد ، وكان تنطع بعض المفسرين لايات القرآن يضيف
الى ذلك الحق ما يثبت اركانهم ويدعم قواعده .



وكانت تقوم حملة على « التبرج » ، وكانت تقوم دعوة الى النهوض
بالمشروعات الاقتصادية ولا سيما ما اتصل منها بصناعة اللبوسات ،
فكان هذا كله يجر الى التفكير في الزي وما يجب أن يكون منه « حشمة
وواقرا » وما يجب أن يكون منه « مصريا في مادته وصناعته » .



وانتج ذلك كله التفكير في الزي وموافقته للمظاهر القومية والاحوال
الجوية ، وتعدى التفكير دائرة زي السيدات الى دائرة زي الرجال ،
ووضع ميل البعض بهذا الشأن الاخير الى تقرير أن « الطربوش » ليس
لباسا قوميا وليس لباسا صحيا ، وذهبوا الى حيد الاعراب عن ضرورة
العودة الى ما كان يحمله « المصريون القدماء » على رؤوسهم من « عملة »
يتدلى منها على العنق ما يتدلى ليمنع عنه الشمس وما لها عليه
من سوء .

وكننت انا من هؤلاء المصريين ، انتقم على الفرس ومن كانوا واسطة
نقل « حجابهم » الينا وعلى البيزنطيين ومن كانوا واسطة نقل
« طربوشهم » الينا ، وكننت في ذلك احس اني مدفوع بمامل من
« الوطنية » قوي .



ثم حدث ان ذهبت الى اوربا ادرس بباريس فتجلت لي آيات
« السفور » بما جعلني انظر اليه على انه وسيلة اصلاح اجتماعي كبرى،
وتجلت لي آيات البشرية بما جعلني افقه « الوطنية » على انها احساس
غور يجب ان يتمده المرء في عمقه لا في اتساع سطحه . وهكذا اخذت
انظر الى حضارة القوم وإلى حضارة العالم نظرة اخاء وتضامن لا نظرة
عداء وتنافس ، ودعم من هذا النظر ان نظرية « التضامن » هي التي
كانت تجري بها البحوث الفقهية والاجتماعية في ذلك الاوان نستمع
اليها كل يوم في الدروس وفي المحاضرات ونقرؤها في البحوث والمجلات .



واذن فقد دعتنا « البيئة المكتنفة » الى تقرير العلاقات بيننا وبين
الحضارة الغالبة ، وكان طبيعيا ان يكون الذي - وقد خرجنا من مصر
في وقت ماجت فيه الآراء باعتبارات - هو أول ما نفكر فيه من تلك
العلائق . فوجدنا اننا نأخذ عن حضارة اليوم الشائعة كل مظاهريها
الا ذلك الذي دخل الينا عن طريق الفتح العثماني وصار رمزا للقوة
القاهرة والسلطان المستبد .

لكن هذه المشاعر قد وقفت عند حد الاحساس بها والتفكير فيها
والتمدح بفضائل تنفيذها والهيام بهذا التنفيذ ، ولا سيما كلما جاء
الصيف واحس المقيم هنا منا هناك بخفة قيمة الفصل على رأسه او احس
المقيم منا هنا بشدة « كبس » الطربوش على يافوخه .

على اننا لم نقو على تحقيق هذا الذي كانت النفوس تصبو اليه اللهم
الا واحدا لبس القبعة في مصر اياما ثم عاد الى الطربوش تحت تأثير
ما كل الناس يقابلونه به من التهكم حينما ومن الرمي بالزندقة والمروق
والالحاد والكفر احيانا .



ثم جاءت الحرب الكبرى واصيبت مصر منها باعلان الحماية البريطانية

عليها فوجدنا طائفة من اخواننا الشرقيين يستبدلون القبة بالطربوش هربوا من « العثمانية » وتقربوا من الدولة الحامية او فراروا من عنوان الجنود الاستراليين . فكان من هذا ان ازداد تمسك المصريين بالطربوش يطنون به دائما استعدادهم الي تحمل اكبر انواع الاذى في سبيل عدم رضاهم عن الحماية التي فرضت عليهم فرضا .

وتكشفت النهضة التي كانت كلمنة ، وتفجرت العواطف التي كانت مضغوطة ، فزاد تكشفها وتفجرها ذلك الاستمسالك بما يحسبه الناس مظهرا للشرقية ورمزا للمصرية ورسخت اقدام الطربوش من جديد فوق الرؤوس جميعا .



وفازت النهضة باوالي ثمار جهادها ، وافازت مصر بنعمة الدستور والحياة النيابية ، وسمعت آذان المصريين جميعا مبادئ الحرية يرون صداها في صلب الدستور يقرها في نصابها ابدا ويكفلها تامة ويطلقها من اغلالها اطلاقا ، كما واصلت مصر في علاقاتها مع الانجليز الى نوع من التفاهم يرجو الطرفان ان يستكملاه بعد حين .



فعادت الى العقول طرائق تفكيرها المعتدل اعتدالا يزيد قوة ما اعلنت كفالته في الدستور من مبادئ حرية والاطلاق . واخذ المفكرون يعودون الى ذاكرة الحضارة الغالبة في هذا العصر - ولكل عصر حضارة غالبة تخضع لها الحضارات الاخرى خضوعا حتميا - وضرورة الاخذ عنها مبادرة الى الرقي واسراعها في الخطى نحو التقدم ، وكانت فكرة الزى هي الشاغلة حيزا كبيرا من تفكير القوم ، وادوار الانتقال تعني دائما بالمظاهر العرضية توطئة بالبوطن الجوهرية ، فعادت حركة الكلام في القبة والطربوش لكن عادت في جو اصح من ذلك الجو الاول الذي عدل صاحبنا فيه عن لبس القبة تحت ضغط التهمة بالاحاد والخروج على التقاليد .

ذلك ان السيدات المصريات خطون في طريق التحرر من «الحجاب» خطوات واسعة فسفر منهن كثيرات محتربات كل الاحترام ، وذلك ان النهضة التركية التي فوضت دعائم « الخلافة » وما كان يحيط بها من مظاهر العسف والاذلال والجمود والاستبداد القت بالطربوش الى حضيض الغياهب وزينت الرؤوس بالقبعات تزيينا دون ان يقول فقيه اسلامي عاقل ان الاتراك خرجوا بهذا على الدين او اصبحوا من اجله ملاحدة كافرين ، وذلك ان الدستور المصري قد اطلق حرية الاعتقاد واكفل الجهر به وابلح الالحاد لمن يشاء .



واقامت في بلاد الشرق المتكلمة باللغة العربية نهضات وثلة الى الاستقلال والانطلاق من القيود وكثر خلالها اللجاج بين ان يعود القوم الى المدنية العربية وان ياخلدوا من المدنية العصرية ، وحاول البعض ان يوفق بين الرأيين ورأى البعض ان هذا التوفيق محال لانقطاع الصلة — بفعل محن التاريخ — بين حاضر هذه الشعوب الشرقية وماضي الامة العربية او الامم الاسلامية ، بتعبير اصح ، وانه لا محيص من الاختيار بين المدينتين .

ولست ادري على التحقيق ما هو الراي الغالب لكني ادري اني انا من الذين ينادون بملء فيهم بضرورة الاخذ من المدنية العصرية وهي الحضارة الغالبة وبان الخير كل الخير في شخوص الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية الى شواطىء البحر المتوسط الشمالية الغربية ، وبان كل نظرة الى رحال التيه والبلادية انما تكون حرصا على الاعتقال في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيرا هائل السرعة الى الامام .

وسط هذه التيارات المتقلبة اقبل صيف سنة ١٩٢٥ ، وكان علي ان امضيه في القاهرة . وعندى بعض الاصلاحات الاجتماعية لا تجدي فيها المناقشة ولا يفيد الجدل ، بل تجدي القدوة وبفيد العمل من اجل هذا اهتمت ان انقل ما انا مقتنع به من رأي في صدد المدنية

المصرية وفي صدد القبة لكن « الاخطاء الوراثية » المترجمة كان لها في عزيمتي بعض الاثر . فجمعتني اجد من « حسن الفطن » الا افاجىء اخواني واصدقائي بما ساضع على رأسي في مصر من عمارة جديدة ، وان انلهم قبل الموعد بايام حتى لا ينقضوا على بالسؤال والاستفسار والذين فقد حددت لنفسى اليوم الاول من شهر يوليه سنة ١٩٢٥ لالبس فيه القبة واخذت منذ العشرين من شهر يونيه اعلن كل من اقبله من الاخوان والاصدقاء في مغير لباس الرأس من أول الشهر التالي .

وجاء اول الشهر واقصدت في حزم وهرولة الى بائع القبعات بميدان « سوارس » ولاحظت ان سرعة الخطى قد اخذت ثقل عندما اقتربت من الحانوت ، ولاحظت ان السير قد واقف بي عند باب الحانوت ، ولاحظت اني اخذت انظر الى القبعات المعروضة خلال الزجاج ، ولاحظت اني استأنفت سري في شارع قصر النيل دون ان اشترى القبة ودون ان ادخل حانوت القبعات ، ولاحظت اني اخذت اتهم نفسي في صوت غير خافت بانني « جبان » وبأن « الاخطاء الوراثية » لا تزال تجد مني منفذا ، ومنيت نفسي بالعودة الى الحانوت بعد الظهر لكنني لم اعد اليه علما كاسلا ..



ومضى الصيف ومضى الخريف ومضى الشتاء ومضى الربيع واقبل الصيف من جديد ، صيف سنة ١٩٢٦ ، والمناقشة حول « الطربوش والقبة » يتسع نطاقها حتى واصل الى « الرابطة الشرقية » التي ارادت ان تندرع « بفتوى » يصدرها الاطباء فتقدمت الى جمعيتهم بأسئلة واسيساحات انتهت الجمعية الى الاجابة عنها باجتماعها العام الذي عقدته صباح يوم الجمعة الموافق للثاني من شهر يوليه لسنة ١٩٢٦ .

وقالت « هيئة كبار الاطباء » في فتواها ان الطربوش لباس واس غير صحي وان للباس الصحي شروطا عددها واذا بها متوفرة في القبة وغير متوفرة الا فيها .

وأعلن القرار أو أعلنت الفتوى مساء فكانت هي القاضية على « اخطائي الوراثية » من هذه الناحية إذ قصدت صلب اليوم التالي السبت الثالث من شهر يولييه لسنة ١٩٢٦ إلى بائع القبعة نفسه واشترت قبعة الصيف وخلعت على الخوذي ما كان على رأسي قبل هذا من طربوش .

ومنذ ذلك اليوم لبس القبعة متناوبا انواعها المتمشية مع كل فصل من فصول السنة .



تلك هي ظروفه لبسي القبعة وتلك هي تطورات الاعتبارات التي دفعت إلى لبسها ، انتهت آخر الامر بأن كانت اعتبارات صحة واعتبارات شخص الى الشمال الغربي للاخذ بالحضارة المصرية الغالبة بدل افتقاد العمر في نذب الماضي الذي ليس من سنة الكون ان يعود .

وقد قبل اثنان من اصدقائي لبسي القبعة بتعليقين ارى مناسبا ان تختتم بهما هذه الكلمة .

ذهبت الى « القدس » في اليوم التالي للباسي القبعة لأول مرة في مصر واستوقفت صديقا من اصدقائي هناك هو « فحل من فحول الادباء والمفكرين العرب » - ولم يكن يعرفني بها ، فلما عرفني قال على فوره : « الآن اخذ الشرقيون يفكرون برؤسهم ! » .

وغداة عودتي من فلسطين تلك المرة خرجت الى محطة القاهرة اودع صديقا « عالما فاضلا واديبا مجيدا » ظريفا « وهو مسافر الى اوروبا ، فضمن اولى « مذكرات سفره » الى جريدة السياسة اشار الى قبعتي وقال على لسان صديق يحدثه :

« ما العملة العربية فقد دخلت مصر على يد الفتح الاسلامي فاتصلت بالروح الديني من اول يوم ، واما الطربوش التركي فهبط الينا من رؤوس المتسلطين لباسا رسميا الجنود والموظفين فهو رمز التسلسل والحكم ، وهذه القبعة تنتشر في الوسط الاخذ بالمذاهب الحديثة فهي تمثل لونا خاصا ، وليس النزاع بين العملة والطربوش والقبعة ولكنه تنلزع بين صور مختلفة من التفكير والذوق يريد كل منها ان يتسود » .

المصدر : الهلال : الجزء الاول . المجلد ٣٦ عام ١٩٢٧ .

الحديث

فاتحة القول

لا نتكلم في فاتحة عملنا عن الاثر المنتج الذي تتركه المجلات في نفوس الافراد والجماعات التي كثيرا ما تتأثر بفكرة واحدة قد تكون وليدة لعصارة ما تجود به ادمغة المفكرين من رجالات الادب ورسل العلم ؛ ولئن نبحت عن عناية الامم - المتمتعة - بحظ وافر من الثقافة والرقى - بالصحف والمجلات التي تضم بين حقولها شتى المباحث ومختلف الموضوعات والدراسات التي تنير طرق الامة في جهادها العلمي وتروي ظمائها وشهوات عقلها في الادب والفن - لن نتكلم عن هذا ؛ فقد أصبحت هذه المقدمات اشبه بالمدارس السيارة يتلو القاريء بين اعمدها احدث الدروس العلمية من البديهيات التي لا تحتاج الى توضيح ، واصبحت المجلات الراقية في كل ظاهرة من ظواهر الاجتماع ، وفي كل ما ينتجه العباقرة من علم وفن وادب . واذا كان لا بد من توضيح نتقدم به عن غرضنا من انشاء « مجلة الحديث » وعن الخطة التي ارتسمناها لها والمنهج الذي سنسير عليه - اذا كان لا بد من هذا التوضيح الذي اعتاد القراء الكرام انتظاره في بدء كل عمل فنحن مضطرون الى تدوين هذه الكلمة التي يلمس القاريء من عضون سطورها خطتنا وغرضنا .

لا نكران ان الشرق اليوم في غليان شديد وقد تنبه من غفلته ودبت في شرايين ابناءه حمى النهوض لجلالة الامم الغنية في ثروتها الفكرية ؛ واصبحوا ، بل أصبحت الامم الشرقية - في كل قطر ومصر - تنو الى الحياة الجديدة بعين يقظة وقلب مملوء بالآمال . وان هذا الغليان ، بل هذا الانقلاب الفكري الذي دهم الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر ،

والذي هو ثمرة الايام ووليد صرخات المخلصين من رجالات الشرق الذين ما فتئوا ينظرون نظرة المتألم الى ما نحن عليه وما قطعتة الامم الراقية من الخطوات الواسعة في ميدان الثقافة — هذا الانقلاب الذي هز الشرق هزاً منيفاً والذي نشعر بنتائجه قد تغلغلت مبادئه في نفس كل فرد اخذ بقسط وافر من التعليم والتهذيب فلتغضض يعمل مع العاملين لخلق بيئة علمية تحارب الجمود والجهل وكل فئة تقف دون الرقي والخروج على العادات البالية . واذا كان هذا الانقلاب هو نتاج ما مر بهذا الشرق من وبيلات ، ووليد احتكاكنا بالغرب وما اخذناه عنه من عادات ونظم تجرنا بقوة الى مستقر لا نعلم مداه ، وتسير بنا الى حياة جديدة لا نعلم نتائجها وما تحمله من طياتها الجون من امل معسولة او آلام مريرة ؟ ! اذا كان الامر كذلك ، وكان كثير من اخواننا الشرقيين قد اندفعوا وراء التجديد بدون ان يتبينوا النتائج او ينظروا نظرة بعيدة الى المصير الذي سنصير اليه ليوفقوا بين ما توارثناه من عادات قد يكون في تناسيها ومحوها فناء شخصيتنا وقوميتنا وبين ما سنأخذه من عادات ونظم لا نعلم اتلائم طباعنا وما فطرنا عليه ام لا تلائمه ؟ واذا كان الاتراك قد اندفعوا اندفاعاً كلياً وراء النظم الغربية ياخذونها على علاتها بدون ان يقتبسوا ما يلائم عقلية جماعتهم ؛ وكانت مصر — منارة الشرق — تسير نحو الاصلاح والتجديد بروح قوية مليئة بالحكمة والرزانة ، غير مندفعة اندفاع الاتراك ، وكانت ايران والافغان وسائر البلاد الشرقية تنظر الى النهضة التركية والمصرية نظرة المتفائل تارة والمتشائم تارة اخرى ؛ وبالتالي اذا كان التجديد يلعب دوره بحكم الزمن — اردنا ام لم نرد — فما احوج سورية الكبرى وما احوج شبابه المستنير وقادة الفكر فيها — ما احوجهم ان يدخلوا الميدان بقلب ثلثت وبفسر قوية ليدلوا برأيهم الواضح غير المتلوي في هذا الانقلاب الفكري الذي يهز الشرق من اقصاه الى اقصاه ؟ ما احوج سورية ان تماشي النهضة العلمية وان يهب شبابه المفكر الى محاربة الامية ، ونحطيم القيود التي تغل الادمغة عن التفكير ، والى تأسيس المدارس في المدن والقرى والديساكر ، والى ارسال البعثات العلمية الى ديار الغرب واختيار الاكاديم النابهين من بنينا لاتمام دراساتهم في الجامعات الراقية . . .

ان سوربة الكبرى في حابة الى كل هذا ، والى خلق بيئات علمية تنير أمام الامة طرق الحياة والتجديد الذي يغمر الشرق بطابعه القوي . والتجديد — كما يعلم كل اديب مثقف — لا يتناول الادب فقط . كلا ! بل يتناول العلوم والفنون ، والعادات والتقاليد وكل ضروب الحياة ؛ وقد تعدى كل ذلك الى هز النظم القديمة من جذورها وخلق نظم جديدة هي وليدة ميول الامة الخاضعة لناموس التطور والرقى .

والامة السورية اليوم ، تشاهد عن كثب ما يمثل على مسرح العالم الشرقي من التطورات ، ويرى شباهها المفكر هذا النضال القوي القائم بين القديم والحديث، ويعلمون ان للقديم انصارا وللحديث انصارا ، وان كل فريق يعمل على تأييد مذهبه وتسفيه مذهب خصمه بدون هواد، ولا لين بل بعنف يدفع الى خصام غير محمود . تشاهد الامة السورية كل ذلك وهي واقفة بين الاحجام والاقدام ، لا تدري اتحافظ على قديمها ام تنكره لتقيم على انقاضه حياة جديدة ؟ . هي تفكر بهذا . . . وقد تفكر طويلا . . . وقد ينتهي بها هذا التفكير الى صمت مريع لا ندري اوله من آخره . . . لذلك فقد وجب على الشباب المستنير ان يخرجوا من صمتهم وان يتناولوا هذه الابحاث بالدرس والتحليل لنصل الى نتيجة مرجوة وحياة مضمونة العواقب .

واذا ما نظرنا نظرة الى انصار القديم وانصار الحديث ، ترى كلا الفريقين — يسير بين الافراط والتفريط ، وهي خطة قد يكون ضررها اكثر من نفعها ، وسيئاتها اهم من حسناتها ، لذلك « فمجلة الحديث » التي فكرنا باصدارها منذ علمين لخوض غمار هذه الحرب المضطربة — ستنهج نهجا وسطا نوفق كل ما تكتبه بين انصار المذهبين ، بحيث لا تحيد الهدم على علاته بدون ان نفكر بالبناء ، فان ظاهرا انصار الحديث ووقفنا الهدم على علاته بدون ان نفكر بالبناء ، فان ظاهرا انصار الحديث ووقفنا خطط الاصلاح قبل ان نرفع المعول لتكون النتائج مضمونة الى حد ما .

ونحن على اعتقاد أكيد بان « دور الهدم » الذي تجتازه الامم في فجر

نهضتها لا ينتج الفائدة المرجوة — مع ما يجر وراءه من التضخعات الخطيرة —
 ما لم ترسم خطط البناء والتشييد ؛ ويدرك القارئ الكريم من هذا
 التلميح أننا لا نريد أن ننكر ماضينا وما فيه من صفحات مجيدة وسطور
 ذهبية لامعة جديرة بالعناية والدرس والتحليل . نعم ، لا نريد أن ننكر
 هذا الماضي الخالد بذكرياته الرائعة — وذكرياته ؛ هي كل ما بقي لنا من
 تراث الاجداد . ولكننا نتساءل : ايمنعنا هذا الحرص على الماضي ان نكون
 جلمدين الى حد ان لا نفهم هذا التراث على صورته الحقيقية ؟ ! كلا ! اننا
 سنعمل ما استطعنا على تفهم ماضينا بصورته الحقيقية بدون تزوير يخدع
 الانظار او تزوير يخلب الالباب . وسنأخذ من « الجديد » كل ما يعيننا
 على فهم انفسنا وفهم ماضينا معا . وفي فهم الماضي والحاضر كما يجب
 توطيد لكرامتنا وصون للحضارة العربية التي كادت تنطمس وراء سجوف
 الاوهام والاساطير التي يسدها بعض ادمياء العلم والمتطفلين على التاريخ
 الذين يحكون اصوات غيرهم بدون ان يرافوا « بالحقيقة » و « بالواقع »
 بهما رجلا التاريخ — ان صح هذا التعبير — .



وراء هذه الفكرة نصدر « مجلة الحديث » التي ستكون صحيفة
 الشباب المفكر في كل قطر شرقي بنطق ابناءؤه بالضاد ، ومرآة ينعكس
 على صفحاتها ما يحول بخواطر انصار الجديد من الاراء الحديثة في كل
 فن ومطلب : في الادب والتاريخ والاجتماع ، وفي العلم والفن والاقتصاد
 وفيما يعلى شأن المرأة التي لا تزال في دور الامية ، مستمدين المعونة من
 اعلام الادب ورجال الفكر الذين اظهروا ميلهم الى تمضيد مشروعاتهم ونصر
 الفكرة التي نسير وراءها والتي اجملناها في هذه الكلمات والله من وراء
 القصد .

سامي الكيالي

الحديث .. السنة الاولى (١٩٢٧ / العدد الاول ، كانون الثاني) افتتاحية العدد
 الاول من المجلد (الحديث) .

التقريظ وانتقاد المطبوعات

(الحديث) مجلة « تبحث في الآداب والتاريخ والعلوم الاجتماعية » أنشأها في حلب كل من سامي أفندي الكيالي وهو محررها ومديرها المسئول وأدمون أفندي رباط . قيمة الاشتراك فيها ٧٥ قرشا وأنه ليسرنا أن نكثر المجلات العلمية والأدبية في امتنا ولكن يسوءنا أن يكون بعض هذه المجلات أضر على الأمة من بعض الجرائد السياسية التي تخدم الأجانب الضارة باستعبادها واستعمار بلادها ، وتمهد لهم السبيل لذلك . فان جمهور الأمة يسهل عليه أن يدرك خيانة هؤلاء فان ثوب الوطنية المزور الذي يلبسونه نهه يشف عما وراءه ، وأما إفساد المجلات والجرائد لتكوينها بتقطيع الروابط التي توحد جمعها وتجمع كلمتها من دين ولغة وأدب وتشريع وهو ما نعبر عنه بمقوماتها ، ومن عادات وأزياء وهو ما نعبر عنه بمشخصاتها ، فلا يدرك كنهه ويحيط بمفاسده إلا أفراد قليلون ، ذلك بأن أولئك المفسدين يدعمون أنهم يخدمون العلوم والآداب ويرقونها لتنهض بها الأمة إلى مستوى الأمم العريضة الرأفة ، ويقل من يدرك أنهم يخربون بيوتها بأيديها وأيدي أعدائها من حيث يعجزون عن بناء بيوت أخرى لها تكون خيراً مما هدموا .

ذلك مثل بعض محرري جريدة السياسة ومجلة الهلال بمصر كسلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمي . . . المنتحلين لانفسهم صفة تجديد الثقافة ، واننا نرى مجلة الحديث السورية معجبة هؤلاء منوهة بأرائهم مثنية عليهم ، فان كان محررها المريق في هذه الأمة العربية ، الاصيل في بيوتك هذه الملة الاسلامية ، غير مقلد لهؤلاء الواعلين عليهما ، الأديماء فيهما ، الذين لا ينزع بهم غرق غير عليهما ، ولا موافق لهم في كل رأي من

آرائهم ، ولا مائل مع كل ربح من أهوائهم ، - وهو ما نعتقده في نفي الكلية
للكل المنطقيين - فلماذا لا يفتأ ينوه بهم ، بما يغري قراء مجلته باتباع
خطتهم ، وهي ما يسمونه الثقافة الجديدة التي يحكمونها في كل ما أشرنا
اليها من مقومات الامة ومشخصاتها ، وبذلك كلقوا دعاة هدم وإفساد فيها ؟

الثقافة في اللغة مصدر ثقف الرجل (كضخم) أي صار ثقفا وثقيفا -
ويقال ثقف (كتب) أيضا - أي صار ثقفا أي حاذقا خفيفا ، وهذا الحلق
والخفة اللذين يدعو اليهما هؤلاء الملاحدة مفسدة ظاهرة للامة الاسلامية
وشعوبها ولا سيما العربية ذات التشريع العادل والتاريخ المجيد ، غايتها
تقليد ملاحدة الافرنج وفساقهم فيما يشكو منه جميع عقلائهم وحكمائهم ،
وهو فيهم عرض من امراض النرف والثروة والسيادة الجاهلة كشعوبنا ،
فكيف وهو الذي افسد شعوب المدينيات القديمة ذات الباس والقوة ،
ولا يشك حكماء أوربة اليوم بأنه سيفسد مدينتهم في زمن لم يعد بعيدا
حتى أن بعضهم يعد عمر الدول الكبرى بعشرات السنين ، ولدينا منهم
نقول كثيرة في ذلك قد نشرنا بعضها .

هذا وان هؤلاء الدعاة للثقافة الجديدة التي تشمل في استعمالها
ثمرة العلوم والفنون والآداب والاديان ليس لانفسهم حظ منها الا بعض
مدلولها اللغوي وهو الخفة الشبيهة بخفة الصبيان فهم عاقون لامتهم
هادمون ابتدائها وتشريعها وآدابها بل ساعون لابتلاع الافرنج لها ، ومنهم
المستخدمون لذلك ، وهم يوهمون الناس في هذه الايام أنهم مبدعو هذه
الدعوة في بلادهم وليس كذلك بل ابتدعها في مصر الخديو اسماعيل اغترارا
بزينتها وشهواتها فهو أول من أراد أن يجعل مصر أوربية وله في ذلك كلمة
مشهورة . فكان أول ثمرة منها جناها فقد ملكه ، وأما جده محمد علي
فلما أخذ من أوربة اسباب الثروة من صناعة وزراعة وباسباب القوة ،
وهو الواجب على كل شعب شرقي يملك أمر نفسه دون تقليد القردة في
الازياء والزينة والمعدات وحرية الفسق والفجور والكفر التي يدعو اليها
منتحلو الثقافة الجديدة ، وإنما لندرجو من مجلتنا السورية الجديدة التي
لا يملك هو ولا غيره من أهل وطنه شيئا من أمر تعليم الشعب ولا تربيته

ولا ادارته ولا سياسته ان يحزر أولا تحديد الثقافة والتجديد الذي
يحياه ويجعله شعباً حراً قوياً ؟ فانا لنضن يا بن الكيالي الكريم ان يكون
مقلدا لسلامة موسى ومحمود عزمي وطه حسين الذين لا وطن لهم ولا ملة
ولا امة عليهن .

النهضة الجبارة

القديم والحديث

[صديقنا الاستاذ محمد علي ثروت من شباب مصر الجدد ، وهو اديب ثائر على التعاليم القاسية القديمة ، يلمس القارئ ذلك من ثنايا سطور مقاله الذي نشره ممججين بادبه الفص وبروحه الكبيرة وبنزخته الحرة وهذا المقال مقدمة لسلسلة ابحاث مطولة سيخصص الاستاذ بها مجلة « الحديث » التي تلخر بنشر مثل هذه الابحاث الطريفة التي تنير للشباب الفكر طريق التجديد] .

المحور

الآن ، وفي تلك الساعة الهادئة من الليل المتشح بردائه المهيّب ، الليل الآخرس والصامت كالقبر ، اجلس الى مكتبي لاكتب الى صديق نفسي الاديّب « سلمي افندي الكيالي » محييا ارباه ، ومكبرا فيه ذلك النشاط الكامن في صميم نفسه ، والذي دفعه الى الحقن على العتيق الخائر ، وحمل الفاس والمول ، ليهدم ما شاده المحافظون الاغبياء من صروح براقعة جوفاء .

ذلك هو « الحديث » ينبثق من افق الثقافة الحقّة كالفجر ، فطوبى لاولئك الذين يشهدون النور فيتقدمون الى السير في سناه ، والويل لاولئك الذين يتعلمون منه ، مفضلين الخب في الظلمات القائمة ، والسير في الطرقات الموحجة الوعرة ، المحفوفة بالاشواك !

يعتقد المخرفون من انصار القديم ان المحافظة على جزالة الالفاظ في كتاباتهم ، والسير على ذلك النهج الذي سلكه ادباء العرب الاقدمين امر واجب . برغم ذلك التطور الاجتماعي الذي وصلت حالة العالم اليه في القرن العشرين . ويكرهون اوروبا لاعتقادهم ان حضارة اهلها قد نفثت في حياة الشرقيين الجميلة التي ترتع في بحبوحة الظهر ، والتي تظلها اجنحة الملائكة العلوية البريئة من شوائب الاثم -- روح فسق وخلاعة وكفر ! ولكنهم قد اساءوا الفهم ، وتمصبوا للقديم تعصبا اعمى . فاخلوها يهرفون بما لا يعرفون !!!

لم تكن تلك النهضة الادبية ، التي طلعت في الشرق شمسها في اواخر القرن الماضي الا نفحة هبت على عقليات شعراء الشرق وكتابه من حقائق الادب الغربية فدبت في اذهانهم كما تدب العافية في اعضاء مريض تالم طويلا ثم ابل بعد سقم منهك ! واذا كتبت عن الشرق فانما اكتب عن البلاد التي تتكلم بال لغة العربية ، تلك البلاد التي تلبدت سماء اذهان اهلها طويلا بسحب متراكمة من الجهل والغبلة والبلادة الذهنية ، ثم اشرقت عليها بعد ذلك شمس الثقافة الاوروبية فبلدت تلك السحب وعادت السماء صافية كالبلور .

انا لا اكره القديم اطلاقا ، ولا استطيع قط ان احول نظري عن كواكب الادب العربي وشموسه الساطعة ، ولان ان اسام شعر « ابي الطيب المتنبي » و « ابن الرومي » او انشد آيات « ابي العلاء » الخالدة او ادب « الهملاني » و « الحريري » - ذلك الادب البديع ، الطريف ، الرائع وانه لجهود وكفران ان نعتبر ما كتبه اقلام اولئك الفحول من القديم ، البالي ، الفاسد ، ولكنني انكر من يحملون القلم في يومنا الحاضر تقليد اولئك الماضين من السلف الصالح مع وجود بينونة كبرى بين البيئة والظروف التي احاطت بهم قديما ، وتحيط بنا الان .

الادب العربي كنز يجب علينا ان نحفظ به ليكون لنا مرجعا يهذب افلاطنا . ويقوم احوالنا السنتنا . ولكننا يجب ان نفكر برؤوسنا فحسب ، ولا نفكر برؤوس الاقدمين .

أنا لست متشائماً ، ولكنني اجاهر بفقرنا المدفع الى الادب والادباء .
والذا أنا شكوت ذلك الفقر فلاني اعتقد اعتقاداً راسخاً في ذهني بأننا حتى
الساعة لم نحرك ساكناً نحو السير في الطريق الذي يؤدي بلادابنا الى
الغاية التي نرجوها لها ، لنحرك كل ما في الحياة من مسرة وبؤس ، ونور
وظلمة ، ونشاط وخمول . على حين ان فينا قوى دفينه ومواهب كامنة
لو اننا عملنا على اظهارها لتجلت كعروس النور .

اين منا الذين يقدمون لنا افكارهم في ثوب جديد ملثم لروح العصر
فيساعدا على ان ترتفع فوق اقدار الحياة وشناجعتها الى جمال البقاء
واكماله ؟

اين منا من ينهضون بعزم الفتوة فيخلمون ذلك الرداء الخلق . فلا
يتوكلوا على الحياة ، والحياة تتوكلنا على الادب واسع كالحياة ، عميق
كاسرارها ينعكس فيها وتنعكس فيه ؟؟

اين هنا من ينهضون بعزم الفتوة فيخلمون ذلك الرداء الخلق . فلا
يكتبون الرسائل الطويلة الباعثة على السامة والضجر في مواضيع قديمة
مبتدلة ، ويرتدون الرداء الذي يصلح للعصر الحاضر فيجدون في الادب
القصصي مجالا واسعا لتصوير الحياة بريشة القلم ، والتاثير في العقول
والقلوب بما يكتبون من اقاصيص كلها عظمت وعبر ، وكلها ادب وحكمة ؟

امامنا الامثلة العليا من الادب الاوربي القديم والحديث فلنقراها
لنستمد منها نور الحكمة .

فلنقرأ « افلاطون » و « سوفوكليس » ولنقرأ « شكسبير » ولنقرأ
« جيته » و « نيتشه » ثم ولنقرأ ادباء فرنسا وعلى الاخص أولئك الذين
ظهروا تحت سمائها ، بل وفي العالم اجمع في القرن التاسع عشر ، ظهور
الشهاب الساطع في بهيم الليل . مثل « جان بيير برانجيه » و « لامرتين »
و « ديلافين » و « وفيني » و « هوغو » و « موسيه » و « لابراد »
و « كوبيه » و « لوي دي فونتان » و « فرنسواه اندريه » و « شاتوبريان »
وغيرهم من الاعلام الخالدين بقوة عقولهم في تاريخ الآداب العالمية .

ولنقرأ « الاغاني » و « اللزوميات » وغيرهما من مراجع ذخور الادب العربي وكوزه العديدة . ثم نكتب بعد ذلك ، ونكتب بدماء قلوبنا ، لتكون كتاباتنا صورة دقيقة من الواقع .

اننا اذا فعلنا ذلك استطعنا ان نرفع آدابنا من المستنقعات القلرة ، فعلينا ان نسعى من الآن لهدم التقديم الفاسد لنشيد على خرائبه وانقاضه صرحا من الادب جديدا متينا ، يسمو حتى يطاول ابراج السماء ، ويرتفع حتى يناطح الجوزاء .

محمد علي ثروت
بكلوريوس في الاداب من امريكا

العدد : السنة الاولى (١٩٢٧) العدد الثاني شباط .

القديم والجديد

من الاوهام الشائعة ان الناس مولعون بكل جديد ، ومن الامور التي يشكوها من يتكبن الطرق المعبدة ان الناس لا يبدرون الى متابعتهم حيثما يذهبون . فاي القولين اصدق ؟ وبأيهما نأخذ ؟

لقد اشرنا من قبل الى ان سبيل الطبيعة ان تصل الى غايتها من اهون سبيل ، اي انها تتوخى اسهل السبل وأقلها واعظمها اقتصادا ، ولا بأس من ان نعود الى ذلك بشيء من البيان يجلو غامضه ، ويحل مشكله . ولنضرب مثلين أحدهما من الانسان وثانيهما من غيره ولنبدأ بثانيهما فانه اخف وأيسر ايضاحا . تسقط الامطار على الجبال او سواها فينحدر الماء ويحتفر لنفسه مسيلا . فهل علم أحد ان هذا الماء الجاري أثر ، منذ سال على وجه الارض ان يخترق الصخور او يعلوها وزهد في اللين الدمث الذي لا يشق عليه ان ينساب فيه ! كلا ! ما علمنا على الماء من حماقة كهذه ! فهو اذا صادفته ارض صخرية لم يتلبث عندها ريشما يحفر فيها مجراه بل راح يترقرق فوقها . واذا اعترضته وعور ذاهبة في الجو لم يتجشم ان يعلوها ويظم فوقها اذا وجد مجازا له عن يمينها او شمالها . ودع هذا وتأمل الانسان وسل نفسك ما السر في ان المرء يصعب عليه ان يغير ما كون لنفسه من العادات ؟ اليس لانها لا تتقاضاه من الجهد ما تكلفه مخالفتها ؟ مثال ذلك ان تكون قد الفت ان تسلك طريقا معبنا بين بيتك وبين المكان الذي تزاوّل فيه عملك اليومي . فانت كلما ذرت الشمس تكرر ما عملته في الصباح الماضي وتزايل بيتك وتقرودك رجلاك وانت لا تشعر الى هذا الطريق المعين وتدبان بثقلك الا يكلفك تنبها خاصا او تفكيرا وانت حين تمشي فيه وتمر بما تمر به كل يوم لا يلفتك فيه شيء . شائك في ذلك من

بعض الوجوه كشالك حين تأكل : تمتد يدك الى اللقمة فتتناولها ثم ترتفع الى فمك ومنه تهوى الى جوفك . وليس لديك عين ترى بها مكان فمك من وجهك ، ولسنا نعلم ان يد المرء تخطيء وترتفع الى الانف . فقد اعتادت ان تحسن تقدير المسافة واصبح الجهد اللازم لذلك يبذل بطريقة آلية وكذلك رجلاك تحملانك في الطريق المألوف وتذهبان بك في منعطفاته دون ان تفكر انت في شيء ولكنك حين تسلك طريقا آخر غير الذي ألفته تلقى نفسك تستعمل عينيك وتجلبهما فيما هو امامك وعن يمينك وشمالك ، وقد تفكر في طوله أو قصره بالقياس الى طريقك المعتاد ، وفيما هو قائم على جانبيه من المساكن أو الاشجار وغير ذلك ، وقد يعقد ذهنك مقارنات ومقاييس كثيرة ويجرك هذا الى مواضع شتى قد تشعك النهار أو بعضه أو أكثر من ذلك وهذا كله جهد لا تبذل شيئا منه حين تأخذ في طريقك المألوف . وكذلك الحال حين تتناول طعامك بغير اليد التي ألفت ان تتناوله بها .

ولم تكن الحياة نفسها تعجز عن ان تخلق الناس في ايامنا هذه كما خلقت اواهم واسبقهم في الوجود ، اعني من طينة الارض التي صيغ منها المخلوق الاول - كائننا ما كان هذا المخلوق - ولست اعني بطينة الارض وحلها ، وانما اعني المواد الطبيعية الاولية . كما هو ظاهر بالبداية . ولكن الحياة لا تفعل ذلك الآن وقد كفت من زمان طويل لا يعرف حسابه الا الله سبحانه وتعالى ، عن اخراج المخلوقات على هذا النحو العتيق وصرنا نخرج الى الدنيا بطريقة التوالد اذ كان خلق الانسلن بالتوالد اسهل من اعادة كل ادوار التطور الماضية كلما اريد خلق انسان ولان التوالد يتيح المرور بمختزل هذه الادوار وبسرعة فلا حاجة لتكلف المرور بها على نحو مطابق للاصل . واذ كان هذا الكلام يحتاج الى تفسير فليعلم القاريء - اذا كان ممن يجهل ذلك - ان المرء يعيد على صورة مصفرة مختزلة ما مرت به الانسانية من ادوار النشوء ، وللقاريء ان يصدق هذا أو لا يصدق ، فان كانت الاولى فله منا الشكر الجزيل على الثقة بنا والاطمئنان الينا ، وان كانت الثانية فلا ضرر عليه أو علينا ولن يمنع انكاره ان الامر

كما نقول والحال على ما نصف ووقتنا وصدرنا اضيق من ان نتجشمه اثبات ذلك له على حين يستطيع هو ان يريحنا بان يقرأه في اكثر من كتاب واحد .

والآن فلننتقل الى شيء آخر ، وليحضر القارئ الى ذهنه تلك الآلة الموسيقية التي يسمونها القانون . وهي آلة ذات أوتار كثيرة يحتاج الضارب عليها ان يعيد اصلاح اوتارها كلما اراد ان ينتقل الى « نغمة » مغايرة للنغمة الاولى ومن باب غير بابها . ولكنه لا يحتاج الى اعداد اوتاره وتجهيئتها من جديد اذا كان الانتقال بسيطاً وفي موضع واحد او مواضع قليلة من الصوت الذي يوقعه ولم يكن عاماً شاملاً . ونحسب هذا معروفاً مفهوماً . وما منا الا من رأى ذلك وشهده بعينه فصاحب القانون لا يغير شد الاوتار ولا يكف عن التوقيع عليها ليعالجها من جديد اذا كان الخروج عما هيا له أو اوتاره جزئياً غير تام . وهو حين يحدث هذا الخروج الجزئي عما استعد له بالته لا يتعبه هذا الخروج ولا يصدع ولا يكلفه او يكلف الاوتار فوق طاقته وطاقته فيستمر العزف او التوقيع كان لم يحدث انتقال ما .

كذلك الناس حين يجيئهم واحد منهم بما هو اشبه بتقديمهم الذي ساروا عليه والفوه ، لا يحسون ان جديداً طراً أو أنهم يحتاجون ان يصلحوا نفوسهم ويهيئوها تهيئة خاصة لتلقى هذا الطارئ واستقباله . ولا يشعرون بدافع الى المقاومة اتقاء لما يكلفهم اطراح ما اعتادوه من الجهد . ومن الامثلة كتابات المنفلوطي رحمه الله . وهذه لم يكن فيها جديد بل كلها مما شبوا وشابوا عليه . وكل ما في الامر انه جعل لكلامه طلاء أو لونا لا يحيله عن اصله ولا يخرججه عن تيلره . وشبيه بذلك ان تستحدث الوانا جديدة في الملابس دون ان تغير الشهرة (المودة) في تفصيلها - فلا يصد الناس منها شيء كبير ولا يحملهم على التردد في قبولها والاقبال عليها انها مخالفة لما يعبري عليه العرف ولكن لنفرض ان حائكا سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كان يرتد بنا الى خمسين أو ستين سنة ليحيى طرازا كان شائما يومئذ او كان يستحدث اسلوبا تكون الازرار من الخلف لا من الامام او تكون

السترة او ما يسمونه « الجاكته » اشبه بالشملة . فهل يقبل الناس على تلفف هذا الطراز ؟ كلا ! يتخرجون في اول الامر وينكرونه ويظنون يتهيبونه زمنا طويلا او قصيرا على قدر بعده من مألوفهم ، حتى يتهيبوا لقبوله شيئا فشيئا ويقتنعوا بصلاحه وجماله على الايام ان كان له نصيب من الجمال او الصلاح . وهذا هو الذي يحدث حين يخرج كاتب او شاعر على التقاليد والسنن وينهج سبيلا غير التي ألف الناس ان ينهجها الكتاب ، او حين يأتي عالم أو فيلسوف برأي يقلب ما نشأ الجمهور على اعتقاده . ولماذا في ظنك كان اهل أوروبا في القرون الوسطى يستنكرون ان يذهب احد الى ان الارض دائرة أو انها ليست محور الوجود وقطب الكون أو ان الشمس لا تدور حولها بل هي التي تدور حول الشمس ؟؟ ماذا يعنيهم من كون الارض كرة أو سطحا أو هل تدور حول الشمس أم الشمس التي تدور حولها ؟ ماذا كرههم من ذلك في حياتهم أو افسدها عليهم حتى آذوا القائلين بما اعتقدوا خلافه ؟ لا شيء سوى ان الرأي الجديد كان خطوة في عكس الطريق الذي درجوا عليه كما درج آباؤهم وكان من شدة المغايرة وفرط المعارضة لمألوفهم بمثابة القول بأن الانف مجعول لمضغ الطعام والاذر للشم والعين للسمع . والناس انما يسهل عليهم الاخذ بالجديد اذا كان مقاربا لما اعتادوه وكان كانه امتداد له ولم يكن مغايرا في جوهره لآرائهم أو اذواقهم .

وقد قلت حين سقت مثل الحائك « لنفرض أنه سن لنا شهرة جديدة كل الجدة كان يرتدينا خمسين أو ستين سنة ليحيى طرازا كان شائعا يومئذ » واعني بذلك ان القديم الذي مضى زمنه وانقضى عهده يكون في حكم الجديد وله وقعه وصدمته حين يراد احياؤه ، لانه يكون جديدا في نظر من لم يالفوه ، واعتبار من لم يدركوا زمنه وعلى ان هذا فرض قائم على استحالة اذ كان احياء القديم يتطلب ان تتوفر الاحوال والمقتضيات والحالات النفسية والفكرية التي عفى عليها الزمن وطوى صفتها .

وبعد فليس بصحيح ان الناس مولعون بكل جديد وانما الصحيح انهم يقاومونه ويتهيبون له على الايام وان جديد اليوم اذا كان صالحا خليق ان

نشكر الله عليه . اذ حقيق بالدنيا ان تنقلب بيمارستانا ضخما لو ان الناس فيها كانوا يبادرون الى الاخذ بكل جديد واجابة كل مهيب فليس كل جديد صالحا والاتزان في الحياة الزم واجدى واكفل باطراد التقدم من طيش :لتعجل .

● ابراهيم عبد القادر المازني

المصدر : قبس الريح الدار القومية - القاهرة ١٩٦٠ ص - ٦١ - ٦٦ .
صدر الكتاب للمرة الاولى عام ١٩٢٧ .

انباء العالم الاسلامي

مجلة الرابطة الشرقية

(ودعاية التجديد الالحادية واللا دينية ودعائه)

نشرت جمعية الرابطة الشرقية في ١٧ صفر من هذا العام (اعلنا)
للمجلة التي قررت انشاءها نشرناه لها في الجزء الخامس من المنار الذي
صدر في سلخ ربيع الاول ، واذ كان آخر كلمة في الاعلان ان لجنة المجلة
هي : « الرئيس السيد عبد الحميد البكري . مدير المجلة : أحمد شفيق
باشا . المشرف على التحرير : الاستاذ علي عبد الرازق » قفينا عليه
بقولنا :

« نحمد الله ان آن اصدار هذه المجلة التي قرونا اصدارها من اول
المهد بانشاء الجمعية (وفي الاصل المجلة وهو غلط بالطبع) ولكن نخشى
ان يظهر فيها شيء من شلوذ المراقب الذي يسوء جميع المسلمين كدفاعه
عن الترك ، وثنائه على خطة حكومتهم في نبد الاسلام وراء ظهورهم ،
ومحاولة ازالة كل اثر له في شعبهم ، ولكن الرجاء في سماحة الرئيس
وسعادة الوكيل ان يحولا دون ذلك فالمراتب لابد له من مراقبة » .

نشرنا هذا التنبيه والتحذير راجين ان يكون حائلا دون ما نخشى
ونحذر على مجلة جمعيتنا من تأييد الدعاية الالحادية الجديدة التي قد
توجب علينا ان تؤذن مجلة جمعيتنا بالحرب - (كما حذرنا ملك الافغان
ووزيره الاكبر من تقليد الترك الكماليين في حكومتهم اللادينية وانذرنا
الوزير سوء عاقبة هذا التقليد في بلادهم لثلا نضطر الى عدائهم ، ونحن

نحب ان نكون من انصارهم ، كما يجب علينا لكل شعب اسلامي ولاسيما قوم استاذنا الاكبر في السياسة الاسلامية والشرقية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى) - ويسوءنا ان وقع ماكننا نتوقع في مجلتنا وفي شعب استاذنا .

صدر العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية فاذا هي مجلة لادينية تؤيد ما يسميه ملاحدة هذا العصر بالتجديد اللا ديني وتحرير المرأة المسلمة ، وتدافع عن الترك والفرس والافغان ، فيما يجادلونه من تجديد يهدم الاسلام ، على احتراس قليل في التعبير هو اقرب الى الدفاع عن مصطفى كمال وامان الله خان منه الى الهجوم عليهما ، وينبئ عن الخشية عليهما من الفشل لا عن تمنيه لهما - واذا بنا نرى فيه مقالة للدكتور طه حسين الذي اشتهر بالظعن في الاسلام وتكذيب القرآن (العظيم المجيد الكريم الحكيم) وخلاصة لبحثه الجهلي السخيف في ضمير الغائب واستعماله . اسم اشورة في القرآن الكريم ، ومقالة اخرى لاستاذ الدكتور منصور فهمي داعية التجديد من ناحية الفلسفة في باب خاص به عنوانه (صفحات شرقية) ومقالة للاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق شقيق الاستاذ علي عبد الرازق رئيس تحرير المجلة ، فاذا كان هذان الاستاذان يساعدا المجلة في تحريرها لانهما عضوان في مجلس ادارتها ، فما بال الدكتور طه حسين ، وما الذي وضع اسمه في العدد الاول في مقالين اثنين على اشتهاره بين مسلمي مصر وغيرها بالظعن في الاسلام ؟

بعد صدور هذا العدد بأيام جاءني كتاب من بعض اهل العلم الاسلامي الداعين الى الاصلاح يقول فيه ما معناه : ان اهل العيرة الاسلامية المحيين للمنازل وصاحبه المحسنين للظن به ينتظرون ان ينشر في الجرائد اليومية انه خرج من جمعية الرابطة الشرقية وتبرا منها بعد ان ظهرت خطتها اللادينية في مجلتها . ثم تكلم معي بعض اعضاءها في وجوب تلافي هذا الامر وتدراكه .

ثم ظهر العدد الثاني من المجلة فاذا هو اصرح من العدد الاول فيما

ذكر وإذا بنا نرى من محررية الدكتور طه حسين الذي تعبر عنه المجلة بكلمة « صديقنا » وإستاذه وسلامة موسى عدو الأديان كافة والاسلام خاصة ، وعدو الآداب والفضائل الروحية ، وعدو الروابط الشرقية من وطنية وجنسية لغوية ، وداعية الكفر والوقاحة والتهتك اللذين يعبر عنهما بالادب المكشوف ، ويوجهه على ضده من الصيانة والحياء الذي يسميه الادب المستور ، والدكتور هيكل بك رئيس تحرير جريدة السياسة داعية الثقافة اللادينية ، والاستاذ أحمد أمين أحد أركانها ، فمن ذا الذي جعل هذه المجلة ميداناً لسباق أشهر فرسان الثقافة الاحادية وجعلها لسان حالهم ومقالهم ؟

وإذا بنا نرى من موضوعات هذا العدد مقالة وجيزة من المجلة عنوانها (البرنيطة في بلاد الشرق) بدأها الكاتب ولعله المشرف على تحريرها بقوله « من غريب المصادفات أن يتفق زعماء النهضة في بلاد الاسلام ، : تركيا وفارس وأفغانستان ، على إلزام أهمهم قهراً بلبس البرنيطة رغم العقيدة الفاشية في تلك الامم عن البرنيطة من أنها شعار نصراني خاص لا يرضى به الا مسلم خارج عن دينه » الخ .

ثم قال في أواخرها « الحق أننا لا نزال عند رأينا في أمر البرنيطة من أنها أهون شأناً من أن يختلف فيها اثنان ، أو ينتطح فيها عنزان ، وخطا الدعاة اليها والمعارضين لها في تعظيم أمرها » .

تنويه مجلة الرابطة الشرقية بالحاد الكمالين :

وإذا بنا نرى من موضوعاته مقالة أخرى في تنظيم شأن النهضة التركية في المعارف وغيرها ولا سيما نشر التعليم العام بالحروف اللاتينية الناسخة للحروف العربية ، وزعم الكاتب أن هذا الانقلاب العلمي الاخير في تركيا ليس له نظير في تاريخ البشر لانه جعل المدن والقرى في جميع المملكة مدرسة كبرى « غرف فصولها الاندية والمقاهي والمساجد ... » ثم نوه بمظلة الفازي مصطفى كمال الذي هو الاستاذ الاكبر لهذه المدرسة العامة الشاملة لجميع أفراد الامة التركية !!!

أبطل الكاتب الذي جن في الدعاية الكمالية فِعظم ما ليس بعظيم ،
أن الناس كلهم مجانين يأخذون هذا التنويه الجنوني بالتسليم ، بعيشك
أيها القارئ ألم يكن صاحب المنار فيما توقعه من مصطفى كمال ومن
أمان الله خان ثم من الرابطة الشرقية فيداراً (١) وداعياً إلى الترشد لمن
لم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ؟

خداك طه حسين للأزهريين بترك الدنيا للملحدين :

وإذا بنا نرى من موضوعاته مقالة للدكتور طه حسين حاول فيها
إقناع الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بأن يجعل التعليم فيه وفي
سائر المعاهد الدينية موجهاً إلى الدعوة والإرشاد دون القضاة الشرعي
والتعليم في المدارس وغير ذلك من أعمال الحكومة والمصالح الدنيوية إذ
يجب عنده ترك جميع الأعمال القضائية والمدنية والتعليمية للمدارس
الدنيوية تبعاً لمذهب التجديد القاضي بفصل أمر الدين عن أمور الدنيا
خلافًا للإسلام .

ونرى من المناسب أن ننتقل على سبيل الاستطراد من سرد الباحث
التي تسمى التجديدية ، وكتبتها في مجلة الرابطة الشرقية ، إلى ذكر
شيء جديد في مقال الدكتور طه حسين ، وهو أنه يذكر الله تعالى في هذه
المقالة ويسمى الإسلام دين الله والقرآن كلام الله ، فقد قال في آخر
هذه المقالة .

« ألا إن سبيل الأنهر إلى الخير واضحة إن أراد أن يسمى إلى
الخير حقاً فليخرج لنا وعاءاً مرشدين خليقين بهذا اللقب ، وليخرج لنا
دعاة إلى دين الله وذادة عنه وحماة له ، وليدع الدنيا وأعراضها للدين
تعنيهم أعراض هذه الحياة الدنيا ، فقد صدق الله تعالى حين قال
(واضرب لهم (٢) مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به

(١) فيدار الذي يسيء الظن فيصيب .

(٢) غلط الدكتور في أول الآية فجعله (إنما مثل الحياة) وصوابه ما ذكرنا .

نبات الارض فاصبح هشيماً تلدوه الرياح) فليدع الازهر هذا الهشيم
الذي تلدوه الرياح ، وليدع الازهر هذا الزبد الذي يذهب جفاء .

ونقول الظاهر ان هذا التصريح الجديد في هذه المقالة يقصد به
التاثير واقتناع شيخ الازهر ورجال الاصلاح بهذه النصيحة الخادعة
وايهامهم انها مقتضى كلام الله تعالى ، وشيخ الازهر وعلماء الازهر
يعلمون ان الاسلام جمع لاهله بين مصالح الدنيا والآخرة ، وان هذا
المثل الذي ذكرهم به الدكتور ليس معارضا لقوله تعالى (هو الذي
خلق لكم ما في الارض جميعا) وقوله (قل من حرم زينة الله التي اخرج
لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة
يوم القيامة) وامثال ذلك من الآيات ، التي ترشد المسلمين الى جميع
علوم الكائنات ، والآيات التي وعدهم الله بها بان يجعلهم خلفاء الارض
ويمكن لهم فيها السلطان والمجد ، وانما ذلك مثل لتصغير متاع الحياة
الدنيا بالنسبة الى سعادة الآخرة ، لئلا يشغلهم الغرض الأدنى عن
الغرض الأعلى ، وقد أرشدهم الى الجمع بينهما ، وعلمهم ان يدعوهم
بقوله (ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) ومن المعلوم ان
تلويح الاسلام بالضرورة ، ومن تعاليمه بالنصوص المتفق عليها بين
الأئمة ، ان خلفاء المسلمين وقضاةهم وحكامهم يجب ان يكونوا من أعلم
علمائهم المستقلين ، ومن أشدهم اقامة العدل واعتصاما بمبادئ الدين .
وهم يحفظون من كلام سلفهم : الدنيا مزرعة الآخرة ، وقد بينا هذا
بالتفصيل في مواضع من التفسير والمنار فلا محل لبسطه هنا .

وقد غلط الدكتور طه حسين الازهرين فيما ضربه لهم من الامثال
الدينية كهذا المثل الديني إذ ذكر لهم المدارس الدينية لدعاة النصرانية،
وهذا حجة عليه فان هذه المدارس تلقن طلابها جميع علوم الدنيا ، ودعاة
النصرانية المتخرجون فيها منهم الاطباء واساتذة العلوم والفنون الرياضية
والطبيعية وغيرها ، فلماذا يحاول اقتناع متخرجي الازهر وسائر المعاهد
الدينية ، بترك تعليم المدارس المدنية والقضائية وغير ذلك من مصالح
الدنيا لكليات جامعته المصرية المدنية ، والراضى بان تكون سيادة الدنيا

ومجدها وفقاً على الملحدّين ، ولماذا تنشر له مجلة الرابطة الشرقية هذا الغش والخداع للمسلمين ؟ فيا ليت شعري هل يرى رئيس الجمعية ووكيلها ما يراه زميلهما المشرف على تحرير مجلتهما من ان الاسلام دين روحاني محض لا حكومة ولا شريعة يجب على اهلها التزامها ، وهل يريان ما يرى صديقه طه حسين من جعل غاية التعليم الديني الوهظ والدعوة وحصر اعمال الحكومة المصرية الاسلامية في خريجي المدارس اللادينية ؟ الذي كنا نعرفه عنهما غير هذا .

ويطلي مقال الدكتور طه حسين مقالاً لاستاذ الدكتور منصور فهمي تابع لما كتبه في العدد الاول ، وغايته التنويه بتعظيم شأن مصطفى كمال فيما تراءى له ولسائر دعاة التجديد اللاديني من نجاحه فيما يسمونه اصلاحاً وان لم يصرح باسمه ولا باسم المقتنين به ملك الافغان وشاه ايران الذين يعبر عنهم « رجال الشرق الحاليين ومصالحه » .

دعاية سلامة موسى الى الاتحاد وهدم الاسلام :

واذا بنا نرى من موضوعاته دعاية سلامة موسى المشرف في الاتحاد الى رايه في مقالة عنوانها (الشرق والغرب) وهي تتضمن تخطيطاً جمعية الرابطة الشرقية في سعيها للتعارف والتعاون بين شعوب الشرق من ادناها الى اقصاها اذ يقول « اننا نحن المصريين والسوريين والعراقيين نمت بجملة صلات من النسب الى اوروبا ولا نمت باي صلة الى اليابان والصين ، فنحن من حيث السلالة البشرية ننتهي نحن والانكليز الى « ام واحدة » ونحن من حيث الدين يشترك كثير منا واوروبا في المسيحية ، والمسلمون هم اقرب الملل في العالم الى المسيحية » .

وغرض سلامة موسى افندي من هذا البحث في مقالته اقناع قراء مجلة الرابطة الشرقية وتقريب بعض آخر من رايه المشهور عنه وهو وجوب اندفاعنا في الامة الانكليزية ، ولو كان هذا المقام مقام المناقشة والمناظرة لاثبت له ان النصرانية الحاضرة نصرانية التثليث هي اقرب الى البوذية منها الى الاسلام ولكن دين المسيح دين التوحيد الخالص

هو عين دين محمد عليهما الصلاة والسلام الذي جاء في أنجيل يوحنا منه قول عيسى في مناجاة ربه « ١٧ : ٣ وهذه هي الحياة الإبدية أن يعرفوك أنك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » .

ويدعو الاستاذ سلامة موسى في مقاله هذا الى هدم الاديان عاملة والاسلام خاصة ، كما يدعو الى ما ذكر من السياسة القومية ، فقد زعم فيه ان اسخف ما سمعه عن الفرق بين الشرق والغرب ان الاول روحي والثاني مادي » وان مما يزيده عجباً واستغراباً لهذا القول الاستدلال عليه بنشوء الاديان في الشرق (قال) « مع أنهم لو تبصروا قليلا في القرآن والانجيل والتوراة لوجدوا ان جميع الانبياء في هذه الكتب الثلاثة كان همهم الاكبر هو الاصلاح الاقتصادي الذي هو هم أوروبا الآن » ونقول هذا من الافك والبهتان ، الذي يفنده فيه جميع أهل هذه الاديان .

ثم إنه انتقل الى الدعوة الى تقليد اوروبا بطفرة سريعة على رأي صديقه الاستاذ علي عبد الرازق رئيس تحرير مجلة الرابطة الشرقية ومدير سياستها الحقيقي وقال :

« مثال ذلك انه يجب علينا ان نساوي بين الرجل والمرأة ولكن اساس هذه المساواة هو الاقتصاد فلا معنى لان تعطى المرأة حق الانتخاب والتصويت والسفور والتعليم ولا يكون لها في الميراث سوى نصف الرجل بل يجب ان نفصل الدين عن الدولة ونجعل المرأة مساوية في المواثيق للرجل بلا ادنى فرق .

« ثم يجب ان نجعل التعليم العام وسيلة لتخريج رجال متمدينين ومتمدين فقط وربما كان اللباس الاوربي اي القبعة (يعني المبرنيطة) والبنطلون مما يجلب عطف الامم الاوربية علينا ويجعلنا ننظر الى انفسنا نظرا غربيا فلو جعلناه اللباس لجميع الافراد لكان فيه فائدة كبرى في الاسراع في اخلاص الحضارة الغربية » .

هذا آخر مقال هذا الداعية الى هدم الاديان ولا سيما الاسلام وهدم الوطنيات والاندغام في الاوروبيين بسرعة سيف مصطفى كمال وقوانينه ومحاكمه الاستقلالية التي تحكم على الممتنع من لبس البرنيطة تدبنا بالقتل - فهنيئاً لجمعية الرابطة الشرقية بهذه المجلة وكتابها .

وقد كان دعا الى مثل ما دعا اليه في شأن المساواة بين المرأة والرجل في الميراث وغيره في محاضرة أو خطبة استفرغها في نادي جمعية الشبان المسيحيين ثم كتب الى هدى شعراوي هاتم رئيسة جمعية النهضة النسوية بمصر يدعوها الى مطالبة الحكومة بتقرير هذه المساواة فردت عليه بأن ما تطلبه جمعيتها من الاصلاح لا يدخل فيه الخروج عن دين الاسلام وترك احكام الشريعة بل هو في دائرة حدودها ورد عليه كثير من كتاب المسلمين مبينين عدل الاسلام وفضله على جميع الشرائع في الارث وغيره ، ولكن مجلة الرابطة تعيد له نشر هذه الدعاية .

والدكتور منصور فهمي تعليق على هذا المقال بداه باجلال اخيه سلامة موسى والاشارة بما له من المنزلة الرفيعة في نفسه ثم دأبه مداعبة في بعض عباراته .

دعاية الاستاذ احمد امين الى التفرنج :

ويلي هذا مقالين قالت المجلة انهما «يتصلان بالموضوع اتصالاً شديداً» أحدهما عنوانه (وحدة العالم) وهو للاستاذ أحمد أمين من أركان الدعاية اللادينية جزم فيه بأن الشرق لا يمكن أن يكون له مدينة خاصة به وأن العالم الشرقي كله سائر الى المدينة الغربية ولا يستطيع أن يتجه الى غير ذلك - وأنه « يجب أن يكون عمل المصلحين محصوراً في دفع همهم الى الاخذ بأوفر حظ من المدينة الغربية وخير طريق لذلك تهيئة نفوس الامة لهذا الاقتباس » الخ .

راي هيكل بك في الحاجة الى دين جديد :

والمقال الثاني عنوانه (حضارة الشرق متى تبعث من جديد لتضيء

ظلام المدينة الغربية) وهو الدكتور محمد حسين هيكل بك مدير جريدة السياسة مبتدعة الثقافة اللادينية ولسان حال حزب التجديد اللاديني، ولكن مقاله هذا فيه من سعة العلم بحال أوربة والشرق ما ليس في شيء من تلك المقالات اذ نظر الى ما في أوربة من فساد الاخلاق والآداب وخطر المدنية المادية وعلم ما لم يعلم سائر اولئك الكتاب او خبر بما لم يخبر به أحد منهم من حاجة أوربة نفسها الى اصلاح روجي لا يمكن أن يكون الا بهداية دينية ، وأن الشرق هو الجدير بأن يكون مشرق هذه الهداية التي لا يرجى صلاح الغرب بدونها ، فهو يقدح زند هذا الرجاء فيه ؟

سبق للدكتور هيكل مقال في هذا الموضوع نشره في الهلال وتضمن فيه لو يبعث نبي جديد في مصر من اهلها يتحقق بما يأتي به من وحي الدين هذا الرجاء في اصلاح الغرب والشرق ، وفاته ان هذا النبي الذي قوي توجه العقول الى الحاجة اليه قد وجد وجاء بكل ما يرجى في هذا الامر ولكن الذين يدعون اتباعه قد شوهوا هدايته بما ابتدعوه فيها ، وأنها لو ظهرت نقية من هذا البدع والخرافات بدعاية حكيمة معقولة لادت هذه الوظيفة المرجوة على اكمل وجه .

هذا النبي المطلوب لاصلاح فساد المدينة الغربية هو محمد رسول

الله وخاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، كما بينا ذلك في مواضع من المنار في السنين الماضية وبيننا أن اول من اهتدى الى حاجة أوربة الى هدايته في هذا العصر هو حكيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى وأنه كان كثيراً ما يقول : لا حجاب يحول بين أوربة وبين دين القرآن الا نحن فانهم ينظرون اليها من خلال القرآن هكذا - ويرفع يديه مفرجاً بين اصابعهما - فيجدون وراءه اقواماً غلب عليهم الجهل والكسل والتواكل والخرافات فيلقونه قائلين لو كان اصلاح لصلح به متبعوه ، فاذا اردنا ان نقنعهم بحقية الاسلام واصلاحه وجب ان نقنعهم قبل ذلك باننا لسنا مسلمين ويليهِ في ذلك الاستلا الامام وقد نقلنا عنه مراراً انه قال في درسه العام في الازهر انني اعتقدت منذ عشرين سنة عقيدة ترداد رسوخا في نفسي سنة بعد أخرى بقدر ما ازداد علما

واختبارا لحالة العالم المدني وهو ان اورية لا تجد لها منقلبا من فوضى
الاقتار المادية ، وفساد الاخلاق الا بالاسلام الصحيح وانها ستنتهي
الى الاهتداء به في يوم من الايام وربما صلح المسلمون الجاملدون يأخذون
الاسلام عن علمائها (او قال ما هذا معناه وربما اكون ذكرته من قبل
بلفظه او بما هو اقرب من هذا الى لفظه ولكن المعنى لم يتغير) ، واقول
ان تجديد الثقافة والحضارة السليمة من الرذائل يظهران على اكمل
وجوهما بتجديد الاسلام ويكون هؤلاء المجددون له مصداق قول النبي
صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى يبحث لهذه الامة على رأس كل
مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه ابو داود والحاكم والبيهقي في
(المعرفة) من حديث أبي هريرة ووضعت له السيوطي في الجامع الصغير
علامة الصحيح ، وحينئذ نرى هؤلاء الدعاة الى التجديد الاعمى يؤمنون
بآية التجديد المبصرة ويكونون من السابقين الى الاسلام الذين يجهلون
ويحتقرون أهله .

مختارات مجلة الرابطة الطاعنة في الاسلام :

ومما اختارته المجلة او مراقبها لهذا العدد الثاني من الاقتباس
والترجمة في مقالة في (مسيلة الكذاب) مخالفة في سداها والحمتها
لما عند المسلمين يسمى صاحبها مسيلة نبيا كما يسمى محمد (ص)
نبيا يعني ان كلا منهما كان نبيا لقومه ، ويسند الى الاخبار الاسلامية
التعبر عنه بمسيلة الكذاب كانه او لانه مخالف لهم في هذا
الوصف ، فما كان اغنى قراء هذه المجلة عن هذه المباحث في اوائل
اعدادها !!

ومنها ما ترجمه الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق من محاضرات
طلاب المدرسة الحرة في باريس في الاسلام من الطعن على هذا الدين القويم
وهي خمس محاضرات جمعها كتاب اسمه (الاسلام والسياسة الحاضرة)
ولم يرد الاستاذ على شيء مما فيها من الطعن في الاسلام والمسلمين ولا
أشار الى شيء مما فيها من الخطا ولكنه قال فيما بينه من غرضه بعد

تلخيصها » وليس من غرضنا أن نناقش في رأي ولا أن ندل على خطأ أو تناقض ، وثم لمن أراد موضع المناقشة وبيان التهاافت ، انما نريد أن ننقل الى اهل الشرق تصور الغربيين لهم وحكمهم عليهم » .

اقول اننا في حاجة الى العلم بما يقول فينا اهل الغرب من خير وشر وحق وباطل لا من الطعن فقط ، وفي حاجة الى تمحيص اهل العلم والرأي لما يكتب عنا والفصل بين الحق والباطل من اقوالهم . والاستاذ المترجم يعلم ان اكثر قراء مجلة الرابطة الشرقية من المسلمين ليس لهم من المعارف الاسلامية ما يقدرون به على المناقشة وبيان الخطأ والتناقض وأن الطعن في دينهم مما يضرهم قراءته ، ويا ليت شعري هل تقبل مجلة الرابطة الشرقية هذه المناقشات اذا كتبها اليها بعض المسلمين أم تعتذر عنها بأنها مما تبرأت منه في بيان خطتها في العدد الاول .

هذا بعض ما اذكرنا في هذا العدد الواحد من مجلة الرابطة الشرقية وراه الناس واستنكروه ومثلنا وكان أشدهم استنكارا له المسلمون ولا سيما رجال الدين ورجال السياسة منهم . وقد كتب الي عالم سوري عصري كبير في فلسطين يقول ما خلاصته انه ظهر للعالمي والخاصي ان مجلة الرابطة الشرقية مجلة الحادية أو لا دينية على مذهب زعنفة دماء التجديد المعادين للاسلام ، وأنه يجب عليك الخروج من جمعيتها حفظا لمقامك الديني الا ان تكون ساعيا لمنعها من الاستمرار على هذا الطريق ذي العوج . . وقال لي كاتب من اشهر الكتاب السياسيين يظهر ان مجلة الرابطة الشرقية مشايعة لجريدة السياسة ومجلة الهلال في نزعة التجديد اللاديني الخ .

على ان جريدة السياسة اعتدلت في خطتها بعض الاعتدال وقد نشر فيها عدة مقالات في استنكار خطة الكماليين في استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وتنكر على ملك الافغان اتباعه لخطواتهم على انها تسميها اصلاجا وتخشى عليه من الفشل بعدم مراعاة ما عليه قومه من عقائد وتقاليد قديمة . . ثم انها مع ذلك تنصر الاستاذ الاكبر الشيخ

محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر فيما نهض به من امر الاصلاح الاسلامي
نصرا لم نر فيما قرأناه منه شائبة من دسيمة الدكتور طه حسين التي
نشرها في مجلة الرابطة الشرقية ولا من شذوذ رئيس تحريرها الاستاذ
علي عبد الرازق الذي بسطه في مجلة الهلال .

انني قد اضطرت الى هذا التطويل في نقد مجلة جمعية كنت من
اوائل المؤسسين لها والواضعين لقانونها لانها تنكبت في مجلتها ذلك الطريق
الذي سرفنا عليه فيها ، وقد كنت اوجزت في النصيحة بما ذكرته في التعليق
على اعلان المجلة ثم بما نصحت بلساني فلما لم ينفع النصع المختصر الخفي ،
اضطرت الى هذا الانكار الصريح الجلي ، والى نشره في المنار ، فعسى ان
لا احتاج الى مثله بعد ، والله الامر من قبل ومن بعد .

المصدر : مجلة المنار ج ٨ مجلد ٢٩ . ديسمبر ١٩٢٨ .
ملاحظة : محرر المنار هو الشيخ رشيد رضا .

الاحاد ودعائه في مجلة الرابطة الشرقية

والاستاذ احمد امين

راجعني تلميذ لي في عدي الاستاذ احمد امين من اركان دعاة الاحاد الذي سقط من قلبي في انتقادي على مجلة الرابطة قائلا انه لم يعرف عنه هذا وليس في مقاله في تلك المجلة شيء صريح فيه ، وذكرني بأنه هو المتخرج في مدرسة القضاء الشرعي الذي كان قاضيا شرعيا - فاعترفت له أسفا بانني اخطأت في عده من اركانهم لانه اشتبه علي بكتاب آخر كتب مقالات الحادية كثيرة في جريدة السياسة ولكنني لا اراني مخطئا في نظم مقاله التي نشرتها له تلك المجلة في سلك سائر مقالاتها التي تؤيد دعاية ما اعنيه بكلمة الاحاد ، على انني جعلت عنوانها (الدعوة الى التفرنج) ورايت من الواجب علي الآن ان افسر في المنار ما اعنيه بكلمة الاحاد التي يشتمل عمومها على تلك المقالة فقد علمت ان بعض الناس يفهمونها مرادفة لكلمة الكفر والتعطيل ، والصواب انها اعم من ذلك لفة وشرعا كما بينته بالتفصيل في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٨٠) والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) اذ قلت في اوله ما نصه :

واما الاحاد فلعناه العام الميل والازورار عن الوسط حسا او معنى ، والاول هو الاصل فيه كأمثاله - وبمد ذكر الإلفاظ والجمل المستعملة من هذه المادة قلت : ولما كان « خيل الامور اوساطها » كان الانحراف عن الوسط مذموما ، ومنه اخذ التعبير عن الكفر والتعطيل والشك في الله تعالى بالاحاد ويسمى ذوه الملاحدة واللحدون . ثم نقلت ما قاله الراغب في مفردات القرآن تفسيراً لهذه المادة ومنه : الحد فلان : مل عن الحق ،

والحاد ضربان ، إلحاد الى الشرك بالله وإلحاد الى الشرك بالاسباب ، فالاول ينفي الايمان ويبطله ، والثاني يوهن عراه ولا يبطله الخ ثم بينت ان إلحاد في أسمائه تعالى سبعة أنواع (راجع ص ٤٤٠ - ٤٤٨ ج ٩ تفسير) .

فانا اعني بالإلحاد في كل ما أرد به على الملاحدة المعنى العام له الذي يشمل الكفر المخرج من الملة وغير المخرج منها وما ليس بكفر مما يضعف الايمان ويوهن روابط الاسلام اللغوية والاجتماعية كالثقافة اللادينية التي كانت تدعو اليها جريدة السياسة وغيرها وكثير مما يسميه جملة الكتاب اللادينيين بالتجديد كازياء الرجال والنساء الافرنجية التي جعلها مصطفى كمال باشا ومريده امان الله خان من اركان الاصلاح لما يقصد بها من إنسواء المسلمين جميع ماضيهم . ومن اركانها استبدال الحروف اللاتينية بالعربية وغير ذلك من الميل عن الوسط الى افراط او تفريط في الشؤون الاسلامية . وليس منها تجديد الصناعات والفنون العسكرية والمالية والتجارية وامثال ذلك مما يريد قوة الامة وثروتها بل هذا واجب شرعا .

ويرى القراء في عناوين مقالنا في الانتكار على مجلة الرابطة ما يدل على هذا التقسيم للاراء الإلحادية ولاسيما التفرقة بين دعاية سلامة موسى الى هدم الاسلام ودعاية احمد امين الى التفرنج . فثبت من كل ما تقدم اننا لا نعد كل ما ننتقده من التجديد المدني الحادا ، ولا كل الحاد وتفرنج كفرا يخرج به صاحبه من الملة .

هذا وان مقالة النار في الانتكار على مجلة الرابطة الشرقية قد كان لها وقع عظيم في نفوس المسلمين هنا وربما كان وقعها اعظم في سائر الاقطار الاسلامية التي لم يوجد فيها من حرية الإلحاد مثل ما هو معهود في مصر .

نشرتها جريدة كوكب الشرق اليومية التي يقال انها الآن اوسع صحف القطر انتشارا ، ونشرتها صحيفة الفتح الاسبوعية . وقد جرى حديث بين احد محرري الكوكب وصاحب السعادة احمد شفيق باشا في موضوع المقالة كانت فيه اجوبة سعادته للمحرر مشفرة برضاء عن تلك المقالات التي انتقدناها على المجلة الا مقالة سلامة افندي موسى فقد اعتذر عنها

بحرية النشر . . . فكان ذلك موجبا لمزيد استياء المسلمين كما بينته مجلة الفتح . وجرى بيننا وبين سعادته وسماحة الرئيس في المسألة مالا ينبغي لنا ان ننشره لانه من امانة المجالس ، ثم جرى حديث آخر في جلسة مجلس ادارة الرابطة الاخيرة . وقد علم من كل هذه الاحاديث ان هيئة تحرير مجلة الرابطة ستبين رأيها في انتقاد مجلة المنار لها بما يصح ان يبني عليه رأي مجلس الادارة فيها - وكذا الرأي الاسلامي العام الاولى . فعسى ان يوفق صاحبها السماحة والسعادة الرئيس والوكيل الى انتياش المجلة من الورطة التي نشبت فيها بشلوذ الاستاذ رئيس التحرير الذي لم يعرفا كنهه من قبل ، وان ما نعهده فيهما من الحنكة والحلم والروية جدير بان ينتصر على ما عنده من الشره والحدة والاصرار ، وقد بلغنا انه يستعد للانتقام منا بنقد التفسير وغير التفسير من الآثار والمطبوعات . وما نقده بالذي يخيفنا ونحن نعرض كل ما نكتبه للنقد وننشر ما يرسل اليينا منه وان كان تجهيلا وتضليلا ، حتى لامنا خيل قراء المنار على اضاعة اوقاتنا واوقاتهم في ذلك ، وانما نحسب حسبا لما عسى ان يكون لاطلاق العنان له في مجلة الرابطة من تأثير سيء في جمعية الرابطة وتأثير اسوأ في جميع المسلمين ، وانا للجزء الثالث منها المنتظرون .

نحن وصاحب المنار

بين الشيخ رشيد رضا صاحب المنار وبين المشرف على تحرير هذه المجلة خصومة قديمة العهد معروفة ، ولقد كان يحسن بهذه الخصومة ان تبقى بعيدة عن عمل لا شأن له بها ، وعن اناس لا يعنيهم من امرها كثير ولا قليل ، ولكن الشيخ رشيد يابى الا ان تتغلب على اعصابه ومشاعره تلك الخصومة وتملأ عليه مشاغله واوقات حياته ، فهو لا يبرح متأثرا بها في جليل اعماله وصغيرها وفي خاصها وعامها ، كانما صغرت نفس الشيخ رشيد وضائق صدره حرجا بتلك الخصومة فهو لا يرى في الوجود غيرها ولا يشعر الا بها ، او كانما كبرت في نفسه تلك الخصومة حتى ملأت عليه فجاج الارض وسدت في وجهه منافذها .

اما المشرف على تحرير هذه المجلة فقد عرف لهذه الخصومة حقا واراد ان يقف بها عند حدودها ، فلا يخلط بها ما ليس له بها صلة ، ولا يلقي اعباءها على اناس لا ينبغي ان ينالهم من عبثها شيء . واما الشيخ رشيد فانه لم يستطع ان يصون نفسه عن التورط في تلك الخصومة واثارتها في غير مواطنها ، ولم يستطع ان يتخلص في وقت من الاوقات من سلطان الحق والضعيفة عليه فاذا هو يستقبل خبر هذه المجلة بغمز المشرف على تحريرها فيه من قبل ان يظهر العدد الاول منها ، ومن قبل ان يعرف منهجها واسلوبها ، لم يستطع الشيخ رشيد ان يحيى الاعلان عن مجلة الرابطة الشرفية ولا ان يستقبلها بكلمة سالحة غير ان يقول : « نحمد الله ان آن اصدار هذه المجلة التي قررنا اصداؤها من اول العهد باتشاء الجمعية

ولكن نخشى ان يظهر فيها شيء من شذوذ المراقب الذي يسوء جميع المسلمين كدفاعه عن الترك وثناؤه على خطة حكومتهم في نبد الاسلام وراء ظهورهم ومحاولة ازالة كل اثر له في شعبهم ولكن الرجاء في سماحة الرئيس وسعادة الوكيل ان يحولا دون ذلك ، فالمراتب لابد له مراقبة .

ظهر العدد الاول من المجلة فلم ينظر الشيخ رشيد اليه الا من وراء الدغل والسخيمة غطي على سمعه وبصره غشاوتهما ، ولم يشعر ازاءه الا بما يأكل قلبه من خصومة المشرف على التحرير ، فكتب ينتقد العدد الاول ، وما ينتقد في الحقيقة الا شخص المشرف على تحريره ، وما يقول عن العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية الا حديثا مكررا من حديث الذي رمى به المشرف على التحرير من قبل قال :

« صدر العدد الاول من مجلة الرابطة الشرقية فلما هي مجلة تؤيد ما يسميه ملاحدة هذا العصر بالتجديد اللاديني وتحرير المرأة المسلمة وتدافع عن الترك والفرس والافغان فيما يحاولونه من تجديد يهدم الاسلام على احتراش قليل من التعبير هو اقرب الى الدفاع عن مصطفى كما وامان الله خان منه الى الهجوم عليهما وينبئ عن الخشية عليهما من الفشل لا من تمنيه لهما ... » .

قرأنا هذا الكلام فضحكنا وقلنا رجل لا يفتح عينه الا رأى المشرف على تحرير هذه المجلة ، ولا يرهف أذنه الا سمع المشرف على تحرير هذه المجلة ، وهو لا يقدر ولا يفكر ولا يقرأ الا رأي المشرف على تحرير هذه المجلة واصحابه واصدقائه ينوشون عقله وقلبه وحسه من قريب ومن بعيد ، ينفصون يومه ، ويؤرقون نومه ، ويظليون همه ، ويمدون غمه ، ويفسدون عليه كل شيء فهو كما قال الشاعر :

مازلت تحسب كل شيء بمدها

خيلا تكرر عليكم ورجلا

والاشباح التي تخيف الشيخ رشيد كثيرة مختلفة الأنواع ، تأتيه من فوقه ومن تحته وعن ايمانه وعن شمائله . فمصطفى كمال يفزعه ، وامان الله خان يروعه ، وشاه الفرس يزعجه ، ودعوة التجديد تخرجه عن طوره ، وما اقل ما يستقر الشيخ في طور . . . ولكن هذه الاشباح ملححة عليه تكاد تقض مضجعه . . . الم تر اليه ينكر على العدد الاول من هذه المجلة انها لا تمنى الفشل للفرس والترك والافغان ، كانما اتشئت هذه المجلة لتتمنى الفشل للامم الشرقية الناهضة ، ولتقطع ما بينها من صلة يجب ان توثق ، وتدمر ما فيها من امل يجب ان يشيد ، وتبسط ما فيها من عزيمة يجب ان تقوى ، وتحارب على الاجمال ما فيها من نهضة حياة يجب ان تجتمع الجهود على نصرها وتأييدها وتوجيهها الى الخير وقصد السبيل .

والشيخ رشيد محرف للكلم عن مواضعه ، وكانما قد خلق الله نفسه معوجة لسانه ، لا يمر بنفسه المبدأ الصحيح والمذهب القيم حتى يفسد ويلتوى ، كما لا تجري على لسانه الكلمة المستقيمة حتى تقبح وتشوه . واماوضح دليل على ذلك ان يحتكر فلسفة الاستاذ الامام ودعوته الى الخير والاصلاح فاذا هذه الدعوة المضينة الحية الحرة قد مرت برأس الشيخ رشيد فظهرت في اثارة مظلمة ناشرة للظلمة ، ميتة باسطة لسلطان الموت ، جامدة مسرفة في الدعوة الى المجهول وسفولاذ هو يتمنى الفشل للامم الاسلامية الناهضة . ولو عاش الاستاذ الامام وشيخه جمال الدين ، ولو قد رايا مثل هذه النهضة في الامم الاسلامية لكانا بذلك اسعد الناس واشدهم غبطة . ولاطمانا وورضا واستقبلا جوار ربهما سعيدين بان جدهما لم يذهب سدى ، وبان جهدهما قد آتى ثمره يانعا طيبا ، واذا الشيخ رشيد أشد الناس اسرافا في تكفير المسلمين ، وتفسيق الصالحين ، والاحتكام على الله عز وجل في الثواب والمقابيل .

ولو قد هاش الاستاذ الامام فرأى الشيخ رشيد يسيء الى كلمة الله هذه الاساءة لاسرع الى ما بينه وبينه من سبب فجلبه في غير

أناة ولا فتور . وكيف وقد كان رحمه الله أشد الناس بغضا للتكفير
والتأثيم ونفورا من رمى الناس بالالحاد والخروج على الدين .

ضحكنا من الشيخ وأعرضنا عنه وما أكثر ما نعرض عنه من
لغو القول .

ولكن العدد الثاني من مجلة الرابطة الشرقية قد ظهر ، فلم يكذب
ينظر فيه حتى أخذته الصاعقة ، ودأبت به الأرض ، وخر عليه السقف
من فوقه ولم لا ؟ إله تتمثل له هذه الأشباح التي تخفيه تفزعه وفيها
الترك والفرس والأفغان حية قوية الحياة ، ناهضة سريعة النهضة ،
مجددة حريصة على التجديد ؟

أليس بعض هذا يكفي ليذهب بصواب الشيخ رشيد ! أليس
المشرف على تحرير هذه المجلة ينشر أخبار هذه الأمم الحية الناهضة .
يفسر ويعلق ويتمنى القوز ولا يتمنى الفشل . ومن حوله أصحابه
وأصدقائه يرون نهضة الأمم الإسلامية فيدوسونها ويفسرونها ويحاول
كل منهم أن يوجهها إلى قصد السبيل ، أليس بعض ذلك كافيا ليكفر
الشيخ رشيد نفسه ثم ليكفر الناس ؟!

وذلك ما فعل الشيخ رشيد أسرع إلى هذه الملعنة المنكرة التي يوفل
بها في الشر ويوضع بها إلى الفتنة ، أسرع إلى مصلته المنكرة وهي قلمه
فرمى عالمين من علماء الإسلام هما صاحباً الفضيلة مصطفى عبد الرزاق
وأحمد أمين بالالحاد واللا دينية . لماذا ؟ لأن أولهما كما يقول الشيخ
رشيد (شقيق المشرف على تحرير المجلة) ولأن الثاني فيما يظهر صديق
للمشرف على تحرير هذه المجلة . كان الاتصال بالمشرف على تحرير هذه
المجلة بصلات الرحم أو المعرفة قد أصبح مصحواً للادينية !

ومن عجيب الأمر أن ينكر هذا الشيخ على الاستاذ مصطفى عبد
الرازق أنه أظهر أهل الشرق على رأي جماعة من علماء الغرب فيهم في

امانة وصدق ، دون أن يظهر رايه الخاص في هؤلاء الناس وما يرون .
كان من الحق عليه الا ينقل رايه حتى يبين حكمه عليه ورأيه فيه .

اما الاستاذ أحمد أمين فلم ينكر عليه الا اسمه وانه يرى من الخير
للشرق أن يجد في الأخذ بأسباب المدينة الغربية .

ولكن وراء الأكمة ما وراءها . فنحن نعرف ماذا ينكر على هذين
الاستاذين ، ينكر عليهما قبل كل شيء انهما من العلماء الذين يسمع
الناس لهم في غير شك ولا ريبة ولا تظنن ، وان لهما من الواجهة العلمية
والدينية ما يتقطع دونه (نستغفر الله بل دون بعضه) نياط قلب
الشيخ . وينكر على أولهما بنوع خاص انه كان أشد الناس اتصالا
بالاستاذ الامام ، وانه ورث علم الاستاذ وفلسفته ودعوته الى النهضة ،
وانه ظل في الدعوة الى طريقة الاستاذ ماضيا مخلصا مستقيما ، لم
يفسد عليه الامر في ذلك ضعفه ، ولا طمع ، ولا رغبة ، ولا رهبة ، ولا
خور ، ولا تهالك على حطام هذه الدنيا يتلقطه من هنا ومن هناك ، يدل
في سبيله نفسه . ويبيع في سبيله دينه وضميره ، وانه فوق هذا كله
اعلم الناس برأي الاستاذ الامام في هذا الشيخ وامثاله من الادعياء وأقدر
الناس على أن يظهر هذا الرأي فتكسد يومئذ بضاعة ، وتخيب يومئذ
آمال ، وتضمحل يومئذ عزائم .

ويصل الدعي الى الدكتور هيكل بك ، والدكتور هيكل بك صحيفة
سيارة ، ونفس الدعي جزعة خوارة ، وقد طالما جرحته السياسة بأنياب
وأضراس ، فهو لا يمس الدكتور هيكل الا مساً رقيقاً . وأي شيء ينكر
على هيكل ؟ ينكر عليه أن ينتظر أن يبعث من الشرق روح ديني يصلح
الغرب في مستقبل الايام كما كان الامر في الماضي . ولم يذكر هيكل ديناً
جديداً وانما ذكر ديناً قد يكون الاسلام . وهنا روى الشيخ رشيد عن
السيد جمال الدين حديثاً أن صح الزمه الحجة وأقلم عليه البرهان ،
وان لم يصح (وما نخاله صحيحاً) كان دليلاً جديداً على أن الشيخ
رشيد يكذب ايضاً على السيد جمال الدين الافغانى .

زعم الشيخ رشيد أن السيد جمال الدين كان يقول :

« إذا أردنا أن نقنع الأوروبيين بحقيقة الاسلام واصلاحه وجب أن نقتنعهم قبل ذلك بأننا لسنا مسلمين » أسمعت ؟ أوعيت ؟ كان السيد جمال الدين إذا يكفر الامة كلها ويقر على نفسه بالكفر ! فان يكن هذا صحيحا فالذين يدعون الى التجديد انما يريدون أن يخرجوا الامة من هذا الكفر الذي أقر به عليها السيد جمال الدين وما يزال يتبعه في ذلك الشيخ رشيد ، هم يريدون أن يردوها الى الاسلام صحيحا سمحا كما خرج من منجمه ونجم من معدنه ، ولكننا نعتقد أن السيد جمال الدين لم يقل هذه الكلمة المنكرة ، وقد كان أظهر نفسا والذكي قلبا وأبصر بالصواب من أن يرمي أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالكفر والاجتماع على الضلال ، انما هو نزغ الشيطان جعل الشيخ يتورط في الالتم وبورط معه فيه أئمة الدين والهداة الى الحق ، كذب على السيد جمال الدين كما كذب على الاستاذ الامام وكما يكذب على الله نفسه عز وجل حين يصل الى الدكتور طه حسين فينكر عليه انه يريد أن يختص علماء الدين بالوعظ والدعوة الى الله وان يتركوا الدنيا لاهل الدنيا ، فيزعم أن الله قد خلق الوظائف المدنية وغيرها من شؤون الدنيا لعلماء الدين ، ويستدل على ذلك بآيات كل ما تدل عليه أن الله إباح للناس أن ينتفعوا بكل ما خلق لهم . فمن أنكر هذا ؟ وأي صلة بين هذا وبين انصراف علماء الدين عن الوظائف المدنية وشؤون الدنيا الى الوعظ والدعوة الى الله ؟ ولكن الشيخ رشيد لا يريد أن ينصرف علماء الدين عن الدنيا لانه يحسب نفسه عالم دين ولانه يريد أن يأخذ بحظه من الدنيا ، واهل يعيش الشيخ رشيد الا للدنيا ؟ وهل يطلب الشيخ رشيد حظه من الدنيا الا من طريق الدين ؟

وينكر الشيخ على المجلة أنها نشرت للاستاذ سلامة موسى مقالا عن الحضارة في الشرق والغرب دعا فيه صاحبه الى ايشل الحضارة الغربية ، ومس فيه نظام الميراث الاسلامي . وسوء نية الشيخ في هذا ظاهرة ، فالاستاذ سلامة موسى مسيحي يعرف الناس جميعا منه ذلك ، متطرف

في نزعتة الى التجديد وقد يعرف الناس منه ذلك أيضا ، وقد أخذت مجلتنا نفسها بأن تكون لسانا للشرقيين جميعا لا تفرق بين أديانهم وأجناسهم ولا تنصر ديننا على دين ، كما أنها لا تنصر جنسا على جنس لأنها مجلة إخوان لا مجلة تفريق . ومن حق الشرقيين جميعا عليها أن تنشر لهم آراءهم القيمة ومباحثهم ما لم يتجاوزوا فيها حد الأدب والقانون . وهي حين نشرت مقال الاستاذ سلامة موسى لم تتجاوز أن قامت بإجابه الذي فرضته على نفسها كما أنها لم تبج لنفسها أن تتجاوز الانصاف فطلقت على هذا المقال وبرئت من تبعته ووضعت الامر في نصابه . وكان الذي وضع هذا الامر في نصابه ودافع عن نظام الارث الاسلامي الدكتور منصور فهمي الذي يراه الشيخ من دعاة اللادينية .

ولكن الشيخ رشيد احرص على الاسراف في سوء النية من أن يعرف للمجلة والدكتور منصور انصافهما واقرارهما الامر في موضعه .

وبعد فماذا يريد الشيخ رشيد الى هذه المجلة وأصحابها والذين يكتبون فيها ؟ فان كان يريد أن تكون نسخة من المنار وإن يكون أصحابها وكتابها صورا من نفسه فالمجلة وأصحابها وكتابها اكرم على أنفسهم واحب للشرق والحق من أن يتورطوا في ذلك ، وهم إنما يجدون ويكتبون ويبدلون ما يبدلون من جهد ليستنقدوا الشرق من اناس فيه لا يدعون الى خير ، ولا يريدون الا النفع ، ولا يبتغون من الدين والعلم الا افس امراض هذه الحياة . وإن كان يريد من هذه المجلة وأصحابها وكتابها أن ينظروا الى هذه النهضة الشرقية نظرة من يقدرها ويريد أن يؤيدها ويوجهها الى قصد السبيل فذلك ما فعلوا وما سيفعلون . وخطيق بالشيخ رشيد أن يتبعهم في ذلك أن استطاع .

هذه سبيل المجلة ستمضي فيها راشدة ان شاء الله ولا نف الكاشح الرضم .

المصدر : مجلة الرابطة الشرقية ، القاهرة - العدد الثالث - السنة الاولى ، فبراير ١٩٢٩ .

قطيعة الماضي

سلامة موسى

اننا مع احترامنا الجراءة القوية التي امتاز بها الاديب المعروف الاستاذ سلامة موسى في بحوثه لا يسعنا الا ان نكون على خلاف معه في نظريته التي ترمي الى قطع كل صلة لنا بالماضي . لاننا نعتقد ان اندفاعنا نحو اقتباس ما في المدنية الحديثة من خيرات لا يمنعنا ان نستجلي غوامض الماضي ونعرف ما فيه من خير وشر ، والخطبة التي نسير عليها في « الحديث » . تلخص كما اوضحنا كثيرا فيما يلي :

- ١ - ان ندرس ما صنعنا درساً نأخذ منه كل عبرة تنير امامنا طريق السير .
- ٢ - ان نلهم بخيرات المدنية الحديثة بدون ان يكون ذلك وسيلة لمحو كياناتنا وقوميتنا . فمع احتفالنا بهذا الرأي ننشر مقال الاستاذ على غلاته .

في مصر بل في سوريا والعراق وسائر الاقطار العربية أيضا نجد طبقة صغيرة من الناس يتعلقون بالماضي . وليس تعلقهم عن رغبة في الدرس والبحث وانما هو تعلق بقوم على الكرامة القومية بتمجيد السلف .

وعندنا من هؤلاء الممجدين السلف من يدفعهم احترامهم له الى استنقاص الحضارة الاوربية الراهنة حتى لينشأ في اذهانهم ما يمكنني ان اسميه « مركب التاريخ » أو « مركب السلف » فيتعلقون بكل ما هو شرقي ويكرهون العادات الغربية ويتكلمون عن اسيا كأنها وطنهم . وفي مصر من هؤلاء طائفة التفت رابطة أطلقوا عليها اسم « الرابطة الشرقية » يدافعون فيها عن الشرق وعاداته وتاريخه .

ومثل هذه الجهود توهم الناس اننا شرقيون . والواقع عكس ذلك
فالنا نحن والسوريون والعراقيون من حيث الدم سلالات آرية اي
غربية لا تمت باية صلة الى الصينيين او اليابانيين . وهؤلاء الصينيين
انفسهم عندما قام في اذهانهم ان ينهضوا ويجاروا اوروبا في التقدم والرفي
عمدوا الى ماضيهم فانكروه فتركوا الايمان بالالهة القديمة واصلحوا
اللفة حتى جعلوها اشبه بالعامية الفاشية بين سواد الامة . اما اليابان
فلارتقاؤها لا يرجع الى مسبب آخر سوى تفرنجها اي تملصها من
تاريخها وعاداتها . فهذه الامم الشرقية لم تتقدم بتعلقها بالسلف
واحترامه بل بتركه والانضمام قلبا وقالباً الى اوروبا واصطناع الحضرة
الغربية .

ويجب ان نذكر ان هذا الماضي الذي يطلب منا تمجيده هو بالنسبة
الينا بمثابة عهد الطفولة للشباب ، كله جهالات وسخافات ليس يصح
الافتخار بها . اجل ، لقد كان اسلافنا يؤمنون بالرق ويرتكبون في سبيله
اكبر الجرائم التي اوقعها انسان بانسان ، وكانوا يعيشون راضين
بالحكومة الاوتوقراطية يتسخروهم اي طاغية لقضاء اوطاره السافة . ولم
تكن قصور ملوكهم سوى مواخير تعج عجيجا بالنساء بينهم فحل عظيم
هو الملك او الخليفة . وكانوا في حروبهم يشربون دماء اعدائهم ويفخرون
بذلك . وكان هذا السلف يرضى في مصر وسوريا بان يحكمه ويستبد
به مختايث اوغاد يدعون الممالك ..

اني اذكر بمناسبة الدعوة الى احترام الماضي ما ذكره التاريخ من
ان « كليبو بطرة » كانت زوجة اخيها ومن ان ام عمرو بن العاص كانت
زوجة لاربعة رجال في وقت واحد . واذكر ما كتبه الطبري عن يزيد
ابن المهلب ، فقد كان هذا القائد المشهور في جرجان فثار عنهم السيف
« فاعطى الله عهدا لئن ظفر بهم ان لا يقلع عنهم ولا يرفع عنهم السيف
حتى يطحن بدمائهم ويختبز من ذلك الطحين وياكل منه » قال الطبري :
وبريمينه « فطحن واختبز واكل » فهل مثل هذا السلف جدير بالاحترام ؟

كلا ، انما واجبنا الا قطيعة الماضي واختطاط الخطط الجديدة للمستقبل فان روح هذا الماضي لا تألف وروحنا ، ويخشى ان اشبع قلوب الناس بالماضي ان يتجهوا للمستقبل فيرون في المخترعات بدعا مكروهة وينظرون للعالم المجد نظرة المداء الذي يولده الاختلاف في النظر ويعتادون معايرة الاشياء بمعايير عتيقة .

لقد كان الاوربيون في القرون الوسطى يحترمون السلف ويعاقبون التلاميذ اذا خالفوا رأيا من آراء « ارسطاطاليس » ويحرقون بالنار من يتجرا على انكار شيء قال به الانجيل او التوراة . فكثروا لذلك يعيشون في ظلام وظلم يخيم عليهم الجهل ويسودهم الاستبداد وكانت مدارسهم تجري في تدريسها على الانماط المتبعة الآن في الانهر حيث لا يزال ارسطوطاليس حيا في « المنطق » وشروحه حواشيه وحيث « الكلام » موضوع من اهم موضوعات الدرس .

تم جاءت النهضة فقام كل من « ديكوت » و« بيكون » يقول بالشك في جميع ما قاله او آمن به القدماء وشرع العلماء يدرسون الاشياء من جديد لا يصدقون شيئا لاتقره التجربة او الحواس حتى ساد العقل وشرعت اوربا تكتشف وتخترع وحتى طفى سبيلها على الشرق فاستعبده وحق لها ان تستعبده ما دامت هي تنظر للمستقبل وتعد له عدته بينما هو لا يزال ينظر الى الماضي ويتقيد بتقاليده .

ونحن كذلك يجب ان نهض بقطيعة السلف فلا نحترمه ولا نحقره بل ننظر اليه بصفة كونه يمثل طورا من اطوار الانسانية قد عدونا كما يعدو الشاب طور الطفولة . ثم نشرع بعد ذلك في اختطاط الخطط الجديدة في الاخلاق والاداب والعلوم . فلذا تكلمنا عن الزواج وجب الا نلتفت الى ما كان يفعله اسلافنا قبل الف عام ، واذا كتبنا في الادب وجب الا نذكر ما كان يرتأيه الجاحظ او الجرجاني . اما في العلوم فيجب ان نعرف اننا نحترث ارضا بكرا بالنسبة لبلادنا لم تشقها بعد سكة محراث .

هذه هي خطة الشباب الجديد الذي يؤثر ركوب الطائرات على ركوب
الحمير الكراء ويؤثر المجازفة في سبيل الوقوف على حقائق هذه الدنيا
مع التعرض للخطأ على الركود والدعة والاستئمة الى العقائد القديمة .
ويؤثر اللحاق بلوربا على الرضى بان ينزل مع الشرق المميت على قدم
المساواة ، بل أقول يؤثر المعرفة المبنية على العلم على العقيدة المبنية على
الإيحاء .

وإذا كان الشرق جديراً بالنهوض فلينهض وليبارك الله على نهضته وعندئذ
نسير معاً أما إذا كان يختل لنفسه خطة السلف فليبق في مكانة
فلسفنا نرضى نحن بالوقوف معه لأن الوقوف في هذا العالم هو بمثابة
التهيق للانقراض ونحن نريد أن نحيا فان في نفوسنا شهوة شريفة للتطور
ونزعة قاهرة للسمو كلناهما تدعونا الى أن تكون اقوياء مستترين مخترعين
مكتشفين مثل أهل أوربا . وهذا لا يكون أبداً بكثرة التلفت الى الماضي
والصباغة الدائمة الى الثقافة القديمة .

سلامة موسى

المصدر : مجلة الحديث : السنة الثانية ١٩٢٨ العدد الاول كانون الثاني .

قطيعة الماضي*

ساطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨

يدعو سلامة موسى في مقاله هذا الى « قطيعة الماضي ، واختطاط الخطط الجديدة للمستقبل » .

١ - فيقول : « يجب ان نشرع في اختطاط الخطط الجديدة في الاخلاق والآداب والعلوم . فاذا تكلمنا عن الزواج وجب الا نلتفت الى ما كان يفعله اسلافنا قبل الف عام . واذا كتبنا في الادب وجب ان لا نذكر ما كان يرتأه الجاحظ او الجرجاني . اما في العلوم فيجب ان نعرف اننا نحرث ارضا بكرًا بالنسبة لبلادنا ، لم تشقها بعد سكة محراث » .

اننا نتفق مع الكاتب في هذه الملاحظات ، من جميع الوجوه لاننا نعتقد بوجوب التجديد في جميع مناحي الحياة - من ادبية وعلمية وصناعية وزراعية ودينية واجتماعية . . ونقول باننا في حاجة عظمى الى تحويل انظمة الحياة في بيوتنا ، والى تغيير اساليب التفكير المسيطرة على نفوسنا .

لكننا نفترق عن الكاتب ونخالفه في ميئه الى جمل « فكرة التجدد » معادية « للفكرة القومية » - كما فعل في مقالات عديدة - وفي قوله ان ماضيها « كله سخافات وجهالات ، لا يصح الافتخار بها » كما صرح في مقاله الاخير .

(*) سلامة موسى ، في : مجلة الحديث ، العدد الممتاز .

« اننا نعتقد بأن » السخافات والجهالات « الموجودة في ماضينا ليست اعظم ولا اكبر مما وجد في ماضي أمة من الامم الراقية التي نعرفها ، ولا نراها في حاجة الى بيان مبلغ مباهاة تلك الامم بتاريخها ، او الى ذكر قيمة آثارها الفنية المستخرجة والمستلهمة من اساطيرها .

فلا يفوتنا مثلا ان اشد انصار الديموقراطية والجمهورية في فرنسا لا يتأخرون ابدا عن تعظيم وتبجيل لويس الرابع عشر ، مع علمهم بأنه كان من اكبر المستبدين . فلماذا لا نفتخر نحن ايضا بالأمم وهرون الرشيد ، وان علمنا « ان كلا منهما كان حاكما مستبدا » ؟

كان المؤرخ الشهير « ارنست لافيس » يقول بوجود الاخذ بمبدأ « المشروعية المتتالية » *Légitimités Successives* في مثل هذه الاحوال : ان لكل دور احكاما ، ولكل جيل خصائص ، فحكمنا على كل من ادوار التاريخ يجب ان يكون حكما نسبيا ، بالنسبة الى الظروف المحيطة به وليس بالقياس الى درجة حضارتنا هذه ، كما ان حكمنا على رجل من رجال التاريخ يجب ان يعتبر باحكام زمانه وخصائص جيله ، فلا يقيس احواله على مقاييس الاجيال التي اتت من بعده .

فالذي يجب علينا في هذا الباب ، هو اذن تغيير اسلوب نظرنا الى التاريخ ، لا تحويل اذهاننا عنه .

علينا ان نستمد قوة من التاريخ ، ليس لتقليد اجدادنا وتحدي المسلك الذي سلكوه من قبلنا ، بل لتقوية وتشديد عزائمنا لبلوغ منزلة سامية من حضارة العصر الذي نعيش فيه ، كما بلغ اجدادنا من قبل تلك المنزلة السامية من حضارة القرون التي عاشوا فيها . .

٢ - ينتقد سلامة موسى جهود « الرابطة الشرقية » ويقول :

« مثل هذه الجهود توهم الناس بأننا شرقيون ، والواقع عكس ذلك ، فالتنا نحن والسوريون والعراقيون من حيث الدم سلالات آرية غريبة لا تمت بأية صلة الى الصينيين او اليابانيين » .

نحن لسنا من الداعين الى الرابطة الشرقية ، ولا من القائلين بها .
فاننا لا نعتقد الا بالرابطة القومية - التي تستند على اللغة والتاريخ -
ولا ننظر الى كلمات « الشرق والشرقي والغرب والغربي » الا كاصطلاحات
جغرافية ، ولكننا مع ذلك نستغرب « البرهنة » التي اختلها سلامة
موسى ردا على فكرة الرابطة الشرقية . اذ اننا نجد فيها عدة مدعيات
تناقض الحقائق العلمية كل المناقضة : لم يسبق لنا العلم بان « علماء
الاقوام » يعتبرون المصريين او السوريين او العراقيين من سلالات آرية
كما اننا لا نفهم الداعي الى الخوض في مسألة الدم والسلالات في مثل
هذه الابحاث . فهل كل الامم الغربية « آرية » ؟ وهل جميع الامم
الشرقية « غير آرية » ؟ كلا ! فان في اوربة عدة امم غير آرية : مثل
الهنغار والفنلانديين ، والاستونيين ، كما ان في اسيا عددا غير قليل من
الامم الآرية : كالفرس والافغان والهنود . فلو سلمنا - مع سلامة موسى -
باننا من الامم الآرية - رغما عن مخالفة ذلك للحقيقة - فماذا يمكننا ان
نستنتج من هذه القضية ؟

نقول هذا ، لا بقصد الدفاع عن فكرة الرابطة الشرقية ، بل بقصد
اعطاء مثال بليغ على ما تنطوي عليه بعض المقالات من مخالفة الحقائق
بالرغم من « مظهرها العلمي » الخلداع .

٣ - يحاول سلامة موسى ان يبرهن على وجوب « قطيعة الماضي »
بذكر الخطط التي سلكتها الامم الشرقية الناهضة ، ويقول :

« ان الصينيين عندما قام في اذهانهم ان ينهضوا ويجاروا اوربة في
التقدم والرقى عمدوا الى ماضيهم فلذكروا ... »

« اما اليابان فارتقاؤها لا يرجع الى مسبب آخر سوى تفرنجها ،
اي تملصها من تاريخها وعاداتها » .

« فهذه الامم الشرقية لم تتقدم بتعلقها بالسلف واحترامه ، بل
بتركه والانضمام قلبا وقالبا الى اوروبا واصطناع الحضارة الغربية » .

لا شك في أن الأمم تركت كثيرا من تقاليدنا القديمة ، كما أنها اقتبست جميع اساليب الحضارة الغربية وآلاتها . ولكنها هل « انكرت يا ترى تاريخها » حقيقة ؟ هل « تملصت منه » فعلا ؟ كلا ؟ فاننا نعلم أن اليابانيين تجددوا كل التجدد واقتبسوا الحضارة الغربية بمدى واسع ، من غير أن يتساهلوا في شيء من مقوماتهم القومية ، وبدون أن ينكروا شيئا من تاريخهم الوطني ، وبدون أن يقللوا احترامهم لاسلافهم العظام . حتى أنهم اخذوا يحترمون اسلافهم أكثر من ذي قبل ، فانهم لم يبدأوا باقامة احتفالات سنوية بتتويج امبراطورهم الاول - الذي عاش على زعمهم ستة قرون قبل الميلاد - الا سنة ١٨٩٠ .

وقد قال « لودوفيك لودو » في كتابه عن « تطور اليابان الحديثة ما يأتي : « حادث غريب : ان اليابان ، على تقليدها اوروبية ، تحاول ان تعيد بناء ماضيها نفسه ، وان تخلق لنفسها تاريخا » (*) .

وقد قال « فليسيان شالي » في احد الدروس التي القاها في « مدرسة الابحاث الاجتماعية العالية » عن اخلاق اليابان .

« ان تاروب اليابان لم يكن تاروبا عاما ولا تاروبا سطحيا ، بل هو تاروب محدود بحدود وضعت عن قصد وعلم : ان اليابانيين قبلوا تأثير اوروبا في بعض المناحي عن قصد وشعور ، رفضوه في بعض المناحي الاخرى كذلك عن قصد شعور .. » .

وقال ايضا « لم يتطور اليابانيون الا لكي يحافظوا على عاداتهم المحبوبة . لقد تاوربت اليابان ضد اوروبا ، لكي تبقى أكثر يابانية من ذي قبل . »

فكيف يجوز لنا والحالة هذه ان نقول ، « ان ارتقاء اليابان يرجع الى تملصها من تاريخها وعاداتها » ؟!

L. Nandea, Le Japon moderne, p. 184.

*

المصدر : ساطع العصري احاديث في التربية والاجتماع - الاعمال الكاملة (٢) مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٢ ولم نستطع تحديد مكان وتاريخ نشر المقالة للمرة الاولى .

حياتنا العقلية

الإحاد ام إصلاح - حقيقة النزاع بين طائفتين

للدكتور هيكل بك رئيس تحرير السياسة

تفضل أحد الصحفيين الفلسطينيين بزيارتي منذ أيام لمناسبة مروره بالقاهرة من غير أن تسبق بيني وبينه معرفة ، وكنت أحسب بإدري الرأي أن الزيارة ستقتصر على تبادل التحية والسؤال عن أحوال مصر وفلسطين والبلاد العربية . لكنني تبينت من زيارة الزميل غاية أخرى سررت بها وبالنتيجة التي بلغتها منها . وكان أول ما عبر به حضرته عن غايته هذه أن سألني إن كنت لا أرى الخير لبلاد الشرق والامم الاسلامية جميعا في عدم تعرض كاتب أو صحفي لشيء من عقائدها بنقد ، وفي عدم بث الدعوة للحضارة الغربية وما يتبع هذه الحضارة من ترف مدلل ، وبالجمله في عدم ترويج فكرة الإلحاد ؟

وقد سرنى هذا التلخيص للفكرة ، وسرنى أكثر من ذلك أن أرواد صاحبها المناقشة فيها لا مجرد اتخاذ لفظ من الالفاظ أو عبارة من العبارات صيحة حرب أمام الجماهير . ويسرنى الآن أن أخص لقراء الجديد ما دار بيني وبين فضيلة الشيخ من حديث انتهى الى قوله :

- إذن فالمسألة بينكم وبين الآخرين سوء تفاهم . ولو انكم تفاهمتم لما كان لخلاف موضع . واني اصدقك اني جئت الى هنا بفكرة غير المفكره التي انتهيت الان اليها .

يسرني ان اخص هذا الحديث لانه يصف الواقع في مصر وفي غير مصر من بلاد الشرق ، ويدل دلالة واضحة على ان سوء التفاهم الذي اشار اليه محدثي في ختام خطابه انما ينشأ اكثر الاحيان بسبب تضارب المصالح الخاصة . وكثيرا ما جنت هذه المصالح الخاصة على اخلاص الناس لمقائدهم وافكارهم وعلى ايمانهم بهذه العقائد والافكار .

قلت لمحدثي جوابا على سؤاله الاول :

— الحقيقة ان ليس ثمة في هذه البلاد ولا في غيرها من البلاد العربية إلحاد ولا دعوة اليه . وانما الإلحاد لفظ ابتدعه قوم ليحلوا به أمام الجماهير كل من يتصدى للإصلاح . ويسير عليك ان تقدر ذلك اذا ذكرت الواقع التي يقال هذا اللفظ فيها . فقانون يراد سنه لا تقام أضرار تصدد الزوجات ويراد به أن لا يكون التعدد إلا لضرورة يقرها القاضي فيقتل هذا إلحاد . وقانون آخر يراد سنه لا تقام أضرار الوقف الاهلي الذي أصبح عند الناس ذريعة للفرار من التورث الشرعي كما أصبح مقبلة اقتصادية في سبيل التطور الحديث فيقال هذا إلحاد . وبنك يراد انشاؤه ليودع الناس فيه أموالهم ويقبضوا عنها فائدة مقابل استغلال البنك إياها فيقال هذا ربا والسماح به أو الدعوة اليه إلحاد . هذا مع ان اذن القاضي في التعدد وفي الطلاق مما أفتى بها علماء مسلمون من مئات سنين ماضية ، ومع ان الوقف الاهلي غير جائز في رأي أبي حنيفة ، ومع ان الاشتراك في فائدة الاستغلال غير الربا المقصود به ارهاق المدين بفائدة الدين فائدة لا يصل اليها من السعي الحلال . فهل يعتبر لفظ الإلحاد الذي يقول به أصحابه في مثل هذه المواقف الا صيحة حرب يربطون بها أغراء الجماهير بخصومهم أغراء قبيحا .

« وفيم الدعوة الى الإلحاد ونحن في الشرق بحاجة الى اصلاح سريع لا محل معه للأبحاث التجريدية التي يلجأ اليها الذين يقصرون حياتهم على التفكير في الملة وما وراء الملة ؟ فيم كل هذا وكل دواع الى دعوة في بلد يحتاج الى الإصلاح انما يرجو من وراء دعوته أن تكون عاملا في التعجيل

بهذا الإصلاح ؟ نحن نعلم أن الاسم لا تستطيع أن تعيش من غير دين .
وفرنسا التي انتشرت فيها أفكار الإنكار على مختلف صورته لا يبدو فيها
الإنكار قوي المظهر إلا في بعض المدن . أما في الأقاليم فالفرنسيون أشد
تمسكاً للمسيحية من الإنكليز ومن الألمان ومن الإيطاليين . فمن أضعاف
الوقت في أمم الشرق المحتاجة اليوم إلى أوليات الحياة أن يضع إنسان
وقته في الدعوة إلى مذهب خاص لا يبدو له في الإصلاح الذي يطلبه أي
أثر عاجل .

قال محدثي : صحيح أن الخلاف على قانون الأحوال الشخصية
وقانون الوفاق والمصارف وما إليها لا شأن له مطلقاً بالعقيدة ولا علاقة
له إذن بالإيمان أو بالاحلاد . بل أنا على رأيكم في أنها مسائل تراكمت
الشريعة الإسلامية شؤون تنظيمها للقاضي . والمشرع إنما يسن للقاضي
كليات لتوضح له طريق تنظيم الجزئيات . ولكن ألا ترون معي أن من
بعض المسائل ما لا محل لاثارته حتى لا يتقول غيركم عليكم ما ليس بحق
ما دامت هذه المسائل لا تمس شؤوننا ذات خطر في تقدم الإصلاح أو في
تاخره . وأضرب مسألة القبعة لذلك مثلاً . فأما المسائل ذات الخطر
فالمشايخ يوافقونكم في كثير منها كمسألة تعليم المرأة وما إليها . قلت :

« أنا معك في أن المسائل غير ذات الخطر لا تستحق إثارة جدل عنيف
حولها . ولذلك لم أعرض لمسألة القبعة التي أشرت إليها وإن كان
انصارها يعتقدون أن تغيير الزي يغير لون الحياة وطريقة النظر إليها .
لكنني يجب أن أذكر لك أن المشايخ لم يوافقونا في مسألة تعليم المرأة إلا
بعد أن رموا الداعين إليه بالاحلاد واتهموهم بأقبح التهم . فقد وضع
المرحوم المصطفى له قاسم بك أمين كتابه تحرير المرأة في سنة ١٨٩٦ .
وأنتم اليوم إذا قرأت هذا الكتاب شعرت به رغم جمال أسلوبه وتصويره
كأنه بعض كتب القرون الوسطى . فقد أنفق قاسم أمين أكثر من ثلثه
للتدليل على أن تعليم المرأة لا يخالف الدين ، وأن مزاوله المرأة شؤون
الحياة لا يخالف الدين كذلك . وعلى هذا انتقل إلى القسمين الآخرين
من كتابه عن تعليم المرأة وعن الحجاب . مع ذلك فقد رماه مشايخ ذلك

العصر بالاحاد والمروق والفسق ، وبلغ من ذلك أنه ، برغم شغله منصب مستشار في الاستئناف ، حرم من الدخول الى عابدين ومن مقابلة الخديوي . فاذا كان رجال الدين اليوم يقروننا على تعليم المرأة فذلك بعد أن جرف التيار جمودهم القديم وأصبحوا لا يستطيعون أن يواجهوا أبناءهم ولا بناتهم بجمودهم كما أصبحت مصالح بناتهم الخاصة معرضة للضرر اذا هم لم يعلمواهن .

« فانت ترى أن كل فكرة جديدة تقابل من جانب رجال الدين برمي صاحبها بالاحاد حتى تستقر وتصبح من الافكار المتداولة فيقبلونها طائعين أو كارهين . وانت ترى أن هذه الافكار الجديدة جميعا لا علاقة لها بالايمان ولا بالاحاد . فهي كلها افكار اجتماعية بحتة . وحرية الفكر التي دعونا والتي ندعو اليها هي الاخرى فكرة اجتماعية لا علاقة لها بالايمان ولا بالاحاد ، لأن المؤمن الذي لا يكون حر الفكر لا يكون في الحقيقة مؤمنا بل يكون عبد رقي في تفكيره . لكن هذه الافكار التي سبقت ودخلت في الحياة العلمية وأقرها الناس جميعا وأقرها رجال الدين بعدهم والافكار التي تقدم اليوم لتدخل في الحياة العلمية إنما هي أدوات الإصلاح الاجتماعي الذي لا بد منه لحياة أمة من الأمم أو شعب من الشعوب في هذا العصر الحاضر .

قال محدثي منتقلا من موضوع الى موضوع آخر متصل في ذهنه هو بالموضوع الاول :

- أنت ترى انكم في مصر لا تستطيعون مقاومة الانكليز بالقوة وإخراجهم عنوة من بلادكم ، كما لا نستطيع نحن إخراجهم من بلادنا عنوة . كما لم يستطع السوريون إخراج الفرنسيين عنوة . هذا مع أن انكلترا وغير انكلترا من الأمم الغربية تحسب لابن السعود وجيوشه الحساب . أفلا ترى مع هذا أن الدعوة للحضارة الغربية معناها الدعوة للترف الذي جعلكم في مصر لا تستطيعون مقاومة القوة بالقوة وأن الدعوة للفضائل الاسلامية من التقشف والزهادة والانصراف عن الملذات هي التي تمكنا من دفع نير الغرب والعود الى مثل ما كان المسلمون فيه من عزة وقوة .

وهنا دلت محدثي على أن الموضوع الذي عرض له جديد لا علاقة له بالاحلاد ولا بالتجديد والاصلاح وقلت :

— أما ان عزة الامم الاسلامية ومنعتها كانت في العصور السالفة اثرا من آثار الزهد والتقشف فذلك ما أحسب التاريخ يتشكك فيه حين يذكر ما كانت عليه عصور معاوية ويزيد والرشيد والمأمون من ترف لا نسمع اليوم بمثله . على أن القول ببقاء الغرب متحكما في الشرق بسبب ترف الشرق فغير صحيح . لأن الامم الغربية يوم فتحت او احتلت الامم الشرقية كانت هذه الامم الشرقية بعيدة عن كل ترف وكانت الامم الغربية على العكس من ذلك هي المترفة المبتغية المنبثقة من وراء الفتح زيادة في الرفاهية والنعمة . إنما تغلب الغرب على الشرق بالعلم . وبالعلم يقاوم الشرق الغرب . ونحن مع الاسف ما نزال من علمنا بعيدين عن مسابقة الغرب وإن كنت أرجو في النهضة الحاضرة بعثا عظيما . نحن ما نزال بعيدين عن مسابقة الغرب سواء في علمنا الديني أو في علمنا المدني . وآية ذلك أن العالم لا يكون عالما إلا اذا أخلص لعلومه وأرتاح للتضحية في سبيله ولم يتخذ مجرد أداة للرزق . فالعالم الديني الذي يستحق هذا الاسم هو الذي يقبل عن طواعية نفس وطمانينة ضمير كل تضحية في سبيل الدعوة لإيمانه دعوة خالصة لوجه الله والدين . فهل ترى في رجال الدين المسلمين اليوم من ذلك شيئا ؟ هل ترى منهم من يحتمل مشاق الاسفار للدعوة الى دين محمد كما يبشر المسيحيون بدينهم ؟ أم الواقع المحزن أنهم لا إخلاص عندهم لهذا الدين ولا لما تطموا منه إلا بمقدار ما يدر عليهم من رزق وما يمكن لهم من حكم . هذه حقيقة مرة ولكنها يجب أن تقال . فاما العلم المدني فقد كان الى سنوات قليلة ماضية متأثرا باحاديث السياسة ، وهذا هو اليوم يفتح ابوابه للمخلصين له المؤمنين بما في العلم من خير . فاذا نحن بلغنا من العلم ما بلغت أوروبا وعرفنا كيف نتحكم في الطبيعة تحكمها فيها ولم تكن مجرد مقلدين لاهلها فلن نستطيع أوروبا مجتمعة ان تغلب على امة بل على ولاية من أمم الشرق وولاياته .

هنا قال الشيخ تلك العبارة :

— إذن فالمسألة بينكم وبين الآخرين سوء تفاهم . ولو انكم تفاهمتم لما كان للخلاف موضع .

والست أدري إن كانت المسألة سوء تفاهم وكفى . لكن الذي أقطع به لأنه لو اخلص الآخرون وفكروا في اصلاح بلادهم والبلاد المجاورة لهم ولو لم يدر عليهم الاصلاح من اخلافه الرزق ما لا يطمعون اليوم في غيره لا يمكن المتفاهم ولطهرت مصر وغير مصر من تهم كثيرة باطلة لا تزيد عن أنها صحيحة حرب يعلنها الضعفاء على الاقوياء ليفروا الجماهير بهم لانهم أضعف من ان يقارعوهم بالحجة بالحجة او يناقشوهم الدليل بالدليل .

محمد حسين هيكل

المصدر : الجديد - القاهرة ، العدد السادس (٦) ، ٤ أبريل ١٩٢٨

حياتنا العقلية

تجديد

ميزة هذا العصر الذي نعيش فيه انه عصر اضطراب في الرأي قد تناول حياتنا القومية من جميع اطرافها . تناولها من ناحيتها السياسية فقد كرهننا النظم السياسية القديمة وظهر كرهننا لها عنيقا منذ عشرين سنة ، واخذ هذا العنف يشتد شيئا فشيئا وتدفعه الى هذه الشدة ظروف داخلية واخرى خارجية حتى انتهى الى هذا الطور الذي نحن فيه طور الحياة النيابية البرلمانية وهو بعد لا يزال في طريقه مؤيدا لهذه الحياة النيابية في محور اثر الرجعية حريصا على استكمال السيادة القومية في الداخل والخارج . وتناولها من ناحيتها الاجتماعية الصرفة . فقد اخذنا منذ عشرين سنة ايضا ننصرف عن تقاليدنا الاجتماعية القديمة شيئا فشيئا وظهرت الدعوة الى حرية المرأة والى تجديد منظم في حياة الاسرة وفي نظام الزواج والطلاق والتربية ومضينا في هذا متقدمين ، نبطء حيننا ونسرع حيننا حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اصبحت حرية المرأة فيه حقا يعترف به العقل والعرف وتأخذ القوانين في الاعتراف به قليلا قليلا ، والذي اخذنا فيه نجدد النظر في امر الزواج والطلاق ونحاول ان نضع القوانين التي تلائم هذا التجديد ، والذي اخذنا فيه ايضا نجدد النظر في امر الوقف وفي غيره من الامور الاقتصادية المختلفة . وتناولها من ناحيتها العلمية فقد اخذنا منذ عشرين سنة ايضا نكره نظام التعليم الذي وضعه لنا الانجليز ونجد في تغييره فحاولنا انشاء الجامعة ، وحولنا نشر التعليم الاولى ، وجاولنا اصلاح فروع التعليم الاخرى ومضينا في هذا كله حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اصبحت فيه

الجامعة حقيقة واقعة ، وجعل التعليم الاولى الزاميا ، وتناول فروع التعليم الاخرى بالاصلاح القوي الحازم . وتناولها من ناحيتها الدينية ، فقد ظهر منذ اول هذا القرن سخطنا على طائفة من التقاليد الصقت بالدين وليست منه في شيء ، وارادت طائفة من المصلحين الدينيين ان تطهر الاسلام من هذه الآثام وتظهره كما انزله الله نقيا صافيا سمحا محببا الى النفوس .

ورأت هذه الطائفة ان سبيلها الى هذا الاصلاح انما هي اصلاح التعليم الديني في الازهر ، فمضت في هذا الاصلاح ومضينا معها حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اعترفت فيه الحكومة والبرلمان بان اصلاح الازهر ضرورة قومية ماسة لا سبيل الى التخلص منها ، ولا بد من مواجهتها بالجد والحزم والاخلاص . وتناولها من ناحيتها الادبية ، والغوية ، فقد احسنا منذ عشرين سنة او نحو ذلك ما اصاب اللغة العربية من جمود وقصور وجهدنا انفسنا في اتقاء هذا الجمود والقصور وكانت لنا في ذلك محاولات مختلفة حتى انتهينا الى هذا الطور الذي نحن فيه والذي اعترفت فيه الحكومة والبرلمان معا بان اصلاح اللغوي ضرورة ماسة لا بد من مواجهتها ايضا بالجد والحزم والاخلاص ، واذا البرلمان يطلب انشاء مجمع لغوي واذا الحكومة تجد في انشاء هذا المجمع .

واذن فهذا العصر الذي نعيش فيه يمتاز كما قلنا باضطراب الراي في حياتنا العامة من جميع فروعها . ولكن هذا الاضطراب قد اخذ يهدأ ويدنو الى الاطمئنان ان صح ان نسمي الايمان بالاصلاح والجد في سبيله هدوءا ودنوا الى الاطمئنان ، او هو قد اخذ يشتد ويمتدو يتغلغل في اعماق حياتنا العامة اذا كان الاصلاح الذي يبدأ فيه ولا يتم لونا من الوفاء الاشتداد والامتداد .

والحق ان هذا الاضطراب قد تطور الان فكثرت انصاره وجنوده وعظم امره ، وارادت الظروف ان تلقي اليهم مقاليد الحكم فاخلوا يجددون او يحاولون التجديد . فهو على كل حال طور جديد لا بد من الوقوف عنده ومواجهته بشيء من التفكير .

المصدر مجلة الجديد م - ١ - العدد الاول - ١٩٢٨ - الافتتاحية .

كلمات في التجديد

« نحن نزرع تحت عبء من الماضي المرهق . فاما ان نتحرر لنستقبل حياة جديدة تقوم على متكا من المدنية الحديثة من علم وحضارة ورفاهة ؛ واما ان نبقي حيث نحن في حياة مدبذبة مريضة لا هي من الماضي ولا من الحاضر في شيء . »

٢

تنقص زعمائنا الشجاعة . لانهم لم يستطيعوا بعد ان يرفعوا معلولهم لهدم القديم البالي ولانهم لم يتمكنوا من ان يشدوا ايديهم بكل جديد من المدنية الحديثة التي بهرتهم وملأتهم اعجابا في حين انهم جبناء يرون مجدهم في اغراء العامة ، باحترام عاداتهم الموروثة وتقديس خرافاتهم وان كان فيها هلاك البلاد . »

٣

ليس ينقصنا غير هذه الشجاعة التي توجب علينا التمرد من الماضي الثقيل ؛ ان اوروبا تعيش في مدنية قائمة على العالم والثروة والرفاهة بينما نحن الشرقيون نلف في نومنا ونطم بمجد شعرائنا وادب كتابنا وتصور اجدادنا . هم يهذبون في حياتهم كل يوم بينما نحن نمعن في السير الى الوراء كان من طبيعتنا ان نسير الى الخلف بينما بنى الانسان من الاوروبيين لا يسيرون الا الى الامام او كان في السير الى الامام صعوبة لا نطيقها ولا نستطيع لها احتمالا »

٤

لست أستطيع أن أفهم كيف تقبل من الغرب بعض علومه وكيف نثق
في علاجه لامراض اجسامنا وكيف يحمل فريق منا على هذه المدنية التي
انتهجتها هذه العلوم . نحن اذن متعصبون . وكل متعصب جاهل احمق » .

٥

ليس لنا في المتعصبين من الشيوخ اي رجاء . فقد دل حرصهم على
انهم اشد ضررا لوطانهم من طيش الشباب .

كل املنا في زهرات العلم الحديث . وكل ما نرجوه ان تقوى ثورة
الجديد . فتقتلع القديم من جذوره وتلقيه بميلنا عنا حتى لا تعود هذه
الجذور الى الانبات .

٦

نحن لا نطمئن على الشرق مادمت فيه من الرؤوس ما يدهو الى سلوك
حياة القرون الماضية . وان الساعة التي تقبل فيها البيئة الشرقية مبادئ
التجديد والتطور لهي ساعة الخلاص من قيود اللل والخضوع والعبودية .

٧

من اكبر المصائب على المرء ان يلقي عقله ليهيش بفكر غيره . فما اتعس
هؤلاء المساكين الذين يعيشون في تفكير اجدادهم ويمنعهم حبهم لكل
قديم من دراسة ما في القديم من فن وغنى ومواصلة التفكير لايجاد صلة
بين الماضي والحاضر والمستقبل .

٨

« لست ادري الى متى نتغنى بشعرائنا ونبدل حياتنا في قراءة دواوينهم

وحفظ كلامهم ولما يظهر فينا بعد مخترع يغالب الهواء فيطير على جناحيه
كما فعل أهل الغرب ولست أدري إلى متى نعلم بالشعر بينما غيرنا يعلم
بالعلم وبمخاطبة سكان النجوم .

٩

وكما ندعو إلى إمانة الأدب بروح العلم الحديث كذلك نلج على الأدباء
للاشتراك معنا في « تغنين » الأدب العربي ، فاني لا أعترف بهذا الأدب
الجاف المتقطع الاوصال الذي لا يستمد جماله من العناصر الفنية التي
تحيط صاحبه . والأدب الحي هو الذي يتلقى الحياة من الفنون جميعا:
من الموسيقى من التصوير ومن الرقص أيضا . ولا تعجب اذا كنت أشير
إلى الرقص ؟ فما الرقص إلى السير الا كالشعر إلى النشر ؟ لهذا كان
فنا وكان « للدوق » حكمه وتقديره فيه . فليكن فينا من يكتب الفصول
في « تغنين الأدب » وليكن فينا من يعالج البحث عن « الصلات التي تربط
الأدب بالفنون جميعا » وعن « الأدب كفن » او عن الأدب كعنصر من عناصر
« الجامعة الفنية » وعن صلة الجمال بنفس الأديب وعن الفرق بين
الأدب الجاف والأدب الفني .

محمود النجوري

العدد ٢٠ ع ٢ شباط ١٩٢٨ .

حياتنا العقلية

داود بركات (١٨٦٧ - ١٩٣٣)

التجديد

للاستاذ الكبير داود بك بركات رئيس تحرير الاهرام

يسألني زميلي وحريفي صاحب « التجديد » وائي في ما اطلق عليه جملة من المفكرين كلمة « التجديد » وأرادوا منه على ما وصل الى علمي ادخال الحضارة الحديثة على الحضارة القديمة . فلذا كان ذلك ما يراد بكلمة التجديد ، فانه في نظري وبقيني فوق الراي وفوق التساؤل . هل هو لازم ام غير لازم ؟ وهل هو نافع ام غير نافع ؟ لان هذا التجديد محتتم بفعل الطبيعة ، والطبيعة لا تغالب . وكل ما للأيدي العاملة من فعل فيه أنها تدفع تياره ولكنها لا تخطق ذلك التيار . وكما أن المجددين لا يخلقون غير موجود ولا يبرؤونه الى حيز الوجود بل هم يمدونه فقط بقوة الدعاية وبقوة التشذيب والتهديب وقد يوجهونه الى بعض الناحية التي يريدون فان الجامدين عباد القديم لا يستطيعون مقاومة التيار ولا صده وان استطعوا ايقافه حيناً ما عن الانتشار في الجو الواسع كما يوقف الجدار الضوء أو النور الفاضل وكما يوقف السد الماء الدافق في النهر العميق أو النهر الفسيح .

التجديد من ناعوس الطبيعة ومن اسرار الدوام ومن اسباب الرقي والتقدم نحو الكمال . الا ترى المصفور يخلع ريشه القديم اذا ما أقبل الربيع ؟ الا ترى الشجر ينثر ورقه في الخريف ليكتسي حلة زاهية عند

دنو الربيع ويزهر ويشمر عند حلول الصيف ؟ الا ترى علماء الطبيعة يصفون لنا تكوين الارض بالملايين من السنين حتى صارت ارضنا التي نرى وكرتنا الجملة الثابتة التي نساكن . الا ترى علماء الحيوان يؤكدون في كتابهم ان السمك الذي يسبح في البحار انقضت عليه ٦٥ مليون سنة حتى وصل الى هذا التكوين والخلق الذي نرى الآن . الا تسمعهم يقولون ويؤكدون ان الانسان على ما عرف نفسه في الحالة التي نرى صرف ٤٥ مليون سنة فتحول وتغير وتطور وتجدد سنة فسنة وعلماء فعلما . الا ترى اجماع الباحثين على ان هذا التطور والتجدد امر لا يقبل الجدل اذ الجدل والبحث في حساب السنين وتعدادها ؟ اما سمعنا اصحاب المذهب اللابرويني يقولون بسنة الارتقاء في فصيلة الحيوان حتى يجعلوا رابطة بين الحيوان والانسان فرد عليهم خصومهم بسنة الهبوط وسالوهم لماذا تقولون بارتقاء الفرد او الحلقة المفقودة بين القرود والانسان ولا تقولون بسنة الهبوط من الاعلى الى الأدنى فردوا حجتهم بوجود سنة الرقي بفعل التجدد من الأدنى الى الاعلى .

اما قال علماء الاجتماع برقي العقول والافهام بفعل التجدد الدائم وإضافة كل مستحدث جديد حسن الى كل قديم حسن حتى ترقى العقول والافهام مطلعة من وراء هذا الصعود والرقى الى الكمال وان كان الكمال لله وحده ؟

اما قالوا ان الناس يعيشون بماضيهم ويهينون الطريق لمستقبلهم بضم الصالح من الماضي الى الصالح من الحاضر حتى يصلوا الى الاصلح في المستقبل ؟؟

خذ بحث الاثريين في حضارة مصر فقط تجددهم يسألون عما اجتاحت تلك المدينة المصرية الراقية مذ وقفت ثم بلادت ولو أنها لم تقف ولم تبد لواصلت اليوم بعد تجددها المتواصل وتقدمها الى ذروة من الرقي لا يستطيع الانسان ان يتخيلها وان خالها .

اذهب الى دار الآثار المصرية واللق نظرة على آثار العصر الحجري

ودقق بما يمرض لعينيك من آثار العصور الخالية متدرجا معها عصرا
عصرا. وقرنا فقرنا وجيلا فجيلا الى هذا العصر والجيل تجد التجدد
الدائم وتجد الرقي المتوالي بواسطة هذا التجدد حتى يومنا الذي نحن
فيه والذي نتطلع منه الى ما هو اعظم واتقن وأصلح في المستقبل .

انظر الى هذا العالم المتمدن وابحث في أسباب تقدمه وورقيه من كل
وجه يظهر لك أن مصدر ذلك هو التجدد ومصدر التجدد ذلك التعامل
العقلي بين أمه وشعبه حتى يتم أحدهم الآخر وحتى يعاون فكر هذا
فكر ذلك .

ابحث في تطور الأديان كلها بل في تطور الأديان ذاتها تجد أن نظام
الشعوب تحول من البساطة والسلاجة الى ما نرى في كل مذهب ودين .

فالتجديد في كل شيء أمر لا مندوحة عنه لصيانة ذلك الشيء من
الفناء والتراقيته من الصالح الى ما هو أصلح . أما الجمود فهو مغاير
لبيئة الوجود ذاته والطبيعة تأتي امرين اثنين : الفراغ والجمود .
فالجاسدون يقاومون الطبيعة فقط ومن غالب الطبيعة فقد حكم عليه
بالاندحار ومن جاراها في ناموسها فقد فاز وانتصر .

المصدر : الجديد . القاهرة العدد السابع - ٧ - ١٨ أبريل ١٩٢٨ السنة الاولى .

التجديد قديم — فلماذا يعادونه الآن

للكاتب الكبير عباس محمود العقاد محرر البلاغ

التجديد قديم :

في هذا القول شيء من الغرابة والتناقض الظاهر ولكننا لم نتمعه ولم نعد به أبسط الحقائق المشاهدة فاختار أي فترة من الزمن تتفق لك في تاريخ اللغة العربية لا تجد فترة واحدة خلت من كلمات جديدة داخلتها من اللغات الأجنبية وكلمات قديمة تبدل معناها فوضعها المعاصرون في غير مواضعها عند المتقدمين ، وليس في تجديد اليوم شيء يأخذه عليه الجامدون غير هذا الذي كان في كل عصر حتى عصر الجاهلية وعصر القرآن . فقد تكلم العرب في بداوتهم الأولى بالكلمات الرومية والفارسية والهندية ووردت هذه الكلمات في القرآن الكريم . وما زالت ترد في كتابه كل كاتب بليغ من بلغاء العربية المعدودين . فلماذا يعادون الجديد اليوم ولم نجد له مثل هذا العداء بين المتقدمين ؟ ولماذا يشتد جامدو هذا الزمان في انكار أمر لم يشتد في انكاره السلف الذي يحتجون به ويرجعون إليه ؟

أوجز جواب عن هذا السؤال هو أن نجيب عنه بسؤال آخر وهو : ترى لو كانت الدولة الآن في العالم الأمم العربية أكان يفزع الجاعلون في الجديد فزعهم هذا الأخرق العقيم ويبالغون في خطره على اللغة مبالغتهم التي ملكت عليهم أسباب التفكير الصحيح ؟ أكانوا يحسبون أن كل كلمة جديدة أو عبارة جديدة مودية باللغة وقاضية على فصاحتها وبلاغتها وآتية لها ببديهة لم يسبق السابقون إليها ؟ لا نظن ذلك ، فقد ادخل

العرب في لغتهم أيام قوتهم وغلبتهم مئات من أسماء الثياب والاثاث والعلوم والمخترعات غير خائفين على اللغة ولا وطين من عواقب هذه التوسعة لانهم كانوا يأخذون تلك المفردات من أمم اضعف منهم وأقل شأنًا ، بل من أمم تدين لهم بالطاعة وتدخل في حوزة سلطانهم الكبير ، فلم يكن في ورود تلك الزيادة معنى الاغارة المخيفة والسطوة الخارجية وانما كاتب كالحزبية يأخذها السيد المعتز بنفسه الواثق بيومه وغبه من عبده الذي يخدمه بلغته كما يخدمه بكل شيء عنده . ولولا ذلك لكان عرب الامس احق من جامدي اليوم بالغيرة على لغتهم من الطوارق الاجنبية ومدافعة المفردات والاساليب الغريبة التي تسربت اليها .

فاذا اغرب الجامدون اليوم في الفرع فانما هو فرع الاحساس بالضعف وقلة الثقة بالنفس ووسواس الخوف الذي يلبس للخائفين ملابس الغيرة والعصبية . وهذا في رأينا هو أقوى أسباب الاغراق في الجمود والثورة التي لا مثيل لها على الجديد . وهو فيما يخيل الينا كضعف الغابر الذي يوقعه في الظفر الهرة والولاه لجاز به العدو شقة الهلاك .

وهناك سببان آخران لأشتداد الجامدين في زماننا هذا على التجديد وقد رأيت أنه ليس بالبديع الجديد ، أول هذين السببين أن التجديد عندنا « حركة تنبيهية » وليس بالعارض الذي يأتي من هنا وهناك ولا يتنبه اليه ، ومن عادة الحركات التنبيهية أنها تستدعي الانتباه اليها والعمل لمقاومتها لان فيها شيئًا من معنى الاستفزاز والاقتحام . فاذا سألت ؟ ولم كان تجديدا كذاك ولم يكن كتجديد السابقين . قلنا لعل السر في ذلك أنه اثر اليقظة بعد السبات الطويل والثوبية بعد الجمود وهو اثر لم يعالجه العرب في عهد الدولة وعنفوان الظهور .

والسبب الثاني أن الجامدين في زماننا يجهلون فضائل الجديد الذين يحاربونه ولم يكن للجديد في الزمن الغابر فضل مجهول ، وهل تحسبنا مبالغين اذا قلنا أنهم يجهلون « القديم » وهم يدفعون عنه ولا يحق

لهم ان يحملوا علمه في مواجهة أنصار الجديد ؟ فان من هؤلاء الانصار لمن يعلم قديم العربية وآدابها فوق علمهم ويمجبه بها وببلاغتها أشد من أعجابهم ، فهي عصبية الجهل اذن لا عصبية المعرفة البصيرة والموازنة المعقولة بين ما يدفعون عنه ويحنقون عليه ، ولو عرفوا الجديد أو لو عرفوا القديم لكان لهم فيها اقرب الى الصواب والادنى الى السماحة .

ان الجديد قديم لا جديد عليه في أساس دعوته غير احساس الضعف في الجامدين وحركة اليقظة في العصر الحديث وعصبية جاهلة في ادعياء القديم لا تستند الى غير صادقة ولا ادراك لما يخوضون فيه ، وملاذا تصنع المقاومة باسم القديم في سنة يتصرها الزمن بتقديمه وجديده ؟ ثم اين هي هذه المقاومة ؟ انها انكار محض وليس فيها عمل وانشاء ، ولن يفلح الانكار المحض في صد حركة تندفع وتسير .

عباس محمود العقاد

المصدر : الجديد . القاهرة - العدد السابع ١٨ ابريل ١٩٢٨ السنة الاولى .

بين القديم والحديث

عبد اللطيف الطليلاوي

١

في الشرق اليوم نزعتان تتصارعان : نزعة القديم ونزعة الحديث ؛
سنة من سنن الكون ونتيجة لازمة لعامل النشوء والتطور ومظهر من
مظاهر المحافظة والاعتداد بالنفس . نميل الى الجديد لما نحن مفطورون
عليه من الإعجاب والاستغراب ونحافظ على القديم لأننا لا نود امتهان
انفسنا والكفر بملادنا .

ويجتاز الشرق اليوم دورا خطيرا ويسلك طريقا لم يمهدها من ذي
قبل . يسير مدفوعا مع تيار الحديث ويقف متهيبا امام جلال القديم .
فأيهما الغالب يا ترى ؟

الغالب في شرع الطبيعة هو الاصلح والانسب .

اذن بات من واجبنا ان نكون حذرين متيقظين . فان نحن اندفعنا
في تيار الجديد ونبلدنا القديم وراءنا ظهريا جاء مع هذا الجديد ما لا يتلائم
والروح الشرقية والمزاج الشرقي بل ما فيه تشويه لشخصيتنا التي
نحافظ عليها ما حيينا . وان نحن استمسكنا بالقديم وزحنا تحت نير
الجمود والتقهقر وتعلمر علينا مجاراة الامم الحية .

فما العمل ؟

أمامنا مشاكل عديدة يتناولها موضوع القديم والحديث : كيف
نؤسس قوميت متينة دعمتها السيادة الشعبية ؟

الى اي مدى نسمح لانفسنا باقتباس المدنية الاوروبية ؟ ما هي طرق الشروع في عملية الاصلاح والتجديد ؟

امامنا اكثر من هذه المشاكل .

فالمهمة الملقة على عواتقنا شاقة ولو بدت بسيطة لأول وهلة .
مهمتنا التوفيق بين القديم والحديث : لا نحجب الغلو في المحافظة كما لا نرشب الافراط في التجديد .

نود ان نأخذ من المدنية الاوروبية ما يلائم مزاجنا والوسط التي نعيش فيه . وننبذ ما يتصادم والروح الشرقي من حيث العفة والايمان وكرم الاخلاق .

نود ان نهدم من القديم كل عائق لظهور الشخصيات والنبوغ .
نود ان نقضي على تباين الطبقات ونموض منها بالديمقراطية والمساواة .

من القديم ميراثنا القومي

وفي الجديد ميراثنا الاممي

لنا من القديم ميراثنا الروحي الذي اخذه الغرب عنا
ولنا من القديم ميراثنا الادبي العلمي الذي قدمناه للمدنية .
هذه قديمة عريقة في القدم ولكننا نموت دونها ولا نرتضي بها بديلاً !
السنا نحن الدين لقتنا العالم وحدانية الله ؟ السنا اصحاب مدنية وثقافة كسائر الأمم ؟

هذه قديمة عريقة في القدم ولكننا نموت دونها ولا نرتضي بها بديلاً !

عفوا . . . فان هذا لا يعني اننا لا نود ادخال شيء جديد الى آدابنا مثلاً . كلا ! فنحن في حاجة ماسة الى هذا الجديد ولا ضرر في ذلك لان الادب كالعلم شركة اجتماعية اشترك في تحقيقها وحشدتها كل الناس في كل عصر ومصر . وهي مال مشاع للجميع لا وطن ولا دين لها .

اجل . يجب أن نصطنع من الجديد ما يساعدنا على مجاراة الأمم
وننبذ من القديم كل ما يعوقنا عن الوصول الى هذا الهدف . نحن
الآن مع التيار ولم نصل بعد الى الضالة المنشودة وهذا الدور هو اشد
الادوار واحرجها في حياة الشعوب والأمم لأنه يخشى عليها ان تفقد
شخصيتها التي عرفها بها التاريخ .

ان التيار لقوي جلوف ومن الخرق الوقوف في وجهه لصدّه . بل
ليسير مع الجهة الصالحة لاننا سائرون وضيئنا ام كرهنا . والحكمة
كل الحكمة في سلوك الجهة الموافقة .

ليس هذا بهين . وعلى الذين يقودوننا في هذا السبيل ان يحاذروا
صوغنا في قالب غربي : فيجرفنا التيار ونكون من الضالين . ليس هذا
بهين لاننا نحاذر ان نخرج عن شريقتنا ونضيع شخصيتنا ولكننا لا نود
ان نحافظ على ذلك الشخصية وهذه الشريعة كما سلمها لنا الآباء .

٢

ليس بيننا من ينكر أننا متأخرون عن الغرب ! ونحن لذلك نؤمن
بالتمدن الغربي كنتيجة صالحة للعقل الانساني في جملته ، فحق علينا
ان نقتبس منه اذن ما ينقصنا .

طل على الشرق الامد وهو شديد الاعتماد بالحكم الاوتوقراطي !
الم يحسن دور السيادة الشعبية وحكومة الشعب . نحن في حاجة الى
اقتباس النظم الدستورية البرلمانية . حمدا لله وشكرا : لقد نجحت
هذه التجربة في اكثر من بلد من بلدان شرقنا الأدنى .

طل على الشرق الامد وحرية الفكر والاعتقاد فيه مغفولة وازفت
الساعة التي يجب فيها الخلاص . لقد حانت ساعة استقلال العلم والبحث
العلمي عن جميع المؤثرات من دين وسياسة فالعلم لا دين له ولا وطن .

بل ليمَ ألا تأخذ من الغرب روح التعاون والاستثمار والعمل المشترك .
 أقول والأسف ملء جوانحي أننا لا نقتبس عن الغرب إلا كل
 ما يبعدنا من شخصيتنا ويذهب بكرم اخلاقنا . وقليلة جدا هي المقتبسات
 التي نمول عليها في المستقبل كدعامة صالحة لبنيان قوميتنا .
 نحن في حاجة الى اقتباس الصالح فلم نحجم عن ذلك ؟ اجبني ؟
 ما عهدنا الشرقي جبانا رعيديدا .
 لقد اقتبس الغرب عنا وجاء دورنا لنقتبس عنه فما الدنيا الا « يوم
 لنا ويوم علينا » .

.. . ولكن من يقوم بهذه المهمة الشاقة !

الشباب - الشباب - :

نؤمن بمزيمه الشباب ونوقن باصلاح الشعوب عن طريق التهذيب .
 فالمهمة اذن - مهمة التوفيق بين القديم والحديث - مهمة الشبيبة
 المهذبة في بلدان هذا الشرق ! في الشباب اليوم عوامل تنزع بهم عن
 القديم وتسوقهم الي الحديث ولكن بتهور . فعليهم وهم أهل الحصافة
 والرأي ان يكونوا جديرين بهذه الثقة ولا يفرهم من الجديد مظاهره .
 لا أخشى ان أقول ان الشباب اليوم في معتقدتهم ولغتهم ودمهم
 شريون . وفي أساليب حياتهم وتفكيرهم غربيون أو شبهيون .
 فعملية التصفية والاختبار سائرة سيرا حثيثا . وهنا موطن الخطر .
 هنا تختلط العقلية الشرقية بالعقلية الغربية وهنا تتصادم نزعات
 الشرق وميوله مع نزعات الغرب وميوله . واللبيب اللبيب من فاضل
 بين الاثنين وأخذ من كل شيء أحسنه .
 على هذا الرجل وامثاله نعلق الأمل الكبير .

عبد اللطيف الطيباوي

الحديث السنة الثانية ١٩٢٨ ، العددان ٢ - ٤ .

الادب

((ب . النبال))

قديمه وجديده - وحف العربيه منهما

بقلم الكاتب التونسي صاحب التوقيع

★ ★ ★

باسم القديم والجديد تجري اليوم في بلاد الشرق الناهض معركة في الادب والاجتماع . فانصار القديم هم المحافظون على ما يمتاز به الشرق من علم وخلق وآداب فتراهم سريعي التشاءم في كل حركة تنزع بهم الى التطور والتجديد . فكأنوا بذلك على عكس ما يفهمه المجددون من فلسفة الاجتماع . فالمجدد يرى ان العالم بما فيه قد تشكلت اوضاعه بغير الشكل الذي يتغنى به المحافظون . وان اعتزال الامم القديمة عن مجاراة المدنية الحاضرة مما يعجل بانقراضها وانحلال كيائها المتداعي . فالتجديد لا يتشائم من التطور كخصمه لان حضارة الغرب في نظره ارتكزت على دعام لم يفقد بها الجنس خصائصه كما انها لم تقو على المؤثرات الموضعية ومفعول البيئات . فهي حضارة لا تخشى منها الامم على كيائها . بل فيها من الادب وتهذيب الخلق ما يعزز قوة الاحتفاظ بالوطنية ويزيد الناس علما بمعرفة الواجبات .

فمعركة القديم والجديد معركة عامة تدور وحاما على كل ما لا يتفق مع النظم السائدة بفعل التطور : ولكننا نشاهدها اليوم جليلة حول موضوع الادب . وجدير بالادب ان يشتد فيه اللجاج وان يكون في مقدمة ما يتنازع عنها من ضروب الاصلاح لا تنأى الا عن تطورات عقلية ونباهة حسية وبقطة

في شعور الامم . والادب البليغ لا يثبط بالنفوس عالق باعماقه الخفية فروعته كافلة بدفعها الى الاشلاء او الهدم . وبما اننا نشعر الان بمؤثرات تدفعنا عن اكراه او اختيار للسير في طرق تنتهي بقلقل عاجل او آجل نرى من الحكمة ان ناتي بملخص عن تاريخ حركة التجديد الادبي في فرنسا لنتمكن من التنظير بينها وبين الادب العربي بصورة مجمل . ونقد ما يجب انتقاده فقد آن اوان الاعتراف بالعيوب وجاءت ساعة التصريح بما هو كائن فالادباء الكلاب ضرب من الجنون المزري وحماسة لا ترتضيها النفوس الابهية .

الادب المدرسي « كلاسيك » :

كلن مما شملته النهضة الحديثة في أوروبا وساق اليه نزوع أممها الى تكوين مميزات قومية : تثقيف اللسان الخارج وتأسيسه على بيان متين . فريضوا صيغه على تأدية مكنونات النفس وتصورات العقول حتى كونوا لانفسهم لغة عامة في دوائر قومية ذات ادب يمشيها وينفعل بكل ما تنفعل به من نظريات فلسفية وحقائق علمية ولكن في القرن السابع عشر عصر التبحر في الفلسفة النظرية ظهر على الادب طابع تلك الروح التي لا تؤمن الا بما هو صادر من العقل والى العقل مرجعه . فصار الادب دهرين القيود العقلية والضوابط الصناعية نحو قرن ونصف . وواضعو هذه الطريقة المسماة بالطريقة المدرسية هم « كورنيل بوالو - راسين » فهؤلاء يرون « ان التخيل يجب أن يكون مقرونا بالتفعل وخير الشعر عندهم اصدق ولا يريدون باجتناوب المبالغة والقلو تصوير الحقائق تصويراً تاماً لان المعاني في نظريهم يجب ان يلاحظ الحسن فيها مقرونا بحسب اللفظ وجماله » . وبما يرونه واجباً وجود الموازنة بين جميع الحواس . وفي تمثيل الروايات يشترطون وحدة الزمان والمكان والعمل . فلا يتجاوز الحادث الممثل واقعه عادة (٢٤) ساعة ليحصل التأثير على المشاهد كما لا يتعدد بطل الرواية ويتفرع مرامها . والمؤلفات في حكمهم يجب ان تصور الجميل البديع والجمال في ملههم يندر في ما تشتمل منه النفوس وينافي الادب ويميزون التأليف بتجانيه عن كل ما يستمد من الآراء الاجنبية . هذه خلاصة الطريقة المدرسية التي لم تلبث قرناً ونصفاً حتى ناهضها المذهب الابداعي .

المذهب الابداعي « روماتيك » :

الذي ظهر في المانيا بعد ظهور شكسبير في انكلترا ودخل فرنسا بزعامة « شاتوبريان » قدوة « فيكتور هيكو » الذي قضى ببلاغته الجديدة الرائعة على الطريقة المدرسية .

فمن مميزات المذهب الابداعي اتباع اللهجات المألوفة وتوخي الاساليب المؤثرة على النفوس . والمثيرة للعواطف وتصوير المعانيب للتشويق والزيادة في التأثير . واستمداد المواضيع الشعرية والنثرية من الوقائع المحلية الجارية بين عامة الشعب . فهم لا يهتمون بدوق الخواص ولم تكن عنايتهم منصرفة الا للاهتمام بالدوق العام . حتى لقد قيل عن « شيلر » زعيم هذا المذهب في المانيا انه شاعر النساء والاحداث .

فكما ان الاسلوب المدرسي كان اثرأ من الفلسفة النظرية كان المذهب ظاهرة من ظواهر طموح الشعب في فرنسا الى الاستقلال بالحكم . فالدوق العام الذي استمد منه اشباع الطريقة الابداعية اصول مذهبهم في الادب أصبح هو الدوق المحكم بعراضه او اقباله على بضاعة الشعراء والكتاب .

المذهب الطبيعي :

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهر المذهب الواقعي الذي ناهض المدرسي والابداعي معا بنظرياته الجديدة التي منها الدفاع عن الحقيقة . فيقولون « ان روايات الابداعيين سواء كانت تاريخية او موضوعية لا تفضل الفواقع المدرسية من حيث ابتعادها عن الطبيعة وما يذكرون عن ابطال العصور الوسطى وعن رجال زمن النهضة وعن الشرقيين ليس هو من الحقيقة في شيء » وبذا اصحاب هذه الطريقة كل الاراء الابداعية ولم يقرأوا من بيانها الا اللغة فنبذوا « الدرام » والروايات التاريخية وجعلوا موضوع كتاباتهم مقتطفاً من الحوادث الحديثة واقتصروا على

تمثيل مشاهداتهم فلا يشبتون الا انحقائق ولا يصورون الا طبيعة
الحوادث كما هي فيصفون مشاهد الحياة وصفاً دقيقاً يسهبون في
جزئياتها اسهاباً يحمل مشاهديها على استطلاع الحالة والوقوف على
حقيقتها في فرانساً يأخذ كاتبهم بالوصف وتحليل الحوادث ومؤثرات
الاشخاص كأنه شاهد لا يعبأ بما يقولون . اما الكاتب في انكثرتا فأنه
يقص ما يطرأ من السراء والضراء على ابطال الرواية متأثراً كأنه
يفاسمهم احوالهم .

هذه خلاصة في تاريخ الادب الفرنسي راينا من الضروري اثباتها
ليتسنى لنا الحكم على ما في العربية من فيود ثقيلة على ناحيتها
اللفظية والمعنوية .

اننا اذا تبعنا ادوار الادب العربي لا نرى لها انقلابات كالادب العربي
اذ ان الاخير قد احاطت به ظروف وعوامل شتى هذبت اساليبه
واخضعته لتاموس الارتقاء فالادب اليوناني الذي اعرض عنه العرب
واستأثر بفنونه الغرييون كان يشمل القصة والانشيد المسهب اللذين
هما خير ما اخذه الغرييون لادبهم عن الاغريقين ومع ذلك فالامم الاوربية
لم تمن بادابها المعنوية التابعة الا على اثر انقلابات عظيمة واجتماعية كبرى
كان الادب العربي منها محروماً .

كان الادب العربي ادباً خاصاً بالملوك ومن هم على مؤائد الملوك فهو
فكاهة المنادم وبضاعة المستظرف في الاستجداء وصاحبه لا يتخطى تلك
الاساليب المعينة في كتب البيان كالمديح والفضل والهجاء ولا يدر فتى
الجبل في قوله :

مطارف الإبداع

ان البس الشعر قوم

مناحة او ناعية

فليس بالقوم الا

بالشاعر الاجتماعي

ما فيهم من يسمى

أجل - ان الادب العربي قد أخذ بعض الحظ من عناية النقاد عناية صيرته قريب الشبه بالاسلوب المدرسي الذي تقيد به الادب الغربي ورج في دائرة الحدود الضيقة والقيود المرهقة . ففي صدر الاسلام كان الاهتمام بالادب من بواحي العناية بعلوم الدين ثم توسعت البحوث في دائرة الادب عينه فوضع الخليل قواعد الشعر المتهم بزيادة أوزان منها لم تكن معروفة عند العرب وأسسوا لصناعاتي الشعر والنثر قواعد اسمعى بها الافصح الخالي من التكلف . فتملأى الكتاب والشعراء في انتقاء الغريب من اللفظ والاكثر من محسناته البديعية وضيقوا على أنفسهم بالايجاز . فكان اكثرهم يومئذ لما يختلج بصدرة من المعاني ايماء كان الشرح والاسهاب في مذهبهم هجئة فقد سمع اعرابي قصيدة من شعر ابي تمام فقال : « ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها . فاما ان يكون قائلها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه » ومما يزيدنا علماً ان حبيب واضرابه كانوا يتكلفون الشعر قول القائل « يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم » فاجابه بما يدفع عن نفسه غائلة هذا الاعتراض : « وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال » !

وضيق اهل الصناعة كلبي هلال العسكري على الشعراء فعملوا عليهم من جعل معنى البيت موقوفا على ذكر الموالى اليه . فهذا القيد مما يتعلم به الاسهاب وشرح المعاني النفسية وكشف ما هو مبهم في الضمائر بواسطة التعبير .

ووضعوا حتى لقصائد المديح اقساماً لا مفر للملاح منها فاجوبوا عليه ان يأتي بالنسيب بعد ذكر المنازل والاطلال وحددوا له اساليب التخلص فقال ابن قتيبة بعد تفصيله ذلك في كتابه (الشعر والشعراء) : فالشعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام وليس لتاخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتعلمين في هذه الاقسام) ! . وابن رشيق يقول بما هو اخطر من ذلك « وللشعر الفاظ معروفة وامثلة مالوفة لا ينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » ! وهكذا أفرط

النقاد حتى اخرجوا البلغاء احراباً لا مزيد عليه . فعاب ابو الهلال
العسكري قول الشاعر :

بطاحي له نسب مصفي واخلاق لها عرض وطول

لان استعمال الطول والعرض خلع طريقة القدماء في الغرض الذي
عناه الشاعر ! وهكذا يتمادي في الارهاق حتى يقول « ومن اللفاظ ما
يستعمل رباعية وخماسية دون ثلاثية . فينبغي ان لا يعدل عن جهة
الاستعمال فيها ولا يفرك ان اصولها مستعملة فالخروج عن الطريقة
المشهورة والنهج المسلول رديء على كل حال » !

ومما اقعد الناس عن ابتكار المعاني وصرف همهم للاشتغال بما
سوي اللب قولهم (وليس الشأن في ايراد المعاني لان المعاني يعرفها
الاعجمي والعربي والقروي والبدوي . وانما هو في جودة اللفظ وصفائه
وحسنه وبهائه ليس يطلب من المعاني الا ما يكون صواباً) فهذه الصورة
المجتمعة النماذج القليلة من آراء اكابر النقاد الذين ظهروا بين القرن
الثالث والخمس تفهمنا سرا من اسرار الجمود الادبي والفقر الذي
اعتل به البيان العربي في اجمل عصوره ! والولا شلوا افراد ادخلوا على
الادب بعض الاساليب الاعجمية كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب لقضى
الادب نحيبه وهو في ربوع ثوبه واحضان أهله .

ولا احذركم عن دولة السجع الطاغية فان كتب التراجم والقصص
واسفار التاريخ لم تسلم من سماجته وآفاته ! وبلغ من كلف الناس به
ان ادخلوا على الشعر منه نصيباً ! ولا أدري كيف كان مثال الادب
لو لم يك سجع الكهان مدموماً في نظر سيد بلغاء العرب - فالسجع وان
كان يعلب بترنماته الشعرية فالذوق يبيع الاكثر منه ولو كان كثيره
مشبوها بما يرد في الكلام عفواً .

ومن غريب ما رايته في كتاب الصناعتين قول صاحبه في ما يتعلق
بالحديث الشريف (اعينه من الهامة والسلمة وكل عين لامة) والعدل

باللامة عن اللمة (رغبة في السجع) ! وقوله عن حديث « أرجمن
مازورات لا ماجورات) : وإنما أراد موزورات من الوزر فقلل مازورات
بمكان موزورات قصداً للتوازن وصحة السجع !!!

فاذا كنت لا اتجاسر عن تخطية ابي هلال العسكري في قوله هذا
فاني استنتج منه استنتاجاً عظيماً الفائدة . وهو انه اذا كان من المسموح
للكاتب في تفخيم كلامه ان يستبدل بلفظ « لصحة التسجيع واقصد
التوازن » فاي مانع من استبدال لفظ بآخر اذا كان الغرض اسمى من
التسجيع ودلت وضعية اللفظ الجديد من الجملة على معنى اللفظ
المستبدل - كقول جبران خليل جبران :

هل تعممت بمطر ام تشفت بتور ؟

فان وضعية تحمم من البيت لا يدل على معنى غير الاستحمام .

فان لم نتواضع بأساليب بلاغتنا العربية ولو الى المحدث الذي وقف
عنده صاحب كتاب الصناعتين من فهم حديثي السجع ورافع شأن
الضرورة الى مستواه اللائق ونعتبر اللفة كحق من حقوق بلغاه اللسان
من كل جيل - فسلام على العربية التي ستبقى ساكنة في قراها ستكون
الجملة الذي لا يتنقل . وليعلم القداماء اننا حين نשמع جميعاً بصحف
قوانا وخيبة جهودنا من تحريك ذلك الساكن فان انظارنا ستتحول عنه
بفعل الاضطراب والفئدة لان الزمان لا يهتم بعملنا طويلاً .

ب . التيهال

المصدر : الحديث ، السنة / ٢ / ١٩٢٩ - العدد الثاني - شباط .

مرامي التجديد

ما أحسب حركة لقيت من غموض التفسير والتدليل على مراميها الواضحة كالحركة التجديدية التي نادى بها المفكرون الإحرار بعد الحرب الكبرى ! . . . وقد كنت أحسب إلى عهد غير بعيد أن هذا الغموض يقفه بالفئة الرجعية بأفكارها وميولها وعقائدها والتي كانت ولا تزال حجرة عثرة في سبيل نهوض ورفي الأمة وإذا بي أرى الشك في صلاح التجديد ينفذ إلى فئة من أرقى شبلنا الذين تقف مقومات نهوض الأمة وتقدمها على جهودهم الفكرية وما تخطه أراءاتهم من أراء حرة وأفكار صائبة رجيحة .

فما هو موضع الغموض في الحركة التجديدية ؟ بل ما هو الجديد وما هي أفراسه ؟ وفي أي مدى يجب أن تبدى الدعوة إليه وعند أي مدى يجب أن تقف ؟ وبالتالي هل التجديد - كما يزعم بعض الكتاب - مطية من مطايا الاستعمار وسبباً من الأسباب المؤدية إلى فقدان البلاد كيانها القومي ؟ . . .

هذا ما فكرت به وأنا أقرأ بين يوم وآخر بعض الفقرات التي تجود بها أقلام بعض أصد قائنا المفكرين الذين لهم في قيادة الرأي العام وفي الوصول إلى ما ينبض به قلبه وتهجس به أحلامه بغض النفاذ والاتصال . وإذا كنت أقدر بحق أثر هذه المصححات المنبعثة عن قلوب مخلصات وعقول مفكرة رجيحة رأيت من الواجب - والحديث معني عناية خاصة بالدهوة التجديدية في سورية - أن نعود إلى معالجة هذا الموضوع الذي يجب أن تبحثه الأقلام النزيهة باخلاص لنحدد أفراس التجديد والممدى الذي يجب أن يبدأ وينتهي عنده وأثر التجديد برقي الأمة ونهضتنا

الفكرية لكيلا يكون تباين الآراء واختلافها بل واضطراب بعضها من الأسباب التي تزيد في محن هذه الأمة وتعرقل طرق نهوضها سيما في هذا العصر الذي تتسابق فيه الأمم بعنف وجهاد لتوطيد كياناتها القومية على دعائم وطيدة لا يتسرب إليها الوهن ولا تهزها الزلازل والحن .



فما هو التجديد ؟

أنا لا أنظر إلى « التجديد » إلا أنه ثمرة حية من ثمرات الإصلاح الذي ينهض بنا نهوضاً قوياً في أدياننا وحياتنا الاجتماعية ، وإذا قلنا « الأدب والحياة الاجتماعية » فقد عنيينا عنصرين كبيرين من عناصر الرقي التي تركز عليهما النهضة الفكرية في بدء كل حركة ويقظة . ذلك لأن من أوليات ما تعني به الحركة التجديدية هو تحرير الأفكار من غشاوات الجهل وتعميم الثقيف بين طبقات الأمة وفتح الأذهان لمعرفة كل ما ينير طريقها في تلمس حقوقها وواجباتها مع اقتباس ما لدى المذنبات القديمة والحديثة من نور باهر يضيء ظلمات العقول ويريد قوى الأمة قوة مع الابتعاد عن كل السفاف والقشور وحتى التقاليد العمياء التي تميم عناصرنا الخلقية وكياننا القومي وهدايتنا المتوارثة القديمة التي لا تصطدم واضطراب الرقي الذي ينشأ مما نحن فيه من تدهور وانحطاط كل ذلك وغيره من الوسائل الثقيفية الحية التي تزيد نشاطنا وتعلو بنا إلى المستوى الرفيع الذي تتبوءه أكثر الأمم والتي تتمتع من ثمار خيراته ويميزها عن غيرها في أديانها وعلومها ونمط تفكيرها وطرز معيشتها وفي حياتها الأدبية والخلقية والاجتماعية وما تتسع إليه أخيلتها من الصور والرؤى التي تترك الأثر حياً في تاريخ نهضتها القومية . نعم ، كل ذلك أثر من آثار التجديد بل فيض حي من اغراضه السامية ، وما أحسب أحداً يغفل على رقي وطنه ونهوض أمته ويحرص الحرس كله على مستقبل هذه الأمة ذات الماضي المجيد الناصع الصفحات يجد في مثل هذه الدعوات البارة ما يتناكر وما يرمي إليه المخطئون .

وما دامت الاغراض واضحة جليلة لا غموض في ثنائياها وفيما تحمله من اصلاح واحياء وثورة عاتية على الخنوع الذي يزيد في تخدير العقول الوائلة والنفوس الضعيفة فما على الطبقة المفكرة الزاكية الا أن تصمد للحادثات وان تقضي بقوة على الدجالين الذين يلفظون صفات النهضة بسوء ما ينفثونه من دجل وآراء هي وحي العصور المظلمة .

فإذا كنا وصلنا فيما عرضناه الى هنا بقي علينا ان نعرف أين تبندى الدعوة الى « التجديد » وعند أي مدى يجب أن تقف اغراضه وما من واقف على سير الحركة الفكرية الا ويعلم ان بدور التجديد بدأت يوم بدء المصلحون نهضتهم قبل ربع قرن أو أكثر يوم بدء المصلحون صيحاتهم وينفخون في صميم الشرق الناعس ان ينهض وان يستقيظ قبل ان يصبح لقمة سائغة للمطامع المحدقة به من كل صوب . وأحسب لو ان الشرق لبى تلك الدعوات منذ الصيحة الاولى ولم يرتطم بخزيعلات « الحشويين » المملؤ تاريخهم الاسود بابشع الصور ، لو انه فكر بجد وهزا بالحشويين وبما ينفثونه من سموم فتاكة ومشى في طريقه لما كانت اليوم هذه « المآسي المفجعة » التي تمثل على مسرحه ؟ ولقد كان « العصري » بالامس ملجأ زنديقا . وكانت الاصوات التي يرسلها « المصريون » من صميم افئدتهم اصواتا لا تتلائم وعقيدة الامة !.. وما أحسب نعمة الامس البالية الا ذات النعمة التي يرددها بعضهم اليوم اذاء الدين يعنون بالتجديد والاصلاح الذي ينقذ الامة من ضعفه وما في اخيلتها من ضلالات وينهض بها الى ارقى ما تحلم به من تطور وورقي ولا ناتي بالامثال على ما نقول فهي قريبة ماثلة من ذهن بنت اليوم بل هي بداءت منذ بدأ الشرق يستقيظ على اصوات المصلحين ، وقد تطورت مع الايام تبعا لكل فكرة تخضع للاموس التحول ، فكانت تنهض تارقاتعشر اخرى وما زالت في سيرها حتى يومنا هذا ، وهي تمتاز اليوم في نشاطها وسيرها عن الادوار التي مرت بها ان روح التشقيف التي عمت مختلف الطبقات تدعما قويا وتمسك بها عن الانزلاق في الهاوي السحيقة التي يوسع فتحاتها الحشويون !..

دعوة التجديد في الشرق قديمة ، وواصل الشرق الى ما وصل اليه من تطور وورقي هو اثر حي لهذه الدعوات التي حاربها الجهلاء عن طيش وخبل ، وسير الروح التجديدية وغمرها الشرق من اقاصه الى اقاصه بدون ان ترتطم بزعر الجهلاء ونميتهم من انصح الادلة على يقظة الشرق وتماسك ابنائه من ان تهز وحدتهم او تعصف بكيانهم المواقف ، وواجب المفكرين - واريد غير واحد من رؤساء تحرير الصحف - ان لا يكونوا سببا لخمود هذه الروح المشتعلة وان لا يكونوا تكاة للرجعيين الذين كانوا في كل مواقفهم اكبر خطرا يهدد الرقي متخدين الدين وتعاليمه السامية ستارا ينفلون من وراءه الى الاغراض السافلة التي لم تلتئم قط وروح الامة في كل ما تطمح اليه من امان وآمال ويديهي اننا لا نريد الطفرة للشرق ولا نحب ان نسبق الايلام في سيرها وان لا تكون المظاهر الخلابة وحشالة ما تنفته المدنية هدفنا بل نحب النمو التدريجي والتطور المستمر وان نأخذ من المدنية روحها ولبابها وان نخلق من ضعفنا قوة وان نسير مع الزمن بما لا يتناكر ومالنا من مجد واخلاق ومن عادات كريمة وسنن صحيحة . . . وهنا عند هذه الفضائل التي تسمو بنا الى العلاء يجب ان نقف حيث « التجديد » قد اوضحت اغراضه وقد انتشلنا من هاوية العدم الى الحياة .

وما احسب بعد الذي قبعته ان مفكرا مختصا يقول ان التجديد مطية من مطايا الاستعمار وأنه سبب من الاسباب المؤدية الى ان تفقد البلاد « كيانها القومي » .

« سامي . . . »

الحديث : السنة الثالثة ١٩٢٩ العددان ٦ - ٧ حزيران - تموز .

المحافظون والمجددون

التجديد يستلزم التساهل وحرية المناقشة

انسان المستقبل . كيف يكون

يقال أن الانسان مطبوع على التمسك بالقديم ، مفعول على اتخاذ خطة آباءه ومن سلفه . فهو ينبذ لأول وهلة ما هو جديد ويرأى أن يسير بموجبه (١) . أجل ، ليس التمسك بالقديم والمحافظة عليه أمرا مشينا . ولكني لا أرى أنه من الحكمة أن يظل الفرد متمسكا بالقديم محافظا عليه لمجرد أنه قديم أو ينبذ الجديد لأنه جديد ، دون أن يفسح مجالاً للبحث والنقد والتفكير ، ليرى ما إذا كان هذا الجديد يعود عليه بنفع أجل من نفع القديم الدارس . فالفرد في هذه الحال ميت لا يستطيع التقدم بل هو كالمياه الراكدة لا تلبث أن تتجمع فيها الاقذار وتكثر فيها الجراثيم فتفسد . غير أنه قد يبدل الدهن القاريء أن فئة المحافظين أو المتمسكين بالقديم فئة مضرّة . لا لست أقصد هذا : فكما أن الجواد الجموح يحتاج الى من يشد لجانه ليتدارك تهوره أو جموحه في السير هكذا المحافظون هم لفئة المتجدين يقفون في سبيلهم يتداركون سيرهم السريع الذي قد يؤدي الى هفوات خطيرة . فكان المحافظين على غير ارادة منهم يجعلون الآراء الجديدة تتقدم ببطء وانما يقدم ثابتة لا تزال ،

(١) نال أن الانسان غير مفعول على التمسك بالقديم أو بالجديد وانما هو « يقلد » (اي يحاكي) آبيه وقومه . فهو مفعول على سنة المحاكاة والالتباس . فإذا كان الخلف يقتبس دائما من السلف يظل القديم مستمرا . هكذا قامت التقاليد . وذلك الاستمرار هو « الورثة الاجتماعية » - المحرر .

اللهم ، اذا كانت هذه الآراء سديدة تثبت امام البحث والنقد ، على ان فئة المحافظين قد تأتي بضرر مبین ان هي حالت دون افساح مجال للبحث والجدال لان هذين الاخيرين مدعاة للتقدم وسمة الحياة والتمو .

لماذا نرى العلم سائرا في التقدم على قدم وساق في حين ان بعض اعتقاداتنا الدينية لا يزال اكثرها على ما كان عليه في ايام اجدادنا الاولين ، ومنها اعتقادات سخيصة تستوجب السخرية احيانا ؟ هذا لان المجال في العلم مفتوح لاستقبال ما هو جديد وطرحه على بساط البحث والنقد فيثبت ان كان صحيحا وينبذ ان كان زائفا . وما اتى به انشتين من النظريات الحديثة التي قلبت بعض نظريات نيوتن راسا على عقب اكبر دليل على ما ذكر (١) .

واما الحال في الامور الدينية فهي خلاف ذلك . فعند البعض الجدال محظور في الاعتقادات الدينية والمناقشة بها ، فكيف يرجى تقدم آتئذ ان لم تحتك الآراء بعضها ببعض فيقضي صحيحها على زائفها ؟ غير ان هذا التضيق اخذ يخف نوباً في ايامنا هذه . والقد قام كثيرون يدعون للتجديد وينزعون التطهير الدين من شوائب السخافة . وقد يتخطى هذا التضيق في حيز الحرية الفكرية واخفاء الحقيقة الى الامور السياسية . فبعض الحكومات مثلاً تحظر على صحفها ومجلاتنا نشر ابحاث تتعلق بالدعوة البلشفية ، فعندي ان كل تضيق من هذا النوع لعين الخطأ ، بل هو جريمة ضد ناموس الطبيعة الذي يدعو الى التطور في كل ادواره ، واني ارى ان الجدال والمناقشة والنقد خير الوسائل التي تؤدي الى اظهار الحقيقة وازهاق الباطل .

(١) يقال ان نظريات انشتين صححت نظريات نيوتن ولم تنقضها - المعبر .

ملاحظة : معبر مجلة السيدات والرجال هو نقولا حداد . م . خ .

المصدر : مجلة السيدات والرجال ج ٢ س ١١ فبراير ١٩٢٠ .

الادب الجديد

يشير بعضهم في المعرض الأسبوعية ، بحث الادب القديم والجديد ، وتلخص القصة في نزعة هذا البعض الى خلق ادب جديد . يطالع الجمهور بالآراء والأفكار الجديدة في ثوب من اللغة جديد وبيان واسلوب هما في طرافتهما وجدتهما غير ما تعودناه واخذنا عنه من ادب اجلادنا الاقدمين .

حسن جداً افراغك آراءك وأفكارك مهما كان لونها في قالب من اللفظ متين ، وفي لغة مشرقة قوية التركيب وفي بيان واستعارات وتشابيه ما عرفها الاقدمون من ادبائنا .

ولكننا نريد ان نسال ؟ - واحد هؤلاء الذين يشيرون الضجة يقول في تعريف نزعة الادب الجديد ما نصه :

نحن نريد ان ننفذ بكتابائنا الى قلوب سائر الطبقات المتعلمة على تفلوت درجات علومها وتباين مقادير ذكائها (كلها !) ونريد ان لا نكتفي بالكتابة الخاصة (كلها) التي هي في غير حلجة الى ما نكتب - وهي شجاعة في الاعتراف بالحق - او في حاجة ضئيلة الى نتائج قرائحنا وبيان شعورنا وتفاهم وايهام على يدهما « وكفى بالله الكاتب سوء التفاهم » .

هذا ما قاله احد هؤلاء في تعريف طريقتهم ، ونمود فنتساءل ما هو هذا الادب الجديد ؟ وكيف يكون ؟ وهو فيما عرفه احدهم لا يفر من اصول اللغة واساليبها ! وأذن فليس هناك حكاية ادب جديد ا- قديم وانما وسيلة من وسائل التادية والتجوير .

هذا ومهما ارادوا التزمير من نزعتهم فهي لا تمدو التسمية والتحديد الذي حددنا به هذه المحاولة وهذا لا يمنع ان يكون في نطاق اللغة التي نتكلم وفي حدود آدابها القديمة ، وان نستطيع مهما اوتينا من القوة ومن عبقرية الاختراع والخلق العللوع على الناس بلفة جديدة لا يكون بيانها البيان الذي عرفنا في ادبائنا القدماء ولا يكون طريقها واسلوبها طريقة واسلوب اهل الادب الاقدمين واذا كان صحيحا ما يدعيه اولئك من نزعتهم الى الجديد في التعبير وفي الاستعارة والتشبيه فما تراهم فاعلمين لو طالبناهم بأن ياتونا بلبرع وارشق من هذا التعبير .

شعرٌ الذ من ابتداء الصين اغنائها

احلى واشهى من منى نفس وليل وجاهها

اللهم لو كان بعضهم لبعض ظهيرا وراحوا يكفون اذهابهم لما استطاعوا مثله ولما وجدوا اليه سبيلا .

الذين سمو الاشياء باسمائها وقولوا ان هناك الفاظوا فكلوا ومصطلحات لا غنى عن اختراعها او تركيبها او اشتقاقها للدلالة على مقاصدها ومعانيها اخترعتها مدينة العصر هذا والى يعرفها اجدادنا واهيلكم ان تكونوا كالقزم المقعد يطول اسباب السماء .

اديب الصفدي

بين الادب الجديد والقديم

خليل تقي الدين

الاستاذ الصديق خليل تقي الدين من ادبائنا المعروفين ينزع في الادب العربي نزعة تصويرية جديدة يريد معها ان يكون صورة حية لما يفكر ويتخيل وعلى ذلك كان من عصبة العشرة الذين يملأون صفحات المرفى الاسبوعي بما يمتقنون انه وسيلتهم الى تقرير مثل هذا الادب الجديد .

وقد كنا نشرنا في العدد الماضي مقالا اوليا تساءلنا فيه من هذا الادب الجديد وحدوده ومراميه وماذا يريد بهذه الدعوى اصحابها عصبة العشرة في المرفى وهم لا يستطيعون خلق هذا الادب على غير الاساليب والصور التي عرفناها في ادبنا القديم !

وارسل اليها حضرتته كتابا يعرب في جملة من حيرة هؤلاء الادباء « عصبة العشرة » فيما يريدون وما يعتزمون فينبجا الكتاب هذا . يقول بالتعديد اذا به يقول بان اللهب هذا لا يمد خروجا عن الادب القديم - ذلك وحسب - وانما هم يريدون تصوير ما يشعرون وما يفكرون ويتخيلون وهذا اعتراف صريح بان ليس هناك تجديد وانما تصوير للمشاعر والخيالات الفكرية الحديثة ليس في وهذا نص الكتاب :

بمقلين في ٢٢ حزيران ٩٣٠

أخي الاستاذ الاديب .

سلام الله عليك ، وبعد فقد طالعني « الناقد الطريف » في هذه القرية الهادئة من قرى لبنان بمقال لك في الادب الجديد هو الرابع في موضوعه في هذه الاسابيع الاخيرة الاربعة تساءلت فيه مطلقا على مقال صدر اخيرا

في المعرض لاجد افراد عصبة العشرة « فؤاد حبيش » ما هو هذا الادب الجديد وكيف يكون وهو فيما عرفه احدهم « احذ الذين يشيرون الضجة » لا يغير من اصول اللغة واساليبها واذن فليس هناك حكاية ادب جديد او قديم وانما وسيلة من وسائل التادية والتصوير .

فلذا غضضت الطرف عن التزمير ومطاوله القزم للسماء والدعوى العريضة والضجة وما الى هذه الكلمات التي نفحننا بها ، سالتك اتجاهلا يا اديب ؟ وهل يخطر في بالك ان كاتبنا عربيا له ذرة من العقل يفكر في الطلوع على الناس بلغة جديدة لا يكون بيئها البيان الذي عرفنا في ادبائنا القدماء ولا يكون طريقتها واسلوبها طريقة واسلوب اهل الادب الاقدمين .

بحق الجاحظ وابن المقفع وابي نواس من قال لك اننا نفكر في ذلك .

نحن نعلم ان لكل لغة من لغات الارض اصولا واساليب اذا انكرها الكاتب وقع في الركالة والרטانة ، ونعلم كذلك ان ادبنا القديم بحمد الله غني زاخر بنتاج قرائع ادبائنا العباقرة ولسنا ندعي اننا وقفنا على الادب العربي القديم كله ، وليتنا نستطيع ! ولكننا قرانا طائفة كبيرة منه قراءة تمكنا من الظهور في الناس بلغة اذا لم تضارع لغة الزمخشري والصاحب بن مباد فهي على كل حال لغة صحيحة سهلة مفهومة .

ولقد تساءلت في شيء كثير من التواضع ما هو هذا الادب الجديد الذي ندعو اليه كأنك لا تعرفه ولا تحسه وانت اديب .

وهل التجديد غير ان يكتب الكاتب ما في نفسه لا ان ينقل ما كتبه الآخرون من نفوسهم ؟

اليس هذا تجديدا كافيا لما نريد ؟ ثم الا توافقنا عليه انت الذي ارسل المقال تلو المقال وكلها مليء حيرة وتساؤلا وعلامات استفهام وتعجب وسخرية ؟

وليس ينحصر التجديد في عصر من العصور ففيه يستوي القدماء والمحدثون .

قأبو نواس والجاحظ وابن ابي ربيعة واضرابهم مجددون على بعد
الشقة بيننا وبينهم .

« وشيوخ الشعر والنثر » في الاقطار العربية اليوم - وهل لي ان
احصيههم وهم من الكثرة بحيث لا يحصون - مقلدون وان كانوا عائشين
بين ظهرانينا نواكلهم ونساكنهم ونعاشرهم والله مع الصابرين .

والفرق بين المقلدين والمجددين ان هؤلاء ينظرون الى اللغة كاداة
للاعراب عما في النفس فهي ليست غاية في حد ذاتها بل هي سبيل الى غاية
سائبة هي التعبير عما يحسه الانسان ويجول في فكره وفي مخيلته من افكار
وصور واخيلة وان اولئك - اي المقلدين - يعتقدون ان استعمال الكلام
الحوشي الغريب وزخرفة العبارات الفارغة غاية ليس بعدها من غاية اذا
بلغوها اطمأنوا اليها وما كانت هذه الزخرفة في نظرنا الا زخرفة الرخام
يقام على ارماس لا تحوي الا الجثث والعظام .

واذا لم يتمكن المجددون من الوصول دفعة واحدة الى الغاية التي
يقصدون اليها وهي تعويد الادباء الاخلاص في العمل الادبي السامي واظهار
شخصية الاديب ومحو فكرة التقليد من رؤوسهم فهم على الاقل يلجئون
بعض ادمياء الادب الذين يعتقدون ان المنابر وصدور الصحف خلقت لهم
اولئك الذين يقفون على كل منبر ، دعوا اليه ام لم يدعوا ويرثون كل ميت
ويمدحون كل كبير وينظمون الشعر كما تاكل انت او كما يدخن النارجيلة
معروف ! بربك اليس في اسكات هذه الابواق خدمة كبرى تؤديها الجراءة
في النقد الى جملة « المنكوبين » بسماع هؤلاء المقلدين وقراءتهم كل يوم .

اطلعت عليك القول عن غير قصد ولكن ما حيلتك بالقلم اذا مشى .

اخوك خليل تقي الدين

المصدر : النائد - دمشق العدد ٨ / ٢٦ حزيران ١٩٢٠ السنة الاولى .

مذهب الادب المصري

يتغنى ادباؤنا ، واذا قلت ادباءنا فاني اعني طبقة القدماء منهم ،
بالادب وبنهضة الادب ونحن لو سألناهم أي أدب تمنون لما نطقوا جوابا .
ولمذا ؟ ؟

لان هذا الادب وهذه النهضة ليسا بالادب كما يفهم من الادب ولا
بالنهضة كما يعرف من النهضة وانما هما ذلك الاختلاج الذي يختلجه
التمساح بعد سكون سنين وقعود عمر لا لكي يسير في الهواء والنور وينتقل
من مكان الى مكان بل لكي يقلب من جنب الى جنب ومن جهة الى اخرى
قد ينام عليها مدة اطول من المدة الاولى وقد يموت عليها ولا رحمة عليه
ولا اسف .

لكل عصر رجال حسب دولته فلان ما الرجل العبسي بالرجل
كذا لكل زمان السن نطقت بكل معنى جديدة غير مبتذل

هذا ما قاله الشاعر المجدد فرنسيس مراث من نصف قرن وهو
يعني ان الادب لا يجب ان ينحصر بالتقليد كما كان في زمان هذا الشاعر
وكما هو الآن عند هذه الطبقة التي تحتكر الادب بل يجب ان ينزع الى
ناحية جديدة تتفق مع روح العصر وتوجد نواة ثقافة حديثة تكون اساس
حضارة المستقبل ، فاذا بقي الادب يقلد تقليدا ويطلع طبعا في عقول
الشبيبة فالمعنى ان ثقافتنا هي كما كانت منذ عشرة قرون وان حضارتنا
منذ عشرة قرون وان حضارتنا الآتية هي ايضا كما كانت وكما هي
الآن وان حالتنا الاجتماعية ستكون اشر مما هي عليه بنسبة ما يطرا
على العالم من التجديد وما يفوتنا من اللحاق به .

شاع في أوروبا في هذين القرنين الأخيرين عدة مذاهب في الأدب خرج بها الأدباء على القديم وتقليد القديم واستقروا على هذا المذهب الذي يعم اليوم القارتين أوروبا وأمريكا ويعرف بالمذهب الطبيعي ، هذا المذهب لا يأخذ صفة من صفات المذاهب القديمة ولا يقلد مذهباً سبقه ولكنه مستقل بذاته يسمى بحق مذهب الأدب العصري وإذا ما درسناه جيداً وجدناه يميل نحو المحسوس في الحياة فلا يعتني كثيراً بالخيال ولا يذهب مع الأهواء والعواطف ولا يخترع من عندياته مشاح قد لا تتفق مع الحقائق وهو أقرب إلى العلم منه إلى التصور القصصي فالأديب الأوروبي المعاصر ليس أديباً يجيد درس الأدب الذي كان شائعاً منذ قرون ودهور ويميل بنزعة إلى هذا الأديب القديم المشهور أو إلى ذلك . لا بل هو ذلك المعلم الذي درس في مدرسة الحياة والطبيعة علمي النفس والاجتماع حسب القواعد الحديثة وجاء يطبقهما على أحوال الناس وميولهم ويصور لهم منها صوراً تأخذ بمجامع القلب وتسلب اللب وترهبهم ذواتهم كما هم بدون تصنع ولا محاكاة .

هذا النوع من الأدب يوجد ثقافة جديدة وهذه الثقافة الجديدة تكون حضارة المستقبل وحضارة المستقبل مقياس رقي الأمم الأوروبية والأميركية فلذا ما تفاعلتنا بمستقبل هذه الأمم فاتنا إنما نتفاعل عن معرفة وإدراك كما أننا إذا ما تشألمنا من مستقبلنا فلنا إنما نتشألم عن معرفة وإدراك أيضاً لأن ما عندنا من مذاهب الأدب وما ينتج عن هذه المذاهب من الثقافة يجعلنا نجزم بالمستقبل الرديء الذي ينتظرنا .

يقف الأديب أمامك في هذه البلاد يكلمك عن الأدب فنظنه سيتحدث إليك عن نزعة جديدة يطمئن إليها فكرك ويسر بها قلبك ولكن سرعان ما يخيب ظنك إذ تراه لا يعرف غير القدماء وأدب القدماء وإذا خانتك الحظ معه فتسمع منه عن الجن والسحر والعرافة ما إلى هذه الخرافات الشيء الكثير .

أنا لا أقول هذا عن كل الأدباء لأنه يوجد ، والحمد لله ، فئة لا تقلد هذا التقليد ولا تذهب هذا المذهب القديم المعتم وهذه الفئة لم تؤثر بعد

في الادب وفي مذهب الادب واذا كانت لم تؤثر بعد في الادب وفي مذهب الادب فالمعنى ان هذا البحث والنقد لا يشملها الا من ناحية ايجابية اي من ناحية تحبيذ رأيي ومذهبي ، فهذه الفئة نواة الادب العربي العصري ان شاء الله وروح النهضة الفكرية التي ستعم الشرق في المستقبل .

في مصر كما في لبنان وكما في سائر البلدان العربية نزعة ادب عصري جاءت بعد ان قام الدكتور طه حسين امام المجددين في الادب وعلي عبد الرازق وبقية من يجاريهما في نهضتهما ينادون بضرورة خلق ادب جديد وثقافة جديدة وان نسيت فلا انسى الاستاذ الكبير اسماعيل بك مظهر والاستاذ كامل كيلاني والاستاذ سلامة موسى الذين جاهدوا وما زالوا احسن الجهاد في هذا السبيل ولكن مع وجود هذه النزعة فان الادب في مصر ملازال مطبوعا بطابع المذهب القديم ومازلنا نقول عن مصر كما نقول عن هذه البلاد وبقية البلدان الشرقية انها لم تخرج بعد على الادب القديم ولم توجد ثقافة تكون اساس عظمة حضارة مستقبلها كما هي ثقافة الشعوب الاوربية والاميركية الحاضرة اساس عظمة حضارة مستقبل هذه الشعوب .

هذا التاخر الادبي في الشعوب العربية يرجع الى كون الاديب يهتم بنحو اللغة وصرافها ومعرفة شواذها اكثر مما يهتم بالعلوم والفلسفة وما انتجت العلوم والفلسفة من المذاهب والآراء ، واذا ما حصر الاديب اهتمامه بدرس اللغة فانه يميل بطبيعة الحال الى درس ادب القدماء واذا ما مال الى درس ادب القدماء فانه يغوص في بحر من المتناقضات لا يخرج منه الا فاقد الادراك الصحيح والتمييز التام منهد القوى لا يقدر ان ياتي عملا مفيدا . وكيف يقدر ان يعمل الحسن في الادب وهو راضخ الى هذه المناقضات والاهام ويخاف انه اذا ما ترك واحدة منها يتدرج الى ترك الكل وبعد ذلك يرجع كانه لم يدرس ولم يتعب هنا كل المصيبة لانه يضطر الى درس جديد وتعب اجد وهذا لا يقدر عليه ؟؟

هذا هو السبب في بقائنا مطمئنين الى هذا النوع من الادب ، فالاديب الذي امضى السنين في درس القدماء وادب القدماء لا يعرف غير القدماء

وادب القدماء ولما كان خوفه من تعب جديد وتمضية سنين عديدة في الدرس والتنقيب يمنعه من رذل هذا الادب الذي استظهره عن سطح قلبه ونقشه نقشا في فكره وصار يتلوه بدون كلفة ولا تعب ، فان الادب سيبقى مطبوعا بطابعه لانه يمثل الفئة الكبيرة من الادباء .

واذن ؟ ؟ .

فاني لا اقدر ان ابقي صلمتا ولابد من اثارة حمية بقية الادباء ممن ينزعون نزعة ادب عصري لتكوين بيئة تساعد في المستقبل من يسعده الحظ ولا يسير على المنهاج القديم لكي يحل شيئا فشيئا مذهب ادب عصري جديد مكان هذا المذهب القديم . تبنى عليه الثقافة والحضارة والرقمي والتقدم .

لا احد يجهل السيد جميل صدقي الزهاوي الشاعر العراقي الكبير واحد اقرب الادب العصري الجديد . هذا الشاعر المحترم كان قد سئل من مجلة الهلال عن الكتب التي افادته فاجابها (سر النجاح) كتب علم الهيئة والفلك التي ألفها الدكتور فانديك (كتب الصحة) كتب الكيمياء وبقية الكتب العلمية . فهو لم يقل لها كتب المبرد وابي علي القالي وابي تمام والزمخشري وسيبويه ، ولم يقل لها هذه الكتب التي تدرس اليوم في المدارس لتعليم الادب وهي ليست بكتب ادب بل قال لها سر النجاح وبقية الكتب العلمية ، والسيد الزهاوي كما يعلم الجميع شيخ جليل قد يكون الذي من امثاله قد نسي هذه الكتب التي ذكرها امام بقية ما درس من كتب القدماء ، ولكن شكرا لقوة العقل التي وان طمت عليها العوامل المتناقضة فانها تثبت وتثبت حتى الموت .

عندما ابتدأت بكتابة هذه المقالة تذكرت انتقادا كانت نشرته مجلة المصور في مصر حول كتاب طبع في العراق ووزع هدبة لمشركي مجلة تصدر هناك ، وهذا الكتاب يبحث في تفسير رموز جبل قاف . ومن من اسيلادنا الادباء اصحاب المذهب القديم يجهل جبل قاف ١٩٩٠ .

ولكي تدرك عظمة رموز هذا الجبل القاف واهميتها فان المؤلف
استشهد بعشرات الكتب القديمة القيمة ؟ . على وجوده ولم ير من
غضاضة عندما صرح ان بحثه وتنقيبه اثبتا له صحة وجود هذا الجبل
ولا خجل من نفسه عندما قارن بين ما ارتقاہ القدماء وبين ما يرتأيه هو
حول حل رموزه وقد تفضل وذكر صديقا له قرظ ذلك الكتاب الثمين؟؟
ونعته بأعظم النعوت وافخمها كحجة العلماء الاعلام؟؟ . وواحد العصر
والدهر؟؟ . مما ينبو عن السمع . فهل من سخافة بعد اكبر من هذه
وهل من شك بعد بعقم هذا المذهب القديم في الادب؟؟ .

بيد ان الامر لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه الى تقديس بعض
الاشياء الطبيعية وتنجيس بعضها فقد ذكر ان استاذنا في علم الكيمياء
اخذ يشرح يوما لتلاميذه مبادئ هذا العلم واولئك التلاميذ كانوا قد
درسوا الادب حسب المذهب القديم وعرفوا منه ان الاشياء الطبيعية
بعضها مقدس وبعضها منجس فلم يتمهلوه حتى سلوه : أمقدس هو
الأكسجين ام نجس؟؟ حتى يعرفوا مقلبه في لائحة مقدساتهم
ومنجساتهم؟؟ ويوجد مثل هذه الحادثة عشرات بل ومئات وكلها تثبت
ضرر هذا المذهب القديم في الادب .

صادفت بالأمس صديقا يتمسك بهذا المذهب القديم تمسكا أعمى
فسألته رأيه في هذه النزعة الجديدة فاجابني - ان الله سبحانه وتعالى
اراد بها تفكيك عرى الرابطة العربية واستعباد العرب لشروء بعضهم عن
جادة الدين القويم ، فقلت وهل من رابطة عربية لكي نخافه على قطعها
واستقلال لكي نخاف عليه فلم يرد جوابا فقلت له ثانية ان الحالة الحاضرة
ليست مما يخاف عليها فاكثر من هذا التنافر لا يوجد واكثر من هذا
الاستعباد لا يمكن ان يصير واذا كان هذا فلا خوف علينا ولا وجل .
بمثل هذا الجواب اقتنعت صديقي فذهب يضرب أخماسه بأسداسه
ويفتكر بسؤالي وجوابي .

فاسيادنا اصحاب المذهب القديم ينكرون كل شيء الا صوابية مذهبهم
في الادب وهذا من أغرب المناقضات .

قرأت في صغري من جملة ما قرأت أشعارا تنسب الى الجن وهذه
الجن قد لعبت دورا كبيرا في حياتي ثم ازل كلما أتذكره اشعر بالحزن
والكلو ، وقد جرت ان اقنع البعض من اصدقائي من أصحاب المذهب
القديم بعدم وجود الجن وبأن ما ينسب اليها من الاشعار منتحل فلم
اوافق . وكيف اوافق الى نفي وجود الجن وكتب أسيدنا القلماء محشوة
بها ؟ وكيف يمكن ان تكون هذه الكتب مضلة ؟. أما قالت الجن شعرا
ترثي به عمر بن الخطاب :

ابعد قتيل بالمدينة اظلمت له الارض تهتز الغضاه باسواق
جزى الله خيرا من امام وباركت يد الله في ذلك الأديم المبزق
فمن يسمع او يركب جناحي نعامه ليذكر ما حاولت بالامس يسبق
قضيت امورا ثم غادرت بعدها بوائقي في اكمامها لم تفتق
وما كنت اخشى ان تكون وفاته بكفي سبتي اذرق العين مطرق

وأما قالت شعرا آخر تفتخر به بقتل سعد بن عباد :

قد قتلنا سيد الخنز رج سعد بن عباد
ورميناه بسهمي من فلم نخطيء فؤاده

وعلى هذا يوجد مئات من الاشعار التي تنسب الى الجن وتثبت
وجودها .

يريد أسيدنا أصحاب المذهب القديم ان يؤمن بوجود الجن
والمفاريت وانها قالت شعرا وان العقل لا قيمة له تجاه هذا الامر الواقع
المحسوس ؟. وبعد هذا يتساءلون عن سبب ذلنا واستعبادنا .

رحم الله هربرت سبنسر ذلك الفيلسوف الكبير الذي علمنا تسلسل
الاشياء من بعضها وبين لنا خطأ اتكالتنا على الظروف والصدف وأحيانا
على الله فهو في أبحاثه العميقة قد عرف الناس ارتباط الحالات ارتباطا

تاريخيا وأظهر علة تأخر الشعوب والاضمحلالها في كتابه الكبير « مبادئ علم الاجتماع » فتأخر الشعوب حسب رأيه (وهو الصحيح) يرجع إلى جمود عاداتها وتقاليدها وجمود هذه العادات والتقاليد يرجع إلى كونها قديمة ، فالعادات القديمة تكتسب قوة من ناحية قدميتها وهذه القوة تزيد في بقائها وقدميتها ولما كانت الهيئات الاجتماعية مرتبطة بعاداتها فإن أحسنها تلك التي لا عادات قديمة جدا عندها تحول بينها وبين النمو والتقدم . على هذا المبدأ بقيت شعوب واضمحلت شعوب وتبدلت الأنواع على وجه هذه البسيطة .

« أديب »

المصدر : مجلة الدهور . بيروت العدد الاول . المجلد الاول . تشرين الاول - ١٩٢٠ .

اتجاهات التجديد

اصدر الاستاذ سليم قبيص صاحب مجلة « الاخاء » عددا ممتازا
اشترك في تحريره اكابر ادباء العرب كالكتور طه حسين ومحمد فريد
وجدي وخلييل مطران وكامل كيلاني والكتور ابو شادي وعيسى اسكندر
الملوف وغيرهم من الادباء وبعوث غاية في الجودة والمتعة ، وقد طلب
الينا الزميل الكريم ان تكون لنا كلمة في هذا العدد . فنزلنا عند رغبته
وهذه هي كلمتنا « اتجاهات التجديد » .

* * *

في الشرق العربي ، اليوم ، فكرتان تتصادمان : فكرة البعث
والتجديد وملائمة روح العصر وميوله من جهة ، وفكرة الخنوع والاستسلام
والرجوع الى الماضي والاحتفاظ بكل ما هو قديم من جهة أخرى ..

ويمثل الفكرة التجديدية جموع الشباب المثقف وزعماء الفكر الحر
ومن اخذ بنصيب وافر من حضارة الغرب وادابه ، ويمثل الفكرة
الاستسلامية الخائفة فئات غير قليلة تعيش في فكرتها وهواجسها في
صميم القرون الخالية ، ناظرة نظرة سوداء الى كل ما تقلده مدينة
الغرب من خير وشر ، مبتعدة كل الابتعاد عن هذا « الجديد » الذي
يحمل في طياته ارادته كل جرائيم أوروبا التي ستقضي على فضائل الشرق
وآدابه — كما يزعمون ! — ويقوي الصراع ويضعف كلما اخذ كتاب
الفئتين يطرحون هذه الافكار على صفحات الجرائد والمجلات او يبسطونها
فيما يخرجونه من كتب ورسائل ويبدو للقدماء الذين يتلون ما يكتبه
زعماء التجديد اننا قد التصقنا بصميم الحياة الأوروبية ، كما يبدو لشباب
التجديد ان الحياة التي يحياها القدماء ليست على هامش القرن العشرين
بل في كنف العصور الاولى للاسلام . وكلتا الفئتين تخطيء وتصيب فيما

تصوره أو فيما يصوره لها الكتاب إذ ليس في الفئات التجديدية من يحيى تماما - إلا فئات قليلة - تلك الحياة الأوروبية البحتة في جميع نزعاتها وميولها، وفيما تخلقه حولها من أجواء واضواء ، وليس في الفئة الثانية - الفئة التي تنعم بظلال الرجعية وتابى إلا أن تكون قديمة رغم مواضعات العصر - نقول ليس في هذه الفئة أيضا من ينكر تماما حقائق هذا العصر وما يفرضه علينا من نعيم ، وإن حياة أفرادها مجرد تكشف وزهد وخنوع واستلام ! ١٠.

فالواقع ، أن حضارة هذا العصر تنشر مبادئها بشتى الوسائل وينهل جميعنا ، وبدون تفريق ، من ينبوعها العذب وعصارتها اللذيذة المذاق . . وكل ما في الأمر من الفروق والتباين أن بعضنا تهضم معدته هذه المصارة فيستزيد ، وإذا يستزيد تنكشف أمامه ، مع الإيلام عوالم جديدة باسمته فيها كل ما يحقق أطماع القلب والعقل معا وبعضنا لا تهضم معدته هذا الغذاء اللذيذ اللذيذ إلا بمقدار فيأخذه بتأفف وينفر منه أحيانا وقد تضطرب معدته فيقيء ويلفظ ما قدم له ، شأنه شأن المريض الجاهل أو الطفل الغريب الذي ينفر من الدواء المر . . . وهو في نفوره وعناده وإبتعاده عن هذه الادوية الشائعة كمن يحكم على نفسه بالموت المحتم مع أن في وسعه أن يشفي نفسه مما هو فيه إلى أن يقوى على السير رويدا رويدا وإذا يقدر له السير في الطريق يمكنه أن يجاري موجبات العصر ، وبالتالي يصبح عصبيا قويا في الكيان الشرقي المتوثب إلى الحياة والمتطلع دائما إلى ما في الأفاق البعيدة من عوالم حية غير مكشوفة ، وعندئذ يشوقه أن يعمل بنشاط وقوة لمحاولة كشف هذه العوالم والنفاذ إلى أدق أسرارها وأبعد خفاياها شأنه شأن الغربي الذي لا يفتأ - يعمل ليل نهار ودائما في سبيل هذه الحضارة والسهر على نمائها وينشط نفوذها في المناطق التي لم تصل إليها . . . وهو في طريقه هذا لا يكل أيضا بل يوالي البحث والاستقراء ويخلق إلى أن يكشف عوالم جديدة (تكون) ركائز قوية لتدعيم هذه البشرية على أسس جد قوية .

هذه هي الفروق الحقيقية لما يسمونه « قدماء » و « مجددين » من

ناحية البعث الاجتماعي . وهي فروق يمكن ان تزول مع الزمن القريب بل يجب ان تزول وان تلتقي خصومه الفريقين عند فكرة التمسك بلباب هذه الحضارة الراهنة التي تنتشر سهلة واضحة على لسان البرق والتلفون واللاسلكي ، وعلى متن القطارات والسباحات والطائرات والتي نلمسها عيانا في أمواج الكهرباء وانتقل المينا على لسان الراديو ونحن متكئون على أرائك وثيرة بدون ان نعب أو نجاهد جهود الجبابة في الحصول عليها .

ان هذه الحضارة المحببة الى كل نفس والتي تنقل الشرق من المجهل المظلم الى لباب العصر الخالي المشرق بكل استنباطاته العجيبة . وهذا الفيض المدني الذي ولدته حضارة القرن العشرين والذي يعطينا وسائل قوية لنختزل المسافات والابعاد ونطوف العالم بأسابيع ونكتشف ما لم يصل اليه أبائنا الأولون . وهذه المستنبطات الحديثة التي تكشف أمامنا هذه التيارات المظلمة وتتركنا في أضواء خالدة كأننا في هذه العالم المسحور الذي تعبدنا به الكتب المقدسة . - ان كل ذلك مما يحتم علينا ان ننسى هذه السفسافة الجدلية التي تثار أحيانا حول «القديم» و «الجديد» . إذ لا جديد ، ولا قديم . فنحن تجاه حضارة عصرية راهنة نلتقي بها - شأننا أم أبينا - وجها لوجه . وإذا كان من مسئلة يجب ان تثار فهي : هل في الامة العربية هذه القليلة التي تمكنها من هضم حضارة الغرب والسير في نفس هذه الاتجاهات التي تتجه اليها الامم الحية ؟ . أنا لا اظن ان مفكرا يجب على هذا السؤال بالنفي . . . فالامة العربية ، ذات التاريخ الناصع الصفحات ، لم تكن في يوم من خاليت أيلها أمة خنوع واستسلام بل كانت مغامرة في فتوحاتها ، مجددة فيما تركته من ادب وحضارة لا تزال موضع بحث اكابر مؤرخي الغرب الذين كثيرا ما يقفون امام روائع الحضارة العربية مبهورين مشدوهين . . . وإذا كانت أوروبا في نهضتها الاولى لم تنتكس ان تأخذ حضارتها عن العرب بعد ان استروح نسيم هذه الحضارة العطر غير واحد من اكابر مفكريها ورجالها - وقد كان العرب في نظراهم آنئذ كفارا مسلمين . . . - اذا كان الامر كذلك ؟ أفنتكس نحن عن ولوج هذا الطريق ونكون جلمدي الاحساس بليدي الشعور للدرجة نقف أمام

حضارة القرن العشرين وجلين من الاقتراب من حماها بداعي أن حضارة
الافرنج - وهذا ما يقوله بعض غلاة انصار القديم - لا تتلائم وروح الدين
لانها هي حضارة الاثم والفجور ومدنية الكفرة الاثمين !

هذا الهراء الذي تدعو اليه بعض الفئات الرجعية هو ما يجب
منازلته والقضاء عليه .١٠ ومن دواعي الفرح ان تكون المدارس المدنية
هي التي تقوم بنصيبها الاوفر بتهياة جيل جديد قوي المنازع في اتجاهاته
التجديدية للقضاء على مثل هذه الفكرات الواسخة التي ترجع بنا
عشرات السنين الى الوراء دون ان تمكثنا من خطوة واحدة الى
الامام !...

ان اول ما يرمي اليه دعاة التجديد هو ان تتحرر العقول من قيود
الجمود ، وهذا اول منفذ للبحث والاستقراء والوصول الى نتائج
خطيرة في حياتنا العقلية .١١ ومحلولتنا اخذ لباب مدنية الغرب ليس
معناه القضاء على كياننا القومي ، بل بالعكس هو طريقنا القويم للاحتفاظ
بكياننا القومي وبهذه الخصائص النبيلة التي تميز الامة العربية عن
غيرها من الامم ويخطأ جدا من يحسب ان دعوة التجديد يجب ان تنتهي
بتلاشي وذوبان هذه الخصائص في بوتقة المدنية الغربية !... نعم ، ان
هذا خطأ فادح يجب ان يزول من الالذهان .١٢ فدعوة التجديد دعوة
نقية الصفحات فيما تطبئه وما تظهره وواجب الامة العربية ان تنظر
اليها نظرة بريئة من هذه الاوشاب التي يلصقها بها حثالة من سقط
الناس قد ضاق تفكيرها عن بحث مثل هذه الامور البديهة فراححت في
اباطيلها وخزعبلاتها تصور « التجديد » كويلات منقضة على اسس
الدين وان الشرق اذا ما استيقظ على وهج المدنية الوضاء فهو من
المالكين !...



أن للشرق العربي عبرة باليابان والاتراك ..

فلأمة اليابانية قد حاولت هذه التجربة الاجتماعية الخطرة منذ أكثر من نصف قرن ولا يمكن أن يقال أنها لم تكن موفقة في تجربتها هذه .. كلا ! فهي في توفيقها الاجتماعي والصناعي أصبحت تتلاقى وأرقى الأمم الأوروبية والأميركية .. ولم يصب دينها الوثني ولم يتحطم كيانه القومي من هضمها عصارة المدنية الغربية ، بل بالعكس فقد كان ذلك قوة حية لخصائصها التي انبعثت من جديد لتساهم بنشاط وقوة في ميدان الحضارة الواسع الرحب وهذه تركيا أيضا قد أخذت تجرب هذه المحاولات التجديدية بقوة وعنف . وفي اعتقادنا أن مغامرتها هذه لا تعد تجربة بل نوعا من الايمان الصريح - هذا الايمان الذي يحثوها أن تعتنق هذه المذاهب الجديدة التي خلقت حضارة أوروبا ومدنيتها خلقا جديدا .. ان بعض المتشائمين يذهبون الى أن تركيا في نهجها الجديد قد أنكرت خصائصها « الشرقية » وتحولت إلى أمة « أوروبية » في كل شيء .١٠ والواقع أن الاتراك لم يعتنقوا الأساليب الأوروبية الا ليكونوا أندادا للأوروبيين شأنهم شأن اليابان تماما . وهم مع اخذهم مظاهر المدنية الأوروبية من لباس وعادات ، هذه المظاهر التي هي أقرب للحياة المصرية من غيرها - نعم ، ان اخذهم هذه المظاهر لم يجردهم قط من خصائصهم القومية بل قد يكون له الآن أحرص على هذه الخصائص منهم قبل أن يلبسوا لباسهم الجديد .١٠

ولسنا نطلب ملامة العربية الأفراط بما أفرط به الاتراك ، كما لا نريد أن نقيد نهضتنا وبعثنا الجديد بسلاسل من عبودية القرون المظلمة .. كلا !.. بل ان ما نريده هو تحطيم هذه السلاسل التي تقيد نهضتنا ، وتلك الصخور القاسية التي تعترض طريقنا .. نريد ان ننزع هذا الغشاء الكثيف الذي يعلو أدمغة المرجعيين وأن نمزق تلك الحجب السمكية التي تزيهم المعالم بلون قائم ..

هذه هي ، اتجاهات التجديد وهي اتجاهات لا خطر منها على

القومية ولا على الدين وقد آن للشرق العربي ، ولبعض المتشائمين من
أبنائه أن يتراخوا ، ولو إلى حين ، هذه السفسف التي تثار باسم الدين
تارة .. وباسم عنعنات السلف تارة أخرى .. وأن يكون نضالنا في
سبيل الحياة الجديدة .. هذه الحياة المبنية التي تحقق الطماع القلب
والعقل معا والتي نستشف من مولدها هذه السيادة العقلية بل سيدتنا
القومية المرافقة التي تنطلق إلى صروحها المشيدة كل أمم الشرق المجروحة
الكرامة .

ولعننا فاعليون .

سامي الكيلاني

المصدر : الحديث ، السنة السادسة ١٩٣٢ ، العدد الثامن أب .

تقديم

محمد حسين هيكل

ثورة الادب

هذا الكتاب جديد قديم . هو قديم لان بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يغير منه الا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين . الاولى واحدة الفكرة التي تنتظم فصوله جميعا . والثانية أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه ما يجعله يتفق وواحدة الفكرة ، وبعضها ألف من أكثر من جزء من عدة فصول نشرت ، وهذه الأجزاء جميعا تتسق من حيث الفكرة وتؤدي إلى الغاية التي وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب إذن جديد قديم . وأحسب طابع الجودة فيه أغلب لأن الفكرة التي دعت إلى نشره لم تكن باويزة في أي من الفصول التي سبقت إلى نشرها بروزها فيه .

وقد اخترت له (ثورة الادب) عنوانا بعد أن جال بخاطري قبيل طبعه أن أجعل عنوانه (نحو الادب القومي) ، لأن فصوله الاولى جميعا لا تتحدث عن الادب القومي وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدتها نصف القرن الأخير في شؤون الكتابة والادب وتصف الجهود المتصلة الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الادب العربي الجديد . والواقع أن هذا الادب العربي يضطرب بعوامل الثورة فيه منذ الثورة العربية في مصر ، ومنذ بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة إلى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ، ومن النطاق المحصور نطاق التعليم ، لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره . وقد

كان هذا العمل وما يزال شاقا . فاية لغة يمكن ان تحقق هذه الغاية ويمكن ان تبقى مع ذلك على الزمان ؟ ليست هي اللغة الدارجة التي يتكلم الناس بها لان لكل إقليم من الاقاليم لغة كلام تختلف عن لغة الاقليم الذي يجاوره ، وتكاد تنقطع الصلة بينها وبين الاقليم الذي يبعد بعض الشيء عنه . واختلاف لغات الاقاليم التي تتكلم العربية يجعل مجالا وضع قواعد تنتظم هذه اللغات المختلفة . ولغات الاقاليم لم يدون لها ادب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخر ومجد . فلا بد ان من ان تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال بالجمهور لكن هذا الجمهور لا يفهمك اذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الاولون . ولكن اللغة العربية هي كذلك لغة القرآن الكريم . فكيف ترتفع بالجمهور الى حسن ادراك لغة القرآن ، وكيف تقرب اللغة العربية الى إدراك الجمهور ؟... من الاجابات المختلفة على هذين السؤالين نشأت ثورة الادب خلال السنوات الخمسين التي انقضت حتى يومنا الحاضر . وفي خلال هذه السنوات الخمسين اخرجت الثورة صورا من الادب مختلفة في النثر والشعر يدرسها بعض المستشرقين اليوم ، وهي جديرة بالعناية والدرس من كل مشتغل بالادب معنى بتاريخ الكتابة العربية في العصر الاخير .

وكما ان الثورة العربية لم تنته الى اليوم لانها لم تحقق غاياتها ، كذلك لم تنته ثورة الادب بعد الى غاية . وكما ادت الثورة العربية الى الاحتلال البريطاني لهذه البلاد احتلالا اتجه بالثورة السياسية الى ناحية جديدة ، وكذلك اتجه هذا الاحتلال بثورة الادب الى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الاولى من الثورة ، صورة لغة الكلام ولغة الكتابة ولم تبق بعدها محلا لبحث أو جدل ، ولم يبق قط قائل باتخاذ لهجات الكلام اساسا للادب ، وحل محل ذلك ما سمي القديم والجديد في الادب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة وتنقل المحاربون فيها في ميلادين مختلفة كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول اساليب الكتابة وتتناول الالفاظ العلمية وغير العلمية الجديدة كما كانت تمس في رفق صور الادب وما يصح ان تكون عليه . والى

يومئذ كانت الطلبة لانصار تقليد الادب القديم وكان السجع والاغراب في اختيار الالفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكان الادب الغربي يومئذ جديرا بان يسمى الادب الكبير في النشر والشعر فقد كان الادب القصصي قد بلغ قمة مجده وكان كبار الشعراء قد اقاموا في لون العصر ما يقف الى جانب الالفاظ والانيادة في الادب اليوناني ، والى جانب شعر فرجيل من ادب الرومان . وكان كثيرون من شباننا الذين ذهبوا يتمون دراساتهم في اوربا يومئذ سواء منهم من اوافدتهم الجامعة ومن اوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يتمون دراساتهم المالية قد فتنوا اكبر فتنة بهذا الادب الغربي الكبير . فلما آن لهم ان يعودوا وكانت الحرب الكبرى قد اعلنت او قد انتهت كان هذا الادب الغربي الكبير في اوربا قد آن له ان يستريح بسبب انصراف النفوس في الحرب عنه . ويرجع هذا الانصراف الى ان النفوس شعرت بعد الحرب بفراغ هائل فيها كما شعرت في نفس الوقت باستهتار بالحياة ادى بها الى التهالك عليها . وما تريد بالانسانية خارجة من افطع مجزرة شهدها التاريخ بعد ان ظلت خلالها اربع سنوات تبلى ترى الالوف ومئات الالوف والملايين يحصدهم الموت حصدا وهم في ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! اية قيمة للحكمة في نظرها ولهذا القصد في الحياة نهل منها على مهل اذا كنا نجهل كل الجهل ما سنصير اليه في غدنا ، وهل سنظل في فتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونميمة او انا سنصبح لا شيء كما اصبح ملايين غيرنا ؟ اذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء ولنتروا بكلنا في احضان المسرات ننال منها في اقصر وقت اكبر حظ ما دما غير مؤقتين باننا سنأخذ حظنا منها كاملا اذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا الانسانية وكان من اثر هذه الحال النفسية على الادب ان اضطر كثير من الكتاب لارضائها وامتناعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ولكنها مختلفة متفرقة لانها تقصد الى ارضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع الصغير من الادب هو الذي تهافتت الجماهير عليه لا قدرا منها اياه ولا اعجابا منها به ، ولكن لانه يسد مطامعها ونهمها للمتاع كما تهافتت على غيره من بضاعة ربما كان فيها اضرار بها ولكنها تهافتت عليها لانها تسد حاجتها الى نسيان الالمها

وهومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، ولكنها على كل حال سعادة
ربما لم يتح لها ان تنال غيرها قبل هذا الغد الذي يخيبها لها ما
لا تدري المرض او العاهة او الموت او البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين اتموا دراساتهم في اوروبا قبيل الحرب او اثناءها
او في اعقابها ممثلة صدورهم اعجابا بالادب الكبير الذي قرأوا والذي
شهدوا على المسارح ، موجهة عقولهم توجيهها جديدا على الطرائق
العلمية الحديثة . وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم تر مصر
مثلبا من زمن غير قليل الا من افراد قلائل موهوبين كان لهم اثرهم
في توجيه التفكير المصري وفي مقلتهم المرحومين الشيخ محمد عبده
وقاسم امين كما كان بينهم بعض الاساتذة ممن لا يزال اثرهم في هذه
الناحية متصلا . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا الى الميدان ونشاطهم
ان البعوث الى اوروبا لاتمام الدراسات العليا كانت قد انقطعت زمنا
غير قصير ولم تعد سيرتها الاولى في سنة ١٩٠٧ بفضل الجامعة
المصرية فضلا تاثيرها فيه وزارة المعارف في السنة التالية . اما قبل
ذلك فقل من كان يسافر الى اوروبا للقيام بدراسات عليا متصلة
والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات في فرنسا وانكلترا
كان اكثرهم ممن لم يلق نجاحا في مصر فلم يستطع متابعة دراساته في
مدارسها . فلما عادت البعوث سيرتها واوقدت الجامعة من اوفدت
واقتلت بها وزارة المعارف انتقلت العدوى الى بعض الافراد القادرين
فذهبوا يتمون تعليمهم وعادوا بعد اتمامهم اياه فنقلوا ميدان القديم
والجديد في الادب ووجهوه وجهة اخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة
مما كان البحث فيه قد فرغ ، وغير اساليب الكتابة بعد ان اسبغ عليها
امتياز شخصيات بعض الكتاب طالبا جديدا نقلها من مجرد المحاكاة الى
بروز الذاتية هذا الميدان الجديد الذي انتقلت الحركة اليه هو صور
الادب وما يجب ان تكون . لقد انقضى عصر المقامات والترسل في نظر
هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هي صور الادب القومي الكبير
هي القصة والاقصوصة وهي الشمر الوجداني والشعر التمثيلي .

وقد امان ثورة الادب هذه انها اقترنت بالثورة السياسية التي شبت في اثر الحرب الكبرى إذ بدأت في ٩ مارس سنة ١٩١٩ . الم يكن المصريون يطلبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطلبون حياة سياسية وصورة من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء ؟! فلتكن مظاهر الفن والادب مصبوبة عندهم في قوالب غربية لتكون آية للناس جميعا على تقدمهم وعلى انهم يسبقون الغرب الى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الادب هذه ليفيب عن الاذهان جلال خطرهما ولا هي كانت اقل لفتا . لنظر الغرب بمن الحركات السياسية التي دمنها الطبع القومي والتي امتدت الى بلاد الشرق جميعا . ومهما تكن الحوادث قد غمرت زعماء ثورة الادب في ميادين السياسة فان جهودهم ظلت تراقب ذلك بان الادب واتجاهه في آية امة من الامم هو العنوان الصحيح لحضارتها وهو القوة التي لا تستطيع قوة اخرى كبجها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضي بها القوات المسلحة على الثورات السياسية وانما يقضي على ثورة الادب باندساس عوامل تفسد توجيهها . ويخيل الى ان مجهودا كبيرا قد انفق في هذا السبيل كما انفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الاصلاح الديني التي بدأ المرحوم الشيخ محمد عبده والتي كانت جذيرة بان تؤتي اعظم الثمرات ، ومهما يكن من امر هذه الجهود فان ثورة التجديد في الادب قد ظفرت بالتقدم وقد جرت الى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون المجددين مفاتيحها . لكن ما انفق من الجهود التي هيات الفوز فتح عيون اصحاب الجديد واسعة وجعلهم يتساءلون : ايان نذهب وماذا اليه من جديدا نقصد ؟

وقد كان طبيعيا ان يقفوا هذه الوقفة وان يطرحوا هذا السؤال . الحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الادب والفن . ونحن في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم اخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية اول قيامها

على بحث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الادب الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما في عضورهما من صور الفن والادب . ثم جعلت أوروبا تستقل بحضارتها رويداً رويداً لتقيمها على الأساس العلمي الذي وضعه ديكارت في القرن السابع عشر ، ثم جعل هذا الأساس يتطور من بعد ذلك إلى دين الطبيعة وإلى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر ثم إلى العلم الوهمي والفلسفة الواقعية وإلى دين الإنسانية في القرن التاسع عشر ، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان من ناحية ، ومن غير أن تنقطع الصلة بينها وبين المسيحية من ناحية أخرى . صحيح أن هذه الصلة كانت صلة محلوبة وهدم في أحيان كثيرة . لكن الحضارة الغربية لم تقطع ، ولا تستطيع أن تقطع ، صلتها بهذين العاملين اللذين أنشأها . والادب الغربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة . وتستطيع أن تقرأ في الادب الانكليزي أو الفرنسي أو الألماني أو أيا ما شئت من آداب الأمم الأوروبية وانت أبداً واجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحا . فعلاذا عسانا نحن نصنع وإلى ادب وإلى آية فلسفة في الماضي القريب والماضي البعيد يجب أن ننسب إذا أردنا به أن يكون مظهرا لحضارة ما ؟ وقف المجددون هذه الوقفة وواجهتهم هذه المسألة فلم يتردد أكثرهم في الإجابة بأن ماضيهم هو الاب الطبعي لحضارتهم ولأديبهم . أما القلائل الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو ما فعل الأتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفا زاده ضعفا ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الادب الكبير . من هنا بدأت الصلة بين انصر القديم وانصر الجديد فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة ، وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون في ثمرات الجهود التي يبذلها انصر الحديث في بحث الادب الجاهلي وأدب عصور الاسلام المختلفة بحثا علميا دقيق التحقيق خطوة موافقة في سبيل اعادة الحياة إلى حضارتنا الدفينة .

ولكن ... ما هي هذه الحضارة ؟ عربية ام اسلامية ؟ سؤال

وجه وكان المستشرقون اشد ما يكونون جدلا بتوجيهه حتى لقد رأينا
 اخيرا طلابا وطالبات غربيين يقدون الى مصر والى مختلف جهات الشرق
 العربي يحاولون فيما يقولون تحقيق هذه المسألة ، يتصلون بكل من
 يتوسمون فيهم انهم رجال الادب الحديث ، يلتمسون اليهم ان يدلّوهم
 على عقيدتهم العلمية في الامر . وأشعر بأنني في حل من القول بأن هذه
 الطلعة العربية متجهة الى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسية
 تبرر الاعتقاد بأن المسألة لم تثر للبحث العلمي وحده . وسواء صح
 اعتقادي هذا ام لم يصح ، وسواء اكان المقصود اثرة الخلافه بين
 المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية . او كان المقصود به
 ان لا تفرق الى الاسلام حضرة ما ، او ان هذا ولا ذاك لم يكن المقصود
 وانما البحث التاريخي التزويه هو المقصود ، سواء اكان هذا او ذاك
 فاننا نعتقد ان اية حضارة يجب لتقوم ان تتصل حتما بعنصر من
 الايمان . وقد خيل الى العلماء زمنا ما ان العلم سيفلّي النفوس بهذا
 الايمان ليقم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو ان يقيمه ، او
 دين الانسانية على ما وضعه اوجست كومت . لكن ما تم من محاولات
 في هذه السبيل لم ينجح في ان يقدم للجمهور الغربي ما يرضي طمعه
 الى رجاء او امل في الطمأنينة والسعادة . ومن ثم انقلب هذا المجهود الى
 الناحية المادية والاقتصادية وجعل منها كل رجائه في الحياة فكان من
 ثمره ذلك ما تعاني الانسانية اليوم من شقوة وبؤس زائدا في افراء الجمهور
 بالتشبهت بهذا الامن وهذا الرجاء . فالنفس بحاجة الى رخاء في غداها
 الفكري والعاطفي حاجة الجسم الى شيء من النعيم في حياته المادية
 ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وادباؤه يلتمسون هذا الفداء النفسي
 في اديان الشرق وصور الايمان فيه . والادب كمظهر للحضارة لا غنى له
 عن تجلية جانب الايمان في النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة ،
 ولا غنى له عن ان يحلّ هذا الجانب ويصف اثره في الحياة . وجانب
 الايمان في بلاد الشرق العربي قوي ايا كان الدين الذي يدين هؤلاء
 الشرقيون به . وقد كان الاسلام وما زال دين اهل الشرق العربي الا
 الاقليات منهم ، فلا يمكن ان يؤدي الادب رسالته اذا اهتم هذا الجانب
 القوي من جانب حياة الشرق العربي واذا لم يحاول ان يصل ماضي

هذا الشرق بمستقبله الصلة التي تستقيم والتفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى في خاتمة هذا الكتاب عن الادب والحضارة .

لم اغل اذن حين استقر رأيي على أن اتخذ « ثورة الادب » عنوانا لهذا الكتاب . فالادب في ثورة متصلة بالفعل منذ النصف القرن الاخير ، ثورة توازي الثورة السياسية المتصلة هي الاخرى في مسيرها وتعاين من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعاني زميلتها . لكنني لا بد لي من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويرا كاملا . واحسب دقة تصويرها ما دام اتصالها غير ممكن . وهو بعد ليس من عمل رجل مثلي لم ينقطع له وانما ألم به منه في اوقات فراغه وقد تكون الفصول التي اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة في مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك في عمل من الاعمال ان يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديرا دقيقا على نحو ما يفعل الشهيد المراقب .

وما دمت قد اشرت الى ما بين ثورة الادب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازنة فلا مندوحة لي من القول بأن عوامل السياسة التي حاولت صرف التيار السياسي في نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة في شأن الادب والكتابة . ولقد اشرت في هذا التقديم على ما بذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الادبية وحاولت من غير نجاح كبير افساد اتجاهها . وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا . ويكفي ان اذكر ما كان من سعي متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضي ، ومن اظهر هذا الماضي في صورة زرية غير جذيرة بالاستعداد بها او باستلهاها . وقد وصفت في الفصل الذي يلي هذا التقديم صورة ما يصيب الادب في عصور الطفيلان . ولعل هذه الجهود كان صاحبها من التوفيق اكثر مما صاحبها لو ان الحضارة الغربية بقي الايمان قويا كما كان ولو ان الادب الكبير علون على بقاء هذه القوة . لكن ما اصاب الادب الغربي في اعقاب الحرب مما وصفنا مضافة اليه نهضة مصر والشرق نهضة

قوية جعل الجهود التي انفقت لا تؤولى ما اريد منها من ثمرات وان جعلها تحول دون ثورة الادب والاستقرار الى ناحية تطمئن اليها .

واكبر اعتقادي ان هذه الثورة ستظل متصلة زمنا طويلا . فنحن ما نزال من بعد في بدايتها . وحسن توجيهها بحاجة الى جهود شاقة جبارة والى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون ان يطيعوا الادب بصورة تدعو الى استقراره وهؤلاء الموهوبون . وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم في الشرق العربي كله الا عدد قليل وبناء صرح الادب على الصورة التي تدور في نفوسنا ونرجو ان تراها اعيننا بحاجة الى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التي تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة هي الاخرى . فرجاء استقرار ثورة الادب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو وان كنا نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن اختتم هذا التقديم واخلي بين القارئ وفصول الكتاب ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير أن تملّه او تدعوه الى التشاؤم ولعله اذا استطاع ان يتم قراءتها يرى اني لم أقم بمجهود عقيم حين فكرت في جمعها وتنسيقها ثم نفلت الفكرة وأظهرت اللأ على « ثورة الادب » .

محمد حسين هيكل

المصدر : ثورة الادب المقدمة ص ٥ - ١٦ مطبعة السياسة . الطبعة الاولى ١٩٢٣

الابحار والاتباع

جميل صليبا

في سوريا عددٌ غير قليل من المتعلمين تلقوا مبادئ الحضارة الحديثة وتغلّدوا بلبان العلم وتهلّبت نفوسهم بالادب وتوصلوا بعد الملاحظة والتجربة الى درجة من الثقافة والتفكير قد لا تقل عن مستوى المتعلمين من رجال البلاد الاخرى .

إلا ان ارتقاء الفكر وازدياد المعرفة لا يقتضيان بالضرورة ارتقاء في الادب والاخلاق لان حكم الحال كما يقول الغزالي غير حكم المنطق والمقال . فقد تنمو المدارك العلمية ويتسع الخيال والتفكير وتجهّد مع ذلك العواطف وتجف الميول وتنضب ينابيع الرحمة المنسجمة من القلب فليس كل ارتقاء علمي مصحوباً بارتقاء أدبي ، وقد تعرف الشيء ولا تعمل به وتدرك الواقع ولا تفكر في اصلاحه لان العلم بما هو لا يقتضي العمل بما يجب ان يكون .

واكثر الذين ارتقت معارفهم واتسع افقهم الفكري لا يزالون في اضطراب نفسي وتشويش عملي لان المثل الاعلى الذي تصوره اعلى من الواقع الذي غرقوا فيه ورغبوا في التخلص منه ولان الافق الذي ارتقوا اليه اوسع نطاقاً من البيئة التي ضاقت بحلّامهم .

بحث مرة بين بعض الشبان من طلبة العلم عن الرجل الذي يرغبون في التشبه به وعن الصفة التي يريدون الانتساب اليها فحصلت على نتائج مختلفة تدل كلها على قلق النفس وفقدان الثقة وضعف الإرادة ، فالكثير هؤلاء التلاميذ يريدون ان يكونوا مثل غاندي او مصطفى كمال او سعد زغلول او موسوليني او نازليون . واحسن المهن في نظرهم « السياسة »

— كما يقولون — والصحافة والمحاماة والطب والهندسة . ولعلمهم لم ينتخبوا هذه المهن الاخرة الا حبا بالسياسة فكان السياسة في أعينهم إله معبود او لعل خير دليل على قلقهم ترددهم في انتخاب المهنة وعدم ثقتهم بالمستقبل لانهم لا يجدون فيه الا شبهات في شبهات وظلمات فوق ظلمات ! ففيهم من يريد ان يكون مثل نابليون ، الا ان المهنة التي ينتخبها هي الطب ، ومنهم من يريد ان يكون مثل مصطفى كمال ويريد ان يكون في الوقت نفسه شاعرا . فهناك تضاد بين الغاية والواسطة وتردد في الإرادة وضعف في الايمان والثقة .

ولعل للتقليد والاتباع اعظم الاثر في تكوين هذا القلق في نفوس الشبان لانهم يقلدون الحضارة الغربية تارة ويتبعون صور الحياة الماضية أخرى فيتشوش عليهم الانتخاب ويختلط الامر فتفقد أفكارهم اتساقها وتصبح حياتهم العملية عرضة للاضطراب والتبدل السريع .

والتقليد يجعل الانسان شبيها بالآلة ، ينقل عن غيره أصول التفكير والعمل من غير أن يتوّن له فيها حرية الانتخاب . واذا سار المرء زمنا على طريقة الاتباع دون الابداع ونسج حياته بقواعد النقل لا بأحكام العقل اصلبه ركود في الفكر وجمود في العواطف وصار كآلة يتحرك بغيره لا بنفسه واذا صار شبيها بالآلة خسر صفقته وانحط الى أدنى درجات الحيوانية . واي حالة هي أشقى من حالة الركود الفكري والجمود النفسي . افلا يصبح الانسان فيها خاليا من الذكريات والأفكار والرغائب ؟ كأن نفسه قد خلت من التصور وقلبه قد تجرد من العاطفة او كأن صور الطبيعة المختلفة قد انقلبت الى صورة واحدة ، فلا ابتسام على ثغر الزهر ولا نور في أشعة الشمس ولا أمل في احمرار الشفق ! كان هذه الالوان قد تبدلت وانقلبت الى لون واحد غامض كما تتبدل الالوان الاشياء اذا رسمتها اشعة الشمس . وكان الفكر قد فقد نوره والعواطف قد أضلعت عذوبتها فانقلبت النفس من حالة الوحي الى حالة التقليد او من الحرية الى التقيد وهي حالة — أعيدك منها — أشبه بالنوم لا بل أشبه بالموت ، لان سكونها كسكون المادة وحركتها كحركة

الآلة فلا تخيل ولا تبدع ولا تحلل ولا تركيب بل تقلد أفعال غيرها كما تعيد ذرات الهواء حركات الذرات المجاورة فهي كالمادة خاضعة لقانون الأستمرار لا لقانون الإبداع .

وحالة الاتباع هذه على عكس حالة الإبداع ، لان النفس في الاختراع تكون مسرحا للذكريات والأفكار ، فتجري الصور أمام مرآة الشعور كما تجري مياه النهر ، وتتسق في تعاقبها كما تتسق النقرات الموسيقية . وتصدر المعاني العلمية والصور الفنية عن عوامل الحياة الكلمة وراء حجاب الشعور كما يفتح الزهر اكمامه بعد ديبب الحياة في الياف الشجر . يكون الانسان في هذه الحالة حديد البصر واسع الخيال ، يكشف في كل صورة من صور الوجود عن لون جديد ، ويرى في كل مادة حياة جديدة ، كان لغته لغة الوحي والالهام لا لغة القياس والبرهان ، لا يحتاج لسوى الحذر في الكشف عن الامور العلمية ، ولا يعرف غير الدوق في ادراك الامور البديعية ، يتوجه الى فضاء الفكر ويعلو في جو المعقولات ولا يحزن لتبدل الاشياء واختلافها ، فالمرئيات والمسموعات والمشمومات كلها ناطقة بما في نفسه ، والطبيعة لا تتحرك الا بما يتحرك به قلبه .

لقد وصف الفلاسفة هذه الحالة وقالوا انها حالة تتخمر فيها ميول النفس وراء حجاب الشعور فينبجس الاختراع على صورة وحي يسنده المخترع الى قوة مغلوقة له مجردة عن ارادته . فالشاعر يعزو وحيه الى شياطينه والموسيقار الى الهته ، ويظن انه يكتب ما يمليه عليه غيره ، ويخيل اليه انه متبع في حين انه مخترع مبتدع . وهذا مخالف تملأ لحالة الاتباع لان المقلد قد يظن نفسه مبدعا للأحوال التي ينقلها عن غيره ، كالذي يجرفه السيل فيظن انه مخير في سيره ، وهو مسير لا مخير ، تقذفه الامواج ولا يخطر بباله ان يقف لمحة في وجهها .

على ان المخترع لا يخلو في ابداعه من اتباع المجاري القديمة التي حفرها قبله طائفة المخترعين لان الهيئة الاجتماعية تؤثر في صور الإبداع

كما يؤثر الاقليم في اشكال النبات والحيوان . وللاختراع البدعي اساس اجتماعي كما للاختراع العلمي . لان الشاعر والموسيقيار والعالم والسياسي كلهم يستفيدون من الآثار التي حفظها الماضي في حوض الجملة المشتركة . وهذا ما يمكننا التعبير عنه بقولنا ان الاتباع ضروري للابداع .

ولقد قال هنري برغسون ان ابداع المادة غير ممكن وان الابداع لا يكون الا في الصورة (١) فيمكنك تخليق الاشياء كل يوم بصورة جديدة . ولكن ابداعك لا يعدو التركيب . فانت انما تركب صورة جديدة من عناصر قديمة ، ولا تتخيل شيئا الا على اساس صور المواد المحفوظة في نفسك . نعم انك قد تتخيل حصانا مجنحا ولا وجود للحصان المجنح في الطبيعة الا ان الحصان والاجنحة كلها موجودة على انفراد ولولا وجودها لما استطعت ان تتخيل صورة مؤلفة منها . فالانسان يبدع الصور الذهنية وقد يبدع المعاني والافكار ولكن هذا الابداع لا يخرج عن كونه مبنيا على التجربة . اننا باحلامنا نضع المثل العليا في السماء ، ولكننا اذا رجعنا الى الحقيقة عرفنا ان هذه المثل العليا منسوجة بخيوط الواقع . اضع الى ذلك ان الابداع ، فنيا كان او علميا ، انما لها معينة لا يمكن التوصل اليها الا اذا اطلع المخترع على القواعد والاصطلاحات القديمة . وهذه الاصطلاحات السابقة لا بد للانسان من اكتسابها حتى تصبح عادة او طبيعة له ، فاذا تمودها وصارت حاضرة في ذهنه أمكنه بعد ذلك أن يضم بها شيئا جديدا الى حظيرة العلم والفن . فالمخترع لا يتقن ابداعه الا اذا استفاد من الماضي لان الاتباع ضروري للابداع كما ان العادة ضرورية للتفكير والحرية .

انظر الى الطريق الذي يسلكه العالم أو الشاعر أو الروائي في ابداعهم ، انهم يتصورون بالحدس ، كما قال (هنري برغسون) (٢) ،

(١) هنري برغسون ، التطور البديع Evolution créatrice ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

(٢) الجهد الذهني (Effort Intellectuel) مقال نشر في المجلة الفلسفية Rev. Philos سنة (١٩٠٢) .

معنى مجردا بسيطا وخيالا عاما مبهما يقلبونه بالتدريج الى شكل جسي واصورة متشخصة . فهم يدركون النهاية قبل البداية ، ثم يعودون الى المبدأ فيفكرون في الواسطة التي يمكن الانتقال بها شيئا فشيئا الى الغاية . وعند ذلك تصبح الغاية المجردة حقيقة متشخصة . فالكتاب الروائي يتصور قبل كل شيء مسألة من المسائل الاجتماعية او قضية من القضايا ، ثم يجمع الحوادث ويصور الواقع ويصف الاشخاص وصفا يستطيع به تحقيق الغاية التي يتطلع اليها . فالواقعات التي تخيلها والحوادث التي جمعها مقتبسة من الحياة الاجتماعية ، ولولا وجود هذه العناصر لما حصل التركيب . والله در ابن سينا حين قال ان واجب الوجود لا يهب الصورة للمادة الا عند استعداد المادة لها . فالابداع يقتضي اذن تخطيل المحسوسات المتشخصة الى عناصرها البسيطة ثم جمع هذه العناصر البسيطة ضمن مركبات جديدة ولذلك كان لا بد في الابداع من بقاء الآثار القديمة ضمن الصور الجديدة . وهذا ما يبعث على انتشار الاختراع وارتياح الناس اليه . والناس لا يرتاحون كما قال (وليم جيمس) الا الى القديم ضمن الحديث ، ولذلك يقلقون امام الصور الجديدة التي لم يوالفوها ويتألمون من الصور القديمة التي اصبحت بالية لا تتفق مع روح العصر .

والسوريون اليوم قلقون لانهم مترددون بين الماضي والمستقبل ، لا يعرفون أية صورة من صور الحياة يتبعون ولا الى اي قطب من هذين القطبين يتوجهون ، فالماضي يهزمهم والحياة الجديدة تستفزهم ، الا ان الماضي المحسوس اثقل على كاهلهم من المستقبل المجرد . وهم ابوا او ارادوا سائرون بحكم الضرورة في تيار المدنية الحديثة .

ولعل ابداع صورة صالحة لحياة السوريين الجديدة لا يتم الا بتحليل هذا الماضي الى عناصره المقيمة . نعم ان البناء في الامم التي ليس لها ماض اسهل منه في الامم القديمة ولكن هذه الاخيرة لا تستطيع التجرد من جميع عناصر حياتها السابقة . فالمهندس الذي يبني مدينة جديدة يخططها كما يريد ، ولكن المهندس الذي يصلح مدينة قديمة لا يستطيع

اصلاحها الا بالهدم والبناء معا . فهو يهدم البيوت القديمة ويستفيد من اوضاعها وانقاضها في بناء الشوارع الجديدة . يجمع الماضي الى المستقبل ويضع القديم في الحديث ، ولكن الصورة المجردة التي في نفسه هي اصل ابداعه . ولعله لم يهدم من البناء الا ما اوحى اليه به ابداعه . لان الفكرة كما قال ابن خلدون اول العمل .

ان اسباب القلق في نفوس الشبان ناشئة عن فقدان المثل الاعلى من نفوسهم وعدم وجود تفكير شخصي حر يتجردون به عن اتباع الآثار القديمة وتقليد الاوضاع الغربية تقليداً أصمى . ولو ابدعوا لانفسهم صورة جديدة لارتاحوا في الارتكاز عليها ... لولا الابداع لبقيت البشرية مظلمة كما كانت في العصر الحجري . فالابداع قد ملأ الحياة الاجتماعية بالصور الدينية والعلمية والفنية . وهي بالنسبة الى الحياة كالزهر بالنسبة الى الطبيعة . والتوازن المتحرك خير من التوازن الساكن ، لانه يدل على الحركة والتطور . ولعمري ، انني لافضل الحركة مع القلق على السكون مع الراحة ، لان الحركة اقرب الى الحياة والحرية . والمرء في التوازن الساكن يعيش مقلداً على نمط واحد واذا تحرك كانت حركته ميكانيكية . ولكنه في التوازن المتحرك يجدد نفسه وأفكاره في كل لحظة . وكما تقلب العادة الحرية الى تقييد والنفس الى مادة ، فكذلك يقلب التوازن الاجتماعي الساكن واجبات الانسان الحر الى فرائض اعباءية . فالابداع دليل على الحرية وهو بالنسبة الى العقل كالحرية بالنسبة الى الإرادة واذا تكامل صغر كما يقول ابن سينا في أعلى درجات التكوين ، الا ان الانسان بالرغم منه لا يستطيع التجرد من الماضي وكلما كان الماضي بعيدا كانت تقاليده ثقيلة .

جميل صليبا

المصدر : الثقافة - دمشق . العدد الاول - السنة الاولى . ٥ نيسان ١٩٢٢ .

التجديد في الدين

للاستاذ امين الخولي المدرس بكلية الاداب ١٨٩٥ - ١٩٦٦

مقال لمشروع القرش ، وحول مشروع القرش ، يحضر النفس ذكر
المشباب ، والتضامن والاستقلال والحياة والقوة وتجديد مجد مصر .
ثم نحن الآن في رمضان : صوم وزهد وتدين . فمن تداعى هذه المعاني
يألف العنوان « التجديد في الدين » .

عنوان قد يطلع على البعض جريئا بل ربما كان مزعجا لكثير من
المتدينين الذين يتعجلون الحكم على الاشياء قبل اختبارها ويتدرونها
بتلك الاحكام الفاضبة السريعة . فان يفعلوا ذلك قبل الفراغ من المقال
فهذا هو الذي يفقد احكامهم قوتها وحرمتها . وان يتريثوا حتى يقرؤا
فسيرون انهم كثيرا ما يشودون في وجه من لا يستحق منهم الا التقدير .

عنوان قد يكون نلبيا قلعا عند غير المتدينين . لانهم يرون في الشيوخ
صورة المحافظة المرافقة ، بل يعتبرونهم حجر عثرة في سبيل التجدد على
اختلاف الروايات . ويحملونهم تبعة الكثير مما اوقف الشرق واخره .
ويرونهم جند الرجعية ومقلها . ويصدر الكثيرون عليهم احكاما رهبة .
لكنها سرية قل من يجرؤ على مجاهرتهم بها . فاصحاب تلك الآراء والاحكام
قد يعدون هذا العنوان دعابة مزحة ومغلظة فكهة . لكنهم ان يتعجلوا
الحكم كذلك قبل ان يقرؤا فهذا بعض تطرفهم الذي يفقد جهادهم قوته
ويعوق نجاحه . وان يطمئنوا حتى يقرؤا فسيرون ان كثيرا مما ثلروا
فيه على الدين ليس من الدين في شيء وان الدين غير المنتسبين الى الدين .

العنوان حقيقة صحيحة صريحة لا فكاهة فيه ولا مروق « ان شاء

الله . ففي الدين فكرة واضحة عن التجديد تبين ناموسا كونيا وتنبه الى سنة اجتماعية مطردة لا تتبدل . اذ ورد في الحديث « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها » او ما هذا معناه . وهو حديث صحيح نص على صحته متقدمون منهم البيهقي والحاكم ومتأخرون منهم ابن حجر والعراقي . . . وراحت فكرة التجديد في الاسلام وعني العلماء ببيان مجدي كل مائة وتعيين اسمائهم ، واعمالهم والترجمة لهم . . . ولا اريد هنا وفي هذه الالمة الصحفية ، ان اعنى باستقصاء تلويخ فكرة « التجديد في الدين » بل اكتفي بان اشير في ذلك الى مجموعة تنتظم من خير التجديد والمجددين صورة كاملة من الهجرة الى اليوم ، وهي تتألف من منظومة للسيوطي في هذا الموضوع سماها « تحفة المهتدين في بيان اسماء المجددين » ومطلع هذه المنظومة :

لقد اتى في خبر مشتهر رواه كل حافظ معتبر
بانه في رأس كل مائة يبعث ربنا لهذي الامة
منا علينا عالما يجدد دين الهدى لانه مجتهد

وعلى هذه المنظومة شرح الشيخ محمد المراغي المالكي الجرجاوي الذي عاش في القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين وسمى هذا الشرح « بنية المقتدين ، ومنحة المجددين » ، على تحفة المهتدين . . . الخ . . . شرح فيه منظومة السيوطي ثم اكمل اسماء المجددين نظما الى عصره وشرح نظمه على طريقته شرحه نظم السيوطي (١) .

وفي بيان الدينين لمعنى التجديد تراهم يقولون : انه نفع الامة ، ودفع المكاره عن الناس ، ونصرة الحق واهله ، واحياء ما اندرس من احكام الشريعة ، وما هي من معالم السنن وما خفي من العلوم الدينية وينجدون عن تغير الحياة واستحداث اشياء تحتاج الى تناول جديد وحسبك من قولهم في معنى التجديد ماورد في المجموعة السابقة من

(١) ان هذه المجموعة مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٨٧ تاريخ .

عبارة النظم والشرح ممتزجين وهي : « وانما كان مجددا لانه اي المبعوث فينسا مجتهد وشأن المجتهد التجديد . . . » ولئن اکتفوا في الازمنة الاخيرة بالاجتهاد المقيد فبحسبهم ان نلوا التجديد بالاجتهاد وفسروه به وابعده عن التقليد الذي هو آفة العقول وعلة الجمود . ونراهم حين يعدون أسماء المجددين في كل طبقة قد يعددون المجددين ويخصون كل مجدد بفرع من فروع العلم أو العمل . فيوسعون الدائرة توسعة محمودة .

تلك فكرتهم في تجديد الدين : وانها لفكرة في التجديد منزنة وزينة . مقصورة لنظام الحياة وتلرجها معادية للجمود وقاضية عليه قاتلة لاهله واذا كان الدين وهو وحي الهي والاسلام وهو رسالة لا رسالة بعدها هو الذي يقرر لاهله أن نظام الحياة العاملة يحوجه الى التجدد ويهيء الله له على الزمن من ينفي عنه مظاهر الجمود ، ويأمل الوقوف ؟ اذا كان هذا حال الدين ، وذلك شأن الاسلام ، فموافق الحياة ، وظواهر المعيشة التي لا ثبات لها ولا استقرار ، والتي هي وليدة الظروف وصنعتها ، أشد حاجة الى التجدد والتغير واذا كانت البعثة الدينية التجديدية منة على المتدينين ، وفضلا من الله ونعمة ، فالمتنسبون الى الدين حين يقاتلون المبعوثين لهذا التجديد ، ويجمدون على ما وجدوا عليه آباءهم ، انما ينكرون نعمة الله ، ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجا - وما هم ببالفية - وهم ، وبين أيديهم ذلك الاثر ، وعليهم ذلك الواجب لا ياثمون بجمودهم اثما واحدا ! بل آثما كثيرة : اثم لانهم لا يتجددون واثم لانهم لا يجددون واثم لانهم يعوقون المتجددين في تعنت أصم لا يميز الخبيث من الطيب مهما تباينا ولا يعرف داعي الله من داعي الشيطان .

مصر والتجديد في الدين

وما ننسى أن الكلمة لمشروع القرش وحول مشروع القرش فلنعد الى مصر المتجددة بجهاد شبانها مصر ذات الحيوية الفياضة وصاحبة

الشخصية الخالدة والتي أسدت الى الانسانية والحضارة اظهر الأيادي وأشرفها على تطاول السنين وتمادي الأيام . نعود لنقول ان مصر كعادتها في ذلك قد اضططعت من تجديد الدين بالحظ الاوفر وساهمت فيه بالنصيب الأكبر على سعة الامبراطورية الاسلامية وتراخي ارجائها وانتظامها الواسع الافيع . اقطار الدنيا القديمة . فانت حين تعرض اسماء أولئك المبعوثين المجددين على رؤوس المثلث خلال الثلاثة عشر قرنا من تاريخ الهجرة تراهم يمدون هكذا :

في المائة الاولى عمر بن عبد العزيز

» » الثانية الشافعي

» » الثالثة ابن سريج العراقي أو أبو الحسن الاشعري

» » الرابعة الباقلاني أو الاسفرايني

» » الخامسة الغزالي

» » السادسة الفخر الرازي

» » السابعة ابن دقيق العيد الشافعي

» » الثامنة البلقيني أو غيره

» » التاسعة السيوطي

» » العاشرة الرملي أو غيره

» » الحادية عشرة عبد الله بن سالم البصري

» » الثانية عشرة الدوير

» » الثالثة عشرة أحمد الشرقاوي

» » الرابعة عشرة ؟

وتجمل نظرك في هذه الجريدة من الأسماء فترى - كما لاحظ القدماء أنفسهم - ان الكثرة المطلقة من هؤلاء المجددين مصرية رجال انجبتهم وآوتهم وعلمتهم مصر ذات الفضل العتيد على المدنية منذ

عرفها بنو آدم ، فبين هؤلاء الثلاثة عشر مجددا ثمانية من المصريين هم :
 عمر بن العزيز وليد مصر الناشء بها والشافعي الذي حمته وفيها علم
 وابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي ، والبلقيني المنسوب الى بلقينة
 قرب المحلة والسيوطي والرملي المنسوب الى رملة قرب منية المطر
 تجاه مسجد الخضر والدردير الصدوي والشرقاوي المجرجاوي ...
 وان شئت عدت لمصر منهم تسعة فمصر في القرن الرابع عشر الهجري
 هي قلب الشرق الخافق وعقله المفكر واقد تصدرت في شجاعة وبنين
 لحمل اعباء تلك القيادة منذ بدأ ذلك الشرق يمسح عن عيونه آثار التوم
 ويتنهى ليقظة نشطة باهرة تمدها عزمة القاهرة تكتب له النجاة وترد له
 حقه في الحياة ... ولا اريد اليوم ان اسمي مجددا هذه المائة او مجلدتها
 من المصريين حتى لا احلبي احدا ، ولا القن رايا وانما اترك الكلمة في
 ذلك لشبان الشرق وشبان مصر .

يا شبان الشرق — ها انتم اولاء تطلبكم قوى التجديد من حيث
 تخشون عناصر الجمود ؛ وها هو ذا الاسلام الدين الحي يدفعكم دفعا
 الى مسطرة نواميس الكون ؛ ومجاراة نظم الجماعات الانسانية ؛ وهذا
 تلويخكم المجيد يغذي حاضركم الحديث فلا علم اليوم لكم اذا لم تثبت
 تلك العزمات لتسمع الدهر صوتا طالما اصغى اليه ازمانا وحدا له فسر ؛
 ومضى حيث صرفه واحتكم فيه .

يا شباب مصر : هاكم ماضينا مجيدا في الصدارة والزعامة ، لم
 يدع ميدانا الا حله وها هي ذي مصركم معلمة الدنيا قد انتهت اليكم لواء
 هذه الزعامة وقد بايعها الشرق وعرف مكانتها وهاندها الغرب وجحد
 حقها . والحياة العاملة اليوم انما يكتب للامة الصانع والشعب الدؤوب
 فلا بد ان تتصلر مصركم ما تصدرت من سائر الميادين قديما وسيبني
 ثبات شبانها بمشروعهم العملي صروحا سامقة من القوة المادية تشهد
 ان الذين عرف اسلافهم كيف يحمون الفلسفة ويمنعون العلم ويلودون
 عن الاديان يعرفون هم جيدا كيف يؤصلون الصناعة على اساس ابقى
 على الدهر من الدهر .
 ● امين الخولي

المصدر : الرسالة ، العدد الثاني ، اول فبراير ١٩٣٣ .

من رسالة الى صديق

حول التجديد

احمد حسن الزيات ١٨٨٥ - ١٩٦٨

... الجديد جديد في مظهره ، قديم في جوهره ، لا يصلح موضعاً للدرس ولا موضوعاً لحديث .

ستقول : اذن ما بال هذه القصائد الرائعة التي يخطوها الشعراء والمفالات الرائقة التي يدبجها الكتّاب ؟ فأقول لك انك اذن تفهم من كلمتي القديم والجديد غير ما افهم ، واتريد من مدلولهما غير الذي اريد . كانك تريد بهما ما كان يريده الاقدمون حين كانوا يتمارون في شعر امرئ القيس وجريير وابى نؤاس وابى تمام والبحثري والمتنبي وابن هانيء . والاقدمون كما تعلم إنما كانوا يختلفون في شكل الشعر لا في موضوعه ، فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك . والأسلوب الرصين والمهلل . والمعنى المسروق والمطروق ، والتشبيه المنتزع من وجوه البادية أو من صور الحضر ، والمطلع الجيد والريء ، والتخلص الحسن والقبيح ، ويجرون في كل ذلك على اذواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والاجناس . وعندهم في ذلك واضح . فالشعراء لأسباب فطرية واجتماعية ، لم يقدموا اليهم الا نوعاً واحداً من الشعر هو ما يتعلق بالوجدان والعاطفة . فكان النقد امام وحدة الشعر العربي ونقصه ، مسوقين الى أن يقصروا جهودهم على لفظه : يحكون معننه ، ويعجمون عوده ، ويسبرون غوره بالموازنة والمقارنة والتعقب . والشكل الخارجي حكمه حكم اللباس والاناث والانية : يتغير بتغير الزمان والمكان والحالة ، ليس لاحد في ذلك حيلة .

فهل ترى أن أبا نواس مجدد بالإضافة الى امرىء القيس ، لأنه بدأ قصيدة بوصفه الخمر ، وتكلم في الفلمن والطردي ؟ أو أن المتنبي مجدد بالإضافة الى أبي نواس ، لأنه داف شيئا من فلسفة اليونان في شعره ؟ أو أن مطرانا مجدد بالإضافة الى المتنبي ، لأنه ذكر القطار والكهرباء ، ولون أدبه بأدب الغرب ؟ اني لا أرى في مثل هذا التفاوت الظاهري تجديداً ، ما دام الشعر قد ظل في كل هذه العصور واحداً في موضوعه وطريقته ونوعه ووزنه . . أما تغير الشكل فذلك فعل القانون العام الذي يغير أبداً كل شيء .

وهل قصد أحد من هؤلاء وأولئك الى هذا التجديد المزعوم فجاءه في سبيله أهل جيله ، كما فعل أرباب المذهب الاتباعي (Classique) والابتداعي (Romantique) والواقعي (Realisme) في فرنسا مثلاً ؟ لم يكن شيء من ذلك ، لأنهم لم يختلفوا كما اختلف الفرنج في الموضوع والينبوع حتى تتباين الأغراض من تلك المواضيع ، وتشعب المسالك الى هذه النماذج . وهل سمعت أن الناس اختلفوا يوم تركوا العلبة الى الكور والكوب والقدح والجام ؟ أم علمت انهم اختصموا كلما تغيرت موادها من الجلد الى الخشب ، ثم الى الخزف ، ثم الى الزجاج ، ثم الى المصنوع ؟ كلا ! لم يسمع أحد بذلك ، لأن اللبن والماء وهما المقصد والغاية لم يتغيرا منذ خلقهما الله . أما حين تغير الشراب من اللبن الى الخمر فقد حدث الخلاف وتشعب الرأي وتعددت المذاهب .

الحق أن التجديد لا يحدث ، والجديد لا يكون ، إلا متى وجد القصص والتمثيل في الشعر فيكمل ، ودخلت الاقصوة والقصة والرواية في النثر فيتم . أما ادعاء التجديد بالدعوة الى العالمية وترجمة الأساليب الغربية فمعجز يتظاهر بالقدرة ، وجهل يتستر بالتحذلق !

١ . الزيات

المصدر : الرسالة ، العدد السادس ، اول ابريل ١٩٢٢ .

التجديد في الأدب

احمد امين ١٨٧٨ - ١٩٥٤

- ١ -

موضوع ثار فيه الجدل بين الكتاب ، واحتدم فيه الخلاف بين الباحثين . هل ادبنا العربي يحتاج الى تجديد ؟ وهل سواء في ذلك شعره ونثره ؟ وتمصّب قوم للتقديم يدودون عنه ويحافظون عليه ، ولا يسمحون بأي تغيير فيه . وهب المحدثون ينمون على المحافظين جمودهم ، ينلرونهم بسوء العاقبة إن هم ظلوا متمسكين بالتقديم معرضين من الجديد .

ولكن اسوا ما يسوءني في هذا الموضوع وامثاله الغموض والابهام ؛ فلذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربي جميعوا في القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ، ولا واضحة الدلالة . وقد يجوز إذا حددوا أغراضهم وأبانوا من مقاصدهم ، أن يوافقهم المحافظون أو أكثرهم ، ولا يكون ثمة خلاف ، وإن يكن فخلاف معروف تقام عليه حجج واضحة .

من أجل هذا كله أحاول أن أعرض لوجوه التجديد التي يخيّل اليّ أنهم يريدونها ، وأدلي برأيي فيها ، وأدعوا الكتاب أن يساهموا فيها بأرائهم ، ويستلذكوا ما يفوتني من حججهم وأغراضهم .

في أدب كل لغة عناصر ثابتة لا يعترئها تغيير ولا ينالها تجدد ، هي

قدر مشترك من الأسلوب والتراكيب وتأليف الجمل ؛ به تمتاز اللغة من سائر لغات العالم ، وينفرد أدب الأمة عن آداب العالم — وقدر مشترك من الفن ، نتبين به الجيد من الأدب في كل عصر وكل جيل ، هو فوق البيئة وفوق العوامل السياسية والاجتماعية ، وفوق ما يطرأ عليها من كل تغيير .

وهذا وفذاك هما اللذان يجعلاننا نتفوق الأدب الجاهلي ، ونندرك ما فيه من جمال ، ونشعر بما فيه من نقص . ويستطيع الأديب منا أن يعرفه خير ما قال امرؤ القيس ، وما قال طرفة ، وما قال زهير ؛ وهو الذي يجعلنا نتفوق ما في القرآن الكريم من جمال في الأسلوب والمعنى . ونندرك ما في العصر العباسي الى عصرنا هذا من نثر وشعر ، ونؤنه ونقومه . ونحكم على بعضه بالحسن والجمال والقوة ، وعلى بعضه بالضجف والتقصير والغموض . ولولا هذا القدر المشترك لانقطعت الصلة بيننا وبين القديم فلا نحس له جمالا ، ولا نتفوق له طعما .

وهذا النوع من العناصر لا يقبل تجديدا ولا تغييرا ، اذ بتغييره تضعيف اللغة وتفقد شخصياتها ، فلو قلبنا تركيب الجمل رأسا على عقب ، أو لم نراع الوضوح الذي تسير على نهج اللغة ، لكان لنا من ذلك لغة جديدة ، ليس بينها وبين الأولى نسب .

وهناك نوع آخر من العناصر في اللغة والأدب ، خاضع للتغير ، قابل للتشكل ، يتأثر بالبيئة وبنفحة الحضارة ، وبالأساليب السياسية ، وبالحياة الاجتماعية ، وبغير ذلك .

وفي هذا النوع يكون التغيير والتجديد . ومن أجل هذا التغيير كانت الفروق واضحة بين الشعر العباسي والشعر الجاهلي ، في التعبير والتشبيه والأسلوب والموضوع ونحو ذلك ومن أجل هذا امكن الأديب اذا عرض عليه نوع من الأدب ، ان يعرف عصره ولو لم يعرف قائله ، لانه يستطيع ان يتبين خصائص كل عصر ومميزاته ، وينطبق

ذلك على ما يعرض عليه من شعر أو نثر . ومن أجل هذا أيضا نرى الفرق واضحا بين لغة الادباء الآن وبين لغتهم منذ عشرين عاما . وتجدر الفرق واضحا بين لغة الجرائد المصرية اليوم ، وبين لغة الجرائد السورية والعراقية ، وإن كانت كلها تصدر باللغة العربية ، واشترك في العناصر الأساسية .

وهذا التغيير أو التجديد في الادب وتأثره بما حوله خضع له الادب العربي وكل أدب على الرغم من المحافظين والجامدين ، فقد رأينا في العصر العباسي مدرسة وعلى رأسها الاصمعي لا تحب الا الشعر الجاهلي ولا تحب من المحدثين الا من قلد القدماء . ورأينا من كان ينشد الشعر فيسئسئنه ، فإذا قيل له أنه محدث استهجنه وأتهم ذوقه ، ولكن هذه المدرسة اخضعها الزمن لحكمه ، ونشأ أدب عباسي جديد ، احتفظ بالعناصر الأساسية للادب العربي ولم يابه لما عداها وكان الفرق كبيرا بين الاديين كما قال الجاحظ : كم من الفرق بين قول امرئ القيس :
تقول وقد مال الغبيط بنا مصا

ومول علي بن الجهم :

فبتنا جميعاً لو تراك زجاجة

من الماء فيما بيننا لم تسرع

وجاء المتنبي وعلى اثره المعري فجندنا في الشعر من ناحية الاستطوب ومن ناحية المعاني ، فانكر عليهما ادباء عصرهما نزعتهما الجديدة ، حتى رأينا من بين العلماء من أبوا أن يعدوها في الشعراء . ثم حكم الزمن على هؤلاء العلماء ووضع المتنبي والمعري في مكلفهما اللائق بهما .

وكان هذا هو الشأن في كل عصر ، حتى عصرنا الحديث ، نشأ قوم تأثروا بالادب العربي القديم وحلوا حلوه ، ولم يخرجوا قيد شعرة عنه . فلو ركبوا الطائرة قالو ركبنا الهودج والبحير ، وإذا

استهلك البنزين قالوا رعت السعدان^(١) ، وسموا الجنيهات الانكليزية وعملة الورق دواهم ودنانير ، واذا لم يكن لهم من الامر شيء قالوا لا ناقة لنا ولا جمل ، وهم في الحقيقة لا ناقة لهم ولا جمل ، الى كثير من امثال ذلك .

وتأدب قوم بالادب الغربي الى ثقافتهم العربية ، فشاروا على كل ذلك واختلفوا بينهم في مقدار هذه الثورة ، فقوم يريدون ان يتحرروا من الاوزان والتزام القوافي ، وآخرون يريدون ان يتحرروا من التشبيهات البالية والمجاز العتيق ، وآخرون يعافون بعض الاساليب القديمة ، والموضوعات التي جرى عليها السابقون . وكان صراع بين الطائفتين معرض له بعد .

على كل حال دلنا احداث الزمان على ان عوامل البيئة في التغيير والتجديد ولا يمكن ان تقلوم ، كما دلنا على ان ليس كل تجديد يصادفه التوفيق ويتسع له صدر الزمن ، وفي نجاح من نجح من دعاة التجديد وفشل من فشل منهم انما كان خاضعا للقوانين طبيعية ظاهرة حينا وخافية احيانا ، وان نوع التجديد ان كان صالحا وكان مملا تسمح به القوانين الطبيعية للادب فمعارضة المعارضين لا يكون لها من اثر الا ان تؤخر زمن الاصلاح ، وهو واقع لا محالة يوما ما ، واذا لم تسمح بها هذه القوانين كانت دعوة التجديد صيحة في فضاء ، او في خطا في ماء .

وبعد فأي انواع التجديد يتطلبه المجددون ؟ وهل من خير الادب العربي قبوله او رفضه ؟

ان اول انواع التجديد وابسطها تجديد الالفاظ ، لانها حسادة الاديب الاولى ، وخبوطه التي ينسج منها قطعه الفنية .
وتجديد الالفاظ على ضربين :

(١) السعدان نبت من افصل مراعي الابل ، وفي المثل : (مرمى ولا كالسعدان) .

(١) اختيار الالفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر لان لكل امة في كل عصر ذوقا خاصا بها تختار الالفاظ تناسبها وتانس بها ، وتمج الالفاظ لا يستحسنها ولا تستسيغها ، وذوق الامة في حياة مستمرة ، فهو كذلك في عمل مستمر ازاء الالفاظ ، وادباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة ، فلو ان اديبا استعمل اليوم كلمة « هَبِيخ » للجارية الحسناء لكفت في اسقاط قصيدته او مقالته . ولو استعمل كلمة بعلق للمطر او السيل لدل على فساد ذوقه ، وسوء ادبه ، ومن اجل ذلك لا يستحسن في هذا العصر بعض ما كان يستحسن في عصور سابقة . فقد كان يستحسن من ابي الطيب قوله :

وترى الفضيحة لا ترد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كتهورا

والكن كتهورا ثقيلة في اللفظ كربة على السمع ، وهذا بديهي لا يحتاج الى اطالة - وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفتح ان يكون اديبا ، لقد اراد الاستاذان الشنقيطي وحمزة فتح الله ان يحيا غريب الالفاظ ويستعملوه في قولهم وكتابتهم فغشلا كل الفشل ، وكان الناس يستظرفون ذلك منهما كما نستظرف فتاة حضرية لبست ثياب بدوية وفهموا ان ذلك ليس جدا من القول ، وليس طبيعيا ان تعيش بدواة القرن السابع في حضارة القرن العشرين . انما يحيا الاديب يوم يوفق لاختيار الالفاظ الرشيقة التي تتناسب ذوق عصره ، والعصر الان اميل الى السرعة والاقتصاد ، وكلاهما يتطلب الوضوح والجلاء لا الغموض والغرابية .

لذلك أصبحت في معاجم لغتنا الالفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها اثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار .

والضرب الثاني : الالفاظ تخلق خلقا . تلك الالفاظ التي تساير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات ، وما ابتكرت من فن وعلم ومعاني وآراء ، واللغة العربية اليوم ، قاصرة كل القصور في هذا الباب ، فليس لدينا الالفاظ لكثير مما اخترع وابتكر ، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم تجادل العالم العربي فيها طويلا ولما يستقر على حال .

وكان لتصور الالفاظ اثر كبير في ضعف الادب . فكيف يستطيع
الاديب ان يصف حجرة وكل ما فيها من اثاث ليس له ! لفاظ تدل عليه ؟
وكيف يستطيع الكاتب ان يؤلف رواية ، وهو في كل خطوة يعثر بمسميات
لا أسماء لها ؟ ولذلك يهرب كثير من الادباء من التعبير الخاص الى التعبير
العام ، فلذا أراد ان يصف رجلا يلبس طربوشا قال إنه يلبس عمارة أو
قلنسوة ، والحقيقة إنه لا يلبس عمارة ولا قلنسوة ، وإنما يلبس طربوشا ،
واذا أراد ان يقول إنه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية ،
وهذا منتهى الفقر في التعبير .

كل هذا حقن الافكار في أدمغة الادباء ، وسبب ضعف الوصف والرواية
وغيرهما في الادب العربي الحديث ، وجعل الادباء يفرون الى الموضوعات
الانسانية العامة ، والافكار الميتافيزيقية ، فان نحن شئنا ان يكون الادب
ظلا لحياتنا ، وحياتنا الآن ، وجب أن نحل مشكلة الالفاظ حتى يطلق
الادباء من اغلالهم ، وإلا ظلوا يدورون حول أنفسهم ، وظل أدبهم غداء
ناقصا للامة ليس فيه كل العناصر التي لا بد منها للحياة .

وهناك تجديد في مناحي أخرى غير الالفاظ نعرض لها في مقالات تالية
إن شاء الله ؟ (*)



- ٢ -

عرضت في مقالي السابق للبحث في الالفاظ وما تتطلب من جدة ؛
واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة .
واعني بالعبارة الجملة التي يؤدي بها المعنى على اختلاف ألوانها ، من
حقيقية ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية .

(*) المصدر : الرسالة العدد السادس + أول أبريل ١٩٣٣ . السنة الاولى .

ومما لا شك فيه أن البليغ يستمد تشبيهاته واستعاراته وما الى ذلك مما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية . فالادب الجاهلي - مثلاً - صورة صادقة لمعيشة العربي في الجاهلية ؛ اذا بكى ، فانما يبكي الاطلاق والمنزل الدائر والرسم العافى . واذا وحل ، فعلى ناقة أو بعير . واذا أعجبه ثوب ، فالشيخ والقيصوم ، والخزامى والعرار . واذا ذكر النسيم ، فصبا نجد . واذا حن الى مكان ، فموطنه من الرقمتين ورضوى وثبير . كذلك كلن في تشبيهاته واستعاراته وأمثاله : يستوحى ما يحيط به ، ويستلهم ما يقع حسه عليه . فقال : استنوق الجمل ، وهو أعمز من الاطلاق المقوق ، وأبدت الرغبة عن الصريح ، وهم أكثر من الحصى ، وهو ليت غابة ، وما تحل حبوته ، وألقى حبله على غلبه ، وقصرت الاعنة ، واشتجرت الاسنة ، وزلزلت الاقدام من رنين القسي ، وقزاع الرماح ، وطحنهم طحن الرحى ، ومطله مظل نعاس الكلب ، وكالباحث عن حشفه بظلفه ، وحط راحلته ، وضرب أوتاده ، وألقى عصاه ، والقافلة تسير والكلاب تتبع . الى كثير من أمثال ذلك - فهم في كل هذا يصفون حياتهم ، ويستقون منها تشبيهاتهم ، ويضربون منها أمثالهم .

وتتابع ادباء العرب بعد يزيدون في التعبير ، تبعاً لتغير المعيشة الاجتماعية ، وتقدهم في الحضارة . فقالوا : صندل الشراب وعنبره - وكان اخلاقه سبكت من الذهب المصفى - ويكاد يميل الظرف من اعطافه ، ويمارح الارواح لرقته - قد دس له الغدر في الملق - وهو من صيارفة الكلام ، ويتطفل على موائد الكتاب - وكان الفاظه قطع الرياض ، وكان معانيه نسيم الاصال . وهكذا كانت العبارات المحدثه في العصر العباسي تخالف من وجوه كثيرة العبارات الجاهلية والاموية .

وقد جرى المؤلفون الادباء : يدونون ما اخترعوا ، ويقيدون ما ابدعوا . فرائنا عبد الرحمن الهمداني يجمع في كتابه (الالفاظ الكتابية) العبارات المختارة من جاهلية واسلامية ورائنا الحصري يملأ كتابه (زهر الاداب) بفصول يمتونها « الفاظ لاهل العصر » يجمع تحتها ما اخترعه اهل عصره من تعبير رقيق وتشبيه انيق . ونهج المؤلفون بعد هذا المسلك حتى

كان خاتمتهم ابراهيم اليازجي في كتابه « نجمة الرائد وشرعة الوارد
جمع فيه احسن العبارات والالفاظ مما قال السابقون والمحدثون
عصره .

وبعد ، فلو قارنا بين الادب العربي الحديث ، والادب الغربي في
الباب ، اعني باب العبارة ، وجدنا في ادبنا العربي قصورا ظاهرا
وضعفا بينا .

ذلك ان الادب الغربي ساير الزمن ، واعترف بكل ماحدث فيه
واستمد منه ، على حين ان الادب العربي الحديث اغمض عينه عن
ما كان ، ولم يعترف بوجوده . نظر الادب الغربي الى ماضيه وحاضر
ومستقبله ، ولم ينظر الادب العربي الا الى ماضيه . وزع الادب الغربي
لغته لينظر نظرة شاملة وثبت الادب العربي عينيه فيما وراءه ، فلم
ينظر الا الى قديمه ، فكان ناقصا ، لا يسايرنا ولا يصفنا ولا يمس حياتنا
وانما يمس حياة آبائنا .

اعترف الادب الغربي بالادب القديم فاخذ منه خيره ، واعترف بالدينيا
الحديثة فاستمد تشبيهاته واستعاراته منها - رأى في دنياه مخترعات
ومستكشفت لا حد لها من كهرباء ومواد كيميائية وطيارات وغواصات
وغازات وأضواء وراديو ومالا يحصى كثرة . كل هذه الاشياء قلبت الحياة
الاجتماعية رأسا على عقب . فلماذا لا تقلب الادب ؟ فاقبل الاديب عليها
يتعرفها ويستلهمها تشبيهات واستعارات عصرية طريفة ، فكان له منها
ما اراد .

ورأى الاديب علم النفس ينمو ويرقى ويحلل اعمال الانسان تحليلا
علما دقيقا ، ويعرض لكل المظاهر اليومية من ابتسامة وعبوس ورضى
وغضب ، فاخذ يحفظ وافر منه واستعان به في ادبه وتعبيراته حتى استطاع
أحد الكتاب الفرنسيين (وهو مارسيل بروس (Marcel Proust)
ان يحلل ابتسامة سيدة في ست صفحات ، ورأى نظمها في الحكم تقوم

واخرى تسقط وكان لها من الاثر في حياة الناس وعقليتهم ما يخيّل اليك معها انهم أصبحوا بها خلقا آخر ، فجعل يتتبع هذه التغيرات ويقتبس منها ما شاء ذوقه الادبي .

كل هذا وامثاله جعل الادب الغربي يسير محاذيا لكل نظم الحياة ويشاركها في رقيها واتجاهها ، ان استضاء الناس بمصباح كهربائي فالادب يعبر عنه ويستعير منه ويشبه به ، وان كان نظام الحكم ديمقراطيا فالادب ديمقراطي ، والصور التي يصورها ديمقراطية ، ويتعمق السيكولوجي في بحثه فيتعمق الروائي في تحليل شخصيات روايته ، وهكذا كانت الاختراعات والصناعات والعلوم ونظم الحكم والسياسة والادب تسير معا ، لا يخطو عنصر منها خطوة الى الامام حتى يدرك الآخر سر تقدمه فيعمل على ان يحتذيه . أما الادب العربي فيحارب متراليوزا بقوس وسهم ، ويضيء في ادبه سراجا بزيوت ، والناس اليوم قادمون على ان يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ، ويبيكي الاطلال ولا اطلال ، ويحن الى سلع ويستطيع الخزامى والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . من الحق ان نحب القديم الجميل ونحفظه ونتعلم منه ونعجب بما فيه من مظهر عاطفة حية وشعور قوي ، ولكن لا ننشئه . واذا قلناه وجب ان نقول معه ما نحبه ونعيش فيه :

اذا انت لم تحم القديم بحادث من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

وقفت العبارة العربية حيث كانت في العصر العباسي ، ولم تتقدم الا قليلا بما اقتبس من الادب العربي ، والذي نتطلبه من التجديد فيها ان يستمد من حياتنا الواقعية ، ومن كل ما يحيط بنا جملا حية تلائم ما في نفوسنا ، وان نخترع عبارات من المجازات والاستعارات والتشبيهات الكنيات نستمدّها من الحياة التي نعيشها ، والمخترعات التي نستخدمها ، ما وصلت اليه علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد .

وقد عاق الادب العربي الحديث عن الوصول الى هذه الغاية عوائق كثيرة أهمها :

(١) ما سبقت الاشارة اليه من أن المخترعات ليس لها أسماء ، وإن أئمة اللغة لم يرضوا أن يستعملوا الكلمات الأجنبية ولا وضعوا لها أسماء عربية ، وتركوا الادباء في حيرة من أمرهم ، فكيف يستطيعون أن يستلموها في جملة لتكسب المعنى قوة ، وهم يفرون من التلفظ بها ، ويخشون من علماء اللغة استعمالها ، لذلك رضىنا من الادب بالعدل عنها جملة وتفصيلا ، جقيقة ومجازا . وبهذا سد أمام الاديب العربي باب من أوسع الابواب وأغزرها فائدة .

(٢) وسبب آخر من أهم الاسباب في فقر الادب العربي في التعبير ، هو أن الادب العربي الحديث أدب أرستقراطي لا أدب شعبي ، وعني أرستقراطية العلم لا أرستقراطية المال ، ذلك أن الادب الانجليزي أو الفرنسي أو الالماني ، أدب شعب لا أدب طبقة خاصة - نعم قدير في الادب الانجليزي مثلا - فلا يفهمه إلا الراقون ، ولكن بجانبه أدب انجليزي شعبي ، لا يختلف عن أدب الخاصة في الفاظه وتراكيبه وإن اختلف في دقة المعنى وبساطته - أما الادب العربي فادب خاص لطائفة المتعلمين تعلموا راقيا فحسب ، لا يشاركونهم فيه العامة واشباه العامة ، وللغامة أدب بلدي خاص ، يستمتعون به في أغانيهم ونكتهم وزجهم وموالياتهم - وحتى الخاصة ، لا يتلوقون الادب العربي الا في الكتب والمجلات والجرائد ، أما احاديثهم وتنادرهم وفكاهاتهم باللغة العلمية ، وليست أمة من الامم الحية الآن بين لغتها اليومية ولغتها الادبية من الفروق ما بين اللغة العربية واللغة العلمية .

• • •

نتج من هذه الظاهرة نقص كبير في الادب العربي الحديث ، لان استعمال الكلمات والعبارات في البيت وعلى المائدة وفي الشارع يكسبها

حياة قوية ويزيدها صقلا ومرونة ، ولو اقتصر في استعمالها على الكتب كانت حياتها ناقصة ، لا يهذبها الاستعمال ولا يرقىها الصقل اليومي . وحسبك دليلا على ذلك أن النكت والنوادر وهي من أهم أركان الأدب لا تجد منها سائفا عذبا في أدبنا العربي عشر معشار ما تجده في الأدب العالمي ، وأن النادرة تحكي بالعلمية فتضحك الى أقصى حد ، ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة ، وأن كثيرا من الألفاظ والتعابير العلمية قد أفلدها الاستعمال روحا قوية ، فإذا عبرت عنها بالعربية لم تجد لها من التعبير قوة العالمية وحسن دلالتها على المعنى .

وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية مالا يقدر ، فقد أصبح الشعب كلها منتجا أدبا وتعبيرا قويا ، وأصبح الحديث على المائدة وفي حجرة الجلوس وفي التمثيل والسينما يخرج أدبا جديدا ويحيى أدبا قديما ، والأمة كلها تتعاون في الانتاج الأدبي ، لهذا بتعبيره الرقيق ، وهذا بنكته ونوادره ، وهذا بقصته وأمثاله ، وهذا بشعره ، وهكذا .

وليس كذلك الحال في الأدب العربي ، فالأمثال والنوادر والحكايات باللغة العامية ، والأحاديث اليومية وقضاء كل شؤون الحياة باللغة العامية ، وليس للغة العربية إلا الكتاب وما اليه — ولذلك أصبح عندنا أدبان أدب أرستقراطي هو هذا الشعر والكتب التي تؤلف ، والمجالات والجرائد التي تنشر وأدب شعبي هو الزجل والأغاني والحواديت وما اليها ، وبين الأدبين فواصل كبيرة وحواجز متينة ، وفي هذا ضرر كبير على الأمة والأدب معا ، أما الأمة فلأن شعبها لا ينتفع بنتائج المتعلمين منها ، وأما الأدب فلأنه ليس أدبا صحيحا ، إذ الأدب الصحيح هو ما كان غللا لحياة الأمة الاجتماعية كلها لا الحياة طبقة خاصة منها .

ولا أمل لحياة الأدب العربي من هذه الناحية إلا بإزالة الحواجز القوية بين العامية والعربية ، على أي وجه يرضاه قادة الأمة ، ويحفظ اللغة العربية مكانتها من حيث هي لغة الدين وروابط الشعوب الشرقية . إذ ذاك تصبح اللغة حية ، والتعابير حية ؛ وإذ ذاك تزول الحيرة التي نعيش فيها الآن ،

فإنك تستعمل اللفظ العامي والمعبارة العامية ، فلا تجد لهما نظيرا في العربية ، وإن وجدت لهما نظيرا فنظير ميت ليس فيه حياتهما . كنت أقرأ الآن في جريدة فوجدت فيها كلمة «ببيع» وكنت أسمع فسمعت من يقول : إنه بيت « مَبْنُوعاً » ومن يقول « رزق الهبل على المجانين » . ووجدتني إذا أجهدت نفسي قد أعتز على تعبيرات عربية مرادفة لها أو قريبة منها . ولكن ليس فيها حياتها ، لأن الحياة وليدة الاستعمال ، وأريد الاستعمال الشعبي . وهذا أحد الأسباب في أن مقالات الاستاذ فكري اباطة ، والمجلات الهزلية ، والهزلية الجدية ، لها من الرواج في أوساط الجماهير ما ليس لغيرها ، وتفتتح لها نفوس شعبية أكثر مما تفتتح للمقالات العربية الصرفة ، وترن الكلمة أو العبارة في الأذن رنيناً دونه رنين العربية الكلاسيكية .

(٣) وسبب ثالث هو أن الحواجز عندنا بين العلم والادب قوية متينة ، وإن شئت فقل إنه ليس هناك صلة بين كلية العلوم والآداب ، وأن الثقافة التي يتثقفها الأديب ينقصها غالباً — قدر ضروري صالح من المعلومات العلمية ، تجعله يستطيع أن يلم الملم بالمخترعات والمستكشفات ، ويستغلها في أدبه . وهذا القدر يلقيه الأديب الأوربي في بيته وفيما يقع في يده من كتب ومجلات أولية ، ثم في مدرسته . وأدباء الطبقة الأولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلمية استغلوها في منتجاتهم ، فأصبحت هناك أنواع من الأدب ، ومن التعبيرات والتشبيهات القوية التي تعتمد على الثقافات العلمية ، أخذها منهم الشعب واستسافها . أما برنامج الأديب العربي فقاصر من هذه الناحية كل القصور ، ولذلك كان نتاجه قاصراً كل القصور .

وهناك أنواع من التجديد في الأسلوب والموضوع والنثر الفني والشعر والقصة وغيرها ، نعرض لها فيما بعد . ؟

المصدر : الرسالة العدد الثالث ١٥ أبريل ١٩٣٢ •

- ٣ -

من أوضح الظواهر أن الجمهرة العظمى من المتعلمين الذين درسوا أدبا عربيا وأدبا اجنبيا يمكنون على الادب الاجنبى يتذوقونه ويكتربون من مطالعته ، في جدهم أن شاءوا الجد ، وفي لهوهم أن شاءوا اللهو . وهم أن قرأوا في الادب العربى ففي القليل النادر ، وأن فعلوا لم يظيلوا ولم يتعمقوا ، وقل أن يدرسوا كتابا دراسة جيدة ، إنما اكبر همهم أن يقلبوا صفحات الكتاب ليقع نظرهم على أبيات من الشعر يستملحونها ، أو قصة طريفة يتفكرون بها . ومكتبتهم - على قلتها - تمثل ميلهم ، فالكتب الانجليزية أو الفرنسية فيها غالبية ، والكتب العربية قليلة نادرة .

ذلك ولا شك حال اغلب المثقفين ثقافة عصرية .

ويذهب بعض الباحثين في تحليل هذه الظاهرة الى أن السبب يرجع الى فساد تعليم اللغة العربية وآدابها في المدارس ، فان أساتذتها لا يحبون الى الطلاب الادب العربى ، ولا يصلون به الى نفوسهم ، وأما هي أمثلة محدودة تكرر عاما بعد عام ، ونماذج من الشعر والنثر تعرض مرة بعد مرة ، ولا غرض من دراستها الا أن يذكرها الطلبة عند الامتحان فيؤدوها كما تليت عليهم ، ثم تذهب بذهاب الامتحان ، لانهم قد تجرعوها على مضض ، فهم يفرحون بنسيتها فرح المريض - وقد شفي - بالخلص من دواء مر المذاق .

قد يكون هذا سببا صحيحا ، ولكنه فيما أرى ليس بالسبب الجوهرى ، فان بعض اللغات الأجنبية التي تدرس بيننا ليست دراستها باحسن حالا من دراسة اللغة العربية ، ومع هذا فالطلبة يسيغون أدبها ويتذوقون كتبها بما لا يظفر ببعضه الادب العربى .

أهم سبب عندي يرجع الى موقف الادبين العربى والادب الأوربي .

ذلك أن كل ادب اوروبي له قديم وحديث ، والادب الحديث هو الذي يناسب جمهور المتعلمين وعامة الشعب ، لانه في الغالب يعرض لما يشعرون به فيعبر عنه التعبير الفني ، فالاديب المحدث يبرى ظاهرة اجتماعية فيضمها في قصة ، او منظرا جميلا فيضعه في قصيدة ، او معنى اثرته في نفوس قومه أحداث سياسية او اقتصادية فيضعه في مغالة او كتاب ، فيقبل الجمهور على قراءة ذلك ويعجبون به ، وسبب الإعجاب أن الاديب شعر بما يشعر به الجمهور . واستطاع أن يعبر عنه التعبير الفني الذي لا يستطيعه الجمهور . أما الادب الاوربي القديم فانما يناسب خاصة المتعلمين لأنه يتطلب دراسة لغوية وأدبية عميقة كما يتطلب - لتذوقه - أن يلم المتعلم بشيء كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التي احاطت بالاديب وبالقطعة الفنية حتى يستطيع أن يفهمها فهما صحيحا ، وليس ذلك في مكتبة السواد الاعظم من الناس . فالذين يفهمون الاليلذة والادوية وخطب ديمستين قليل بالنسبة الى الذين يقرأون الادب الحديث ويفهمونه ، وكذلك الذين يفهمون الادب الانجليزي او الفرنسي في القرون الوسطى ويتذوقونه هم الخاصة من الادباء ، وان قرا الجمهور شيئا من الادب القديم فانما يقرأه مترجما الى اللغة الحديثة . او معروضا في شكل جديد قد ذلت فيه كل الصعوبات التي يحتمل أن يلقاها القارئ العادي . أما الادب الانجليزي او الفرنسي الحديث فيكاد يكون حظ الانجليز او الفرنسيين جميعا .

وسبب ذلك أن الادب هو نقد الحياة في أسلوب فني ، واذا كانت كل أمة تفهم حياتها الحاضرة فهما ما - وان اختلفوا في مقدار الفهم - كان الادب الحديث اقرب الى فهمهم وأيسر متناولا لجمهورهم ، واذا كان الادب القديم وصفا لحياة قديمة لا يستطيع فهمها فهما صحيحا الا من عرف بيئتها وتاريخها ، كان ذلك الادب ادب الخاصة .



وبعد فالادب العربي ادب قديم لا حديث له ، وان شئت تعبيرا دقيقا فقل انه ادب قديم لم يستكمل حديثه ، لذلك كان الادب العربي ادب الخاصة لا ادب الجمهور .

لا يستطيع القارئ أن يفهم الأدب العربي القديم إلا بفهم دقيق للتاريخ ، وفهم بالغ للظروف الاجتماعية التي نشأ فيها الأدب ومعرفة واسعة بالجغرافيا ، وعلم تام بقوانين الصرف المعقدة كأنها قوانين اللوغارتمات ليعرف كيف يبحث في معاجم اللغة العربية عن كلمة غريبة ، وليس يصبر على ذلك كله إلا المجاهدون الصابرون ، وقليل منهم .

يريد سواد المتعلمين أن يفلحوا مشاعرهم من حب يحل تحليلًا دقيقًا ، أو إعجاب بمنظر طبيعي ملك عليهم نفوسهم ، فأرادوا أن يصور هذا الإعجاب في قطعة فنية ، أو تبرم بأسر ورقة فهم يريدون أدبا يتفنى بالحرية ويحفز النفوس إلى تحقيقها ، أو ألم من سوء حالة اجتماعية فهم يبحثون قصة تمثلها ، أو قصيدة تصفها ، أو كتابا يطلها ، أو نحو ذلك من ضروب المشاعر فلا يجدها في الأدب العربي الحديث إلا قليلا نادوا فيضطر إلى الأدب الأجنبي يقرأه ويتفنى به ويستمرنه ، وهو على الرغم من أن ذلك الأدب ليس بلغته ، ولا يصف مشاعر تمثل بالدقة مشاعره ، ولا يحل حالات اجتماعية تشبه مشاعره تامة حالاته ، على الرغم من ذلك كله مضطر أن يقرأه ، إذ ليس عنده من أدبه ما يكفي لغذائه ، وفي الأدب الغربي كل صنوف الغلاء على اختلاف الأنواع وعلى اختلاف الأساليب ؛ إن شاء سهلا ، وجد السهل ، أو صعبا وجد الصعب ، أو بين ذلك وجد بين ذلك ، وإذا غمض عليه لفظ استطاع أن يكشف عنه في المعاجم من أول درس تعلمه ، فكيف لا يهمل بعد ذلك الأدب العربي ويعكف على الأدب الغربي ؟

إن شئت فوازن بين ما يدرسه الطالب في المدارس الثانوية أو العالية في الأدبين ، فهو في الأدب الغربي يدرس شكسبير وأمثاله فيجد موضوعا شيقا يمثل حالة من الحالات التي تتصل بنفسه ، وتمس حياته الاجتماعية بقدر ما ، قد صيغت في قالب فني رشيق ، فخرج من الدرس يحبها ويجب موضوعها ، أما في الأدب العربي فيدرس مختلرات من جرير والفرزدق والأخطل ، أو مختلرات من مقامات البديع والحريري أو نحو ذلك ، وهذه كلها لا تمثل ناحية اجتماعية يحياها أو ما يقرب منها ، ولا فكرة عميقة حللت تحليلًا واسعًا ، لذلك يخرج منها وهو لا يحبها ، أو على الأقل يكون على الحيلاد منها .

لست أنكر أن في جرير وأمثاله ، والمقامات وأمثالها ، وفي الأدب العربي على العموم جمالا ويفا وإبداعا ، ولكن ذلك لا يدركه إلا الخاصة الذين مروا طويلا على الدرس وبدلوا الجهد في تدريب أذواقهم على تقويمه واستساغته ، وليس ذلك في استطاعة كل الطلبة ولا أكثرهم .

فان أنت نظرت الى الأدب العربي الحديث فلماذا ترى ؟ ترى كثيرا من الأدب الغربي قد ترجم إلى العربية ، وليس من الحق أن نعد هذا أدبا عربيا في جوهره وموضوعه ، إذ ليس له من العربية إلا لغة ملتوية على النمط الغربي . وترى نتاجا مبتكرا قليلا ، وأكثر هذا القليل مقالات وفصول جمعت بعد ذلك وسميت كتباً مجازا ، لا تربطها وحدة غالباً إلا بضرب من التمثل . والبقية الباقية من القليل هي التي يصح أن تسمى أدبا عربيا حديثا لم يكتمل .

ذلك في نظري أكبر سبب في انصراف جمهور المتعلمين عن الأدب العربي ، فإن أريد إقبالهم عليه فلا بلا من انتاج حديث وأفر يغذي كل مشاعر الحياة كما يغذي العقول ، وليس من الحق أن ندعو السواد الأعظم الى الأدب العربي قبل أن نستكملة أو على الأقل نوجد فيه ما يسد رمقهم ، وان أردنا الانصاف فواجب أن ندعو للدعوتين : دعوة الأدباء في العربية الى أن ينتجوا ، ودعوة القراء الى أن يقرأوا .

وينجح الأدباء إذا اقتصروا على أن يحتلوا حذو القدماء شكلا وموضوعا دون أن يمسوا حياتهم الواقعية ويثبتهم الاجتماعية ومشاعرهم النفسية ؛ فالأدب متغير ، خاضع لقانون النشوء والارتقاء ، فإذا تقيّد أدباؤنا بالموضوعات التي عالجها القدماء وبالأشكال التي صب فيها الأدب القديم ، عد ادبهم قديما لا حديثا ، ولم يصلح علاجاً لما نصف من أمراض .

مثل ذلك : انا اذا وضعنا ايدينا على مختارات البارودي ، وهو كتاب ضخم في أربعة اجزاء اختار فيها ثلاثين شعرا من شعراء العصر

العباسي ، وجدناه قد اختار نحو أربعين ألف بيت ، منها أكثر من أربعة وعشرين ألفا في المديح ، وإذا أضفت الهجاء والمرثاء الى المديح وجدت جميع ذلك يقرب من ثلاثين ألفا ، والرابع الباقي في الادب والصفات والزهد والنسيب !

افترى من هذا افراط الادباء القدماء في وصف العواصف الشخصية من كرم وثناء وهجاء ، وتقصيرهم في أبواب كثيرة أهمها وصف المناظر الطبيعية ، وتحليل الانفعالات النفسية ، وغير ذلك من ضروب الادب .

وهذا التقصير وقع في الادب الأوربي القديم كما وقع في الادب العربي ، فلو قرأنا شعر هوميروس وفرجيل ودانتي وجدنا فيه قليلا من وصف جمال الطبيعة من جبال وبحار ونجوم ، على حين ان الشعر الأوربي الحديث قد ملئ بهذا الضرب من القول وأبدع الشعراء فيه ابداعا لا حد له فافاضوا في القول في السماء ونجومها ، والأشجار وأزدهارها وذبولها ، والبحار والصحراء وغيرها ، ووجدوا في ذلك كله كنوزا استمدوا منها شعرهم ، وكان تقصير القلماء واجادة المحدثين في ذلك قانونا طبيعيا ، لان الإعجاب بجمال الطبيعة نتيجة راقية كبير في اللبوق ، فاذا قصر اديباؤنا المحدثون في هذا كما هو حادث الآن وتابخوا الاقدمين في المديح والهجاء في هذا كما هو حادث الآن وتابخوا الاقدمين في المديح والهجاء والغزل ، فقط - ظل نقص الادب العربي على ما هو عليه .

كذلك يعيش الشرقي عيشة خاصة غير التي كان يعيشها آباؤه ، سمرت المرأة بعد حجابها ، وتغير في العشرين سنة الاخيرة كل نظم الحياة تقريبا من معيشة بيئية ونظم اجتماعية ، وحياة سياسية ، وأصبح كل باب من هذه الأبواب يتطلب قصصا جديدة وشعرا جديدا وكتبا ادبية جديدة ، فان نظر اديباؤنا الى دواوين الشعراء الاقدمين ولم ينظروا الى دواوين الطبيعة وصحائف العالم الذي فيه يعيشون ، فلا أمل في شعرهم ، ولا نثرهم وظل المتعلم منصرفا عنهم الى الادب العربي على الرغم منهم .

ونوع آخر من الادب يصح ان يستغله الادباء ، وهو ان يعمدوا الى الادب القديم ، وابطلال الشرق ، والاحداث التاريخية العربية فيجعلوا منها موضوعا للراستهم ثم يلقوا عليه اضماء مما وصل اليه العلم الحديث والادب الحديث وعلم النفس الحديث ، فيترجموه الى لغة العصر ويبرزوه في شكل يناسب ذوق الجمهور ويحبب اليهم قديمهم .

انهم ان فعلوا ذلك استطاع من لا يعرف لغة اجنبية ان يجد غلاده في الادب العربي ، واستطاع ان يكون انسانا مثقفا بكيفه ثقافته ، واستطاع من يعرف لغة اجنبية ان يباهي بلاد قومه كما تباهي كل امة بأدبها ، وفي ذلك اعتداد بشخصيتنا العربية الشرقية لا يستهان به .

المصدر : الرسالة ، العدد العاشر ، اول يونيو ١٩٢٢ ، السنة الاولى .

التجديد في الأدب

حول مقال الاستاذ احمد امين

للدكتور عبد الوهاب عزام (١٨٩٤ - ١٩٥٩)

قرأت المقال الثاني الذي تكلم فيه الاستاذ عن « التجديد في العبارة »
فرسيت آراء وانكرت أخرى .

وأول ما أخذ على المقال أنه لم يحكم تحديده فالقارئ يحس أن
كاتبه أراد أن يعالج التجديد في المعنى والعبارة معا .

يقول الاستاذ في مستهل مقاله : « واليوم اعراض لضرب آخر من
ضروب التجديد وهو التجديد في العبارة . وأعني بالعبارة الجملة التي
يؤدي بها المعنى على اختلاف ألوانها من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة
وكناية . » ولست أدري كيف يكون التجديد في التعبير الحقيقي ؟
الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له . فلذا اتفق معنى لشاعر في
الجاهلية فأداه بالفاظ حقيقية ثم وقع المعنى بعينه لشاعر معاصر فأراد
الإبانة عنه بلفظ حقيقي لم يمكن التجديد في الأداء إلا بالاسهاب أو الإيجاز
وليس هذا ما يريده الاستاذ . أو بإشار لفظ حقيقي على آخر مثله وهذا
يرجع الى بحث الالفاظ الذي فرغنا منه في مناقشة المقال الاول ، اذ
أراد شاعر معاصر أن يبين بالفاظ لا تجوز فيه عن قول القتال الكلابي :

ولما رايت أنني قد قتلتها نعمت عليه أي ساعة مندم

لم يستطع في هذا تغييراً يلائم البصر الحاضر ، ولم ينواه الا أن

يضع ابصرت مكان رأيت أو اسفت موضع ندمت أو يقدم ويؤخر في الكلمات . وليس هذا هو التجديد في العبارة الذي عنه الاستاذ . أي تجديد في العبارة يستطيعه قائل يريد أن يترجم عن هذا المعنى :

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم وترى النوى بالمقترين الراميا

انما يمكن التفسير في المجازات والكنائيات والتشبيه والتمثيل مما يمكن فيه تأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة ، وتصوير الحقيقة الواحدة بصور شتى وألوان عدة تتجلى فيها أثر الخيال والمعاني المختلفة ، والأزمان والبلدان المتباينة . وهو موضوع لا يفنى فيه الاجمال ولا غنى به عن التفصيل :

١ - بعض المجازات والكنائيات جرت مجرى الحقائق حتى نسي أصلها أو كاد . ولا يدرك فيها التجوز أو الكناية إلا بالبحث والرجوع بالكلمات الى أقدم أصولها المعروفة . وذلك مثل اسبل المطر ، وفلان زميل فلان . وأرققه العمل ، وراض نفسه على الامر ، ودهماء الناس وأمثال هذا مما شاع استعماله حتى سلوى مجازه الحقيقة أو غلب عليها فلم يبق المعنى الحقيقي شاهداً بأصل الاستعمال ودالا على التجوز في غيره ، كما يعرفه التجوز في قولنا زل في رايه ، وزبيح المودة في قلبه ، وسمع زئير الحرب ، بقاء هذه الالفاظ معروفاة ذائعة الاستعمال في معانيها المحسوسة .

وحكم هذا المجاز حكم الحقيقة لا تجديد فيه ولا تغيير على الاسلوب الذي يريده الأستاذ أحمد أمين .

٢ - وأما المجازات التي يظهر فيها التجوز ، ويبين فيها التخييل فبعضها يخترمه الكاتب البليغ الذي يحس في نفسه القدرة على تصريف الكلام وخلق العبارات . وهذا مأخوذ من عقل الكاتب ، أو الكلم وإحساسه وعلمه كما يسمى الجمل سفينة الصحراء ويسمى الرجل الجري اسداً وذئبا النخ وكما يسمى احدنا الفواصة مثلاً نسر الماء ، ومنطاد زبلين

حوت الهواء ، ويقول عن خبر فظيع جاءه بالتلفراف : هذه احدى صواعق البرق ، ويشبه الرجل العظيم بأخبار العالم واحواله بالراديو الخ وينبغي الا ننسى ان علم الانسان وعقله ليسا مقصورين على البيئة التي يعيش فيها بل من هذه البيئة ومما رأى او سمع عن بلاد غابرة او حاضرة وامم ذاهبة او قائمة . فقد يسوغ للكاتب المصري ان يستمد مثلا او تشبيها مما يعرف عن امم الاسكيمو او مما عرف عن الامة المصرية القديمة او الامة العربية قبل الاسلام ، او من خرافات اليونان الاقدمين . فاذا قال عن رأي سيء يظهر بمظاهر مختلفة انه غول متلونة او عن فكرة سخيفة في نفس باردة انها كواحد من همج الاسكيمو يقطن بيتا من الثلج لم يكن لاحد ان يقول له ، انك لم تر الغول ولا عاشرت الاسكيمو فينبغي ان يكون بيانك خاليا من التشبيه بهما . وانما شرط هذا ان يكون مصدر المجاز او التمثيل معروفا لا يقف بالقارئ عنده غموض او اغراب .

وضرب من المجازات وما اليها ينشأ هذه النشأة ثم يذيع وتتداوله الاجيال حتى يصير مظهرا لبيان الامة وخيالها لا الخيال كاتب او متكلم كالذي ووثناه في لغتنا عن بلغاء العربية في الجاهلية والاسلام ..

وهذا جدير بالاستعمال ، فلكل كاتب او متكلم ان يتوسل به الى البيان وان كان مصدره غريبا غير مألوف ، بل ينبغي المحافظة عليه بما يبين عن تاريخ الامة وحياتها في طور من أطوارها .

فلا عيب ان يقول القائل : اخذه برمته ، وترك حبله على غابره ، وماله خف ولا حافر ، ورموا عن قوسه واحدة ، واعطي القوس بلربها ، والقي عصاه ، والقافلة تسير ، والكلاب تنبح ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، كمهدي التمر الى هجر ، أعقد من ذئب الضب ، أهدى من الشنفرى ، مرق مروق السهم ، اختلط الحابل بالنابل ، أهدى من القطا ، وهلم جرا .

ولغات الامم الاخرى حفظت كثيرا من عاداتها القديمة وتاريخها ولست اضرب مثلا باللغة الفارسية او التركية او الاردية فهي لغات شرقية

لا تصلح حجة في هذا العصر ، ولكن اضرب مثلا من اللغة الانكليزية والفرنسية : يقال في الانكليزية لمن يبالغ في كلامه : « ينزع في القوس الطويلة » ، ولبن يخبر بين امور عدة ، عنده اوتار لقوس واحدة « (١) وهذه العبارة الاخيرة في اللغة الفرنسية ايضا (٢) . ويقال في الانكليزية في تقدير المسافة : « على رمية سهم » (٣) كما يقال في العربية « مقدار غلوة » . ويقال في الفرنسية لمن يتوسل الى غايته بكل وسيلة : « يبرى سهام من كل خشب » (٤) . وامثال هذا كثير . فما منع الانكليز والفرنسيين استبدالهم بالاقواس والسهم آلات الحرب الحديثة منذ مئات السنين ان يقولوا على العبارات التي حدثت في عهد الاقواس والسهم .

سبب اقول ينبغي ان نلزم العبارات القديمة ونأبى كل عبارة حديثة فلا احد يستطيع ان يحول بين الناس وبين الابانة عما في انفسهم بوسائل مشتقة من حياتهم ولكني أخشى ان تكون الدعوة الى الجديد دعوة الى هجر القديم ، ونحن في هذا العصر - عصر الفتن احوج ما نكون الى التمسك بالقديم ، والاستمسك دون التهاوت في التقليد ، والفضال بين القديم والجديد . ومن ينعم النظر في صحفنا ومنشآت طلبتنا يعرف كيف تركنا كثيرا من عباراتنا الجيدة الموروثة الى عبارات غثة ضعيفة لاتكاد تبين عما وراءها .

تم يتكلم الاستاذ عن مسابقة الادب الغربي للزمن ووقوف الادب العربي فيقول : « ذلك بأن الادب الغربي سائر للزمن واعترف بكل ما حدث فيه واستمد منه ، على حين ان الادب العربي الحديث اغمض عينيه عن كل كل ما كان ، ولم يعترف بوجوده الخ ، ولو رددنا الامور الى نصابها وتجاوزنا ظواهر الامور الى بواطنها ما رأينا في هذا قصور الادب العربي ، ولا اعجز ادباء العربية بل عرفنا فيه قصورنا في العلوم

(1) to draw the long bow — to have two strings to one's bow.

(2) avoir plusieurs cordes a son arc.

(3) arrow-shot.

(4) faire flèche de tout bois.

والفنون الحديثة أو حداثة عهدنا بها . الأدب ترجما الحياة العامة فهو لا يتناول مسائل علم واصطلاحاته حتى تشيع اوليات هذا العلم بين الامة شيوعا يدخل مصطلحاته في لغة المتخاطب . ولا ينبغي للاديب ان يدخل في الادب المسائل العلمية أو الاسماء التي لا تزال مقصورة على العلماء المختصين بها . فاذا جاوزتهم الى جمهور الامة ودخلت في لغة الكلام ساغ للاديب ان يتناولها . في الكيمياء ، مثلا ، مسائل عويصة لا يعرفها الا علماء الكيمياء فهذه المسائل ستبقى يوقفا على العلماء مخبوءة بين اجهزة الكيمياء ، ولن تخرج الى لغة الخطاب العامة فتدخل في الادب الا ان تصير الامة أو جمهورها من علماء الكيمياء . وهناك مسائل من اوليات هذا العلم كصفات الاحماض وتأثير بعض العناصر في بعض .

وهذه تدخل في اللغة العلمية وتنتهي للدخول في الادب حين يشيع في الامة علمها فلا يختص بها الكيميائيون ومن اجل هذا تجد طلاب الفلسفة او انطب او النحو يتفكحون بتشبيهات من هذه العلوم لا يفقهها غيرهم اذ شاع علمها بينهم وصلحت للدخول في لغة تخاطبهم . واذا رجعنا الى تاريخ الادب العربي عرفنا ان اصطلاحات الفلسفة والمنطق وغيرهما لم تدخل في الادب اول عهد المسلمين بهذه العلوم . ثم شاعت قضاياها واصطلاحاتها فساغ لأبي نواس وامثاله ان ينظموها في شعرهم . كما قال ابو نواس .

تأمل العين منها محاسنا ليس تنفذ

فبعضها « يتناهى » وبعضها « يتولد »

فالتناهى والتولد من اصطلاحات افلاسة ، وكما قال البحرى :

وكان الزمان أصبح « محمولا » هوام مع الأخس الأخس

فهو فيما اظن يشير الى قول المنطقيين ان النتيجة تتبع أخس المقدمتين .

وكتول المصري :

طرق الملا مجهولة فكانها « صم العنائد » ما لها « أجنار »

وكتول الفارابي في اصطلاحات الهندسة :

**وهل نحن الا خطوط وقعن على كرة وقع مستوفز
محيط السماوات اولى بنا فمالا التنازع في المركز ؟**

وقد يكفي في هذا أن تشيع القضية العلمية بين المتأدبين من الامة ولا ينتظر بها أن تشيع بين الجمهور . ولا يتسع المجال للافاضة في البيان منا :

ومهما يكن الامر فقد غلا الاستاذ اذ قال : « أما الادب العربي فيحارب مترليوزا بقوس ، ويضيء في أدبه سراجا بزيت والناس قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ويبيكى الاطلال والا اطلال ، ويحن الى سلع ولا سلع ، ويستطيب الخزامي والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . » هل يستطيع استاذنا ان يعرفنا بشاعر او كاتب في مصر او الشام والعراق يفعل هذا ؟

ويقول الاستاذ : « وسبب آخر من أهم الاسباب في فقر الادب العربي في التعبير هو أن الادب العربي الحديث أدب ارسقراطي لا ادب شعبي . » وأنا لا اخالف هذا الراي في جملة ولكن لي فيه ما آخذ .

(١) ليس حقاً أن أحاديث الخاصة من متعلمينا وتنادوهم وفكاهاتهم باللغة العلمية . فأحاديث الخاصة من المتعلمين أقرب الى لغة الكتابة من اللغة العلمية . ومراقبة مجلس الإباء والعلماء وتشهد بما أقول .

وفي هذا نفسه بيان خير الوسائل الى ما دعا اليه من « ازالة الحواجز القوية بين العلمية والعربية . على أي وجه يرضاه قادة الامة . » وذلك

ان قرب احاديث الخاصة من لغة الكتابة يبين لنا الطريق التي ينبغي ان نسلكتها لازالة هذه الحواجز . فليس لنا من وسيلة الا ان ترقى العامة حتى تستطيع ان تفهم عن الخاصة اذا حدثها . فكلما شاع التعليم في الامة ارتقت العلة الى مستوى اقرب الى لغة الادب ونحن اليوم سائرون في هذه السبيل وقد سمعت في السنين الاخيرة جملة من العامة واشباه العلة يخطبون ويتكلمون بلغة لا تخالف لغة الكتابة الا قليلا . وآلاف المتعلمين من طلاب مدارسنا وآلاف القارئيين الذين يستطيعون مطالعة الصحف والكتب علمون كل يوم للتقريب بين العامة والفصحى .

(٢) ثم قد غلا الأستاذ حين قال : « وكل امة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتابية ما لا يقدر ، فقد اصبح الشعب كله منتجا ادبيا وتعبيرا قويا . » ليس في العالم شعب ينتج كله ادبا قويا ولا يزال الخاصة من الادباء هم منتجي الادب واثمته ، بل اتفه الادباء اقربهم الى العامة . فلا يزال عند الاوربيين فوارق بين ادب العلة وادب الخاصة وستبقى هذه الفوارق ما دام اختلاف العلماء والجهال في عقولهم ومشاعرهم وكل الذي نبغيه ان يلتقي العامة والخاصة في مقدار من الادب مشترك هو اعلى ما تسمو اليه العامة وادنى ما تنزل اليه الخاصة . وان يزول الفارق بين الادبيين ابدا .

واكيف وفق الاستاذ بين دعوته الى أن يساير الادب العلم وتستحكم الصلة بين كلية الآداب وكلية العلوم وبين دعوته الى توحيد الادب والمساواة فيه وبين الخاصة والعلة . أيمن أن يكون جمهور الادب آخذا بحظه من كلية العلوم أيضا .

(٣) ثم الفكاهات الواردة يقول استاذنا الفاضل . حسبك دليلا على ذلك ان النكت والنوادر . وهي من أهم اركان الادب . لا تجد منها شلعا في ادبنا العربي عشر معشار ما تجد في الادب العلمي . ان النادرة تحكى بالعلمية فتضحك الى اقصى حد ثم تحكيها باللغة الفصحى فخرج باردة تافهة .

نظر الاستاذ الى هذه القضية من جانب واحد . والحق أن النكتة تبلغ مبلغها فيما وقعت فيه من حال وعبرة فالذين يشهدون الواقعة المضحكة أو يسمعون الكلمة المضحكة أكثر ضحكا لها ممن رويت لهم في غير أحوالها أو بغير ألفاظها ، بل ينطق الرجل بالكلمة فيضحك لها الناس فإذا رواها غيره بلفظها في مثل حالها لا تبلغ من النفوس ما بلغت أول مرة لما فاتها من أثر القائل الأول . فلذا اختلفت العبارة فأخري أن يختلف التأثير . فلذا ترجمت الفكاهة من لغة إلى أخرى ضاع أثرها كله أو بعضه وإذا نقلتها من عبارة إلى أخرى في لغة واحدة لم تبق على حالها الأولى . فان تكن النكت العامية تبرد إذا نقلت إلى العربية الفصحى فكم من نادرة فصيحة تموت إذا نقلت إلى العامية . وكثير من فكاهات الجاحظ و « كتاب الحمقى والمغفلين » لابن الجوزي لا يمكن نقلها إلى العامية ؛ كالفكاهات المتعلقة بالنحو والعروض والفقه ونحوها . وكثير منها يضعف أثره وإن أمكن نقله والا فكيف تترجم إلى العامية هذه العبارات :

قال رجل للحسن يا أبا سعيد . فقال كسب الدرانيق شغلك من أن تقول يا أبا سعيد . وقدم رجل من النحويين رجلا إلى السلطان في دين له عليه فقال أصلح الله الأمير لي عليه درهمان ، قال خصمه : لا والله أيها الأمير إن هي إلا ثلاثة دراهم لكنه لظهور الاعراب ترك من حقه درهما واعتبر كل ما في كتب الأب من لمح تجد أكثرها يجري هذا المجرى .

والغريب أن لغة الخاصة ولغة الكتابة أو لسان العامة ولسان الخاصة كلنا مقاربين في عهد الجاحظ ولم يكن بينهما ما بين الفصيحة والعامية اليوم . ولكن الفكاهات إذ ذاك كانت كما هي اليوم لا تصلح للنقل من لغة إلى أخرى . قال الجاحظ :

« ومتى سمعت حظك الله بنادرة من كلام الاعراب فإياك وإن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها . فانك إن غيرتها بأن تلحن في أعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك

فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والظلم فإياك وان تستعمل فيها الإهراء أو ان تتخير لها لفظا حسنا الخ . »

وكذلك يقول قدامة بن جعفر في كتاب نقد النثر : « والفظ السخيف موضع آخر لا يجوز ان يستعمل فيه غيره . وهو حكاية النوادر والمضاحك والفاظ السخفاء والسفهاء فانه متى حكاها الانسان بغير ما قلوه خرجت من معنى ما اريد بها وبردت عند مستمعها .

(٤) وبعد فلا ينبغي ان تسف لغة الآداب العالية الى مستوى العامة بل يجب ان نرقي العامة الى مستوى لغة الآداب او ما يقرب منه . على ان هذا التباعد بين ما يسميه الاستاذ « الأدب الارستقراطي » وما نسميه « الأدب الشعبي » مظهر واحد من مظاهر الاختلاف بين عامتنا وخاصتنا بين الفريقين تفاوت عظيم في العقل والمعرفة والازياء والمساكن وطرائق المعيشة . ولا بد من تقريب المسافة بين العامة والخاصة في هذا كله قبل ان يشتركا في لغة واحدا ويستمتعا بأدب واحد فان الأدب الصحيح ترجمان معيشة الأمة .

عبد الوهاب عزام

المصدر : الرسالة . العدد العاشر اول يونيو ١٩٣٣ السنة الاولى .

التجديد في الادب

محمود الشرقاوي ت - ١٩٧١

يناقش الدكتور عبد الوهاب عزام الاستاذ احمد امين في رايه عن التجديد في الادب ، وقد دفعتني هذه المناقشة الى ابداء رأي وذكر مناقشة ، اما الرأي فهو : ان المعاجم اللغوية التي يقول الاستاذ احمد امين ان فيها « الفاظا كثيرة ليس لها قيمة الا انها اثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف في دار الآثار » ، في هذه المعاجم الفاظ كثيرة لها قيمة عظيمة عند من يحسن الاداء بها في مواقعها وكثيرة منها يؤدي لنا عن معان كنا نظن ان ليس لها في الالفاظ العربية ما يدل عليها ، فالبحث عن هذه الالفاظ واستعمالها يزيد من غير شك في حيوية اللغة ونمائها ، وقد فعل الدكتور محمد شرف والدكتور احمد عيسى شيئا من ذلك في معجمهما عن الحيوان والنبات ، فكشفا في هذه القواميس عن الفاظ عربية لنباتات وحيوانات كنا نستعمل عند الدلالة عليها اسماءها العلمية اللاتينية ، وذلك لظننا خلو لغتنا من اسمائها .

واما ما ذكره الاستاذ احمد امين من الغاء هذه الالفاظ لان اللوق العام للقراء لا سيفيها الآن ، فانا اظن بان درجة المعرفة التي يصل اليها جمهور القراء ليست كافية للاعتبار والحكم على اللغة والكاتب النافذ البصيرة له ان يقدم لهذا الجمهور القارئ ما يرى انه مفيد من معنى او احساس ، ولو كان الجمهور القارئ لا يعرف هذه الالفاظ او لا سيفيها ذوقه ، ولكن المهم ان يقتصد في ذلك على الضروري المفيد ولا يعتمد الاغراب .

هذا مع ملاحظة أن ما لا يسيفه ذوق الجمهور هو الاقلية من هذه
الالفاظ المهجورة .

هنا عن رأيي ، واظنني فيه قريبا من الدكتور عزام وأن كنت اخالفه
في بعض الشواهد التي اوردها في مقاله وفي بعض الآراء كذلك .

واما عن المناقشة فقد جرت منذ شهور بيني وبين كاتب من كبار
كتابتنا المتحمسين لتبسيط اللغة ، وكان يقول ان هذه الالفاظ الموجودة
في القواميس هي مثل التوائد والبقايا الاثرية في جسم الانسان « كالزائدة
الدودية وعجب الذنب مثلا » ويجب علينا طرحها لنكسب الوقت والسرعة ،
فقلت انا ، ان في هذه القواميس الفاظا تؤدي لنا عن معان نتحير الان
في الاداء عنها بكلمة واحدة ، فنعبر عنها بجمللة أو سطر ، فلو اننا استعملنا
هذه الالفاظ واشعناها لاكتفيننا بلفظ واحد عن هذه الجمللة أو السطر ،
فكسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظا جديدا يزيد في لغتنا سعة ، فقال :
اذكر مثلا ، قلت : اقرب مثل هو صديقك فلان الذي عرفتني به اخيرا ،
فقد لاحظت ان لون عينيه مختلف فله عين زرقاء واخرى كحلاء . فلو
اردت ان اذكر لك هذه الصفة فيه استعملت لها سطران من الكلام ، ولكني
وجدت في القاموس كلمة واحدة تؤدي هذا المعنى كله وهي « أخيف »
وهذه الكلمة نفسها تفنينا عن جملة اخرى ، فان الابناء الذين هم من ام
واحدة واباء شتى يقال لهم « أخيف » فيمكنك في الاول ان تقول « فلان
أخيف » بدل « فلان احدى عينيه زرقاء والاخرى كحلاء » وفي الثاني
« هؤلاء الاخوة أخيف » بدل « هؤلاء الاخوة من ام واحدة واباء شتى » ،
وقد كسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظة جديدة ، وهذه الكلمة لا احد
يقول « حتى الاستاذ أحمد امين » انها نافرة أو ثقيلة على الجيل
الحاضر ، وقد استعملها ابن زيدون في قطعة جميلة من شعره .

فقال صديقي الكاتب الكبير في صيغة التحدي والتهمك ، انك بذكر
هذا اللفظ اطلت في الوقت واضعفت من السرعة لانك ستشرحها للقارئ

بهذه المعاني التي ذكرتها ، فكان خيرا لك وله لو أنك اكتفيت بالشرح عن المشروح فلم تذكر اللفظ الواحد ثم تتبعه بجملته شارحة ، فقلت أنا أولا لا اسلم بضرورة الشرح فان القارىء واحد من اثنين ، قارىء يقظ يقرأ ليفهم ويفتش عن كل كلمة ولا يكتفي بالفهم الاجمالي ، وهذا القارىء عندما يجد هذه الكلمة — اذا لم يكن يعرفها — سيبحث عنها في القلموس حتى يعرفها ، ومن المرجح انه بعد ذلك لن ينساها ، وهذه وحدها فائدة اخرى ، والقارىء الثاني يمر على الكلام مرا ويكتفي بالفهم الاجمالي ، فهذا ليس يهمني اذا شرح له ، ولعله هو ايضا لا يهتم بشرحي وعلى فرض التسليم بضرورة الشرح فهذه الكلمة ومثلها ، فان الشرح لن يكون الا بمقدار ما تشيع هذه الالفاظ وتعرف لجمهور القارئ وعند ذلك تترك وحدها فيفهمها القارىء ونكسب نحن وهو الوقت والسرعة والافاظ جديدة تزيد في لغتنا وتنميها ، ثم ذكرت له بعضا من الالفاظ والجمل استعملها هو بدءا وشرحها في أول ما استعملها واصبحت الآن مفهومة لكل قارىء وشائعة على أقدام الكاتبين والسنة الناطقين حتى كأنها تستعمل منذ مئات السنين .

والعلنا نجد في المقالات القادمة للاستاذ احمد امين اننا فهمنا من كلامه غير ما يقصد هو ، وعندئذ فنحن على وفاق ، او في « خلاف لفظي ... » كما يقول الاصوليون .

« محمود . ع . الشرقاوي »

عالم من الازهر

المصدر : الرسالة . العدد التاسع ١٥ مايو ١٩٣٣ .

تجديد التقليد

« بهذا العنوان نشرت مجلة المغرب التي تصدر بالرباط هذا المقال
فأحببنا أن يطلع اذبلونا عليه » .

في مصر اليوم جملة من حاملي الاقلام بلغ بها حب التجديد الى حد
انها رأت التقليد الذي يرسف في اغلاله كتاب العربية وشعرائها قد
بلى وقدم ، وانه في حاجة ماسة الى التجديد فراححت تسود اوراق
الصحف والمجلات بالنهي عن تقليد العرب ، واسلوب العرب ، وتفكير
العرب ، وكل ما هو من العرب باختصار . . . لا لتضع في محله شيئا
جديدا مبتكرا ، ولكن لتحاكي الغرب ، واسلوب الغرب ، وتفكير الغرب !
واكل ما جاء عن الغرب وان لم تشعر بذلك ، اليس هذا تجديدنا . . .
للتقليد ؟ او ليست هي جملة المجددين ؟ وعدم فهمكم لها جعلكم ترمونها
بعدم القدرة على التفكير بالعربية واساليبها الضادية : وكيف تكون غير
قادرة على هذا وهي التي تعلمت في أوروبا وقضت شهورا واعواما في
« حي مونبارناس » والحي « اللاتيني » . . . وهلم جرا . لا . ليس هذا
(عجزا يتظاهر بالقدرة ، وجهلا يتستر بالتحذلق) كما زعم الزيت ،
بل سيل التجديد طغى حتى على التقليد وأراد تجديده .

اتدري ماذا تنكر هذه الجملة على العربية ؟ تنكر عليها انها خالية
من القصة والرواية ، ومن « التراخيديا والكوسيديا والميتولوجيا »
وان ادبها ليس منقسما مثل الادب الغربي الى « كلاسيكي ورومنتيكي »
وان شعرها ليس منقسما الى « ابيك واليريك » وان جن شعرائها لم
يتاله ، ولم يتخذ « ابولو » : ذلك الاسم العالمي اسما له ، وان

التاريخ العربي الاسلامي ليس منقسما كالتاريخ الغربي الى : « العاديات
والقرون الوسطى وعصر النهضة والعصر الحديث والعصر الحاضر » .

وصفة القول ان ذنب العربية هو عدم مجيئها على النمط الغربي ،
وقد تكون جديرة بأن تقلدها جماعة المجلدين المصريين لو انها احتوت
على مثل تلك الاقسام ، واخشى مع هذا ان لو كان مثل ذلك للعربية
دون الغرب لافته قديما باليا ، ويكون مع ذلك الحق معها ؛ لانها
ليست جملة المبتكرين بل جماعة المجلدين ، وكل ما يهمها هو التجديد
لا الابتكار . ولو كان يهمها هذا لخرجت لنا عوض هذا التقليد المشوه
والصخب الفارغ والكلام الأجوف ، انتاجا فكريا صحيحا ، والست انكر
انها جاءتنا « بمعجزات » فنية جديدة كل ما فيها غربي الا بعض
الفاظ وحروف عربية .

وهنا ضرب الكاتب المثل برسالة الاستاذ توافيق الحكيم الى الدكتور
طه حسين ، ثم لخص بعض راي الاستاذ ، وعقب عليه بقوله :

هذا رأي الكاتب ، أما رأيي أنا فهو أن مصر القديمة لولا تلحقها
بمناصر اجنبية لما كان لها ادب او فكر ؛ والتاريخ بالباب وهو اصدق
مرشد واعظم برهان ، فلولا الاغريق لما كانت مدرسة الاسكندرية
الفلسفية ، ولولا العرب لما كان لمصر ادب او فكر حديث يذكر ، ولا
ذكرت مصر في تاريخ العالم الا بفنها وهندستها الدينية ؛ والحقيقة
ان تلك الجماعة انما تريد ابدال المقلد : ابدال العرب بالغرب ؛ وقد
بلغ تطرف صاحب مقال « الرسالة » الى حد انه رمى الكاتب الوحيد
الذي ابتكر جديدا في العربية ولم يحاك احدا بالتقليد . وكتاب
الويلحي « حديث عيسى بن هشام » لا يزال قريب العهد ، وما
يعني الاسلوب اذا كان الكتاب غريبا مبتكرا ؟ ولم تنتج مصر بعده
جديدا سوى « الايام » لطه حسين .

ومنذ سنوات كانت جملة المجلدين المصريين تبرق وترعد بمحاسن المدنية الغربية وأفضليتها وسوء الحضارة الشرقية . ولما أراد الله رفع الستار عن مساوئ الأولى وظهر افلاسها بعد الحرب فبرز كتاب أوربيون عظام للتنديد بها وتفضيل الحضارة الشرقية في عدة نواح وخصوصا الروحية منها ، أخذت هذه الجماعة نفسها تمجدها تقليدا لهؤلاء لا عن عقيدة ، وهذا حد التقليد !

اني لا انكر على هؤلاء الكتاب حملتهم على التقليد وانما انكر عليهم أولا سعيهم في ابدال المقلد بدون كبير فائدة . وثانيا انهم بدلا من ان يشتغلوا في ابتكار جديد والعمل على الانتاج الصحيح يضيعون وقتهم في الصخب . اما خلق ادب مصري قومي فهو « مودة » بالية قديمة بالنسبة لمن يتخذ لقب مجلد ؛ على ان الادب الجميل جميل في كل محل وتحت كل شمس وقمر و « ألف ليلة وليلة » حجة لذلك .

واما ان يكون عدم وجود الرواية والقصة سبب فقر ادبنا العربي فهذا غلط ، فلربما جاء فكر عربي عند نضوجه بشيء افضل من القصة والرواية ، شيء يلائم طباعنا وادبنا ؛ وان كان لا بد منهما فنجيبان في وقتهما حسبما تنضج وتختمر الفكرة في عقول أبناء العربية ، ولا يكفي قولنا لهما كونا فيكونان ، لان النبوغ يتدفق من تلقاء نفسه ولا يستخرج ، وكذلك تقسيم الادب العربي على النمط الغربي ؛ وله تقسيمه الذي لا يحتاج الا الى اصلاح وضبط . ويكفي مثلا لفساد تطبيق اقسام التاريخ الاوربي على التاريخ العربي الاسلامي ، اني كنت اقرأ اخيرا كتابا عن تاريخ الاسلام والعرب لكاتب مجلد جرى فيه على الاسلوب الغربي في التقسيم . جاء فيه : « ... وقد كان آباءنا يتخبطون في بحر الجهل والتعصب طيلة القرون الوسطى ... » والكل

يعلم ان القرون الوسطى في التاريخ العربي هي ازهى عصر المدنية
الاسلامية العربية .

وارجو لمصر ان تخرج من هذا المخاض بخير وعافية بفضل ما بقي
صالحا سالما من ابنائها الكرام ، وأن يسفر هلكا المخاض عن انتاج
صحيح مبتكر ؛ والا تكتفي جماعة المجلدين بابدال المقلد فحسب .

محمد حصار

المصدر : الرسالة ، القاهرة - العدد الرابع عشر - اول أغسطس ١٩٣٣
السنة الاولى .

هذه المعركة المزمنة بين أديين !

أكرم ملحم كرم

١٩٥٩ - ١٩٠٣

إنها لمعركة مزمنة حقاً ، هذه المعركة بين الجديد والقديم . فهي معركة حامية لا تنطفئ لها نار ولا يخبو منها أوار . فالشباب والمشيب يتطاحنان . المتربع في القمة يصارع الواقف في ساحل الحياة ، الضاحك للمستقبل ، المتقلب في أحضان الربيع ، الناعم باخضرار العيش ، يقاتل من يحاذر الواقع في اللجة . الهاتف بملء فيه « الغد لي ! » يغالب المتمسك بأذيال الحياة لئلا يبتلعه الموت !

ومعركة القديم والجديد بدأت منذ الأزل وسوف تتصل بالأبد . فان هذا التطاحن بين ابن الأمس وابن اليوم حديث كل يوم . هذا التطاحن بين ابن الأمس الخائف على مكانته من التهشيم والتحطيم ، وابن اليوم الراغب في أن يشق لنفسه طريقاً إلى الشمس ، القاتل للقديم المزمّن : « دعني أحتل مقعدك ! » ، هذا التنافر ابن عصور ودهور ، انبثق يوم انبثاق الكون ، وسيرافق الكون في مراحل الطوال لا يزول منه الا يوم يزول .

فالشباب يغيظه أن يطأ الراس للمشيب ، أن يعترف له أبداً بالسيادة ، أن يقف حياله مكتوف اليدين ، فيصيح به : « نلت نصيبك من دنياك فلا تحرمني نصيبي ! .. » فيأبى من أدركهم المشيب أن يتزحزحوا من أماكن استقروا فيها بعد جهد ومشقة . ويفضّ الشباب

وفي أعصابه جمر ونار فيثور وتنشب المعركة . نولا يسلم الفريقان من شظايا القذح والنقد والتعريض . الشيخ العتيق يسخر بشمار عقول الشباب . والرائع في مقتبل العمر يهز بيده المهند الصقيل مهلهدا متوعداً ، وتتساقط الضحايا في الميادين . ويقول القائلون : « المعركة بين القديم والجديد ! . . » ويخيل الى بعضهم ان الادب القديم هو ما جاد به الطالعون في السن . وأن الادب الجديد هو ما يتحفهم به كل ناصر العود . على حين ان بين ذوي الانياب الصفر فئة لا يبلى لها طارف ولا تليد . فالجديد ما تنفث وتكتب وتنظم ، كما ان بين الفتيان الافراخ الزغب الحواصل ، فريقاً لا يحسن الابتكار ولا التوليد ، فانه لفارق في القديم الى الاذنين ، ويأبى الا ان يحارب كل من اسن وشلب وشاخ ، وبات على قيد خطوة من يومه الاخير !

وهذه المعركة لا يصح القول عنها انها ادب قديم وادب جديد . ان هي الا بين المشيب والشباب ، بين قوم تمتعوا باطايب دهرهم وأدركوا الشهرة والصيت البعيد ، وقوم يريدون قسمتهم من قرص الحلوى . فهم نهمون شرهون جائعون ، يلتمسون الأكلة الشهية يتدقونها ، مع انهم في الخطوات الاولى من عهد انقطاع .

ومثل هذا النضال ما خلا منه عهد . اما سمعنا جريراً يقول حين سئل رأيه في الاخل : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لاكنني !

فالاخل اكبر من جرير سنأ . وقد تحكك به جرير ليدرك المنزلة العليا فأدركها ، وهناك من شاء الاقتداء بجرير في التحكك بالطلعنين في السن . نريد بشار بن برد الشاعر الفحل الضرير : فقد راى بشامه جريراً لم يرد عليه . وكان يقول حين يبلغه طعن بشار : مالنا ولهذا الغلام الخامل الفر نرافع قدره !

فقال لبشار : يم اساء اليك جرير ؟

قال : لم تنلني منه اساءة . على اني وددت ان يهجونني . ولو فعل
لكنت اشعر شعراء العرب اجمعين !

وغاظب العربي ان يسمع : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » فانشد
قصيدة من عالي الشعر جاء فيها :

واني وان كنت الاخير زمانه لات بما لم تستطعه الاوائل

فالتطاحن بين القديم والجديد ليس ابن يومه . فكل يريد المقام
الاول . والشجيرة يؤلمها ان تخيم عليها الشجرة فتسعى الى امتصاصها
كي تلبل وتجف . هي سنة تنزع البقاء . الشاب يدفع الشيخ الى
الهوة ليقوم مقامه ، والقوي ينشب اظفاره في الضعيف لتخلو له الساحة
وقد يكون هذا الشيخ من انصار التجديد . ولكن الشاب لم يطلق ظله ،
فحفر له الحفرة وواقف يشهد مصرعه فيها .

اذا من هم انصار الادب القديم ؟

من هم المتمسكون به والداعون اليه ؟

لا جدال في ان الادب القديم ركن الادب الجديد . فالادب الجديد
لم ينشأ عفواً ، بل تسلق قواعده القديم وشيد عليها قواعده الخاصة
يستند اليها ويحيا بها . فالادب القديم ابوه ، على ان الابن وان يكن
تغذى من ابيه فقد اظهر فيما شيد لنفسه من بنيان انه مستقل . فان
حجارة هيكله تختلف في حجمها ولونها وشكلها عن حجارة هيكل المتقدمين
بل هو خالفهم في البناء نفسه . فجعلوا هيكلهم مستطيلا . فابى الا ان
يشيد هيكله مستديرا ، وبنوه عالي القباب فرفعه نائتا يشك في الاجواء
بدا هيكلهم في منظر خشن فتلالا هيكله لطيف الشكل ، مصقول الجدران
ترتاح العين لرؤيته وينعم فيه النظر بلا ملال .

والادب الجديد ليس وليد عصر معروف ، فكل عصر يحفل بالقديم
والجديد ، كل عصر يبرز فيه هيكلان يختلفان شكلا ولونا وذوقا . كل

عصر يدين بهذين المذهبين ويقوم فيه من يناصر القديم ويظاهر الجديد .
وليس نصير القديم من وقف على الاطلال فبكي واستبكي ، فان بعضهم
يقف على الاطلال ويجود بالشائق والرضى . اما انشد داود عمون :

هاج اشواقى الى الدمن طائر غنى على فنن

وداود عمون شاعر نوي منذ سنوات قلائل في مقره الاخير . وقد
جاء شعره في الدمن من ارق الشعر ، فلا هو بالخشن المتبدل ولا الجاف
الفليظ ، فالعلوبة وافرة فيه ، والقوة محكمة في ديباجته السالية .

وليس كل من تحدث عن الابل والنوق بنصير القديم . فالمنخل
اليشكري لم يكن من انصار القديم حين حال :

واجبها وتجنبي ويعب ناقتها بعيري

لا ، فان في هذا الشعر لظرفاً ، وان فيه لامعانا في التوكيد على نحو
ما جاء في قول ابي نواس :

الا فاسقني خمرأ وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر

ان فيه لرونقاً ، فهو بعيد عن التكلف في سبكه ومعناه . وكل شعر
جامع للرونق خال من التكلف والفلو الفحاش يطمئن اليه كل جيل ،
ويرضى عنه الادب الجديد .

فما هو الادب القديم اذا ؟ ...

الادب القديم هو الحافل بغريب الكلام ووحشي الالفاظ ، المثقل
بالتقليد ، الراكد في معناه ومبناه ، فلا ابتكار ولا روعة ولا سهولة ولا
ذوق ، هو المنسوج على منوال خشن ، الضخم الكلمات ، الطنان الاجواف
القائم على صناعة الالفاظ ، المحشو تكلفاً وتعقيداً ، البلود لفرط ما
لاكنه اللسن ومضفته الافواه .

الادب القديم هو الادب المطبوع بطابع عصر معلوم ، جاءه من يبعثه حياً في عصر لم يخلق له ، فاذا نحن رأينا في شعر امرئ القيس شيئاً جديداً فهناك ما لا يصح قوله في عصر غير عصر الشاعر الضليل ، فقد قيل في زمن يجب الا يتخطاه الى زمن آخر ، وقد تبدلت العادات وتبدل الناس ، والجديد الجديد في شعر امرئ القيس تشابيه واستعاراته . وهذا التشابه والاستعارات ملك الشاعر لا يجوز لاحد ان ينسوط عليها والا كان سارقاً . كان اشبه بالضاحك من نفسه ليخضعها وانما يهين نفسه .

فالابتكار في الادب اشبه بالابتكار والاختراع في سائر الفنون . فمن ابتكر في اسلوب الانشاء مذهباً جديداً بك هذا الاسلوب معروفاً باسمه ومن جادت قريحته بتشبيه جديد لا يجوز لاي اديب بعده ان يأخذ عنه هذا التشبيه ويثبناه وهو ليس من تواليده ، والا كان سائلاً ضعيف المخيلة قاصر اليد .

والاديب العربي لا يكون اليوم مبداً اذا اتحف الادب زوايا تشبه بمقامات الهمداني والحريري ، فان ذلك النسيخ من ثمار عصر مضى ، وهو مما تستحسن حياته في ايام الانحطاط لانهاض اللغة واذا عرفت مفرداتها ، فلتلقها الاذهان وتستعين بها الاقلام ، اما اليوم فان اسلوب المقامات لا يحتسب ابناء العصر ولا يستسيقونه ، فقد تبدل اسلوب الانشاء تبداً عظيماً ، فمات السجع ، ومات التقرن والتحدلق والانصراف الى الالفاظ دون المعاني ، واضحى الاسلوب الساري كل واضح جلي مريب الى الدهن والفهم .

ولا فرق في هذا الواضح الجلي سواء انتقل الينا من الجاهلية او صدر الاسلام ، او عصر العباسية ، او عصر الانحطاط ، او عصر الانبعث فان انشاء ابن المقفع لا يبلى في اي عهد ، ومثله الجاحظ ، وابن الاثير والاصبهاني ، وابن عبد ربه ، وابن خلدون ، مع ان انشاء ابن خلدون اخذ يتقادم عهده وفيه من التطويل ما فيه .

واللغات كلها طافحة بأساليب الانشاء . وانها لتحوى من الاساليب
الممتعة ما لا تقوى على محوه يد الدهر ، ولا تؤثر فيه سنة بقاء الانسب ،
فهي صامدة للصروف لا تثرث منها القوى ولا ينصل لونها وهي صافية
نقية كزرقة السماء .

وهذه الاساليب يصح ان نطلق عليها اسم الادب الجديد ، وهي
الخالدة ، وهي مرجع الطلاب والادباء ، كساها منشئوها المعنى الجميل
في المبنى السليم ، فاضحت لا تنبو عنها الاذن ولا ينكرها اي جيل ، وهو
بها قرير ضنين .

وما يقال في النثر يقال في الشعر . فالشعر التناضح بالمعصير الشهي
لا يفنى ، على حين ان الشعر اليابس لا تقوم له قائمة في سوى يومه
ولو انشدته المتنبي ، فان شعر عمر ابن ابي ربيعة ، وجميل بثينة ،
وكثير عزة ، وابن الدمينه ، وعباس بن الاحنف ، وابن زريق ، وابي
لؤاس ، والشريف الرضي ، والبهاء زهير ، وابن المعتز ، وابي فراس ،
وشعراء الاندلس في معظمهم ، مما يطبع ان يقلل اليوم وينشد ، وتقتبس
طريقته ، ويهتدى بنوره ، اللهم اذا تفاضينا عن بعض منلحي هذا الشعر
اقتضاه روح العصر ، وكثيرا ما يكون هذا الروح نائيا عن حضارة العصر
الذي يلي .

فان هؤلاء الشعراء جمع منظومهم الرقة والروعة والوضوح ، وكل
شعر يرتع في هذه الميزات لا يعرف الانقراض ، خصوصا وهو مستمد
من العاطفة ، والعاطفة لا تموت ، فالقلوب تخفق ابدا بها . وكل شعر
أوحت به العاطفة وعته الذاكرة ، وردده اللسان ، وابتهج به الخاطر ،
بوتناقلته الكتب والافواه من عهد الى عهد ، وهو الشعر الذي يفرض
مشيئته على الأيام والسنين .

وللشعراء الهجائيين منزلة وشان لدى الحفاظ والرواة : ويمكن
القول ان شعرهم يقوم يقوم على العاطفة ، أفلا تتبدل هذه العاطفة بما

يتبدل به القلب ؟ ... ألا تخضع لسلطان الهوى ؟ ... وشعر الهجاء
يشير الهوى . إذا فهو شعر عاطفي . ولهذا الشعر حظه من البقاء والخلود
أن يكن جميلاً فريداً ، على طراز ما التحقنا به الحطيئة والاختل والفرزدق
واجريير وبشار ودعبل وابن الرومي والمتنبي . فان شعر الهجاء أقرب
إلى الحفظ والبقى أثراً . فالنفس وهي الأمارة بالسوء تميل إلى الهجاء
وترتاح له أكثر منها إلى احراق البخور وتقبيل الأذبال .

ولسنا ندعو بالخلود لكل شعر عاطفي ، ولكننا نقول إن شعر العاطفة
يملك ميزة الخلود أكثر من أي شعر آخر ، ويأتي بعده شعر الوصف ،
على أن يكون بليغاً رقيقاً غير مسبوق إليه . ويقبل في الدرجة الثالثة
شعر الحكمة إذا أفرط فيه قائله تبرأ منه الشعر .

والا يكتب الخلود لشعر الحكمة إلا إذا قاله من أُرغم الدهر على الاصغاء
إلى إنشاده واسمعت كلماته من به صمم ؛ ومع أن المتنبي يسير في طليعة
أمن صاغ هذا الشعر فلا يستطيع الجزم بأن حكمياته تستاغ في كل عصر ،
أفهي من بنات عصرها . وقد ظهر خاتم ذلك العصر فيها . ومن المحال أن
يحاول تقليدها أي عصر جديد . وكل من استهواه تقليدها فهو من طبقة
المحافظين .

لا نكسر في أن في هذا الشعر قوة ومناعة وحسن صياغة . ولكن
صب الحكمة في الشعر ليس مما يشمل الأدب الجديد . فالأدب الجديد
في الشعر عاطفة ووصف . وما جاوز العاطفة والوصف بليد . ويجوز
أن تطفو الحكمة في بعض المواقف . إلا أن الاغراق فيها يذهب برونق
الشعر . ويرصف هذا الشعر فوق أكاديس القديم .

ومن الواجب على الأدباء والمتأديين الأكثر من مطالعة أبي تمام والمتنبي
وأبي العلاء . ففي مطالعة هؤلاء الأئمة ما يساعد على اقتباس العصمة
والقوة والفخامة . إلا أن التشبه بهم يدل على العقم والعجز عن التوليد ،
يدل على الانغماس في التقليد ، على الفرق في بحيرة ملأى منذ ألف عام .

فمن خاض عباها ، لن يبلغ شاطئها الآخر ، وإذا بلغ هذا الشاطئ فأي فضل هو فضله وقد كان تابعا لا متبوعا ، وقد وقف حيث وقف سواء ؟

ولماذا الاقتداء بأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء في شعرهم الضخم الجانح الى القديم أكثر منه الى الجديد ، وهناك عمر بن أبي ربيعة في قالبه الصحيح العذب الرسيل ؟ فان ابن أبي ربيعة ابن كل عصر ، على حين ان المتنبي ابن عصر أو عصرين أو ثلاثة . فان شعر زعيم الغزاليين يقال وينشد ويردد اليوم وغدا وبعد غد ، ويدغم فيما يقال اليوم وغدا وبعد غد كأنه منه وفيه . فلا يجفوه عصر ولا يعرض عنه أي عهد . بينما المتنبي لا يرحب بأسلوبه كل جيل ، وإن يكن ثمة من اعترف بـ سيد الشعراء .

وكيف تسمع عمر بن أبي ربيعة ينشدك أبياته :

تقول وليدتي لها راتني	طربت وكنت قد اقصرت حيناً
اراك اليوم قد احدثت امرا	وهاج لك الهوى داء دفيناً
وكنت زعمت انك ذو عزاء	اذا ما شئت فارقت القريناً
بعينك هل رايت لها رسولا	فسألك ام لقيت لها خدينا
فقلت شكاً السيّ اخ محب	كبعض زماننا اذ تطميننا
فقص عليّ ما يلقى بهند	يذكر بعض ما كنا نسينا
وذو القلب المحب وان تمزى	مشوق حين يلقى العاشقينا

كيف تسمع هذا الشعر ولا تحسبه من مواليد اليوم ، بل من موال كل يوم ، وهو الوضاء الصافي الانيق الرقيق .

وهذا ابن اللينة هلا اصغينا اليه في قوله :

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فقد نادني مسراك وجنا على وجد

إن هتفت ورقاء في رونق الصبح
على فنن غصى النباتات من الرند
بكيت كما يبكي الحزين صبابة
وذبت من الشوق المبرح والصد

هلا اصفينا الى هذا الشعر البهي القشيب وهو يحدثنا بلغة اليوم
ودوح اليوم ؟ ...

قيل كان العباس بن الأحنف إذا سمع هذا الشعر تترنج منه
الاعطاف ، وكاد لفرط إعجابه به ينطح برأسه العمود . فقد تمتقه ابن
الدمينة بلا خمر .

وأبو فراس أي عصر لا يفتح له صدره وقصائده من بنات كل عصر :
أواله عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر
وماذا تقول في شعر المنازي يوم فزع الى الوادي الظليل هربا من
الحر .

نزفنا دوحه فحنا علينا حنو الرضعات على الفطيم
تروع حصاة حالية العذارى فتلمس جانب العقد التنظيم

الا يسير هذا الشعر في ركاب كل عصر ؟ .

والبهاء زهير ؟ ... انسى البهاء زهيراً ؟ ...

انا من تسمع عنه وترى لا تكذب في غرامي خبرا

وماذا نطلب في الشعر إلا أن ينهج هذا النهج ، الا أن يصدر عن
هذا المورد ؟ . ماذا نبغي منه الا أن يبقى ابدا شهي المذاق ، اذا رددناه

في كل ثانية أطربنا ورجونا أن نستزاد منه ، فلا يتنكر له زمن من
الازمان ، ولا تشد دونه الاسماع كلما قام للادب العربي كيان .

والادب الجديد اذاً هو المبتكر ، الفريد ، السائغ ، الرائع الديباجة ،
الواضح الجلي ، الذي يرضى عنه كل عصر ، ويهضمه كل جيل ، فلا
يؤلم السميع بغريب الالفاظ ، ولا بالنافر من المعاني ، ولا بالتكلف
والتعقيد .

والادب القديم هو المثقل بالتقليد ، المطبوع بطابع عصر خاص
لا يمدوه ، المنغمس في السجع في نثره ، والمتوكئ على الالفاظ والتفلسف
في شعره ، الموريس ، الخشن ، الوحشي الكلمات والمعاني ، ها ما يحتاج
الى القاموس كلما خطر لك أن تجيل الانظار .

ومثل هذا الادب شؤم على اللغة والبيان ، إلا أن المحافظين
يستمرونه ، بينما انصار التجديد يشنون عليه الغارة ، وينادون الى
استنصاله وهو أدب راكد ، والادب الراكد لا يعيش !

وقد طال التطحان بين انصار الادبين . وسيطول كلما بقي في الادب
قديم وجديد . وعندنا أن الادب الجدير بالحياة ما استوفي شروط
البيان ، وحفل بالمبتكر ، وهز النفس ، وأرغمك على قراءته والاصفاء
اليه ، واستعادة قراءته والاصفاء اليه ، هو ما أطربك كلما رويته ووقفت
على بدائعه وآياته . هو ما رمى الى ابعد مما يرمى اليه مقال في صحيفة
سيارة بنشر اليوم ليطوى غدا . . !

بيروت

كرم ملحم كرم

صاحب جريدة « العاصفة »

المصدر : الرسالة - العدد ٦٤ - ٢٤ سبتمبر . ١٩٣٤ السنة الثانية .

التطور والتقليد

في الأدبين العربي والانجليزي

فخري أبو السعود ١٩٠٩ - ١٩٤٠

التطور والتقليد ، أو التجديد والمحافظة ، عملان خالدان يعملان جنباً لجنب ويتنازعان كل كائن حي من فرد أو مجتمع أو نظام أو نحوه . فهما يتنازعان كل أدب حي ؛ وقد كان لكل من الأدبين العربي والانجليزي نصيب من كليهما ، غير أنا إذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربي كان أوفى حظاً من التقليد أو المحافظة أو الاتباع ، بينما كان الأدب الانجليزي أوفى نصيباً من التطور والتجديد والابتداع .

تطورت لغة الأدب الانجليزي وأسلوبه : فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه في عهد شكسبير مخالفة كبيرة ، وتطورت أغراضه عامة : فصار اليوم أشد اتصالاً بالمجتمع أخذاً منه وتأثيراً فيه ، وتطورت أشكاله : فظهرت فيه على التتابع المقالة الدورية والصوراة والترجمة والقصة الطويلة والقصة القصيرة .

وتتابعت مذاهبه : فخلت المدرسة الرومانسية التي ازدهرت في عهد اليزابث ، وكان شكسبير وسبنسر من أبنع ثمراتها ؛ وكان الخيال ووقائع البطولة وحياة الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافاتهم مداد نظمها ونثرها ؛ وتلتها المدرسة الدينية التي اطلعت ملتون وبنيان

الذين كانت أمور الدين وأخبار البعث والحساب والخلود مدار كتابتهما ثم كانت المدرسة الكلاسيكية في القرن الثامن عشر فافتتن زعمائها في الشعر أمثال درايدن وبوب ، وفي النثر أمثال أديسون وستيل ، بمحاكاة الآثار الكلاسيكية القديمة من أفريقية ولاتينية في حسن الصيغة وإحكام الأسلوب ثم أعقبت هذه مدرسة رومانسية أخرى في مستهل القرن التاسع عشر كان من أقطابها وردزورث وشلي وكيثس ، فنبذت الاهتمام بتنميق الأسلوب وأطلقت لخيالها العنان ؛ وفي أواسط القرن قامت المدرسة الواقعية تحد من ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع ، وكان من رجالها تينيسون ثم هاردي .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الأدبية مرآة للحياة في عصرها : فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافي وكشف كنوز الأدب القديم ، والمخاطرات والمغامرات في الكشف والقتال . ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدد الديني الذي كان زعماءه « المطهرين » ؛ والمدرسة الكلاسيكية المنمقة الأسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والأقوال المتهاافت على حياة المدن المردي بمظاهر الطبيعة ؛ والمدرسة الرومانسية في مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيراً في عالم الأدب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك في عالم السياسة : من نزعة إلى التحرر من قيود المجتمع وأغلال الفكر والعودة إلى الطبيعة ما أمكن ؛ والمدرسة الواقعية التي تلت ذلك كانت متأثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التي شهدتها القرن الماضي . وقد تتلمعت هذه المدارس جيلاً بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاح معاييبها وتلذذ ما أهملته .

هكذا تطور الأدب الإنجليزي مع تطور السياسة والعلم والدين ، وكذلك تطور الأدب العربي : فلهجة الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الإسلام الفحلة ، فلهجة الصدر العباسي الجزلة ، ثم جاءت بعد ذلك لغة لينة مبالغة في اللين والاناقة ، والأسلوب المرتجل المرسل تلاه الأسلوب الفني المتعمل المرصع الذي تزايد عمله وترصيمه شيئاً فشيئاً ؛ وتطورت أغراض

الادب وشملت من اسباب الحضارة ما لم تشمل قبل : من شؤون الامارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة ؛ وتطورت اشكاله : فظهرت كتب التراجم والاخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة . فالادب العربي قد تطور تطوراً عاماً اتجه الى ترقيق العبارة وتوسيع اغراض القول ، وكان مرجع هذا التطور العام هو تحضر أبناء العربية واشتغالهم بالعلوم .

ولكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالفة ذكرها في مجرى الادب الانجليزي ؛ ومعظم اغراض الادب العربي وصفاته توارثت جيلاً عن جيل : فاغراض الفخر والمدح والهجاء والثناء ونحوها في الشعر ظلت ابواباً ممتازة محددة. يتبارى الشعراء في تناولها ولا تتم لأحدهم البراعة حتى يطرق كلا منها ؛ وكتب الاخبار الادبية والتاريخية المختلطة ظلت على وتيرة واحدة من اول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض في طريقة البحث والسرد وتهذيب الابواب والفصول .

ولا غرو فقد كانت تحيط بالادب العربي ظروف كلها تدعو الى المحافظة والتقليد : فالمجتمع العربي ذاته كان مجتمعاً محافظاً لم يكدم يوماً عليه جديد من الافكار والانظمة بعد تشبعه بحضارة الاقدمين وعلومهم ، ولم يختلف عليه من الاحداث الاجتماعية والسياسية ما يترك صداها في الادب : فقد كانت القصة من اولها الى آخرها على وتيرة واحدة : اسر وامراء يتوارثون الحكم ويتجاذبون ، وامم مكفوفة عن شؤون الحكم الا ان ثور تآثرتها في الفينة بعد الفينة فتقمع وتعود الامور الى وتيرتها ، وما من نزعة جديدة او اتجاه جديد يحول عنان الامور الى غير ما هي سائرة فيه .

والادباء انفسهم كانوا منمولين بأدابهم عن مجتمعهم قلما يعبرون عن امانيه او يحاولون قيادته ، وكانوا اقرب مكلنا الى الامراء منهم الى صف الشعب ، لانهم كانوا يعتمدون على الاولين في معاشهم .

ثم إن قيام الإمبراطورية الإسلامية أدى من بادىء الامر الى نتيجتين كانت كلتاهما ذات اثر بالغ في الادب العربي ، وكانتا عاملي محافظة وتقليد فيه : وهما فساد اللغة الفصحى تدريجيا ، ودخول الاعاجم في اللسان العربي .

فان فساد اللغة تدريجيا جعل الادباء يحتلون دائما حلو المتقدمين من العرب الانحاح ، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد ، وصار حسب الشاعر المتأخر ان يجاري المتقدمين في جزالة القول وإحكام النسج ليكون قد بلغ مبالغ الشاعرية ، ولا يكاد يخطر له أن يبرز على أولئك المتقدمين ويبتكر ما لم يعرفوا ، وهو وإن لم يرد الا محاكاة أسلوبهم الا ان ذلك مؤديه حتما الى محاكاة أفكارهم ، ومن ثم التقليد والمحافظة .

والاعاجم الذين دخلوا في اللسان العربي انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا الى محاكاةهم تقويما لعريبتهم وطلبا لاسرار اللغة وقوامعها ؛ ولا يخفى أن كثيرا من أقطاب الادب المتأخرين كانوا من هؤلاء الاعاجم المستعربين ، فكان تأثيرهم في الادب تأثير محافظة وتقليد ونظر الى القديم .

وقد تزايد تبجيل كل ما وودع عن المتقدمين حتى قارب منزلة التقديس وإن قام من الادباء من ينكره ويثبت الفضل للمتأخرين . وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة الدائبة ما نرى في الادب العربي دون غيره من الآداب من ظواهر بتراء ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار في شيء : كالغزل الاستهلاكي ، وذكر الأبل والحداء والبيد ، ومعارضة القصائد المشهورة بمائلاتها في الفرض والوزن والقافية .

وهناك بلجان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة في الادب : هما المدح والهجاء المتكلفان طلبا لصلوات الممدوح أو لهبات خصم المهجو ، فقد كان الشاعر مثلا يمدح قائد الخليفة أو وزيره ما دام مرضيا عنه ، فان نكب تقرب الشاعر الى الخليفة بدمه ؛ وقد كان أكثر

المدح والهجاء من هذا النوع المتكلف المستمنح ، وما لم يصدره الشاعر عن شعور حقيقي فسيبطله فيه أن يحاكي ويأخذ ممن تقدم نقصا وزيادة وتخريجا وتوليدا ، لذلك ظلت معاني المدح والهجاء وتشبيهاتهما في مختلف العصور تحوم حول أقوال المتقدمين ، وأثر هذا جلي في جمود الأدب وتقيده بالقديم بدل اتجاهه الى مناح جديدة .

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الأدب العربي ، هو اعتزال ذلك الأدب غيره من الآداب ، فالأدب ككل كائن حي يجمد ويتصلب إذا لم يتصل بغيره ، فتتجاوب الإحساسات والأفكار ، وقد كان من أكبر عوامل رقي الأدب الإنجليزي وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوعه الى الآداب الكلاسيكية ، أما الأدب العربي فلم يكن له مرجع على ماضيه ، فظل دائما ينظر الى الخلف بدل أن ينظر الى الامام ، والو استفاد من الأدب الإغريقي مثلا لكان له تاريخ غير تاريخه المعروف .

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وأدبية أدت الى ضعف ورغبة التجديد واستفحال نزعة التقليد في الأدب العربي ، ومن ثم ظل طوال العصور يردد الحانها بعينها حتى بلغ ما يمكن أن يبلغه مثله من الرقي ، ثم انحدر في طور تدهوره الطويل ، وكان من أكبر عوامل هذا التدهور تغلب نزعة التقليد فيه على نزعة التطور .

فخري أبو السعود

المصدر : الرسالة ، المجلد ١١ ، ١٢ أغسطس ١٩٣٥ ، السنة الثالثة .

آراء في الماضي والحاضر

ميشيل عفلق - ١٩١٠ -

الماضي ثقل من الانتقال . وعلى الانسان او على الشعب ان يعرف كيف يجعل هذا الثقل مفيداً . فالحجر يمكنك ان تضعه كأساس لتبني فوقه بيتاً ، او تضعه فوق صورك فيحبس منك الانفاس . وما اخل اكثر الذين يتفنون بالماضي العربي الا سالكي الطريق الثانية ، فعظمة الاجداد تكاد تختفهم !

الماضي ثقل ، ولثقل استعمالات شتى . فهو للرفع والدفع ، كما انه للشد والمنع . فاذا عرف الشعب كيف يستخدم ماضيه ، كان دافعا له الى الامام . والا كان كحجر يعترض طريقه ويعوقه في السير .

المبرة كل المبرة اذن في حاضر الشعب ، لا في ماضيه لان الحاضر اذا كان قويا يسهل عليه الانتفاع بقوة الماضي ، مثلما ينتفع الولد الذكي من علم ابيه وماله . في حين ان الحاضر الهزيل ينوء بحمل الماضي الضخم ويرزح تحت ثقله ، كما يتخاذل الولد البليد امام شهرة اب ذكي !

قد يشفع الحاضر المجيد بماض مظلم . فلا يفكر احد مثلاً في ان ينكر على تركيا نهضتها الحديثة بحجة انها كانت متأخرة في القديم . . ولكن ماضي العرب الزاهر لم يشفع لهم امام اوروبا القوية المكتسحة .

لا تكون النهضة القومية في ان يبعث الماضي في الحاضر ، ولكن في احياء الحاضر للماضي . لان الحاضر في الواقع هو الذي ينعش الماضي ويمطيه قدراً يكسوه جمالا .

الحاضر مرآة الماضي . فلا يظال القدماء اذا لم تنعكس صورتهم في

أبطال جدد ، تظل هذه الصورة جامدة ميتة . والحاضر اذا كان مظلماً صديقاً يصعب أن تتبين من خلاله وجه الماضي مهما كان رائعاً مضيئاً .

تذكر الماضي دليل على عجز الحاضر وفقره ، كالشيخ المقعد الذي يقضي أيام شيخوخته في تذكر عهود صباه ولكن الشاب المضطرب بالحياة قلما يعرف الذكرى لأنه يعمل بدلا من أن يتذكر .

لا ينفذ صوت الماضي الى الحاضر الا من خلال العصور الصامتة الفارغة . فاذا كانت هذه فعالة ملأى بالحوادث صعب على ذلك الصوت أن يهزها ويتجاوب بين جذرها . هذه إيطاليا اليوم ، شل فيها طائفتها الإبداع وقيد حريتها وحرمة الخير ، فصارت تحلم بتمثيل روما القديمة ، كما يحلم الجائع بصحاف اللحم ، والسجين برحب القلعة .

لو كانت الشعوب القديمة التي بنت لنفسها مجدا مخلداً تجر وراءها ماضياً عظيماً ثقيلاً كالذي نجر نحن اليوم ، لما خلقت لنا جزءاً صغيراً من الميراث الذي نتغنى به . ولكن أجدادنا مشوا إلى الرقي خفافاً ، كل شيء في نظرهم ممكن ، لأنهم لم يتعلقوا بصورة سابقة عن الحياة ، ولا استعبدتهم تاريخ حافل .

عند الأمم المجيدة الحاضر ، لا يهتم بالتاريخ الا العلماء المختصون بدرسه . أما الحاضر الحقير فيجعل كل أبنائه مؤرخين . الكل يلهجون بالقديم لا حباً به بل هرباً من التفكير في حالتهم .

أكبر كتاب عن الإبطال القدماء ليس تلك الصحائف الصفراء التي يجمعها المؤرخون الشيوخ ، بل هو وجود من يضارع أولئك الإبطال في البطولة ويتابع سيرتهم .

الملاهي ابن الحاضر ، لأنه أصغر منه سنّاً . فعلى الأب أن يمد يده إلى ذلك الابن الراقد في أعماق العصور وينتقله إلى الحياة .

ميشيل عفلق

المصدر : الطليعة ، دمشق ، العدد ١١ ، ١٩٣٥ .

الميل الرجعية

عند بعض ادباء العرب المعاصرين

يوسف متي

في مصر اليوم حركة ادبية رجعية تنزعها جملة من فطاحل اخلاف
سيبويه ، ومن الاخطاء الشائعة التي يقع فيها كتابنا هي ان يعزو هذه
الرجعية « للجشع المادي وابتغاء مرضاة الاغلبية الرجعية » فحسب
وان ينعتوها « برجعية مقنعة » وراء ستلر الفن والادب فحسب .
هذه المزاعم لا يمكن اعتبارها كافية لادراك نواحي هذه الرجعية عند
اكابر كتاب مصر . اذ الحقيقة ان هذه الرجعية كانت نتيجة مباشرة لسير
الحياة العامة في اوربا ، فهي ليست مظهراً خلاباً لارضاء الاغلبية
الرجعية كما كتب احد الاصدقاء ، هذا ، وسنحاول في هذا المقال
ايضاح فكرة الاغلبية الرجعية التي يرددها الكتاب، ويعزونها اليها خطأ القيام
بحركات فعلية ضد الادباء الاحرار . لكن ، قبل الكلام عن هؤلاء الادباء
الرجعيين ، سوف نبث باختصار الحوادث الاجتماعية التي خضعت
لها اوربا الغربية ، والتي نعزو رجعية كتاب مصر بدرجة كبيرة جدا الى
تأثيراتها وانعكاساتها .



ان السنين التي اعقبت المجزرة الاستعمارية الكبرى كانت مطبوعة
بطابع واضح المعالم ، ويمكننا ان نطلق عليه اسم « طابع الحرية
الفكرية » او « الديمقراطية » ، في مختلف بلدان اوربا الغربية . وهذه
الظاهرة كانت نتيجة قيام الطبقة العاملة بحركات فعالة ضد الرأسمالية
السيطرة اسبغت على المجتمع الاوربي الواناً زاهية من الحريات الفكرية

والاجتماعية ، سواء في ايطاليا او فرنسا . فآخذ الكتاب ينحون مناحي جديدة في كتاباتهم اقتضتها ظروفه بيئتهم وصرخات المفكرين المخلصين واحساسهم بشقاء الاغلبية الكلاحة في سبيل اقلية ضئيلة مميزة . هذه الكتابات كانت تختلف سواء في الدعاية ضد الحرب وتفسير التاريخ ، او نظم الشعر الثوري وتآليف الروايات الشعبية الواقعية وهدم الاباطيل الخرافية التي تستغلها الرأسمالية للسيطرة على مشاعر الناس وخداعهم .

فاذا لاحظنا الآن ان النهضة الادبية في البلاد العربية - وفي مصر خصوصا - كانت ولا تزال تتأثر باحداث اوربا الغربية وفنونها وآدابها امكنا ان نفهم بسهولة كيف ان الحرية الفكرية انعكست على البلاد العربية ، وجزافت بعض الكتاب العرب ، كل بحسب فهمه واقلبيته .

أخذت كتابات طه حسين في الشعر الجاهلي تحدث دوبا في مختلف الاقطار العربية ، وكان الزهاوي يشايع الافكار الداروينية في النشوء والبوخزيرة في المادية ، ويداع « المقتطف » وسواها تعمل لقراء العرب بعض الوان الحركات الفكرية في اوربا ، فتأثر بكل ذلك وامثاله قسم كبير من اهل البلدان العربية ، وبهذه المناسبة نقول ان الساخطين يومئذ على الكتاب الاحرار لم يكونوا الاغلبية مطلقا بل كانت الاقلية ذات المصالح المختلفة في الرجعية ، بما فيها الطبقة الحاكمة ورؤساء الازهر يومئذ . ومن الخطأ ان نرعى اغلبية الشعب بالرجعية اذ ادركنا ان الحركات التي تظهر احيانا بصورة عداء او كراهية ضد الكتاب الاحرار هي من موحيات الرجعية .

بيد ان الرأسمالية في البلاد الغربية لم تكن ، في هذه الاثناء مغمضة عينها من ملاحظة انتباه الطبقة العاملة وادراكها لحقيقة وضعها ، فكانت تشد قبضاتها الحديدية وتخلق هنا وهناك رجعية قاهرة باسم فاشستية او نازية او غير ذلك ، ووكلت عليها ديكتاتوريين يحكمون لحفظ احتكاراتها واستثمارها بالنار والحديد ، ولا سيما انهم ذعروا اذ رأوا روسيا

القيصرية تدخل في ذمة التاريخ ، اذ قامت بثورتها الناجمة وشرعت في بناء مجتمعها الجديد ، اول مجتمع غير رأسمالي في العصر الحديث .

وعلى اثر ذلك تقدمت في ايطاليا دمية الرأسمالية موسوليني . واستتوت معه في الحكم في ربوع ايطاليا افكاره الرجعية واساليبه الفاشستية في القضاء على كل جديد وخنق صوت كل مخلص وكل مفكر حر . واخذت الرأسمالية تصفق لهذا النهج الجديد بيديها اللطختين بدماء ملايين ضحاياها . فمن لم يقتل من اهل الثقافة العليا والفكر الحر واصحاب الارومة الانسانية قضى في سجون الفاشيست الفظيمة . واخذ الكتاب الرجعيون ينشون ويفكرون كل بال عتيق من الاراء التي لا قيمة شعبية او فنية حقيقة او انسانية لها من الادب ، فيقدمونها للناس تسلية رخيصة تلهيهم عن وضعهم البائس .

نقفه عند هذا الحد عن ايطاليا ، والقارىء يمكنه ان يفكر بما انتجته هذه الدعوة من الحملة العسكرية على الحبشة المسكينة التي اريقت فيها دماء الالوف من جنود ايطاليا المخلوعين ، وقتل من الاحباش اكثر من اولئك ، والهبت العالم بكل هذه الرزايا التي نلمسها الان ، لا شيء الا لتكون النتيجة تضخم رؤوس اموال اصحاب معمل الاسلحة الايطالية فقط . واستثمار الاواخي الحبشية ان كانت تستثمر .

ثم في المانيا مدت الرأسمالية العليا يديها لتخرج دكتاتوراً تمثيلي الطبع والاحساس ، فيصرخ بلسانها وهي تختبئ خلفه : « الجنس الجرمانى .. نحن الجرمان ارقى الاجناس واسمى الشعوب وااقوى العناصر ! .. » ثم بالتستر بهذه الدعوة يقوم يشنت كل مفكر حر ، حتى لم يعد احد يتمكن جهاراً من الدعوة الى السلام والتنبيه الى ما ترتبه البربرية في سجونها الهائلة وفي الحياة المادية المهضومة .

لقد خنقت النازية في المانيا كل فكرة تقدمية وقضت على مفكري المانيا الافلاذ ، سواء يزعم انهم من العنصر السامي او انهم ينشرون دعوة الحرب ويبينون للناس أهوالها وفظائنها . ولم يعد يصدر جهاراً

من الكتب والمؤلفات الا ما كان يحمل الطابع الارتجاعي لنفع صدور الشباب والهاب حماسهم ليسهل دفعهم الى مجازر اخرى يثري من ورائها اصحاب المصالح والمعايل .

في الوقت نفسه كانت اسبانيا ترزح تحت نير دكتاتورية اخرى تعمل في سبيل الراسمالية ومشاريعها الاستثمارية ، وضرب كل حركة نضالية مجاهدة . وكان الصراع في فرنسا ايضا قائما بين الرجعية الفاشمة واحزاب اليسار ، ولم تنج حتى بريطانيا « الام » من خطر الفاشستية برغم مزاعم الايمان والوجهاء بان تقاليد انكلترا ومحافظتها تمنعان تسرب الفاشستية اليها !...

هكذا كان في اوربا الغربية . ولا يفهم من هذا ان حركات الكفاح العمالية ماتت في البلاد التي ذكرناها . اذ ان حركات الاضراب الثورية المنظمة سارت دائما/بتقدم هائل وقد ظهر اثرها في اسبانيا وفرنسا . واما في ألمانيا وايطاليا فتشتغل بنظام خاص ليس هنا مجال ذكره .

غير اننا نريد ان نقول ان هذه الحركات والافكار الرجعية انتقل صداها الى البلاد العربية . ولا ننكر ان مصر اوثق هذه البلاد علاقة فكرية باوربا الغربية ، فكان انعكاس آثار الرجعية فيها ابين واوضح ولم يقف الامر في آدابها وفنونها ، بل تعداه الى نظام الحكم ، وهو ما كان يريده المستعمرون . ولا يلعب القارئ الى اننا نقول بحتمية هذا التأثير الرجعي . لكننا لا ننكر ان مهزلة الحكم المطلق في مصر كانت لعبة استعمارية ، قضت على دستور ١٩١٣ وسدت افواه الاحرار العاطلين ضد الاستعمار .



لم يكن اثر الرجعية على جميع الكتاب في مصر متساويا او واحدا . ولكن اكثر من ظهرت عنده اتجاهاتها وافكارها هو الدكتور طه حسين . ولا ننسى ان نقول ان الكتاب الرجعيين حصلوا على شهرة واسعة ومكانة

ممتازة وثراء كبير ، ودأبو جهدهم للمحافظة عليها . إذ لم يكف يخرج طه حسين ، مثلاً ، من الجامعة المصرية ، وكان متأثراً بموجة الرجعية الغربية ، حتى أخذ يفكر بطريقة لارضاء « الاقلية المدركة » - لا الاغلبية غير المدركة كما يعتقد بعض الاخوان . فكر طه حسين كيف يرضي اعداءه الرجعيين بالامس ، فلم يكن اسهل من التزيي بزيتهم والضرب على عودهم وبهذه المناسبة نقول ان كتّاب الرجعية في مصر لا يكتبون لغير الاقلية « المتعلمة » فهم لذلك لا يهتمون بالاغلبية « الجاهلة » . وكل ما يكتبونه او يقولونه يجب ان يفهم انه في سبيل مرضاة هذه الاقلية ، التي اصبح طه حسين مربوطاً بخيوطها المصلحية . فكان همه اعادة ما افسده الدهر من صداقتهم ، وكان ظهور كتّاب « على هامش السيرة » اثر الموجة الرجعية الغربية وارضاء للطبقة الحاكمة والاقهر .

الدكتور من القائلين بان الادب والفن يجب ان يكتب لاجل الادب والفن ، ويجب ان لا يتبدل هذا الادب لتفهم العامة ! . ان رجيمته المفضوحة تحاول ان تتستر بما يتوهمونه ادبا وفنا . ويجدر بنا ان نقرر ان الدكتور تمكن من ارضاء الطبقة الرجعية القليلة ، وهكذا اعيد الى منصبه في الجامعة ، حيث حمل فكرة مناصرة كل وضع وكل نظام عندما اتخذ سمة الواقع بين جماهير الطلاب : ان يهدواوا ويصبروا في حركاتهم الفعالة ، وانهم المتعلمين الذين يجب عليهم ان لا ينصروا حزبا على حزب ، وانه يجب ان تتميز حركتهم عن حركات غير المتعلمين ! . الى آخر هذه المخدرات المضحكات .

ومن الغريب ان تأخذ حمى « الفن » بخناق الدكتور حتى لتفقد بصيرته الى حد ان ينكر العلم ويحمل على العلماء . فقد قرأنا له مقالا في « مجلتي » عنوانه « بين كاسين » يتنكر فيه لصديقه الدكتور محمد عوض محمد لانه كتب مقالا في مجلة « الهلال » ذهب فيه الى ان حروب طروادة قامت على اساس فتح تجاري ، ونظمها هوميروس كما اوجت له مخيلته الشاعرة . تنكر الدكتور طه حسين لهذه « النتيجة المفجة الفليضة الحقيرة » ، كما يدعوها ، وقام بشتن هؤلاء العلماء الذين

يعززون كل حركة او حرب الى اسباب مادية وارسلها صرخة : « اللهم اني انكر العقل ! واجحد العلم ! وارفض ان تكون حرب طروادة قد قلعت لشيء غير جمال هيلانة الخالدة ! »

ندع طه حسين غارقاً في كأس « فنه » الى اذنيه يتجرع منه « التي لا يجرعها الا صفوة الاخيار ... » راثين لهذا الفهم المعكوس ، لنقول كلمة عن الدكتور حسين هيكل الذي نرى ان موجة الرجعية كانت تجرفه وهو يناضل في سبيل الوصول الى ما يتوق اليه « كمدرّك متعلم » ، فكل من اللزّام عليه ان يرضي الاقلية الرجعية المحافظة التي تقرر مصير المنتمين اليها . وهو كذلك من الذين يحصرون ويحددون الادب بأنه « فن جميل يبحث عما في الوجود من حير وجمال » فقط . وهذه الفلسفة المورفينية الرجعية الفردية تقول للفلاح الكادح والعامل المتعب اللذين توكل جهودهما ، تقول لهما بطريق غير مباشرة : « كن جميلا تر الوجود جميلا » ليخدع كل واحد منهما نفسه ويرضى بالواقع الاليم — تقول ان هذه الفلسفة التخديرية لا يقولها هيكل للفلاح والعامل رأساً وما حولهما من الاغلبية المطلقة لانهما لا يقرّانه ، ولكنها تخلق جواً من هذه الروح وتثير جدلاً مضحكاً عن الخير والجمال ، فتقرر دون علمه وشعوره ، ما يريده للاغلبية . كذلك الاستاذ الزيات في « رسالته » عندما يتكلم عن القرية والفلاح ، واصفاً جمال الطبيعة وخرير الماء وثغاء النعجة وتغريد البلابل ... وسعادة الفلاح (!) وتمجيد قناعته وسكوته ، بأسلوب مجلجل الكلمات ، ضخّم العبارات ، رجمي النزعة .

اما رجعية الاستاذ الراجحي ، فمن الواجب ان نقرر انه تشريها طفلاً وكرعها يافعاً وامتزجت بدمائه كهلاً بحكم مركزه وببئته . وان ذهب يزعم للناس انه يكتب عن الحب والفلسفة ، فان كلامه في الواقع فارغ المعنى لا يكاد ينطبق بشيء الا على ما قرّره رجعيته من اهمال تعليم الشعب . وقد كان من وحي « الرسالة » ان جرافت الاستاذ توفيق الحكيم بتيلاها . وهو من تلامذة طه حسين ومن اشدّ الكتاب صلة بالادب الغربي وتمجيداً لفردية الفن ، ومن الكلاهيّن للمرأة . هذا الكاتب

اللكي الفنان بعد ان اخرج « عودة الروح » عاد يقرر ادبه باريستوقراطية
ادبية مبتذلة . فما اخرج آخر كته إلا لتمجده الرجعية وتضمه الى
صفوفها .

ان جميع من ذكرناهم يقولون بمبدأ « الفن لاجل الفن فقط » وهم
يكتبون للطبقة « الراقية » فحسب ، المتعلمة تعليما عاليا ويألفون الكتابة
للجمهور ويصرحون بهذا بصلف الاشراف المميزين عن الناس بطبقتهم
ويما يقتدون من فهمهم وادراكهم السلمي لاصول الحياة الفنية
والادبية . فتراهم يشنعون بكل كاتب « يتدل حتى تفهمه العامة »
ويقتتلون على لفظة لا يقرأها القاموس . نقول هذا لندلل على ان هؤلاء
الكتاب لا يكتبون للأغلبية الا بالرغم منهم وبسوق من غريزتهم حين
تسمو بهم عن طلب ارضاء الاقلية الرجعية التي ينطقون بلسانها ويحافظون
على مصاحها . فمن الخطأ اذن القول بان هؤلاء يبتغون « ارضاء الاقلية
الرجعية » كما ذهب صديقنا عبد الوهاب الامين . ولنا بحاجة للقول
اننا لسا ضد القديم على اطلاقه . ولكننا نسال . او ليس من الافضل ان
لا يتوارى الكتاب وراء كلمات الفن والشعر والادب ليتخلوا عن ميدان
الشعب . ان المخلصين يهتمون بالادب الشعبي . وان شيئا يعوز الرجعيين
هو ما يسمى « الوجدان الثوري » الذي يمتاز به المخلصون القريبون من
الشعب والامة .

يوسف متى

بغداد

المصدر : الطليعة : دمشق العدد الثامن . تشرين الاول ١٩٣٦ السنة الثانية .

المتعلمون والشعب

ابراهيم المصري

ننشر فيما يلي مقالا ممتعا للاستاذ ابراهيم المصري يبحث فيه ناحية خطيرة هامة من حياة الشباب المثقف الناشيء . وهو ، وان يتحدث عن المصريين منهم ، فان اقواله تنطبق على تلك الطبقة في مجموع افكارنا العربية ، رغم ما نلاحظه الان من بوادر نهضة مباركة بينها في بعض ربوعنا . ف « الطليعة » التي ما انفكت تدعو عنصر الشباب المتعلم الى التقرب من الشعب ودرس شؤونهم والامه وتثقيفه والتعاون معه على تحرير هذا الوطن العربي واعلاء مجده ، تنني على الجهود التي يبذلها الاستاذ المصري وامثاله في هذا السبيل وتامل ان تكمل بالنجاح . والمقال هذا قد نشر قبل في صحيفة مصرية ونحن لم نر فضاضا في نشره مرة ثانية لما فيه من صراحة وصدق .



تصطنع مصر الحضارة الغربية . وترسل بأبنائها الى مختلف بلاد أوروبا وأمريكا يتلقون العلم على أهله ويتصلون بروح الحضارة في مستقرها ويقفون بأنفسهم على شتى مظاهرها الخلقية والثقافية . ثم يعودون اليها لمتجديد البيئة الشرقية وحرارتها حرائة جديدة لهدم الفاسد من النظم ووباء الصالح منها ، للاندماج في طبقات الامة اندماجا عمليا ونشر مبادئ الحرية والعدل بين سواد الشعب .

هذا واجيهم فهل هم يؤدونه على خير وجه . وهل تلمس في حياتنا اليومية اثرهم الفعال . وهل نحس في أخلاق هذا البلد وعاداته ونظمه تلك الوثبة العنيفة التي يحدثها غليان الفكر والشعور في نفس الطبقة المتعلمة .

ليس من ريب في ان البلد ناهض . وان النهضة المصرية كسائر نهضات

الشعوب الناشئة تسري عليها انفعيل المد والجزر ، فتارة تتقدم واخرى تتراجع . ولكن هذا التارجح بين الارتقاء والتقهقر ، هذا الاضطراب بين القديم والجديد ، هذه الحركة المطردة نفسها هي مظهر القوة وعنوان الحياة .

« واذا فالنهضة قائمة ، والشعور بها متاجج في الصدور ، ملازم اخیالات المصلحين يبرح بهم ويقض مضاجعهم ويصلبهم مر العذاب ... الا ، اني اود ان اصرح نفسي والقراء بان هذه النهضة مازالت حتى السمنة منبئة من الرؤوس للرؤوس ، صادرة من المتعلمين للمتعليمين اي لمصلحة طبقة واحدة : هي طبقة اهل المدن واهل الريف المترفين والمسئول عن هذا هم بعض المتعلمين اصحاب الثقافة الغربية او ادعياؤها . ونظرة واحدة على حياتهم تقنع القارىء بصواب ما ارمي اليه .

يقصد الشاب المصري منهم اوربا فيتخصص في فرع من العلوم ، ويحصل على شهادة . ثم يرجع اليها وقد فتنه من الحضارة الغربية ملائوها الظاهري ، وزخرفها المادي وشتى وسائل النعيم التي ابصر القوم هناك يستمتعون بها ويقدم لهم منها الرقي الصناعي الوانا مختلفة كل يوم .

يرجع اليها هذا الشاب وملء نفسه الامل باستغلال علمه في سبيل ان يحيا في مصر حياة المرفهين في اوربا . في سبيل ان يصبح موظفا ناجحا يتحدث عن الدرجات ويرتقب العلاوات ويتطلع الى منصب قاض او وزير في سبيل ان يصبح رجلا « بورجوازييا » كاملا ، مطمئنا على عيشه ، مستوفيا حاجاته المادية ، آمنا شر الفاقة ، خاضعا للنظام والمعرف ، يتجنب المصارحة بأرائه الجديدة ، ويخشى الافضاء بنزعائه الحرة ، مخافة ان يصطدم بالتقاليد السائدة فيتهدد مراكزه ويتبدد النعيم المادي الذي يسبح فيه .

هذه الحياة تولد في نفس هذا الشاب ضربا من الانانية الخطرة ، والجبن الحقيق والنفاق الممقوت . فهو يتعلم ليصبح موظفا . وهو يترفع ليصبح من القلادة . ومتى اصبح منهم وانخرط في سلوكهم واتصل بهيئة

الحكام خضع لطبقته وانضوى تحت لوائها والقى عقله واحساسه دفعا منها ، وانقطعت الصلة بينه وبين نفسه وبينه وبين سواد الشعب .

قد يكون هذا الشطب موسرا ، في وسعه الانصراف الى الاعمال الحرة والاحتفاظ بفكره خالصا من شوائب الكذب والرياء وخدمة بلاده خدمة نزيهة صادقة ، ولكنه كثيرا ما يؤثر المنصب على العمل الحر . اذ في المنصب لذة السيادة والحكم التي يتوهم بعض المتعلمين في مصر انها هي التي تتفق مع ما للعلم من مكلفة وسلطان ، وهي التي تتناسب مع ارسقراطية العلم وارسقراطية المال .

فليس المنصب في نظر اولئك المتعلمين الا وسيلة من وسائل السيادة ، وملجأ يستريحون فيه بعد عناء التحصيل . يستريحون ويستمتعون بأقل مجهود . وان من كان هذا مثله الاعلى ليس في مقدوره على الاطلاق التخلص من مؤثرات الطبقة التي تحققة له وتمنحه اياه فهو يجتهد في حمايتها برغمه . يتشبث بعاداتها ، وپروج لآخلاقها ، ويدود عن تقاليدھا ، وينسلخ عن مجموع الشعب شيئا فشيئا ليزداد ارتباطا بها .

وهذا هو الواقع الآن .

فالفريق من المتعلمين الذين ذكرت ، لاسيما بعض المثقفين منهم في مختلف جامعات اوربا وامريكا ، قد انضموا بدافع المصلحة وتأثير البيئة المتحولة التي انشأتم وانفقت على تعليمهم - الى طبقة الموظفين ، والموظفين فقط . بل هم اليوم قد الفوا طبقة ممتازة تعيش على هامش الحياة المصرية وتمثل انانيتها الخطرة في السعي الى ما يعود عليها وحدها بالربح الوفير .

نحن في حديثنا عن هذه الطبقة لا نوجه اللوم الى الموظفين ولا نقصد اتهامهم ، ولكننا نعيب على بعض المتعلمين المثقفين منا عبوديتهم لفكرة التوظف وانصرافهم الى تأليف كتلة مستقلة لا تحفل بغير مصلحتها ، كتلة قد انسلخت وتسلخ عن ابناء الشعب تحيا من كدهم وكأنها غريبة عنهم .

لا تعنى بهم ولا تنبه لمطالبهم ولا تحاول التعرف اليهم للوقوف على مدى القوى الهائلة التي تصطدم في نفوسهم ولدراسة حياتهم العاملة المجيدة على ضوء الثقافة الحديثة والعلم الحديث دراسة وافية شاملة أساسها الرحمة والمحبة وقوامها العدل والانصاف والحرية . وانا اتحدى أي فرد من أفراد تلك الطبقة ان يحدثنا طويلا وفي حنكة ودراية وعمق عن حياة الفلاحين المصريين والعمال المصريين ، وعن واجبه تجاه ما تتطلبه تلك الحياة من اصلاح عاجل ، وعن جهوده هو في سبيل هذا الاصلاح . بل انا اتحدى ان يجرؤ فيصارع باحساسه العميق نحوهم ونظرته اليهم ومعاملته لهم ، سواء في البيت أم في الديوان أو في الطريق أم في المزرعة .

ولو فعل . لو كاشف ايما انسان بما يضره لهم ، لو خلا الى نفسه وحاسبها على عواطفها من نحوهم ، لو حلل الافكار التي تنبثق في ذهنه والميول التي تحتل قلبه ساعة ان يصادف واحدا منهم ، بل لو انعم النظر في تصرفاته حيالهم وقلان بينها وبين ما يشعر به ويفعله اذ يلتقي بنفر من أهل طبقته ؛ لو اقدم على هذا وكانت فيه بقية باقية من ضمير حي لم تخنقه المصلحة ولم يخمد حبه الترف ، فقد يشعر ان بينه وبين الفرد المتحضر المتعلم الصحيح كما يبين القرد والانسان او بين شعوب أوروبا الشمالية وقبائل الزولو .

ان الترفع والكبرياء والازدراء والاستخفاف والتحكم وعدم الاكتراث وسائر غرائز الاثرة الشائعة في الروح البيروقراطية الشرقية العتيقة هي التي تقابل بها تلك الطبقة المصرية المثقفة أبناء الشعب ، وهي التي تحفر الهوة السحيقة بينها وبينهم ، بل هي التي تؤخر حركات الاصلاح في الريف بالنسبة للفلاح وفي المدن بالنسبة للعامل .

وانه ليخيل الي ان تلك الطبقة من المتعلمين لا ترى في مصر غير القاهرة والاسكندرية ولا تعمل الا على نقل الحضارة الأوروبية الى القاهرة والاسكندرية حيث تنعم هي وينعم الاجانب ويتفق الفريقان على استغلال موارد البلد لاشخاصهم وذويهم دونما احتفال بالطبقات البائسة المكتوبة العاملة .

اجل لقد اتقطعت الصلة بين تلك الطبقة وبين العمال والفلاحين .

ان جهل هؤلاء وفقرهم وانحطاطهم وقنذارتهم وتوكلهم ، كل هذه الامور، ض تنفر منهم الفرد المتعلم المنتسب الى تلك الفئة . فبدل ان يستخدم علمه في التقرب اليهم والاحساس بمطالبهم وايضا حاسة الكرامة فيهم ومحاولة اصلاحهم ، ينطوي على نفسه ويتشبث بطبقته ويزهو عليهم وينصب الحاجز الابدي بينه وبينهم . وهو انما ينساق الى ذلك بطبيعة حياته ونظامها . فهو يعيش في المدن ، بل في الاحياء الاوروبية وبين الاوروبيين . يرتاد مسارح التمثيل ويفشى دور السينما ويطالع الادب الغربي ويتشدد بالكلام عن كبر كتاب اوربا وشعرائها ويجادل في المسائل السياسية بعبارات ملؤها التحفظ والحذر والجبن . فلذا ما حدثته عن المشاكل الاجتماعية وعن موقف ممالنا من حياتنا الاقتصادية وشؤون فلاحينا والامهم ومطالبهم اجابك لغوره : انهم سعداء بحظهم ، سعداء بجهلهم . وانهم هكذا عاشوا طوال السنين ، وانه قد يكون في الرقي والتقدم شقاؤهم ... فتحس لغورك بعمق الهوة الفاصلة بينه وبينهم وتشعر انه لم يفكر قط فيهم ولم يخطرهم على باله لحظة وان حياته الضيقة الجوانب المحدودة الفسحت ، مقصورة على اعمال المنصب وملاهي المدن ومطالعة الصحف والروايات .

هذا ولو انه رجع بذاكرته الى ما يمكن ان يكون قد طالعه من كتب التاريخ الحديث ، لادرك ان المتعلمين من شبان وبنات الروس كانوا يؤلفون قبل الحرب مختلف الجمعيات تطوف القرى الروسية وتتصل بالفلاح الروسي وتتوافر على دراسته وتتعرف الى خلقه وتستمع لشكاواه وتعمل على تعليمه وتهذيبه ورفع مستواه المادي والادبي . بل لقد كان ابن البتوت العريقة يخرج على وسطه ويندمج في بيوت الشعب وينزح الى الريف ويحس وهو يتجول ويجاهد ويعلم ويهذب ان من واجبه احكام الصلة بين شطري الامة ، وتوثيق روابط التفاهم والتعاون والرقى المشترك بين الطبقات القائدة والطبقات العاملة .

أما عندنا فالويل كل الويل من المتعلم المسمم العقل والروح يوم ينقل مثلاً في وظيفة إلى الريف . أنه ليستحيل اذن عنصراً جامعاً من عناصر الاستبداد . يعد هذا التبدل في حياته كلثة ، فيجف طبعه ويغلف خلقه ويعمد إلى التآثر لنفسه من الفلاحين التعساء فيضطهدهم وينكل بهم كأنهم هم المسؤولون عن نقله وهم الذين سلبوه نعمة الحياة الناعمة في المدن . وهذا الكره لحياة الريف الناجم عن سحر الحضارة الحديثة المجلوبة إلى المدن وعن افتقار فريق من المتعلمين للاحساس بما للشعب عليهم من حقوق، يؤثر ولا شك في ثروة البلد أعمق تأثير . فأصحاب الاطيان يعيشون في القاهرة أو الاسكندرية فارين من قراهم تاركين مقاليد الامور فيها لمفتشيهـم ونظارهم .

وهذا هو السر في ان كثيراً من المزارع الخصبة تهمل زراعتها أو تزرع بأساليب سيئة فيقل محصولها بينما أصحاب الاطيان من المتعلمين حملة الدبلومات الزراعية يقنعون بإيجار اطيائهم ولا يحفلون بمسئولياتهم ولا يشعرون بالبتة بأن لأولئك المستأجرين عليهم واجبات؛ في ناديتها مصلحة لهم وللمجموع على السواء .

وجملة القول ان في مصر طبقة من المتعلمين في وسعها تحطيم اغلال المعاداة القديمة والتقاليد البالية ولكنها لغرط عنايتها بنفسها لم تعد تعني بالاحوال العامة للامة . فهل لشبابنا المتعلم ان يدرك ان لا علم مع الانانية، وان الامة انما علمت رجالها لا لخدمة انفسهم فحسب ، بل لخدمة مجموع الامة ممثلاً في تلك الطبقات الجاهلة المسكينة الخليقة بكل حب وتمجيد وتصحية ؟

ابراهيم المصري

المصدر : الطليعة - دمشق العدد العاشر ، كانون الاول ١٩٣٦ السنة الثانية .

قطيعة الماضي

محمد امين حسونة ١٩٠٩ - ١٩٥٦

اقبل على الادب الاوربي اطالعه في حماسة وشغف ، فبتوقد ذهني
وينشرح صدري ، وسرعان ما تواتبني الافكار العلمية الصحيحة ، وتنثال
علي الخواطر الناضجة .

هذا الادب الاوربي الذي يلهمني تعاليم الحضارة الحديثة التي ياخذ
بها العالم ، ويفرس في ذهني روح التفكير النبيل الحر ، يزيدني ثباتا
وجرأة ، ويوثق الصلة بيني وبين رواده ، فأحس اني عضو عامل في
هذه الهيئة البشرية المتمدنية ، وانظر الى العالم كما أنظر الى أسرة
واحدة ، ويدفعني هذا الاحساس العميق الى التفكير في طلب الرقي
لامتي ، واستنبط وسائل الاصلاح التي ارى أبناء وطني في أقصى حاجة
اليها ، فلا يعود الفلاح عرضة للفقر والجوع والمرض ، ولا يشكو الشاب
المتعلم البطالة والضعف والخمول ، ولا تعتقد المرأة في الزار والتماثم
والبدع ، بل اعمل على دافعهم جميعا من حضيض الجهل الى مراقبة
الانسان الحي .

فبالادب الاوربي أحيا حياة فكرية شريفة ، وتنمو في نفسي نزعة
قاهرة تدعوني للسمو ، فأوشر اللحاق بالغرب لأنعم بخيرات المدنية
الحديثة ، واقف على قدم المساواة مع غيري من أبناء القرن العشرين .

وأحاول ان اكره نفسي على تذوق الادب العربي القديم وتلاوة
نصه ، فأخال اني مساق الى السام والضجر وبلادة الفكر ، وسرعان

ما يتراءى أمامي جو الرياء الذي عاش فيه أدباء تلك العصور ، جو القصور المتعفنة التي كانوا يستمدون حيالتهم منها ، فيتقدم الشاعر من المرتزة ليمدح الخاصة ويتملق العظماء ، لا شيء سوى جلب السرور والمتعة الى نفوسهم ، على حساب الادب الحر . ومن هنا كان حظ الشعب المسكين من التصوير الادبي حظا ضئيلا ، فلم يعترف أدباء العرب بحقوقه ولم يعنوا بالدفاع عن حقوقه ولا طلب المساواة بين أفراده ! .

هذا الادب وحده لا يمكن ان يصلح غذاء كافيا لأبناء هذا الجيل ، فهو يؤتي في نفوسهم أسوأ الثمرات ، ويرغمهم على إنفاق وقتهم في حل اللغاسم والأحاجي ، ويستنفد قواهم الذهنية في اصطناع أشباه تلك الاساليب الكلابية المفقونة . وأخيرا ينتهي بالمستنيرين منهم الى اعتبار ادبا زائفا لتجرده من عناصر الحياة الخالدة ، ووقوفه جامدا لا يعبر عن إحساساتهم الأبدية بل عن الحياة الاجتماعية عند طبقة معينة من العرب في أزمنة بائدة .

بسبب الخضوع لهذا الادب ، وتلك العقائد الموروثة ، لم يتقدم الى الآن قصصي واحد فيعالج الموضوعات التي تمس حياة الجماهير وتحرك الوتر الخفي من إحساسهم .

ولم يستطع شاعر من شعراء الجيل الماضي ان يتخلص من عبودية الالفاظ والزخارف ، فيهب مشاهري بوصف جمال بلادي ، ويستوحي الطبيعة المصرية بدلا من استعارة أخيلة البدو الذين لا يزالون يتحكمون في أوضاع شعره وفنه من وراء قبورهم .

ولم يجزا كاتب مصري من كتاب ذلك الجيل على ابتداء عمل ادبي فني للدفاع عن فكرة معينة ، أو محاربة البدع والخرافات والسخافات التي تثن تحت أفعالها امتنا .

وهل تحسب واحدا منهم فكر في مصلحة المتعلمين عما اذا كان التقليد هو سبب تاخرنا الفكري أو تقدمنا ، وفيما اذا كن احتذاء

أساليب الأولين يعوق نشاطنا الذهني ويقتل ملكات الابتكار في نفوس
شبابنا ؟

جميعهم شغلوا بالبريق اللفظي ، واتصرفوا الى الزركشة البيانية
والشموذة اللغوية ، فكان كل ما عند انصار الفكر الحر باطلا في نظرهم
يجب أن يحاربوه ، واكل ما في صحائفه الأولين خير يجدر بهم أن
يقتبسوه .

وفي الحقيقة ماذا يهم الشاب في مصر أن يعرف أن المتنبي ادعى
النبوة أو أنكرها ، وأن أبا نواس كانت له علاقات شائنة مع رجال
عصره ، وأن أم عمرو بن العاص كانت زوجة لأربعة رجال في وقت
واحد ، وأن يلقي عقلا ليردد فقط ما سبقه السلف الى قوله فيمدح
الجاحظ ويدم خصومه ، ويتشكك في كل ما كتبه المعري بحجة أنه كان
كافرا زنديقا !

وهل تحسب الشبان عندنا يفيدون من مطالعة هذه المؤلفات التي
توافر أصحابها على صناعة التصنيف ودراس الكلمات ، وتربيل الأشعار
السقيمة التي يرثي فيها الشاعر ناقته في أربعين بيتا أو يهجو كلبا أو
يصف جلوية أو يتغزل في غلام بعشرات القصائد .

إنما يهم الشاب المصري أن تصارحه بأن عليه أن ينظر الى أدباء
الصناعة كما ينظر الرجل المتمدين الى الدمى الخشبية المصنوعة في
القرون الوسطى ، يهمه أن تكشف له عن المساوئ والميوب الخلقية
التي نزلت إليها أمتنا ، وأن تواجهه بالحقائق المرة بدلا من التستر
عليها ، وأن تعالج أسلوب الفلاح في حياته المتعسة قبل أن تعنى بأن
يجيء أسلوبك الكتابي على نمط الجرجاني أو الخوازمي أو الجاحظ .

كيف تريد الى الشعب أن يتذوق الأدب ، وكيف تشكو من كساد
سوق الكتب وبيع الكلمات ! ومغظم هذا الأدب اجنبي عن نفسه ،
لا يصف ملامحه وعاداته وبيئته ، ولا مطالب الطبقات الدنيا وحقوقها ،

وانما هو يستوحي خيال امة غير الامة المصرية ، ويباعد بينه وبين تفهم الوسط الذي يعيش فيه ، ويتحدث اليه عن تاريخ اناس لا يمت الى عقليتهم بصلة .

وعليه يمكننا ان نقرر في صراحة ان ادبنا الحاضر لا يمثل روح العصر ولا حياة القرن العشرين ففي الوقت الذي بدأ العالم يفكر في الاستعاضة عن المصباح الكهربائي بما هو احسن منه ، لا يزال نضوء ظلام ادابنا بالفتيل والمشعل ، وتعلق بالماضي عوضا عن ان نتغنى بمجد المستقبل ونتمسك بأهداب التقليد بدلا من ابراز مواهبنا في مضمار الاجتهاد ، ولا يزال تعريف الادب عندنا « هدية الادباء للادباء » . فهو الادب الارستقراطي الغريب عنا ، وهو ادب الفقاقيع الذي لا يسلك الى نفوس العامة مسلك الشعور المتمكن الباقي .

فهذه التقاليد ذات الروح الارستقراطي الزائف هي التي جعلت الكاتب يترفع عن ان يلتصق بالحياة ، ويأبى النزول الى حاجات الناس ، ويعيش بمعزل عن امة في ظلمات الماضي السحيق .

وهذه العبودية الفكرية المتأصلة في نفوس البعض منا هي التي يجب التحرر منها كي تتوثق الصلة بين الكاتب وعصره ، وبين الكاتب والمجتمع الذي يعيش فيه ، والقراء الذين يطالعونه ويبحثون في اعماله عن الحق والجمال والخير والحرية .

محمد امين حسونة

المصدر : الطليعة - دمشق ، العدد الثالث - آذار ١٩٢٨ السنة الرابعة .

القديم والجديد

نقد وتحليل

محمد احمد الفمراوي

١

لعل من أسوأ سيئات عصور الانتقال ظاهرة التمرد التي تغلب على الناشئين فيها ، فقد كان الناس قبل أن يتلوا بعصر الانتقال هذا يرجعون فيما يختلفون فيه الى أصول مقررة تستند الى ما يسلمون به جميعا من دين ، أو عرف مستمد من دين ، أو الى ادب عريق تحددت أحكامه وتبينت معايير ورسخت أصوله على طوال القرون . فلم يكن صغير يخرج على كبير في تحديد ما ينبغي ، ولم يكن ناشيء يتطاول على أستاذ فيما يعلم انه ناشيء فيه وأنه حديث العهد به . فكان الصغير اذا خالف في سلوكه رأي الكبير يخالف وهو يعرف أنه مخطيء ، ولم يكن ناشيء مبتدئ في الادب أو غير مبتدئ يخطر بباله - اذا لم يقتنع برأي أستاذه أو من هو في منزلة أستاذه في اللغة أو في الادب أو في الدين في مسألة بدا له فيها رأي خاص - أن يعيب أستاذه أو يثليه أو بصغره أو يحاول أن يعرضه لسخرية الناس . وكان الكبار اذا اختلفوا يتحاكمون الى ما أجمعوا على التسليم به من الاحكام والاصول . فلم يكن الخلاف في المقاييس ولكن في طريقة القياس ؛ لم يكن في القواعد ولكن في التطبيق . فكانوا سرعان ما ينتهي خلافهم الى اتفاق إن كانوا ممن يبتغون الحق للحق لا للشهوة ، أما الذين تأخذهم العزة بالاثم فلا ينزلون على حكم الحق وإن وضح فاولئك في عصر هم مصدر الشقاق والفراق ، سواء اكان العصر عصر استقرار في المعايير أم كان فيها عصر اضطراب يشبه الفوضى كعصرنا الذي نعيش فيه .

كان الامر كذلك وكان الناس في راحة من اجل ذلك . كان يكفي ان يحتج احد المتناظرين لرأيه بأية كريمة أو حديث شريف أو رواية في اللغة ثابتة تشهد لاحد الرايين حتى ينزل صاحب الراي الآخر على رأي الاول من غير ان يجد في نفسه غضاضة ، لانه في قرارة نفسه يعرف انه نزل على حكم الآية أو الحديث أو الرواية الصادقة ، وهذه عنده احكام يجب ان تطاع واصول يجب ان تتبع ، والغضاضة كانت عنده والهوان في مخالفة تلك الاحكام والاصول بعد ان وضع له وجه الحق منها ، لا في مخالفتها نزولا على حكم الهوى والشهوة . وكان الامر في ذلك كله مداره الدين وعلم المرء ان الله سائله عن الحق لم لم يتبعه وقد قر في نفسه ، وعن الباطل كيف اتبعه وليس به الحق رغم ضميره ورغم قلبه . فكان هذا الوازع الداخلي حاملا على الحق صارفا عن الباطل حتى ضعف في الناس على الاخص بغشو هذا التجديد الذي يستمد كل قوته من جلال الغالب في نفس المغلوب .

ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما اثارها في الناس نفر ثقفوا ثقافة غربية من غير ان يكون لاكثرهم من الثقافة الاسلامية نصيب مذكور . والغرب والشرق على طرفي نقيض لا يلتقيان كما يقوله رديارد كيلنج ، وإن كان من الممكن ان يلتقيا في العلم الذي هو مفخرة الغرب والذي هو جزء من الاسلام الذي يدين به الشرق . لكن الذين اثاروا مسألة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون ، ولعل انصلهم لا يزالون يجهلون ان العلم الذي ظهر به الغرب هو في الاسلام جزء من الدين ، وان المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق ان يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعي الذي اهتدى اليه الغرب بالعقل والتجربة ، والذي يمثل فطرة الله التي فطر عليها الاشياء . اما فطرة الله التي فطر عليها الناس فتلك يمثلها الاسلام عن يقين . فكان الغرب والشرق قد اقتسما علم الفطرة : علمها الغرب في الماديات بالعلم والتجربة ، وعلمها الشرق في الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحي . فكان الشرق سخطا حين لا يأخذ بعلم الغرب ، وكان الغرب ضالا حين يخالف الاسلام كما انزله فاطر الفطرة على محمد عليه الصلاة والسلام . وكان سبيل

الكمال لهما معا وللانسانية ان يجتمعا على العلم والدين ، علم الغرب الطبيعي ودين الشرق الاسلامي ، فيجتمع لهما بذلك علم الفطرة ونظامها في المادة والروح . وكان هذا ايضا هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد ان يكون مجددا مصلحا ، يجدد للشرق شبابه ومجده من غير ان يعرضه لشر ما يهدد الغرب من اخطار . وهذا هو السبيل الذي دعا اليه جمال الدين الأفغاني وسار على اثره فيه محمد عبده . لكن دعاة التجديد الذين جاءوا بعدهما ممن لم يكن لهم مثل علمهما ولا بصرفهما بالاسلام ضلوا سبيل الدعوة وصدقوا الغرب في ظنه بالاسلام من انه كان سبب تاخر الشرق . ولما لم يطبقوا ان يهاجموا الاسلام مواجهة فيلصقوا الناس صراحة الى نبذه ، عملوا الى مهاجمته مداورة بدعوة الناس الى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون ان يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة . وزعموا للناس ان المدنية الغربية كل لا يتجزأ ، فاما ان تؤخذ كلها او تترك كلها ، إما ان تؤخذ باجتماعياتها وادبياتها وعلمياتها واما الا تؤخذ منها شيء . فوقع الناس بهم في مصيبة طامة وقتنة طامة لان الناس يلمسون قوة الغرب ويريدون ان يكون لهم مثل قوته لينجوا مما هم فيه من رقة واستعباده . فإن كان حقا ما يزعمه لهم دعاة التجديد الغربي من ان لا سبيل الى ذلك الا باخذ المدنية الغربية بحد اثيرها فليس لهم فيما يبدو مفر من ذلك ولو كان في ذلك خروج على الاسلام . ونجحت حركة الالتفات التي قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الاسلام في نفوس من اصفى اليهم من الناس حين الجاؤهم الى ان يميزوا انفسهم ذلك التمييز بين الاسلام وبين القوة والحياة ، من غير ان يتعرض اولئك الدعاة في سبيل ذلك للخطر الذي كانوا يتعرضون له من غير شك لو انهم دعوا الناس مباشرة الى نبد الاسلام . واسبح الذين اصابتهم فتنة ذلك التجديد كمن احاط به العدو لا بد له من الموت أو التسليم ، أو كمن وجد نفسه مضطرا الى الاختيار بين قتل ولده وبين الحياة . ولقد كان سهلا على من وقف هذا الموقف من الناس ان يفك عن نفسه ذلك الحصار ويخرج من ذلك الاضطراب الوهمي لو انه يعرف حقيقة دينه وتاريخه حتى صدر الخلافة الراشدة ، لكن اولياء امور المسلمين عفا

الله عنهم وتداركهم بهدايته وتسديده كانوا ولا يزالون يهملون تعريف المسلمين بدينهم ، وتنشئ أبنائهم وبناتهم في الروح الاسلامي بالتربية الاسلامية . ومن هنا كان المسلمون عوناً لعلوهم على انفسهم . ومن هنا كان كل ما اصاب اولئك « المجددون » من نجاح ، وما يهدد الاسلام في بلاده وفي نفوس اهله من خطر . ومن هنا أيضاً هب لدرء هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسين الذين آتاهم الله فقهاً في الدين وقوة في الجنان وبسطة في البيان ، وفي طليعة هؤلاء كان الرافعي رحمة الله عليه .

فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين ادب وادب وطريقة وطريقة ، ولكنها في صميمها مسألة اختيار بين دين ودين . فالذين يسمون انفسهم انصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون ان يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الاسلام في اكثره . والذين يسميهم هؤلاء انصار القديم يؤمنون بالاسلام كله وبالقرآن كله ويأبون ان يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، او ان يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله . وكل الخلاف بين انصار « القديم » وانصار « الجديد » منشؤه هذا وحده الى هذا . هؤلاء مثلاً يريدون متابعة الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب ! كيفما شاءوا ، واولئك يرون السفور والاختلاط مفسدة اي مفسدة لان الله وهو اعظم بخلقه نهى عنهما في الكتاب . هؤلاء يريدون متابعة الغرب الا يتزوج متزوج الا واحدة ، واولئك يرون اباحة تعدد الزوجات لان الله اباحه في الكتاب . واولئك يريدون التسوية بين الذكر والانثى في كل شيء فلنا منهم ان الغرب يسوي بينهما ، واولئك يرون غير ذلك فيما لم يسو الله بينهما فيه في الكتاب . هؤلاء يرون الاسلام ديناً عربياً انزل للعرب ولا يلزم الا العرب ، واولئك يعتقدونه دين الانسانية الكامل انزل للناس كافة بما يضمن صلاح الناس غير متقيد بزمان ولا متخصص بمكان كما نص الله عليه في القرآن وكما يتجدد عليه في كل عصر البرهان . ثم انصار « الجديد » يضيقون ذرعاً بالقيود الاخلاقية التي قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون ، ويريدون ان يتحللوا منها فيزعموا للناس

أن هذه الاخلاق وقيودها أن هي الا عرف وتقاليده ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد في الفن والادب يعوق الفن ويحول دون ترقى الادب فيجب اذن اطلاق الفن وتحرير الادب من تلك القيود . ومن هنا نشأ خلاف آخر بين الفريقين نقل المراكز بينهما من ميدان الاجتماع الى ميدان الادب . فانصار الجديد يدعون الى الفن العاري والادب المكشوف ويدعون للفنان والاديب حرية في القول والفعل لم يأذن الله فيها لانسان ، وانصار قديم الاسلام يدفونهم عن هذا ويحدثون حرية الفنان والاديب بما حد الله به حرية كل انسان من قيود الدين والاخلاق والاعمت البلية بالادب وصار شرا ووبالا على الناس . واتسع الخلاف وتشعب بين الفريقين . يمضي انصار الجديد الغربي في توهين السد الاسلامي الذي يجدونه قائما في وجوههم اينما تلفتوا فيزعمون للناس من طرف خفي أن القرآن من صنع عبقرى لا من صنع الله ، وأنه آية فنية لكنه آية فنية انسانية لا معجزة الهية ، واذن فينبغي ان يخضع لما يخضع له كل عمل انساني من النقد والفحص والبحث العلمي فيما يزعمون ، ويهب لدرء هذا الافك العظيم كل كريم نجد من رجال الادب او غير رجال الادب من المسلمين ويقاثلونهم على اعجاز القرآن وحرمة وتقديسه ، ويدعونهم الى خطة انصاف ليس من انصاف بعده : اما ان يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشيء ان كانوا لا يؤمنون به ، واما أن يذكره ويدرسوه اذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والاجلال الذي يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما اليها من الظواهر الكونية الثابتة التي لا يد في خلقها للانسان . وهي كما ترى كلمة سواء غايبة في الانصاف ، لو كان لدى انصار الجديد الروح الذي يقضي بقبولها لما كانت هناك المرارة في القتال التي جلبها عدم قبولهم شطر الكلمة الاول ولا مصطلح الفريقان وتحابا واجتمعا على التجديد الحق في الاب وغير الادب لو ان اولئك قبلوا شطر الكلمة الثاني . واذن لما كان هناك انصار جديد وانصار قديم ، ولكن فئة واحدة من المجددين المصلحين الذين يعملون بالحق للحق ضمن دائرتي العلم والدين اللتين يشملهما الاسلام جميعا .

ان من اشد ما يؤسف له ان تفترق قوة اولى القوة في الشرق هكذا
فرقتين احدهما تهدم والاخرى تدفعها عن الهدم ، فيشغل الفريقان جميعا
عن التجديد وعن البناء ، وعدوهما واقف بالمرصاد . لكن التمني لا يجدي
والواقع هو الواقع . فستستمر المعركة بين انصار جديد الغرب
وانصار قديم الاسلام كاشد واحمى ما تكون حتى يقضي الله بينهما
بحكمه . ومهما يكن من ذلك فالموقف بين الفريقين هو في صميمه كما
صورنا . وعلى اساسه يمكن النقد في غير كبير عناء ان يضع الامر بينهما
في نصابه فيما كان وفيما يجد من خلاف . وسنضرب فيما نستقبل من
الكلمات مثلا لذلك بتبيين وجه الحق فيما احتدم حول ادب الرافعي
رجمه الله من جدال .

محمد احمد الفمراوي

المصدر : الرسالة - العدد ٢٦١ - ٤ يوليو ١٩٢٨ ، السنة السادسة .
ملاحظة : المقال الاول من سلسلة مقالات حول الموضوع ٢٠ غ .

بين القديم والجديد

عبد الوهاب الامين

سيدي الاستاذ الكبير صاحب الرسالة :

تحية : وبعد فقد حسب الاستاذ محمد احمد الغمراوي في آخر مقال حول ادب الرافعي « بين القديم والجديد » ، انه انتهى من « تزييف » كلام الاستاذ سيد قطب الى المبلغ الذي كان يريد واكثر ، وانه وضع العقاد موضعاً والرافعي موضعاً ، وان كان هذا الموضعان ليسا الا ان الرافعي انصح لفظاً من العقاد ، وانه رجل يهتدي بنور الدين ، والعقاد لا يهتدي بأي نور !

كذلك حسب الاستاذ الغمراوي انه فصل بين الحق والباطل في هذا الامر واستراح الى نتيجة تلك . ولم اكن اود ان انفس عليه هام الراحة لو انه شاء ان يعرض لكلمة سابقة لي في هذا المضمار ، وراى ان يرميني بالفزع من ذكر الدين فزع « الملسوع » بالنار فقال :

« لكن اصحابنا المجلدين انصار ما يسمونه بالادب الحديث يفرقون من ذكر الدين كأنما تسمعهم من اسم النار ، كذلك فزع احدهم بالمراق ، وكذلك يفزع هذا الآخر .. » .

وانا المقصود ولا ريب بالفزع الاول . والقارىء يذكر ان فزعي المزعوم هذا لم يكن من الدين ، فما فيه ما يفزع او يلسع ، وانما كنت اعترضت على اتحام الدين - بدون داع ولا مبرر ولا فائدة - في نقد

ادبي قاله الاستاذ سيد قطب حول بيت من ابيات الرافعي ، وجاء الاستاذ الطنطاوي يحوره ويتجه به نحو الدين كما يفعل الاستاذ الغمراوي الآن ، وكما فعل المرحوم الرافعي في كل نقد ادبي له ، وكما يفعل كل من يؤوده ان يكسر من شوكة هذا الذي يسمونه تجديداً او كفرا من سادتنا الرافعيين ! فما الذي يقصده الاستاذ الغمراوي بالفرع وما شأن الدين بكل شيء يتصل بالادب الحديث الذي يسمى الى التجديد والنهوض وتوسيع افق الحياة الادبية واخراجها من عصر الاجترار والتخلف ، الى عصر التمثيل والحيوية ؟ واذا كان الاستاذ الغمراوي يقول في مقاله الانقب الذكر :

« ان الفطرة كلها ينشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعالم والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة ، فلذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم اهلها وجب الا تخالف او تناقض دين الفطرة دين الاسلام في شيء » .

وهو بذلك يريد ان يحد من مفهوم الادب ، فما نصنع اذن بالادب الذي اقره العالم كله واهترف به ادبا سامياً ولم يكن مصدره الدين الاسلامي ، والذي لم يخلقه ادباء مسلمون ولم ياتلف مع قواعد الدين الاسلامي في شيء ؟ اقول ماذا نصنع بادب طلفور ، وملتون ، ودانتي وتورجنيف ، وايبنيز ، وابسن ، وموباسان ، وغوركي ، وهاوردي وجيتي ؟ بل ماذا نصنع بادب بودلير ، وافرلين ، ولورنس ، وجويس وهيكسلي ، ولوتي ؟ هل نرمي بهم في البحر ام نعترف بادبهم ؟ وهل يتفق ادبهم مع الفطرة ؟ وهل هو خير ام ادب الرافعي ؟

وحضرة الاستاذ يذكر ادب الايمان فهل يرى ان الشك لا ادب له وما قصده من التعريض بالايمان ، والشك ؟ والحوام حواشي الدين في كل مناسبة عرض لها في نقده وبحته ادب العقاد والرافعي ؟ هل يريد ان نفهم من اقواله ذلك ان العقاد ومن يرى رايه ملحدون لا ايمان ولا نور لهم يهتدون به ؟ وكيف يتسنى له ان يحكم هكذا بدون تدليل ؟

سيدي الاستاذ :

ان الاستاذ الفمراوي - وقبله الاستاذ الطنطولي - يريد ان يضع ما اسمه « الادب » على الرف ويريد ان يدخله في بوتقة الدين بوجه عام ، والدين الاسلامي بوجه خاص ، وفي هذا من الجنابة على الادب مقدار ما فيه من التجني على الدين واكثر . ولا اظن الاستاذ يخالفني في ان يتعرض له متعرض سلم من تهمة المروق ! فليفسر موقفنا كيف شاء ، وليس له فزعا وهلما ، فالحق ان الدين الاسلامي لم يدخله التأويل والخلاف من كل باب الا بعد ان اقحم في غير مجالاته ! وهو بعد مقحم اقحاما في موضوع الجدل هذا .

وما دام الاستاذ الفمراوي يرى انه فصل ادبياً في امر العقاد ومكانه من الادب الحديث ، فلماذا يريد ان يخرج من دينه فيقول عنه معرضاً : « ان الرافعي عنده نور يهتدي به ليس عند العقاد ؟ » .

وبعد فليكن الرافعي عند الاستاذ الفمراوي ما يشاء له ان يكون ، فان ذلك لا يمنع العقاد ان يكون هو الآخر حيث يشاء له الادب والحق ان يكون . ولسنا نعجب به لشخصه ، بل لانه يؤدي الرسالة عنا ، فما يقال فيا نحن انصاره والمجيبين به ، ولما اود ان اكرر ما سبق ان قلته وهو ان من الواجب اعتبار الدفاع عن العقاد دفاعاً عن مذهبه في الادب وفي الحياة لا دفاعاً عن شخصه ، فلسنا نملك حق الدفاع عنه .

وتقبلوا تحيات المعجب بكم

عبد الوهاب الامين

« بغداد »

المصدر : الرسالة . العدد ٢٧ . السنة السادسة . سبتمبر ١٩٢٨ .

القديم والجديد - ٢٩

- ٤٤٩ -

الدين والاخلاق

بين الجديد القديم

لأحد اساطين الادب الحديث

الظاهر ان الاستاذ الفمراوي رجل حسن النية صادق السريرة وقلت الظاهر لاني لا اعرفه ، ولا اريد ان اتعرض لنقده ما يسميه المذهب الجديد ، ولا للنزاع الثائر بين انصار الرافعي وبين انصار العقاد . ولو كان الاستاذ قد اكتفى بالنقد الفني وقصره على ذلك النزاع الفني لسلم من بعض الهفوات التاريخية والاجتماعية ، فقد قال ان نزعة التجديد يرجع اولها الى نحو ثلاثين سنة ، وقد ذكر فيما ذكر من التجديد اخذ الاداء الاوربية ، ولم يكتف بذكر ما اخذ منها مما هو في باب الآداب ، بل ذكر ايضا ، ما اقتبس من النظم والمبادئ الاجتماعية . وهذا الوصف الشامل للتجديد لا ينطبق على نزعة بدأت منذ ثلاثين سنة ، وانما ينطبق على النزعة بوجه عام منذ جاء نابليون الى مصر ، ومنذ عهد محمد علي باشا اسماعيل باشا ، ومنذ ادخلت المطابع وارسلت البعث العلمية واقتبست القوانين المدنية ، ونظمت المحاكم الاهلية التي صارت تحكم بغير احكام الشريعة الاسلامية ، وكثر نقل الكتب الى العربية والاستاذ الفمراوي يعيب على المجددين انهم يريدون رفض بعض احكام الشريعة ، ويذكر كيف ان بعض الكتاب يحبذ منع تعدد الزوجات . ويقول الاستاذ ان للدين وحدة تامة فلا يجوز اخذ بعضه وترك بعضه . ويا حبذا لو ان الاستاذ كان قد فصل هذه الناحية من التجديد في مقال مستقل عن النزاع على التجديد في معاني الشعر والنثر ، إذ ما صلة الدين قاموا باثشاء المحاكم الاهلية واحلوا احكامها

محل الشريعة الاسلامية ، وما صلة الذين يريدون منع تعدد الزوجات ومنع الطلاق ، بمعاني شكسبير والمتنبي وملتون وأبي المتاهية مثلا ، ولعل أكثرهم كانوا لا يهمهم النزاع الفني والادبي مطلقا . نعم إن الدين والاخلاق لها مظاهر في الشعر والنثر فكان ينبغي للاستاذ الفمراوي وقد حكم للمذهب القديم انه قوام الدين الاخلاق ، وحكم على المذهب الجديد انه بؤرة الالحاد والمجون ، ان يثبت هذا الزعم فينفي عن شعراء المذهب القديم كل كفر والحاد ومجون ، وينفي عن شعراء المذهب الجديد كل تدوين وايمان بالفضائل مستشهدا بأقوالهم من شعر ونثر فان هذه هي الطريقة الفنية للمفاضلة بين المذهبين من حيث الدين والاخلاق . وإن لم تخني الذاكرة فان الاستاذ قد لخص المذهب الجديد في الادب بأنه نزعة تغليب دين على دين . واذا كان لهذا القول معنى فمعناه ان أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب الديانة المسيحية على الديانة الاسلامية .

فاذا لم أكن مخطئا في هذا التفسير كان واجبا على الاستاذ ان يقيم الدليل على ان أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب دين على دين ، وقد نسي الاستاذ ان كثيرا من مظاهر الحضارة الاوربية الحديثة لا علاقة له بالمسيحية التي هي دين أكثر الاوربيين ، او لعل الاستاذ قد أراد أمرا آخر لم نفهمه . ولو رجع الاستاذ الى العصر الذي كانت فيه النزعة الدينية المسيحية متغلبة في أوروبا وهو عصر القرون الوسطى عصر التزهة والرهبة والتقشف لعلم ان المحافظين من رجال الدين والكتاب كانوا يخشون على الدين والاخلاق من غزل العرب ومجون شعرائهم وقصصهم ومن حرية افكارهم في المسائل الدينية والكونية ، وكانوا يرسمون الادب العربي بالاباحية في الاخلاق ، وكانوا يلومون الأبناء الذين كانوا يرسلون أبناءهم الى مدارس البلاد العربية كالاندلس وصقلية ؛ فلم يكن عداؤهم للكتب العربية الدينية فحسب ، بل كان عداؤهم للكتب الادبية العربية والفكرية اشد . وموقف هؤلاء المحافظين من الادب والفكر العربي كان أشبه بموقفهم من الادب والفكر الاغريقي القديم . وهذه الحقيقة ينبغي ان تنبه الاستاذ الى ان الدولة العربية الاسلامية لم تلبث على الفطرة السليمة وعلى حالها من الادب كما كانت في صدر الاسلام مثلا بل دخلها

الترف وتفشت فيها لذائد الحضارة وكثر المجون في اقوال الشعراء والكتاب وبقيت اصناف المجون والالحاد مخطوطة الى عهد أن دخلت المطابع البلاد العربية الاسلامية . ولا احسب أن أهلها كانوا على فطرة يخشى عليها من تلك الكتب فان حالة الاخلاق في عهد دخولها لم تكن ارقى مما هو موصوف في تلك الكتب الا في اوساط محدودة معروفة بالنزاهة والعفة والاستقامة وصدق القول والعمل ؛ وكان يضرب بها المثل ؛ وكانت كالشامة البيضاء تنمت نفسها لوضوحها في الجلدة السوداء . ولا تنس أن البدو كانوا بطبيعتهم يكرهون الضوابط والروادع أية كانت ، فسرهم ما حثتهم الحضارة والذائدها على التحلل من روادع الدين . وقد بدأ المجون يعود الى استفعاله بعد عهد قريب من صدر الاسلام ، وبلغ أشده في الدولة العباسية ، وكان مصحوبا في كثير من الاحوال بالكفر والزندقة والالحاد ، وكان كل منهما في بعض الاحيان مستقلا عن الآخر ، فقد كان بعض الملحدين من أشد الناس فهلا ومحافظة على الفضائل كما كان العربي مثلا .

يقول الاستاذ إن المذهب الجديد في الادب الذي يقول عنه الاستاذ إنه بدأ منذ ثلاثين سنة خطر على الاخلاق والدين ، فهل يستطيع الاستاذ أن يأتي بأبيات من شعر هذا المذهب الجديد في شناعته كأبيات ابن الرومي النونية التي يقول فيها :

صوت يد المعجّن في المعجّن أو صوت رجلي عامل في طين

وهي أبيات قد اختارها له السيد توفيق البكري في كتاب (صلهريج اللؤلؤ) الذي ألفه كي يقرأه الناس رجلا ونساء وفتيانا وفتيات ، والبكري كما يعلم الاستاذ الفمراوي كان شيخ السادة البكرية ورجلا من رجال الدين والفضل ومن أدباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتحرج من اطلاع سيدة أو فتاة فاضلة على ما في كتابه هذا من المجون الشنيع . ولأن يعطي الاديب من أدباء المذهب القديم أي قول قاله شعراء وأدباء المذهب الجديد لأخته أو لفتاة من أقربائه لتقرأه ؛ لا صون لها ولا خلافتها

من ان يعطيها كتاب صهاريج اللؤلؤ هذا الا اذا طمس المجون قبل ان يقدم اليها الكتاب . وقد طبع الشيخ شريف جزئين من ديوان ابن الرومي في أحدهما أرجوزة مطلعها : (رب غلام وجهه لا يفضحه) وفيها يصف طرق اللواط في اوضاع وأشكال مختلفة . وقد عني الشيخ شريف بشرح لفظه ومعناه كما عني السيد توفيق البكري بشرح الابيات النونية . والشيخ شريف كان مفتش اللغة العربية وأديبا من ادباء المذهب القديم ، ولكنه لم يتخرج كما لم يتخرج البكري من شرح وطبع هذا المجون وايضاح معناه كي يقرأه ويفهمه الفتيان والفتيات ، فاي اديب من ادباء المذهب القديم يرى ان يعطي اخته أو اخاه الصغير هذا الكتاب ، أو ان يعلمهما على قصيدة ابن الرومي أيضا في (ديوان) . أو على ديوان ابي نواس أو على ما في كتاب الاغانى أو كتب يتيمة الدهر للثعالبي من مجون لا تسمح أية دولة أوروبية بنشره ، بينما ادباء المذهب القديم يشرحونه ويطبعونه ويستطونونه في مجالس أنسهم ويضحكون تفكها به ، حتى اذا جاء ذكر ما يسمى بالمذهب الجديد وأثر الادب الاوروي فيه اخلتهم رعدة الغضب وادبعوا أن المذهب القديم عماد الاخلاق والدين ، وأن المذهب الجديد يؤر المجون والاباحية والالحاد . ان المسألة بسيطة والامر هين . نستطيع أن نطبع على الناحية اليمنى من صفحات المجلة ما نجده من مجون واباحية شعراء المذهب القديم في العصور المختلفة حتى عصرنا هذا ، وعلى هؤلاء الادباء أن يقدموا ما يستطيعون أن يعثروا به من اقوال ادباء المذهب الجديد لتطبع في الناحية اليسرى من المجلة . لا شك ان ادباء المذهب القديم يتهرون من مثل هذه المقابلة كل التهرب . وما يقل في كتب المذهب القديم الادبية يقل أيضا في كتب التاريخ . انظر بالله الى الابيات التي زعموا أن مسيلمة الكلاب بعث بها الى سجاح المتنبة والتي فيها (وإن شئت . . . وإن شئت) كيف يستطيع اديب من ادباء المذهب القديم ان يطلع اخته أو بنته أو قريبة له من الفتيات على هذا الشعر ؟

ثم انظر الى ذكر الفحش وقصصه ونظم الهجاء فيه شعرا تجد ان ادباء ما يسمى بالمذهب القديم في كل عصر حتى عصرنا هذا كانوا أكثر حظا منه . ولا أعني جميعهم ، ولكنهم حتى الافاضل منهم قد وجدوا

هذا الأسلوب من القول عادة صقلها الدهر وهون أمرها فأصبحوا لا يجدون خطراً على الاخلاق في نظم الهجاء فحشاً ولا في التحدث عنه ، ولكن الخطر كل الخطر هو تأثير الادب العربي بنواحي القول كما وردت في كتب الادب الاوروبي .

وبعد فاي ادب اوروبي يعنون ؟ لقد تقلبت على الدول الاوروبية عصور اتخذ الادب في كل منها نزعة خاصة ، ولكنهم اذا تكلموا عن الادب الاوروبي خيل للقارئ أنهم يعدون جميع الادب الاوروبي في عصوره المختلفة على طراز واحد وأنه مأوى المجون والاباحية والزندقة . ان عصور الادب الاوروبي تختلف اختلافاً يجعل بعضها اقرب الى بعض الادب العربي منها الى عصور أخرى من عصور الادب الاوروبي ، فالادب الاغريقي في سهولة معانيه وخيالاته اقرب الى الادب الجاهلي العربي منه الى الادب الرمزي الاوروبي الحديث . والادب الاوروبي الحديث في حرية الفكر اقرب الى الادب العباسي العربي منه الى الادب الاوروبي في القرون الوسطى . فالذا كان بعض الادب الاوروبي الحديث قد دها بعض ادباء المذهب الجديد الى إيهام الايجاز والصور المتدخلة بعضها في بعض وإلى غموض الرمزية فقد ألف بعض ادباء المذهب القديم على هذه الطريقة في إيهام الايجاز من غير أن يطلعوا على الادب الاوروبي . انظر مثلاً الى ايجاز الرافعي في كتاب (حديث القمر) والكتب الاخرى التي كتبها ، وكأنه لم يكتبها الا لكي يشبث أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور ادباء أوروبا والمذهب الجديد وأنه أغنى منهم بمعانيه كما أنه أغنى منهم بأساليبه اللفظية الفصيحة العربية ؛ ولكن فصاحة لفته العربية لم تخف الحقيقة الفنية ، وهي أن الرافعي صاحب (حديث القمر) و (السحاب الاحمر) اقرب الى ادباء الرمزية الاوروبيين منه الى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن) واقرب الى ادباء العربية الاقدمين من الرافعي صاحب (حديث القمر) وأعني القرب في أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في اختها . فالذا أراد اذا ناقد أن ينتقد المذهب الجديد او الادب الاوروبي كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يعبه فيه على طريقة النقاد الفنيين

فيبين الغث من السمين ويوضح أسباب حكمه على كل قول وكل أديب .
 أما أن يقول أن الأدب الأوروبي كأدب المذهب الجديد فإسك المعنى
 والخيال ينبو عنه الذوق العربي وتمجده الفصاحة العربية ، وأنه مباءة
 المجون والإباحية والزندقة ، فقول من لا يريد أن ينقد ولا أن تقدر
 قيمة ما يقول قدرا صحيحا ، ولا أعني الاستلزام الفعراوي فإن هذه أحكام
 شائعة . نعم أن بعض الأدب الأوروبي ولا سيما الحديث منه يحث أدباء
 العربية على بعض ما يخالف العرف والتقاليد الإسلامية ، ولكن ليس
 في قول شعراء العرب وأدبائهم في كل عصر أشياء كثيرة تخالف العرف
 والتقاليد والآداب والأخلاق الإسلامية كما أوضحنا بالشواهد ؟ ونعترف
 أن في بعض الأدب الأوروبي الحديث ما يحث على الإلحاد ، ولكن ليس
 في أقوال زنادقة الدولة العباسية وفي لزوميلت رجل فاضل كالمصري
 ما لا تسمح الحكومة بنشره لو أن أن أحد شعراء المذهب الجديد كان هو
 قائله ؟ ولكن أقوال أدباء الدولة العباسية والمصري أقوال صقلها الدهر
 واعتادها الناس فلا بأس من أن يتفكه بها أدباء المذهب القديم في
 مجالسهم ولا بأس من نشرها وإبداءها مكتبات المدارس .

وكما أن بعض الأدب الأوروبي أقرب إلى بعض الأدب العربي منه
 إلى عصور أخرى للأدب الأوروبي فكذلك بعض أدباء المذهب الجديد أقرب
 إلى أدباء المذهب القديم منهم إلى أدباء آخرين من أدباء المذهب الجديد ،
 فأدباء المذهب الجديد اليوم أكثر حرية في القول وأكثر نصيبا من الرمزية
 من أدباء المذهب الجديد الذين ظهوروا منذ ثلاثين سنة .

(قاري)

الرسالة : العدد ٣٦٨ - ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٩ . المقال الأول في سلسلة مقالات
 في الرد على مقالات الفعراوي .

القديم والجديد

لإستاذ محمد أحمد الفمراوي

أحس أن عليّ ديناً لقراء الرسالة يجب الوفاء به ، فقد كنت وعدت إذا زال الحائل الذي كان يحول بيني وبين الكتابة أن أعود فأفصل ما أجملت في خطابي الذي نشرته الرسالة وتقيدت فيه بذلك الوعد . وما أجملت هناك وأريد الآن تفصيله ، هو أن ما فهمه الأستاذ (قاري) من بعض كلماتي ، وانتقده في مقالاته « الدين والاخلاق بين الجديد والقديم » (١) شيء آخر غير ما أردته بما كتبت ، وأريد الآن أنه شيء آخر غير ما تفيده تلك الكلمات .

وليس الذي يدعوني إلى الكرة بعد تلك الفترة مجرد حب الوفاء ، ولا مجرد الرغبة في أن أبين أنني أصبت ولم أخطئ ، فالإنسان يخطئ ويصيب ، ولا غضاظة على المخطئ ما دام يخلص النية ويبتغي وجه الحق . إنما أكبر ما يجعلني أحرص على الرد هو الرغبة في تصفية مسألة القديم والجديد مرة أخرى — فقد صفتها قبل ذلك في بعض فصول كتابي النقد التحليلي — ليتبين وجه الحق فيها عسى ألا يعود أحد يتخذ بما بين لفظي القديم والجديد من تفاوت ، فيؤثر في المعنويات الجديد لجذته على القديم لقدمه ، كما تعود أن يؤثر في الملايات الجديد على القدم في الماكل والمسكن واللباس .

(١) انظر الامداد ١١٤٣ ، ١١٨٤ ، ١٢٩٧ ، ١٢٦٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٤١ ، ١٤٧٧ (من الرسالة) .

والنقد الذي كتبه الاستاذ (قارىء) ، وصدر فيه عن أدب جم
موجه الى كلمتين اثنتين من كلماتي : الى الكلمة الاولى التي قدمتها بين
يدي ما كنت أريد من كتابة حول أدب الرافعي ، وإلى بعض الكلمة
السابعة التي جعلتها خاتمة تلك الكلمات . ويظهر أن الاستاذ حين بدأ
يكتب ، كتب عفو الساعة من غير أن يرجع الى الكلمة المنقودة وإلى
أخواتها أن لزم ليستوثق من أن المعنى الذي في ذاكرته هو حقاً المعنى
المقصود بالكلام المنقود ، فقد كان مر على الكلمة الاولى المنقودة بضعة
أسابيع حين كتب الاستاذ .

ثم يظهر أن تلك الكلمة الاولى من كلماتي صورت مسألة إقديم
والجديد صورة غير مالوفة . فلم تقصرها على ميدان الأدب ولكن عدتها
الى ميدان الاجتماع ، ثم جعلت من الميدانين ميداناً واحداً ، ومن حركة
النزوع الى الجديد في كل منهما حركة واحدة تشملهما جميعاً هي حركة
الانصراف الى جديد الغرب ولو استلزم ذلك الانصراف عن قديم
القرآن .

لكن هذا التصوير أقرب الى صميم الامر وإن كان تصويراً غير
مالوف . غير أن قربه من الحق لا يتبين حتى تتبين حدودتيك الحركيتين
الادبية والاجتماعية اللتين ركبتا معاً في حركة واحدة حين صورتا
ذلك التصوير .

وأول هذه الحدود وأوضحها أن تكون الحركة العلمية او الصناعية
غير داخلة في تينك الحركتين ، فإن الأدب والاجتماع غير العلم والصناعة
بالبداية . وأذن فلا محل للرجوع بحركة الجديد الى عهد محمد علي
كما يريد الاستاذ (قارىء) لان عهد محمد علي فيما نعرف لم يأخذ عن
الغرب الا علمه وصناعته ، ولم يمس التنظيم الاسلامي الاجتماعية في كثير
ولا قليل .

واحد آخر من حدود حركة الجديد التي أردناها : أن روحها يخالف
روح الاسلام في الصميم . من أجل ذلك أخرجنا منها حركة التجديد

التي قام بها الإمامان جمال الدين الافغاني ومحمد عبده كما هو صريح مقالنا الاول الذي نقده الاستاذ من الذاكرة من غير رجوع اليه . وهذا الحد الثاني كاف وحده في اخراج عهد محمد علي مرة اخرى من نطاق البحث ، واخراج كل حركة جديدة تتفق مع الدين .

وحد ثالث من حدود حركة الجديد التي ارحنا لها : انها حركة افراد لا حركة حكومات ، اللهم الا أن تكون حركة الحكومة نتيجة من نتائج انتشار حركة الافراد كما حمل أصحاب الحركة النسوية مثلا الحكومة المصرية على تحديد سن الزواج . ولم يخطر ببالنا أن ننبه بهذا الفارق حين كتبنا ما كتبنا ، لاننا أولا لم تكن بصدد التاريخ للجديد على اطلاقه ، ولكن كنا بصدد الكلام على حركة صارت بعد مذهبها اهتمته افراد دعوا اليه وثاروا على دعوتهم حتى انتشرت وصار لها من السلطان ما لها اليوم - ثانيا - كان واضحا من سياق ما كتبنا ومن الظرف الذي دعا الى الكتابة ومن بعض عبارات فيها مثل : « ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما اثارها في الناس نفر تشقوا ثقافة غربية من غير أن يكون لاكثرهم من الثقافة الاسلامية نصيب مذكور .

وهذا ، وغيره لا يدع مجالا للشك في أن المقصود هو مسألة القديم والجديد التي ثارت بين الناس والتي لا تزال موجودة بيننا فهذا الحد الثالث كاف هو أيضا لأن يخرج من نطاق البحث كل حركة لم يقم بها فرد أو أفراد ولم يعتنقها جمهور من الناس . وأذن فالحركة التي قصدنا بالنقد والتي قدونا عمرها ثلاثين عاما هي حركة قائمة بيننا الآن لا ترجع الى عهد نابليون في مصر ولا الى عهد محمد علي ولا الى عهد اسماعيل ، ولكن ترجع في رأينا من الناحية الأدبية الى العهد الذي كان هيكلا وأمثاله يكتبون فيه في « الجريدة » ، ومن الناحية الاجتماعية الى العهد الذي كتب فيه قاسم أمين وأصدر فيه كتابه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .

والعهدان في الحقيقة عهد واحد يظللهما زمن واحد هو زمن اشتداد الحركة الوطنية الاولى حوالي ١٩٠٨ او قبلها بقليل . ومن هنا أمكن تقدير عمر واحد للحركتين اللتين بدأتا في الادب والاجتماع حوالي ذلك التاريخ ، واللّتين جعلنا منهما حركة جديدة واحدة عمرها بالطبع عمرهما، وهو تقدير طبيعي كما ترى لا عوج ولا تكلف فيه .

والاستاذ قارىء لم ياخذ علينا مخالفة للواقع فيما يتعلق بالحركة الادبية من تقديرنا ذلك ، فهو يوافقنا فيه وإن كان بعض ما كتب في مقاله الخامس (١) يدل على أنه يميل الى جعل عمر حركة الجديد في الادب اقل من ثلاثين . أما من الناحية الاجتماعية فان التاريخ لحركة الجديد فيها بظهور كتابي قاسم أمين امر معقول . فقبل قاسم لم يدع مسلم في عصرنا الحديث في هذا الميدان ، ولم يحاول مسلم أن يدعو الناس في ميدان الاجتماع الى مخالفة ما جرى عليه العمل في زمن الرسول صلوات الله عليه في مسألة الحجاب مثلاً والسفور . وإذا كن هناك من المسلمين او غير المسلمين من سبق قاسماً الى مثل ما دعا اليه فانه لم يترك أثراً في الناس في مصر كما ترك قاسم ، ولم يستهو نفراً الى مذهبه كما استهوى ، ولم يبدأ حركة كبرت بعده حتى جاوزت كل ما كان يدور له في حسيبان . فقاسم اولى الناس بأن يبدأ بكتبه تاريخ حركة الجديد مما يخالف الاسلام في ميدان الاجتماع .

والحركة التي بدأها قاسم لم تكن لتبلغ ما بلغت وتستشري كما استشرت لو لم تجد من الحركة الجديدة في الادب مؤيداً وظهرياً . فانك اذا تتبعت الحركتين وجدتهما سائرتين جنباً لجنب تأخذ احدهما بيد

(١) نشير الى قوله « ولما انا وجئنا الى ما الف من المقالات والكتب منذ ثلاثين سنة ما وجئنا الا لهذا الاصطلاح : اعني اصطلاح تقسيم الادب الى جديد وقديم ، وانما كان الشعراء الذين يسمون الآن أدباء المذهب الجديد يدعون الى نبد شعر الغزل المتكلف الخ » .

أختها تقيها العثرة وتثبتها في «المعترك» ، وانك لو اجد أن الصحف التي
 ظهرت إحدى الحركتين هي نفس الصحف التي ظهرت الأخرى ،
 وأن أنصار الجديد في الأدب كانوا ولا يزالون هم أنفسهم أنصار السفور
 من قبل وأنصار الاختلاط وما إليه اليوم . كانت الجريدة في مبدأ
 الحركتين لسان الدفاع عن كليهما والدعوة إليهما ، ثم كفت جريدة
 « السفور » ، ثم « السياسة » ، ثم « السياسة الأسبوعية » وغزوا
 أنصارهما الصحف الأخرى وخللهم الجو لما غاب « المؤيد » و « اللواء »
 وصارت الدعوى الجديدة هي البدع و « الموضة » فمن لم يقل بها عن نية
 واعتقاد قال بها كيلا يوصف بالرجعية والجمود . وليس يهم الآن تحليل
 ذلك ، إنما المهم تأكيد ما كان بين الحركتين من اتصال وتلاقح وتعاون ،
 فالحركة الجديدة في ميدان الاجتماع اعقبت لونا جديداً من الأدب لم
 يكن موجوداً قبلها . يصح أن يسمى بأدب السفور ، والحركة الجديدة
 في ميدان الأدب مهما يكن أصل نشأتها ، قد امتزجت بعد بالحركة
 الاجتماعية الجديدة المتفاقمة واستوحت منها أكثر وحيتها لأن روح كل
 منهما مستمدة في صميمها من روح الغرب لأن من روح الإسلام . ومن
 يكن في شك من هذا فليرجع مثلاً إلى مجلدات « السياسة » و « السياسة
 الأسبوعية » قبل ظهور كتاب « حياة محمد » ، فسيتجلى له المذهب
 الجديد في الأدب والمذهب الجديد في الاجتماع قد اتحدا في حركة
 واحدة شاملة تنبض بروح الخلاف للإسلام ، لأن أصحابها لجهل أكثرهم
 بالإسلام صدقوا ما زعمه لهم الغرب من أن الإسلام هو سبب تأخر
 المسلمين .

وإذا كان من رجال الحركة الجديدة في الأدب من لم يناوئ الإسلام
 مع الغرب ومشايخه من أهل الحركة الجديدة في الاجتماع فلم يتخذ من
 وحيتها وحيه في كتاباته ، ولم ينجر معها إلى آخر الشوط الذي جرت

وتجري اليه ، فلن هؤلاء نفر جد قليل . والنظر الى صميم الامر
لا يستطيع ان يحكم على حركة الا بما يقلب عليها ، وسيجعل لذلك
القليل مخرجاً ان امكنه ولو بتقسيم آخر . ونظن اننا فعلنا ذلك
بالحد الثاني من الحدود التي فصلناها آنفاً ، وبما سنبينه ان شاء
الله في مقال تل .

محمد احمد الفمراوي

المصدر : الرسالة ، العدد ٢٨٧ - ٢ يناير ١٩٣٩ - المقال الاول من سلسلة مقالات
في الرد على سلسلة المقالات الموقعة باسم « قارىء » .

بين القديم والجديد

(لأحد أساطين الأدب الحديث)

يجمع الأستاذ الغمراوي في نفسه من صفات الخلق العظيم ما لا يتفق الا للقليل من المهلبين الأفاضل ، فهو يغار على الفضيلة والدين ويجمع الى غيرته لطف المناظرة والإصاف وآداب الحديث والمجادلة بالتي هي أحسن ، وهذه رعاية من الله ، نرجو أن يديم الله عليه نعمته وقد ظهر عدل الأستاذ وإنصافه في اعترافه بأن في الأدب القديم أكثر مما يشكو منه مما في الأدب الحديث ، وفسر القديم بأنه ليس القدم الزمني فالقديم والحديث في اصطلاح الأستاذ صفات لا تدل على الزمن ، وضرب بشعر عمر بن أبي ربيعة وقال انه لو كان في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لشفاه بسبب غزله فعمر بن أبي ربيعة اذاً على قدمه الزمني ليس من المذهب القديم في الشعر على حد اصطلاح الأستاذ ، ان القديم في اصطلاح الأستاذ هو من لم يقل غزلاً يثير شجون النفس وشهواتها وتعلقها بفتنة الحسن . وليعذرني الأستاذ اذا قلت انه يصعب عليه ان يجد شاعراً واحداً يصح ان نطلق عليه اصطلاح القديم في عرفه ، فهذا الرافعي على تقواه ودينه وفضله له في الغزل نثراً وشعراً أشياء (أشهى) من شعر عمر بن أبي ربيعة . ألم يقرأ الأستاذ الغمراوي للرافعي واصفه للراقصة ومحاسن جسمها وقصته معها ؟ ومع ذلك فالأستاذ الغمراوي يقول إن أدب الرافعي يمثل القديم في اصطلاحه ، مع ان الأستاذ الغمراوي لو كان خليفة وعرض عليه غزل عمر بن أبي ربيعة وبعض ما قاله الرافعي شعراً ونثراً في الغزل ووصف مغائن الحسن ولذة التقبيل ومحاسن جسم المرأة لأمر الأستاذ بنفي الشاعرين:

ابن أبي ربيعة والرافعي معا . وإذا كان الأستاذ في شك من أن الرافعي له أشياء أشهى من أشياء عمر بن أبي ربيعة ذكرنا له طرفاً منها ورضينا بحكمه وهو أعدل الحاكمين من الناس . بل نحن نترك للأستاذ الخيار فليختر أي شاعر ونحن نوود له ما يستحق به النفي ولو وكل الأمر إلى الأستاذ الغمراوي في نفي الشعراء ونورد ما يستحق به النفي ونقارنه بما استحق به عمر بن أبي ربيعة النفي ونقبل حكم الأستاذ الغمراوي في المقارنة وهو خير لحاكمين .

إننا ما أردنا أن نملر شطط المتأخرين بشطط المتقدمين كما ذكر الأستاذ وإنما أردنا أن نبين أولاً أن النفس البشرية واحدة في كل زمان ومكان مهما اختلفت الفروق الظاهرة وبالرغم من شذوذ الأحاد بالنقاوة النادرة أو النجاسة البالغة النادرة . وأردنا أن نفسر أثر المتقدمين في أقوال المتأخرين وأن نقول أن الشطط في وصف المفاتن وفي شرح الشكوك النفسية لم يأتنا من ناحية الأفرنج وحدهم بل جاءتنا به مؤلفات العرب ولا سيما عندما 'دخلت' الطباعة وطبعت المخطوطات العربية القديمة والحديثة . على أن النفس الإنسانية يا سيدي الأستاذ ينبوع يفيض بكل ذلك من غير حاجة إلى كتب العرب أو كتب الأوربيين ؟ وإن شله الأستاذ فليتردد أماكن الناس الذين لم يتأثروا كثيراً بكتب العرب ولا بكتب الأفرنج وليسمع هواجس نفوسهم .

على أن في ذكر الأستاذ التجاء عمر بن الخطاب إلى النفي ما يدل على أن النفوس في عهد عمر رضى الله عنه لم تكن تمتنع عن التعلق بمفاتن الحسن ومحاسن الحياة ، ولعل الأستاذ قد أذكرته التجاء عمر إلى النفي قصة سماع عمر غناء التي تغنت بهذا البيت :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فنفي عمر رضى الله عنه نصرأ هذا . ولو رجع الأستاذ إلى ما قبل سيدنا عمر وتلبر حكمة الآية الكريمة التي تنهى الناس عن قرب الصلاة

وهم سكرى لراى عبرة تسلك النفوس البشرية في كل عصر في صعيد واحد بالرشم من تفاوتها . واستحلف الاستاذ ان يحكم على تلذذ كعب بن زهير بذكره كبر عَجَزٍ حبيته في قصيدة (بانث سعاد) عندما قال (هيفاء مقبلة عجاء مدبرة) وتلذذه بذكره كبر العَجَزِ في قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وهي قصيدة يتبرك بها بعض الناس ، وبعضهم يتخذها حجاباً وتميمة بما فيها من التلذذ بذكر كبر العجز من غير فطنة الى ما فيها ومع ذلك قد مر النبي صلى الله عليه وسلم بغزل كعب هذا من الكرام بما كان يدعو اليه من العقيدة السمحة وتآلف النفوس ومعرفته ضعف النفس واقصورها . فلماذا كان يصنع الاستاذ النمرائي لو ان شاعرا مدحه بقصيدة تغزل في اولها وتلذذ في غزلها يذكر كبر عَجَزٍ حبيته ؟ هل كان يتفاضى كما تفاضى النبي صلى الله عليه وسلم ام كان ينفيه كما اراد ان ينفي عمر بن ابي ربيعة ؟ ولماذا كان يقول الاستاذ لو ان شاعراً انجليزيا مدح ملك انجلترا ومقام الملك دون مقام النبوة فقال الشاعر في قصيدة « ان حبيبتى يا كنج جورج لها عجز كبير » اننا يا استاذ نضرب هذه الامثال لنبين ان الناس ناس في كل زمان ومكان . وبان النفس البشرية واحدة فمهما تباينت واختلفت صفاتها . ولو كان الاستاذ في شك من ذلك فليراجع ديوان حسان بن ثابت فيراه في قصيدة يتهم ابا الوليد ابن المغيرة بمحبة غلام رومي جميل كان مملوكاً له ، وبانه علق صورة الغلام كي ينظر اليها اذا غاب عن نظره ، ويتهم امه بمحبة الغلام ايضاً (صفحة ٣٢٩ طبعة السعادة شرح العباني) ولو رجع الاستاذ الى كتاب (العقيد الفريد لقرا ان سائلا سأل ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم على قول المجون ينقض الوضوء ؟ فقال لا ، وانشد بيتاً فيه مجون وكانت قد حانت الصلاة فقام وصلى للدلالة على ان شعر المجون لم ينقض وضوءه . وفي حالة اخرى سمع وهو يحلو بيت فيه مجون . ولو تقصى الاستاذ اخبار سبي الرقيق من الملن الفارسية والرومية التي فتخت عنوة والثر ورود هذا السبي الى شبه جزيرة العرب ، وما كان يرد قبله من جلب تجارة الرقيق قبل الاسلام لعلم ان الولوع بمفاتن الحسن لم يكن مقصوراً على الشعراء المتقدمين او المتأخرين

للتعبير عن النفس والحياة وعواطف النفس واحاسيسها فيهما ، فتحجر الصنعة من غير بحث في النفس قيد ، والتخلص من جمود ذلك التحجر حرية ، وهي الحرية التي اردناها في قولنا . وقد فسرنا ذلك باطالة ونحن لا نريد ان نعد حالة الناس في عصرنا . فلعل التعلق بمفاتيح الدنيا في عصرنا اضر وافسد اذ ان القوى الحيوية الخلقية العظيمة في تقوى المتقدمين كانت تستطيع موازنة ضعفه هذا التعلق وانعدام هذه القوى الخلقية الحيوية في عصرنا يزيد ضرر التعلق بمفاتيح الحسن وشهواته . ونعلم ذلك ونوافق الاستاذ على ضرورة معالجة هذه المسألة ، ولكن لا يكون ذلك الا بالتربية وتطهير الكتب ولا سيما القديمة . اما اننا رجعنا الى مبدأ نهضة التجديد فلاستلنا نفسه يعترفه بأن التجديد في الادب روح لا قالب ، وأن هذه الروح مستمدة من نظام التعليم الحديث ، ومن الانظمة التي اقتبست من الانظمة والشرائع والسنن الأوروبية ، ومن البعثات العلمية الى اوروبا واثرها في النفوس ، ومن الكتب التي ترجمت ، وما دامت المسألة مسألة روح لا قالب فلا يستطيع الاستاذ فصل التجديد في العلوم والتعليم والنظم والشرائع عن التجديد في الادب وهو لم يحاول ان يفعل ذلك . اما اننا فسرنا قوله : (تغليب دين على دين) بغير ما اراد فعلدنا في ذلك انه كان يقارن بين الثقافة والحضارة والدين عند العرب وعند الأوروبيين فلم يخطر ببالنا انه يعني بالدين عند اطلاقه على الأوروبيين معنى الضلال والباطل وانما ظننا انه يعني دينهم ولنا العذر أو بعض العذر وأما قول الاستاذ إن حافظ ابراهيم رجع بالفزل الى طريقة الجاهلية وصدور الاسلام اي طريقة الفزل بالعاطفة كما فعل العدريون فهذا ما لا يقول به حافظ نفسه ولم يقل به اديب قبل الاستاذ والاصح وهو ما قلناه من ان البارودي وشوقي وحافظ انقلوا الاديب من طريقه ابن حجة الحموي و خليل بن ابيك الصفدي وصفي الدين الحلبي واشباههم ورجعوا به الى طريقة مسلم بن الوليد وابي تمام والبحثري وحسبهم هذا فخراً . وقد جعلنا أكثر قولنا في التجديد في الشعر لان الباعث على مقالات الاستاذ كان شعر الرافعي والعقاد ، ولم نقصر التجديد على محاولة ادخال العاطفة كشرط اساسي في الفزل بل قلنا انها شرط اساسي في كل شعر ، وان الصنعة لازمة ، ولكن كخادمة

وأوضحنا ان هذه الحرية ليس معناها التخلص من قيود العرف او الدين
فنرجو الاستاذ ان يرجع الى ما فصلنا من الكلام عنها . وقد اعترفنا
للاستاذ بما في نزعة التجديد من عيوب وحبلا لو رجع الاستاذ الى ذلك
التفسير والتعليل ، وقلنا انها عيوب عارضة وليست كل شيء . اما
المسائل الاجتماعية التي ذكرها الاستاذ فهي امور يختلف فيها الادباء
وغير الادباء ويختلف فيها الناس في كل عصر ، ولو شاء الاستاذ لذكرنا
من اقوال كتاب العرب وشعرائهم ما هو اشد من اقوال طه حسين وهيكل
وقاسم امين ومن القريب ان الاستاذ لا يرى حرجا في الاقتباس من
علوم اوربا ويرى حرجا في الاقتباس من ملابهم وابواب ادبهم ، واذا
كان هناك حرج فالحرج في الحاليتين .

(قاري)

المصدر : الرسالة ، العدد ٢٩٤ - ٢٠ فبراير ١٩٣٩ - والرد حلقة من سلسلة
مقالات في الرد على ردود القراوي .

بين جيلين

للاستاذ محمد عبد الواحد خلاف

بين الجيل القديم الذي ذهب أكثره ولم تبق منه إلا قلة أخذت في التناقص ، والجيل الحديث الذي يتكاثر عدده - وتزداد على الأيام قوته ، شقة واسعة ، وتباين بعيد في النظر إلى الحياة ، يجعل منهما معسكرين متنازعين ، تشتد بينهما الخصومة حيناً ، وتضطرهما الظروف أحياناً إلى التهادن ، وفي نفس كل منهما ضيق بصاحبه ، وتبرم بأساليبه .

وقد يكون النزاع بينهما هو النزاع الأبدي بين الشباب والشيخوخة ، ولكن يزيده حدة ما يصحب أدوار الانقلاب الاجتماعي السريع عادة من هزات تزلزل أركان المجتمع وتطفر بالانتقال .

وكاتب هذا المقال وإقرانه في العمر ، من البلديين في الكهولة ، تربطهم بالجيل الماضي خيوط فضية تسلك إلى رؤوسهم ، وشيء من الضعف دب في أوصالهم ، وتربطهم بالجيل الحديث بقية نضرة في وجوههم ، وبعض الفتوة والنشاط في حيوياتهم ، فهم يقومون في البرزخ الذي يفصل بينهما ، يتصلون بأواخر جيل ، ويلحقون بأوائل الجيل الآخر ، وهم بهذا يجمعون شيئاً من خصائص الجيلين ، ويدركون وجهات نظر الفريقين ، ولا تغيب عنهم فضائل كل جيل ونقط الضعف فيه .

ولعلنا بهذا الوضع أقدر على أن ننصف كل فريق من صاحبه ، وأن نطلع كلا على ما تخفيه حدة النزاع من حقيقة حاله ، من غير تجن أو محاباة ، وقد يكون لهذه الموازنة الصريحة بينهما بعض الأثر في إعادة التفكير ، وتعديل بعض الاتجاهات لما هو خير .

... من أقوى العوامل التي باينت بين الجيلين، بعد ما بين نشأتيهما ،
 وشدة الاختلاف بين الظروف العامة فيهما . فالجيل القديم نشأ في الثلث
 الآخر من القرن الماضي، والجيل الحديث نشأ وقد انفرط من القرن الحاضر
 عقد أو عقدان ، وشتان ما بين الفترتين .

حسبك أن توازن بين وسائل النقل والحركة في العهدين والسرعة
 التي أصبحت تدور بها عجلة الحياة ، بعد أن كانت تسير في رفق وأناة .

وحسبك أن ترى ما هياه العلم الأبناء الجيل الحديث من شتى الوسائل
 التي يسرت لهم الحياة ، ووفرت لهم الدعة وأراحتهم من كثير من المشقة
 والجهد ، وتقرن ذلك إلى ما كان أبناء الجيل الماضي يكابدون في سبيل
 توفير أيسر الضروريات من نصب وعناء ، وكيف كانوا يشقون طريقهم في
 الحياة في مجاهل وعرة وأدغال مظلمة .

وحسبك أن تقدر ما حفلت به المدة التي انقضت من هذا القرن من
 أحداث عالية كبرى ، وانقلابات فكرية خطيرة ، واختراعات لم يمتد
 لتصورها خيال ، وغدا تتمخض الدنيا عنه كل يوم من تغيرات فجائية
 متلاحقة في عالم السياسة والاقتصاد ، وأن تتأمل ما كانت عليه الحياة في
 أواخر القرن الماضي من ثبات واستقرار وهدوء نسبي وبطء في التطور .

حسبك هذا أو بعضه لترى أن الجيلين وقعا تحت مؤثرات متخالفة
 وظروف متباعدة من شأنها أن تباين بين ميولهما ونزعاتهما وأخلاقهما
 وطرق تفكيرهما وأن تسلك بكل منهما مسلكا خاصا لا يتفق مع مسلك
 الآخر .

أضف إلى هذا أن أبناء الجيل القديم قلموا والدنيا مذبذبة والزمان
 متنكر لهذا البلد ، وشهدوا محنة قومية جرحت عزة الوطن وأخمدت
 جذوة الآمال فيه ومكنت للأجنبي أن يبسط سلطانه ويفرض إرادته .
 وأبناء الجيل الحاضر جاءوا والدنيا مقلبة ، والآمال الوطنية تنتعش ،
 ويوانيتها الجدة فيتحقق منها الكثير ، والنفوذ الأجنبي يأخذ في التقلص ،

والشعب يُسمع صوته وتتحرى رغباته ، وإنظمة الحكم تتبدل وتعدل ،
ونسيم الحرية يهب رخاء يذكي خلد الامل ويحيي روح العزة والكرامة .



لا عرابة اذن في ان نجد في ابناء الجيل الماضي ميلا للسكون والهدوء ،
ونفورا من الجلبة والضجيج ، وحرصا على الثبات والاستقرار . وأن
نرى في ابناء الجيل الحديث روح القلق والرغبة في التغيير والنزوع الى
الحركة العنيفة .

تجد مظاهر هاتين النزعتين فيهما باديتين في نواح شتى .

تجدها في طرق تفكيرهما ؛ فابناء الجيل الماضي هادئو التفكير قليلو
الانفعال بطيئون مترددون في الاستماع للدعوات الجديدة والآراء المستحدثة ،
يستمسكون بما ألفوه ، ويتشددون في التزام ما عرفوه من الأوضاع ،
حتى ليصل بهم الحال الى نوع من الجمود ؛ ومع ضيق أفقهم فان فيهم
عمقا وميلا للتقصي . وترى ابناء الجيل الحديث أوسع أفقا وأضيق صدرا
بالتعمق والاستقصاء راقل ترددا واكثر مرونة وأسرع استجابة لكل جديد
واستباقا لامتناق كل دعوة جديدة ، ويفلون في ذلك حتى ليكادون يقطعون
كل صلة بالماضي ، ويتقلبون حتى ليكادون يسيرون في عالم التفكير على
ما يسيرون عليه في عالم الأزياء ، يقتبسون آخرها ويخلعون قديمها . ومن
هنا يصعب أن نستبين في أكثرهم شخصية ثابتة مستقلة التفكير .

وتجد مظاهرهما في أخلاقهما ؛ ففي ابناء الجيل الماضي لين ودمائة ،
وجنوح للسلم ، وضبط للنفس ، وتقيد بالمواضعات ، وغلبة الاحتشام ،
والحياء والتواضع ، والزهد في الظهور ، وفيهم حرص على السلامة
وضعف وتردد في الاستمسك بحقوقهم يصل الى ما يشبه الجبن
والاستكانة والاستسلام . وفي ابناء الجيل الحديث طموح ونزوع للمغامرة ،
وتحرر من كل قيد ، يصل بهم في كثير من الاحوال الى ما يشبه الاستهتار
والاندفاع وراء العواطف ، من غير بصر بالعواقب ، وقد يصل ذلك احيانا

الى بعض الخروج على حدود الاحتشام والحياء ، وقلة الاحتفال بالتقاليد والأوضاع ، وينقصهم في كثير من الاحوال الجلد والصبر واحتمال خشونة العيش ، والثبات أمام عارض المحن .

وتجدها في اذواقهما الفنية ؛ فالجيل القديم يعجب بالادب المحافظ الرزين المتجمل ، ويضطرب للأغاني العفة الهادئة ، ويأنس للموسيقى الناعمة الحزينة ، وبهش للنكتة المحتشمة الرقيقة .

والجيل الحديث يابى الا الموسيقى الصاخبة المجلجلة ، والأغاني المعربة السافرة ، والنكت الجارحة العلوية ، ويتحطل في الادب من كل كل قيد ويتحرر من مألوف الاوضاع .

وكان من اثر الظروف التي قدمنا من قبل ، أن غلبت النزعة الفردية على 'الجيل الماضي' . فكل منهم يعيش في شبه عزلة عن سواه ، يعمل لحسابه الخاص ويهتم بمصالحه الذاتية ، ولا يولي الشؤون العامة الا اهتماما فاترا ، ولا يشترك في واجب عام الا اشتراكا سلبيا . كما أن الجيل الحديث تغلب عليه النزعة الاجتماعية ؛ فالحركات العامة والشؤون القومية تجد منه اكبر اهتمام ، وقد لا يولي شؤونها الخاصة بعض ما تستحقه من العناية .

وتتجلى هاتان النزعتان في تفكيرهما واخلاقهما .

ففي رجال العهد القديم أنانية تجعل التعاون بينهم أمرا عسيرا ، وتجعلهم يفلتبون مطاعمهم الخاصة في كثير من الظروف على المصلحة العامة . وفيهم شح وضمن بالمال والجهد في سبيل الخير العام . وقل أن تجد منهم من بذل الا تورطا أو ضحى الا طمعا في عوض ، وفيهم محاباة للأقرباء ومجاملة للخلان والأولياء .

وفي أبناء الجيل الحديث ميل للعمل الجماعي ؛ فهم يستجيبون للدموات المشتركة والحركات العامة ويفكرون بمقل الجماعة ويتأثرون بروح

الكثرة ، وفيهم استعداد للتضحية ، واهتزاز للمكرمات ، وتقدير للعدالة والمساواة . ولكنهم يغلب عليهم اهمال شؤونهم الخاصة وقلة العناية بالتكامل الفردي الذي لا يتسنى بغيره القيام بالواجب العام على اكمل وجه .

وخير ما تتجلى فيه فضيلة الفردية في الجيل القديم - او على الاصح الروح الاجتماعية الضيقة - العناية الكبرى التي أحاطوا بها الأسرة وشدة اهتمامهم بتدعيم بنائها وتقوية أركانها والذب عن حياضها والتعاطف القوي بين أعضائها ، ونشا عن ذلك أن اشتدت غيرتهم وقويت عصبيتهم .

وفي الجيل الحديث يبدو أن الأسرة قد نزلت بعض النزول عن عرشها وأن روابطها قد تفككت بعض التفكك ، وإن حرمانها لم يصبح لها من القدس ما كان لها في الماضي ، وإن روح العصر طغت على تقاليدها وأخرجتها من عزلتها .



ويبدو أن أهل الجيل القديم كانوا عمليين غم مثاليين ، كما يلوح أن أبناء الجيل الحديث أكثر تعلقاً بالمثل وجرياً وراء الخيال .

يتجلى ذلك في غلبة الأخلاق العملية التي يتطلبها النجاح الدنيوي على أهل الجيل القديم ، من تلطف في الاحتيايل لما يريدون وأخذ بالتقية فيما يخافون ومصانة للأقوياء ومداراة للسفهاء . وفي أبناء الجيل الحديث صراحة قد تزيد الى ما يشبه التبجح . وفيهم سداجة تجعلهم فريسة هينة للمخادعين . وفيهم عواطف حساسة قد يشتتون في التأثير بما يحركها لأبعد الحدود .

ولست أدري لم كان أهل الجيل القديم أكثر جداء وأقل عبثاً من أبناء الجيل الحديث الذين تغلب عليهم في أكثر حالاتهم روح الهزل والمجون .

هذه نظرة مجملة حاولت أن أصور بها أبرز الصفات في الجيلين . ولا يصح اعتبارها نظرة شاملة ، ولا أن يؤخذ بها كل أفرادها ، فكم في كل جيل من يعيش في غير زمنه ويساير جيلاً غير جيله .

محمد عبد الواحد خلاف

المصدر : الثقافة - القاهرة العدد ١٣ / ٢٨ مارس ١٩٣٩ - السنة الاولى .

رجعية قديمة ورجعية جديدة

... تجب مكافحتهما

وصفي البني ١٩١٢ - ١٩٨٢

لا شيء مثل القضايا الاجتماعية ، دينية كانت أو وطنية ، أصبح ميدانا لتلاعب صريح مفضوح ليس له من ستار يخفي خطره غير جهل المتلاعب بمصالحهم ، وليس له من دعامة يستند عليها غير ضعف هؤلاء وقوة المتلاعبين . وان لهذه القوة وذلك الضعف مظاهر كثيرة ومصادر مختلف لا بد من موضوع مستقل لدراستها دراسة علمية وافية .

ولقد بك طبيعيا ان نرى كثيرا من الاعمال المنافية لروح الدين تجري امام عيوننا ورغم انوفنا . . باسم الدين ! كما بك طبيعيا ايضا ان نرى كثيرا من الاتجاهات القاتلة لمصلحة الشعوب يدفع الناس او يندفسون في طريقها ، امام عيوننا ورغم انوفنا . . باسم مصلحة هذه الشعوب ! والاغرب من هذا اننا نجد هذا الكلام نفسه يردده العابثون بالاديان ومصالح الشعوب لمحاربة الاتجاهات الجديدة التي ترمي الى استئصال العبث من جذوره . فكيف السبيل للتفريق بين الباكي والمتباكي ؟ اهنالك من حكم غير العقل والمنطق ؟ ولكن العابثين جميعا يزددون العقل والمنطق . ففريق قد اغلق « باب الاجتهاد » او حال العقل « على التقاعد » الى الابد . . . وفريق « جديد » يقطب في وجهك جبين فيلسوف ويخاطبك بمنطق شاعر ، فيقول لك : العاطفة فوق العقل ، فوق المنطق ، فوق المصلحة ، فوق كل شيء ! . . . اتريد ان نحصر انفسنا في نطاق الوعي المحدود ؟ . . . ولعمري انها لرجعية جديدة ، وما الجديد فيها الا ثوبها « الفني » البراق الذي يخدع الاطفال ويرضي الكسالى والجبناء الذين ينفرون من ملاحقة

العقل الواعي الذي يقود الباحث الامين الجريء الى شتى مطارح الحقيقة، الحقيقة العارية ، سواء اتجلى في جنة وارفة الظلال او بين فكي التنين . انهم بتمسكهم بهذه « النظرية » الجديدة بمظهرها والعتيقة بجوهرها . انما يريدون ان يطلقوا « باب الجدل » - اجل هكذا يقولون - وهنا يتحمسون « حماسا قوميا » فيقولون لك بوجوه متجهمة من الاسى والالم : « لا شيء يقضي على نهضتنا القومية مثل هذا « الجدل العقيم » الذي يدور هنا وهناك حول ما يجب علينا ان نعمل ، واين هي مصلحتنا ، واي النظريات يجب ان نمتنع . . دعونا من كل هذا ! . . نحن عرب قوميون فقط . . هذه هي الحقيقة المطلقة ومصدر كل الحقائق . . كل نظرية من النظريات يجب ان نعرف من هذه « الحقيقة الحية » مادتها الاولى . . الخ » بمثل هذه العبارات تتجلى الرجعية الجديدة التي تغترف منطقها الخلاب من مستنقعات النازية والفاشستية التي تغريهم خضرة سطحها فيسدون انوفهم كيلا ينسموا روائح الدمار المقيم تحت تلك الخضرة الخادعة التي تشقق كثيرا فيغمضون عيونهم كيلا يبصروا القبح المخزون تحت الورم الذي يحسبونه شحما . .

فنحن اذن امام رجميتين : اولاهما ، وهي العتيقة ، قد اتخذت الجمهور الساذج الجاهل قلعة حصار وسلاح هجوم في آن واحد . وثانيتهما وهي « الجديدة ! » راحت تنفث سمومها في السذج من شبابنا المثقف وتحاول التسرب الى اوساط الطلبة ، فاستثمرت في اولئك وهؤلاء حماسهم البريئة ونفرتهم من مسالك التفكير العميق والدراسة الجدية المستقصية ، واشارهم العمل السطحي في المناسبات العارضة ، جينا بعد حين ، على العمل في الاعماق والاسس بصورة متواصلة غير متقطعة .

ونحن نؤمن ان معسكر الفاشستية والنازية في وطننا العربي انما يتخذ من هاتين الرجميتين اداة هجومية دفاعية يهدم بها كيالنا القومي بشتى الدعايات الاستعمارية المطلية بطلاء « اسلامي » حينا ، و« عربي » حينا آخر فيتخلى شعبنا الساذج وشبابنا المخدوع عن التفكير ببناء مستقبل امتهم والعمل في الميادين القومية الصحيحة ، منتظرين « منقذ العرب »

هتلر الجبار الذي « أرسله الله سبغا على اعداء العرب والاسلام لينتقم لهم من ظالمهم ويحررهم من مستعبدتهم ثم يعود الى غمده في برلين بعد أن يترك عددا كبيرا من طائراته في هذه الديار لينقل الحجاج الى بيت الله الحرام ذهابا وايابا ومجانا لوجه الله تعالى ! .. »

وتقول اسطورة سمعتها في دمشق ان لهتلر - او « أبو أحمد » كما يسميه الطابور الخامس - غرفة في قصره في برتشفان لا يدخلها أحد غيره . وهو يختلي فيها كل يوم ساعات وساعات . . فدفع الفضول ذات يوم واحدا من المقربين الى « الزعيم » - ولعله غوبلز - فدخل الغرفة فاذا هي خالية الا من سجادة للصلاة لله تعالى . . . ولما فرغ الفوهرر من صلاته وسئل عما هو فيه اشار بسبائته الى القرآن وقال : هذا هو الطريق ! . . . بهذا انتصرت ! . . .

يمثل هذه السخافات والاضاليل يبشر الطابور الخامس بالوثنية النازية ، ومن هنا تبدو قيمة خطرة ، فهو يستند على الجهل والرجعية وشتى الوان الخيانة الوطنية والقومية ، الواعية وغير الواعية ، ان مكافحة هذا الطابور الخامس ، ان مكافحة الفاشية والنازية في وطننا العربي ليست كما يحسب بعض « القوميين » عملا « انسانيا بعيدا عن القومية » بل هي في الواقع العمل القومي الاجل الذي يجب على من يطمح لتحرير امته حقا ان يصرف كل قواه في تاديتة ، انها عمل قومي عربي في الدرجة الاولى ، وانها لعمل انساني بالدرجة الثانية لان العرب حين يتحررون من خطر الفاشية والنازية فانما يخدمون الانسانية باضعافهم لخطر كبير يهدد حياتها بأفظ وأرعب شكل من أشكال الاستعمار الذي تهب الدول الفاشية البربرية لانعاشه وهو على فراش الموت .

فما هو عملنا نحن اعداء الفاشية والنازية العرب ؟ يقول محتكرو القومية : « انكم يا هؤلاء بمكافحتكم الفاشية والنازية انما تخدمون استعمارا عرفتم شروره وتكافحون امة لم تجربوها بعد » . اصحيح اتنا لم نعرف ايطاليا في الحبشة وطرابلس الغرب ، واليابان في الصين ، والماتيا

في أوروبا ؟ ... لا ، لا ، اننا اجل واشرف من ان ننحدر الى هوة المفاصلة بين استعمار واستعمار . والقضية ليست قضية مفاصلة بين نوعين من انواع الاستعمار ، فنحن اعداء كل استعمار لاننا اعداء كل ظلم واضطهاد ونحن اذ نعلن وقوفنا في وجه الفاشية النازية المجرمة ايس معنى ذلك اننا تكافح خطرا بعيدا لم نعرف حقيقته بعد ونصالح خطرا قريبا قد خبرنا حقيقته . وليس غير الصم البكم العمي من يحسب ان خطر النازية البربرية بعيد عنا ، انه هنا بين ظهرائنا ، فوق رؤوسنا ، وتحت سمعنا وبصرنا ، وهو جائم فوق صدورنا يكاد يختننا بثقله وضغطه . ان بعض الفئات المخدوعة بالاضاليل الرجمية ودعايات الخونة ، باتت ولسان حالها يقول : « عجلي ايتها الساعة التي سوف تحمل الينا فيها جينوش » « المحررين » الالمان الخلاص من كل مصاعب هذه الحياة الخائفة التي لم نعد نحتمل الصبر عليها ! « ومن الذي ينكر على شعبنا ان يحس مصاعب هذه الحياة ، اجتماعية كانت او اقتصادية ؟ بل كيف يمكن لشعب حي ان لا يتضجر من مصاعب الحياة ؟ هنا تبدو لنا حقيقة واضحة كالشمس : ان شعبنا اشبه ما يكون بتائه في صحراء قاحلة قد بلغ به الإعياء والجوع والعطش حدا فقد معه سمعه وبصره وتفكيره . . . فاذا لمست يده شيئا حسبت هذا الشيء « منقلا من عند الله » ولو كان هذا « الشيء » رأس أفعى أو أنياب ضبع شره الى الدم ! أتريدون أن يدرك شعبنا حقيقة ما يحسبه « منقلا من عند الله ؟ ... شمروا سواعدكم اذن وتعالوا تكافح كل ما يؤدي الى فقدان هذا الشعب لسمعه وبصره وتفكيره . تعالوا لنعمل كل ما يجب عمله لننقذ شعبنا من التيه في الصحراء ، لننقذه من الجوع والجهل .

وهذا ما تنادينا اليه نحن اعضاء عصبة مكافحة الفاشية في سوريا ولبنان .

وهذا هو عملنا القومي الذي كنا ندعو اليه كل راغب بتحرير قومه من كل اشكال العبوديات التي معاضدتنا فيه .
وصفي البني

المصدر : الطريق . بيروت . المجلد الاول . الجزء الاول . ٢٠ كانون الاول ١٩٤١ .

موقف العرب

من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة

عبد المعين الملوحي - ١٩١٧ -

يسود التفكير العربي اليوم اضطراب وتردد بين ثقافتين : ثقافة قديمة وثقافة حديثة . ثقافة قديمة تحاول ان تستمر وان تفرض على عقولنا مفاهيمها ووجهة نظرها الى العالم، وتريد ان نكتفي باجتراح معقولاتنا القديمة ، وآرائنا السابقة ، وبتريديد الحكم الشرقية والامثال الخالية للحكم على كل مناحي الحياة الحديثة واتجاهات الحضارة البشرية ، وتود ان تقف على شاطئ كل التيارات السياسية والفكرية والاجتماعية في العالم ، قانعين بالنظر اليها نظرة جامدة بليدة ، ساخرين بهذا المعتقد المتلاطم من النظريات والمبادئ ، سخرية من يرى انه ارفع من ان ينزل الى ميدانها ويناضل في تحقيق ما يرى ان عليه نصره منها ، وتبتغي ان تعيش كما تعيش الحيوانات التي حرمت غذائها على حساب ما فيها من مواد مدخرة حتى تموت وتبلاشى . او بكلمة مختصرة : ثقافة قديمة ، تظن ان لم يخلق خير منها ، وانه ليس في الامكان ابداع مما كان ، واتها ارقى الثقافات واتمها ، وانها كاملة لا سبيل الى الزيادة فيها والانقاص منها ، فلذلك ينبغي ان نعتنقها وان لا نرضى بها بديلا ، وان (نرجع) اليها ونقنع بها فلا نتطلع الى ما حولنا من ثقافات وفلسفات ، الا من عل ، واذا نحن تطلعنا فكما ينظر الطفل الذي يظلمه الناس الى ما حوله من وجوه ومعالم .

وثقافة حديثة نفرو عالمنا العربي من كل ناحية وتعرض لنا في اغراء وفتون ، وتقبلها راضين احيانا ، ساخطين احيانا ، ولكننا نتقبلها في كل

حال ، وهذه الثقافة تمثل الحضارة الحديثة واتجاهاتها ، تدوي فيها صرخة الحياة ، ويضج من حولها كل ما في الكون من عراك بين المبادئ والنظريات ، انها تنبعث من مقاعد الدرس ، ومن دور الكتب ، ومن آلات المصانع ، ومن ضجة المطابع ، ومن مخابر الكيمياء ومن كل ما على هذه الارض ، وما تحت الارض ، من اختراعات ومكتشفات . وهي ثقافة لا تحتم علينا نوعا واحدا من الآراء ، ولا تفرض على عقولنا قالبا واحدا من التفكير ، ولكنها تعرض علينا كل ما انتجته القرائح في المجتمعات الراقية لنجد فيه ما ترضاه طبيعة ماضينا وحاضرنا وهي لا تقول عن نفسها : « انها ابداع ما يمكن ان يكون » ولكنها تقول انها شيء كائن يمكن ان يكون ما هو خير منه ، وهي لا تقول انها كاملة ولكنها تقول انها تسير نحو الكمال (وتتقدم) اليه . انها تقدمية اي انها ترى مثلها الاعلى فيما سيكون ولا كما رآه الثقافة القديمة فيما كان .

فما هو موقفنا نحن العرب من الثقافيين ؟ والى ايهما يجب ان نتجه ان اردنا لامتنا الحياة ؟ وكيف يجب ان نفهم الثقافة ؟ وما هي مقوماتها ؟ وكيف نستطيع ان نكون مثقفين ؟

اول ما يجب ان نعرفه : لتبين على ضوءه موقفنا من الثقافتين ، ولنجيب على هذه الاسئلة المختلفة ، هو ان نحدد معنى الثقافة ومفهومها :

ان للحضارة البشرية مظهرين : مظهرا ماديا نصطلح على تسميته بالمادية ، ومظهرا فكريا نصطلح على تسميته بالثقافة ، فالثقافة هي المظهر الفكري للحضارة ، وهي المدنية تسيران جنبا الى جنب وتتطوران تطورا مستمرا دائما .

ان اختلاف طرائق الناس في معاشهم ومكاسبهم وتبدل وسائل الانتاج ، هما اللذان يحددان بالضرورة نوع التفكير في المجتمع ، ودرجة ثقافته ، ونوعها .

وكما أن الحضارة المادية في تطور مبدع واستمرار متجدد ، كذلك كانت الثقافة في تطور مبدع واستمرار متجدد ، انهما نتيجة لسبب واحد ، هو هذا الجهد الذي بذلته البشرية كلها على اختلاف أممها وعروقها من أقدم عصورها حتى اليوم ، ولا تزال تبذله ، ومن الطبيعي أن هذا الجهد مستمر في قوته وانتشاره فمظاهره من حضارة ومن ثقافة مستمرة في قوتها واتساعها ، وليس من أحد يحترم نفسه اليوم يعتقد أن الحضارة المادية القديمة والحضارة المادية الحديثة متساويتان في النوع والقيمة ، فقد ارتقت الحضارة البشرية منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا ارتقاء لو شئنا أن نستعمل لبيانها الطريقة الحسابية لقلنا أنه يبلغ ٩٠٠ بالمئة من الحضارة البشرية نفسها خلال عصور التاريخ .

وإذا نحن اتفقنا على هذا الرأي الاساسي ، أي أننا إذا اتفقنا على أن الثقافة مظهر الحضارة الفكري . وأنها تختلف درجاتها باختلاف درجات الحضارة ، وصلنا إلى نتيجة منطقية لا شك فيها ، وهي أن مرحلة ما من مراحل الثقافة لا تصلح للحياة في كل مرحلة من مراحل المدنية ، أنها ليست رداء واسعا ولا كيسا يلبسه كل جسم ، بل هي مرحلة ثقافية صالحة وممثلة لمرحلة مدنية معينة ، أو هي على التأكيد مظهر لتلك المرحلة الخاصة ، وليس ممكنا أبدا أن نطبق أية مرحلة من مراحل الثقافة على أية مرحلة من مراحل المدنية ، إذا لم تكن هاتان المرحلتان حادثتين في نفس زمان ومكان واحد ، وكانت أحدهما مظهرا ومتممة للآخرى ، أي أن لكل مدنية من المدنيات ثقافة من الثقافات لا يمكن فصلها عنها ، فإذا تطورت تلك المدنية استدعت بالضرورة تطور هذه الثقافة .

أن لكل دور من أدوار التاريخ تفكيرا خاصا ، فليس يصلح للدور الرأسمالي تفكير الدور الاقطاعي ، وليس يصلح للدور الاقطاعي تفكير عهد العبودية .

وهنا نصل إلى ما لا بد من الوصول إليه ، وهو أننا في مرحلة من مراحل التمدن الحديث تلازمها مرحلة من مراحل الثقافة الحديثة ،

ونحن لاننا نقبل هذه المدنية ، بل نحن لاننا نسرع الى هذه المدنية مختارين
أو غير مختارين ، لا بد لنا من قبول ثقافة هذه المدنية مختارين أو غير
مختارين ، بل لا بد لهذه المدنية التي نستمد منها ونؤسسها من ثقافة هي
ناشئة عنها ومستمدة منها .

وهكذا نرى أننا قد وصلنا الى حل هذه العقدة التي تفرض علينا
وتطلب منا ان نطبق مرحلة ماضية من مراحل الثقافة القديمة على مرحلة
حاضرة من مراحل المدنية الحديثة .

ان الحياة نفسها تأبى تحقيق هذا الطلب ، بل ان الحياة نفسها ترفضه
لانه ليس من طبيعتها ولانه غير معقول وغير ممكن .

ان للمدينة الحديثة ثقافة حديثة ، كما كانت للمدينة القديمة ثقافة
قديمة ، ونحن أمام طريقتين لا ثالث لهما ، ولا اختيار فيهما هو إما ان
نقبل ثقافة المدنية الحديثة ، لاننا قبلنا هذه المدنية نفسها ، وإما ان نعود
القهقري خلال التاريخ ، فنرفض المدنية التي قبلناها عفوا ، ونرجع الى
دور من أدوار المدنية القديمة حتى تتفق مع هذا الدور من أدوار الثقافة
القديمة التي يريدنا أصحابها على التمسك بها واعتناقها ، وليس هذا
أيضا ممكنا ، لاننا سرنا في طريق الحياة ، ولنا ، وان كان ممكنا ،
لنختاره نحن العرب الذين نطلب لامتنا الحياة .

اذن فنحن لا نستطيع الغاء ما أخذناه من مدنية ، ونحن لا نستطيع
اعادة دور من أدوار المدنية الماضية يعتمد على نوع خاص من انواع المعاش
والمكاسب والعلاقات الاجتماعية القائمة على وسائل انتاج معينة ، قطعه
البشرية منذ عصور ، ونحن في سبيل قطعه واجتيازه . ونحن لا نستطيع
أيضا بطبيعة الحياة ان لا نفتتح صدورنا للمدينة الحديثة ، لان الانسان -
كما يقول الفلاسفة - مدني بالطبع ، واذن فلا بد لنا مختارين أو كارهين
وما دما احياء مفكرين ، من قبول ثقافة هذه المدنية لاننا قبلنا هذه
المدنية نفسها ، ولست أقصد من هذا اننا يجب ان نقبل كل ما في تلك

الثقافة ، لاننا في الواقع يجب أن لا نقبل كل ما في هذه المدينة ، ونحن اذا كنا عربا واعين يجب أن ندرك الاسس الفكرية والخطوط الاولى الموجهة لهذه الثقافة ، لا ان ننحل انحلالا نهائيا في تناقضاتها ونهمل قواعدها الاساسية المتينة .

اننا ايضا لا نستطيع إعادة دور من ادوار الثقافة الماضية يعتمد على نوع خاص من أنواع التفكير والدوق والشعور ، لاننا لا نستطيع بطبيعة الحياة ان لا نفتح صدورنا للثقافة الحديثة ، وعقولنا للتفكير الحديث .

ولكننا اذا وصلنا الى هذا الرأي الذي لا يرفضه انسان ، وجب علينا ان لا ندفعه الى أقصاه فيصبح خطأ ، ونقع فيما لا نريد ان تقع فيه من ضيق ساحة النظر . والقد قلت ان هذه المدينة والثقافة متصلتان غير منفصلتين ، وانهما مظهران لشيء واحد ، هو هذه الجهود البشرية المادية والفكرية ، ولكن هذه المدينة التي ننع تحت أفيائها اليوم ، ليست نتاج الحاضر ، والا هي شيء منزل ليس له مقدمات ، وان نتج عنه نتائج ، ولكنها حلقة من الحلقات المتصلة المتسلسلة تتصل بما سبق وتتصل بما يلي ، وكذلك كانت الثقافة الحاضرة فهي ليست إلهاً ولكنها حلقة من الحلقات المتصلة المتسلسلة ، تتصل بالماضي والمستقبل ، ولقد أصبح من مكروو القول ان جسم الانسان الحاضر ليس مخلوقا منقطعا عن الماضي غير متصل بالمستقبل ، وان هذه المظاهر المتفرعة لجهود الانسان ونشاطه ليست منقطعة عن ماضيها ومستقبلها .

ان علم الحياة يقول لنا ان الانسان الحاضر هو نتيجة التطورات البيولوجية التي حدثت لأسلافه وأجداده ، وهو أيضا مقدمة الأبنائه الذين يرثون منه هذه التطورات . وكذلك فان المدينة والثقافة أو الحضارة المادية والحضارة الفكرية هما نتيجة جهود آبائنا الذين وضعوا الحجر الاساسي في بنائها وهي نتيجة جهودنا التي سنقدمها لابنائنا ليزيدوا في بنائها ويوسعوه .

وعلى هذا فليس من انقطاع بين ماضينا وحاضرنا بطبيعة الامر ، ولو انقطع حاضرا عن ماضينا لم تبق لنا شخصية ولا هوية - كما يقول علماء النفس - وانما بقاء الانسان ببقاء شخصيته ، والثقافة التي ندعو اليها اليوم هي بطبيعة الامر ثقافة الحاضر والماضي معا ، والواقع في المدينة الحاضرة عناصر كثيرة من المدينيات الغابرة ، كما ان في الثقافة الحاضرة عناصر كثيرة من الثقافات الغابرة ، وهذه اللغة التي نتكلم بها ، هل هي الا وراثته الماضي ؟

يقول أنصار الثقافة القديمة ، او على الاصح يقول من لا يفهم الثقافة القديمة ، وهو عن فهم الثقافة الحديثة اعجز ، اننا نستطيع ان نعيش في هذا العصر المادي الواقعي بثقافتنا المتأفيريكية القديمة ، التي هي ممثلة للعصور الاولى والوسطى ، وهذا غير صحيح ، فنحن في عصر مادي يجب ان تكون لنا فيه ثقافة مادية اي ثقافة واقعية تعتمد على التجربة والمحكمة ، لا على الآراء السابقة والتصورات المتوهمة ، ثقافة تفهم الكون ولا تتصور له اشكالا وقوالب ترغمه على قبولها والتبلور في اطواراتها .

اننا نقبل حضارة الغرب ، نقبل مخترعاته ، ونقبل أنظمتها ، ونترجم علومه ، وذلك كله لان حاجتنا مثل حاجاته ومثلنا العليا قريبة من مثله ، ذلك لان عقلنا مثل عقله ، ذلك لان العالم يسير كله الى تحقيق عالم انساني عادل وشريف وسعيد ، ذلك لان هناك وحدة في العقول ووحدة في الاهداف ووحدة في المصالح كامنة وراء هذه الفوضى المتلاطمة من التعارض والاختلاف والتمصّب التي نتجت من تفاوت درجات التطور في مختلف الافراد والجماعات والشعوب .

فليس من المعقول بعد ذلك كله ان نزعّم قدرتنا على الاكتفاء بثقافتنا ولولا نظرياتنا وآرائنا ، بل ان الواجب والمعقول ان نزيد في ثقافتنا وان نميها ، وان لا نكتفي باجتراح ما حفظنا ، بل يجب ان ننشئ ثقافة حديثة تتفق مع مدينتنا الحديثة . اننا لا نريد ان نكون منغلطين نتقبل

ولا نبدع ، وناخذ و لانعطي ، ونسرق ولا ننتج . ان الدين يدعوننا الى مقاومة الثقافة الحديثة والاكتفاء بالمدينة الحديثة كمن يدعوننا الى امتطاء سيارة ليس فيها زيت ، وحافلة ليس فيها كهرباء ، انهم يقدمون الينا جثة ليس فيها روح .

وهم في الواقع يعوقوننا عن السير في طريق الحياة ، في طريق الانتاج والابداع ، في طريق الاختراع والاكتشاف ، في طريق أن نكون أهلا لهذه المدينة التي نتمتع بخيراتها ، ثم يريدون أن لا نعينها في أزمتها الحاضرة ، وان لا نساهم فيها ونقدم اليها ما نستطيع من قوة ونجدة . انهم يطلبون منا ان تكون حيوانات لا تنتفع من خيرات الارض الا بما يطعمها ويسقيها ، ثم هي غافلة عما في الارض وفي السماء ، من حياة وجمال ، وعلم وثقافة ، وفن وذوق وأدب .

ولكننا نحن العرب نرفض هذه النظرية الرجعية ونأبأها ، لاننا من امة انسانية رشيدة ، ولاننا اهل لهذه الحياة الجديدة التقدمية التي تعج بالابطال من العرب ومن غير العرب ، والتي تسير بعجلة التاريخ الى الامام دائما والى الامام ، ولاننا لا نريد الموت لانفسنا ولا لامتنا .

اننا نأبى ان ننظر الى الانسان كمخلوق شرير بغيرته لا سبيل الى اصلاحه وجعله انسانا خيرا وطارها .

اننا نأبى ان ننظر الى الانسان كمخلوق يحمل تبعة (الخطيئة الاولى) ثم لا سبيل الى سعادته وورغده .

اننا نأبى ان ننظر الى الانسان كمخلوق عدو لآخيه الانسان يسعده ويستثمره ، ثم لا سبيل في نظره الى الغاء الاستعمار والاستثمار في جميع اشكاله .

اننا نأبى ان ننظر الى ديننا التي فيها معاشنا كجيفة قلرة ، وليست هي الا مجالا رحبا طيب المتاع ، يمكن أن يتحول الى حديقة غناء .

اننا نأبى كل هذا ونريد أن ندفن إلى الأبد تلك البقايا المتحجرة
العفنة من آرائنا وأوهامنا .

يقول باسكال : « اتني لا أجد الفيلسوف مونتنى في كتبه ، ولكنني
أجد نفسي . » وأنا أيضا لا أجد الغرب وحده في كتبه وثقافته ، بل
أجد نفسي ، أجد ما يرضي عقلي ويمجّب ذوقي ، أجد فيهما ما تتطلبه
الامة العربية التي لم تتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر
منذ قرون ، فلما تبينته هرعت إليه ووجدت طريقها التي أضاعتها فيه ،
فاهتدت إليه كما هدت الغرب من قبل إليها ، فإذا هي طريق الحق
والنور والجمال .

دمشق ١٠ - ١ - ١٩٤٣

عبد المعين الملوحي

المصدر : الطريق ، بيروت : المجلد الثاني ، الجزء الثاني - ٢٠ شباط ١٩٤٣ .

كمقدمة

ملون عبود ١٨٨٦ - ١٩٦٢

القديم والجديد نضال الابد بل صراع الحياة . في عش المصنور
الدوري كما في عرين الأسد ، بين الآباء والأبناء ، الاخوة والاخوات ،
والكنة وحماتها ، وهنا التنور المسجور والفرن الحامي ...

تكون الحماة ارجح عقلا وأوفر علما وتراها الكنة أختا للغوريلا
واننى الكهوفه . اما الحماة فتقف بالمرصاد كعداد التكسي .. ان مشيت
الكنة رأت خطواتها أوسع من المعتاد ، وأشأت بتعديلها لتكون على
الانتماء ، كما رسمها السلف الصالح .. وإذا تبسمت صفقت على
فخديها وصاحت بابنها : قل لبنت عمك لا تفتح بوزها على مصراعيه
ثاني مرة ، هذا عيب ! وإذا حكمت فهي ثرثرة ، لسانها اطول من اذنيها ،
وان سكنت فالمسكينة حمارة ، الدجاجة تأكل عشاءها ، وان رفعت
صوتها كانت وحشة مقطوعة من الحرج ، وان خف صوتها فهي حية
رقطاء تحكي في عبا ، وان قصرت ثوبها فهي من سلالة حاتم في الفتنة
والاغراء ، وما هكذا تعمل بنت الازاد ، وان عملت بوصايا الله فكل
قماش بيروت لا يكفيننا ، والله يساعدك يا ابني ! وان كبرت لقمعتها فهي
غولة ، لعنة الله على من ربوها ، وان بينت سنها فالبنيت عينها شلودة .

وتروذ الكنة حماتها فتراها أقل من خرقة بالية اولى لها ان تلقى في
المطبخ لا ان تتقدم عليها في المحضر ، وتسود وجه البيت .. فلتنقبر !
ابن عزرائيل كناس البيوت ؟ الا يرى هذا الوجه المتكرش كانه آخر
البندورة ؟ ..

والحماة تخاف على ولدها من هذا الطاعون . البيت يخرّب اذا
تخلت هي عنه لهذه البنت الطائشة ، واذا زارتها جارتها تسر التجوى
قائلة : غضب من ربنا يا جارة ، حل علينا . يا قلة الحظ !! ثم تقرصها
في جنبها قرصت لاذعة لها ألف معنى ومعنى ، بينما الكنة المسكينة تقرأ
او تطرز ، او تترنم كدباب عنتره ... وتختتم الحماة رسالتها هذه بصريف
الاسنان مقرونا بأحر العواطف : يخرّب بيتها ، لا يهمها شيء سواء
عندها خرب البيت أم عمر ، فتجيب الجارة الحكيمة : السكوت إحسن
يا جارة ، ما في اليد حيلة !

أجل ما في اليد حيلة ، وهذه مصيبتنا بعينها في الادب ، الادب يريد
ان يمشي ، والحماة قوم عنيد واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق الا اذا
مشينا على جثتها . فلنمش !

كان من الازياء الأدبية ، منذ نصف قرن خلا ، ان يقدم الكاتب لاسمه
بسجعة فيقول : ألفه الفقير الى عفو ربه الرزاق فارس بن يوسف
الشدياق ، او صنفه العبد الفقير الجاني ، سعيد الخوري الشرتوني
اللبثاني . وقد أدركت ، تلميذا ، آخر هذه السوق ، فكتبت على دفتر
لي مدرسي سيبقى بعدي وقف ذرية : المحتاج الى عفو ربه المعبود ،
مارون حنا الخوري عبود . وكان هناك زي آخر أعظم خطراً وهو ان
يصدر المؤلف كتابه يبتين من الشعر ، كما فعل المعلم بطرس البستاني
فكتب على قلموسه الشعر :

قل لن لا يرى الاواخر شيئاً ويرى للأوائل التقديماً
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيمسي هذا الحديث قديماً

فمعظم القديم من طبيعة الناس ولذلك عبدوا جدودهم . فكل رجل
ولو خاملاً ، يستحيل يوم يموت شيئاً عظيماً ، تنهال عليه الرحمت
ويرون انه كان من المفارذ ، لا تعصى عليه مشكلة ، مع ان المرحوم كان
لا يهش ولا ينش ، ولكنه دخل الابواب الدهرية فصار ملك المجد ..

وفباله جيل القديم يرتفع توام آخر يساميه ويطلوله ، هو جيل الجديد ، والتوأمين لا يلتقيان . فزعيم الشعر العربي واحد لا غير هو الذي ضيع ملك أبيه ، ولكن عرش ذلك الوالد المحترم لا يسلوي بيتا من قصائد ابنه . طاح تاج ابن حجر فداء رأس داره جلجل .. ونودي بامرئ القيس ملكا على الادب العربي ، وثبت عرشه مدة ستة عشر قرنا ، لا يثور عليه الا عصابات تدوب جهودها في الخنادق التي تحيط بالقديم .

وقرأ شبابتنا آداب الامم فأغرتهم بالخلق فتجهم لهم المحاربون القدماء يريدون ان تظل الجبهة في البيداء فقالوا : ليس هذا من كلام العرب .

ان الشعر معمل تصنع فيه التعابير ، ولهذا يحق لنا ان نقول للشاعر كن كيف شئت ، الا اثنتين فلا تقربهما أبداً : النحو واللغة .

فتنت العرب التعابير الراقصة فصرخوا بصاحبها : انت اشعر العرب وادركوا ان الشعر موسيقى اولا فقدموا البحري واخروا ابن الرومي . واهتز ابن الاثير « لوطن النهى » في شعر أبي تمام ، وأعجب « بقلب يطل على أفكاره » عند أبي عباد ، كما نعجب نحن « بضيوف الله » عند شوقي لا بقريع الشهباء وكبش النطاح ..

يصلح الشباب اوتارهم فنشوشها لهم ، وبدا من ان ننثر الزهر على المواكب العابر نرجمه بالحجارة . ما قتل الادب العربي الا توسله الى الفن بلغة « رسمية » لا يحيد عنها . ولو كان في ذلك الاسلوب « الرسمي » خير ، ما نزل القرآن الكريم بلغة الناس الفاتنة الطرية الناعمة المصقولة .

يحاول الشباب خلق الشعر المصفى فنغضب تلك الغضبة المضرية ليظل اكثر شعرنا ثرا . وكما كانوا يحتكمون في البصرة والكوفة الى وافد من البادية نحتكم نحن اليوم الى الكتب القديمة ، حتى في الفن .. ان باب القياس اوسع من الهاوية ، فدعوا السماع ، واضربوا في مناكب الارض ولا تكونوا من ذوات المحدثين .

فلندع المجترين يتبلغون بما في بطونهم ، ولنخلق طعاماً جديداً . ان في الادب ازياء تتجدد . ان البساتين تحتاج ، دائماً ، الى التطعيم ، والاداب بساتين الشعوب ، فلنطعم ادبنا فقد اصبح برياً . قدحان لهذه الوثنية الادبية ان تتواري ، فالفن لا يعرف الا إلها واحداً هو الجمال . ان فلاح الشباب فلاحهم مجد لنا ولهم ، وان اخفقوا فالتبعة عليهم . ان اللواء معقود لهم وسيظل في يدهم حتى تعقده العبقرية لجيل آخر ، ان اللرية محبوبة الا في الادب ، ففلان وفلان لا يريدون ان يتواروا ان الحماة لا تدع ثرواتها حتى يفلق عزرائيل ذلك الفم الذهبي .

مل العرب القديم في كل عصر ففضل الاصمعي ابن بررد على مروان ابن ابي حفصة ، وابن الاثير نادى ان باب الجديد مفتوح حتى يوم القيامة .

مند دهور واعيننا في ظهورنا ، واكثرنا يعارض الذي عيناه في وجهه . فهذا الشعر الذي يقوله شعراء اليوم هو الشعر حقاً ، ولكنه في حاجة الى خلق مستمر ، فقد كاد ان يصير ادب عصائب طير تهتدي بعصائب .

كان الاعرابي يؤثر - كالأب بريمون اليوم - شعراً موسيقياً خف معناه على شعر بلا موسيقى ، وان رجحت كفة معانيه . فلنسر على هذه الطريق نفلح . اما المتوغلون في الوثنية الادبية فلهم اقول : اذا كان استطاع تبديل حياة النبات بتبديل الضوء ، افلا استطاع الشعر على ضوء مصباح اديسون بدلا من ذبال أمريء القيس المقتل ؟

نيسان ١٩٤٨

ملون عبود

المصدر : مجددون ومجترون - ص ٥ - ٩ المقدمة . الطبعة الاولى . بيروت ١٩٤٨ .

الجديد والقديم

الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ١٨٦٥ - ١٩٧١

تفضل معالي الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا ، فقدم هذا العدد
بهذه الكلمة القيمة التي تضمنت رأيا نفيسا وتوجيها رشيدا للجيل
الجديد .

وزير المعارف

طلب الى « الهلال » أن اقدم بكلمة موجزة لهذا العدد الممتاز وعنوانه
« الجديد » . وقد كنت احب ان اقصر عنوان هذه الكلمة على « الجديد »
دون أن اضيف اليه « القديم » فاحاكي بذلك عنوان العدد الممتاز نفسه .
ولو طابعت شعوري لفعلت . ولكني فكرت قليلا . .

فكرت اولاً في انني اقدم الكل ما اشتمل عليه العدد من آراء ونزعات .
وفيها انتصار للجديد وللقديم .

وفكرت ثانياً في ان الجديد لا يقوم الا بالقديم ، ولولا القديم لما كان
هناك جديد . فليس من الانصاف أن اخص الجديد بالذكر دون القديم .

وفكرت اخيراً في ان جديد اليوم سيكون القديم في الغد ، وان قديم
اليوم كان بالأمس هو الجديد . فلا فرق اذن بين الجديد والقديم .

اذن سأعرض للجديد وللقديم معا ، فان حنيني الى القديم لا يقل
عن شغفي بالجديد .

الجديد قوي وثاب . ونحن امة في اشد الحاجة الى القوة والثوب .
قديمنا رث مهلهل . فينبغي ان ننزعه وان نتقدم الى هذا العالم الجديد

في ثوب جديد . جربنا المشي اللين والعالَم يجري ركضا ، فلماذا بنا تخلفنا عن الركب وصرنا مسبوقين بعد ان كنا السابقين . فما بالنا نستمسك بهذا القديم البالي ؟ بل ما بالنا نطمع في ان نعيش بعقول القرون الوسطى في حضرة القرن العشرين ؟ حضارتنا قديمة ، ونظمتنا قديمة ، وحياتنا الاجتماعية قديمة ، واساليبنا في العيش قديمة ، ولفتنا قديمة ، فمن اين لنا العيش في العصر الجديد ؟! اليس نسخ الجديد للقديم هو التطور ؟ ثم اليس التطور هو ناموس الحياة ؟! فما بالنا نأبى ان ننزل على ناموس الحياة ونطمع مع ذلك في ان نعيش ؟!

هذا هو لسان الجديد ينبغي ان نسمعه خاشعين واجفين . فللجديد سلطان مرهوب ، وله جلال تطايط له الرؤوس ، وله جمال تخفق له القلوب . وهو أبدا في صراع مع القديم ، يصاوله ويجاوله ، ويتربص به ، ويدبر له منه ، فلا يطمئن القديم ولا يقر له قرار ما دام الجديد قائما في وجهه يطالعه في كل حين .

ولكن لمن الغلبة في هذا الصراع العنيف ؟

لا هي للقديم ، ولا هي للجديد . لان حاجتنا للقديم قائمة كحاجتنا للجديد . والقديم والجديد كلاهما نمط من أنماط الحياة وناموس الحياة لا يقوم على الصراع وحده ، بل يقوم ايضا على التعاون ولننظر الى الحياة من كتب . السنا نراها تقوم على أصلين يبدو لاول وهلة انهما متعارضان ولكنهما في الواقع من الامر متوافقان ، أحدهما يكمل الآخر ؟ تقوم الحياة على التنافس . وهو هذا الذي قصد اليه كتاب الله الكريم عندما تقرأ فيه :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » .

ثم هي تقوم على التضامن . وهو هذا الذي قصد اليه الشاعر العربي حين يقول :

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

فالتنافس والتضامن هما اذن الاصلان اللذان تقوم عليهما الحياة ، فلماذا

نمجب اذا كل الصراع والتعلون هما الاصلان اللذان تقوم عليهما العلاقة بين الجديد والقديم ؟

الجديد يصارع القديم ، فيصرعه فيما رث منه وبلي ، ويتماسك معه فيما ثبت منه وصلب . ولا يستطيع الجديد ان يستغني عن القديم ، كما لا يستطيع القديم ان يستغني عن الجديد .

القديم يمثل الثبات والاستقرار ، والجديد يمثل المرونة والتطور . وكل ذلك ضروري للحياة الانسانية وضروري للفكر البشري .

ما هي الحضارة ؟ ليست هي أصلا ثابتا من القديم يقوم عليه بنيان يتجدد على وجه الزمن ؟

ما هو العلم ؟ ليس هو المعرفة تلقيناها عن أجدادنا جيلا بعد جيل ، وكل جيل يهدم من البنيان حجرا قديما متداعيا ويضيف حجرا جديدا واسخين ، حتى اتسق البنيان وعلا شاهقا يطاول السماء ؟

ليس الفكر الجديد يصطارع مع الفكر القديم ، فيكشف عما في القديم من غث وسمين فيه من سمين ؟

وهذا القول صحيح في الأدب وفي الشعر وفي الاجتماع وفي العلوم المختلفة وفي القانون .

حتى لقد وجدني كتبت في القانون منذ اثنتي عشرة سنة ، في صدد النظريات القديمة والجديدة ما يأتي : « ووقفت فيما استعرضته من النظريات القديمة والجديدة موقف المعتدل ، لا يستهويني من الجديد جدته ولا يشينني من القديم قلمه . حتى اذا انست في الجديد ثباتا ، وأحسست منه عمقا ومطاوعة للتطور ، تركت القديم إليه ، وتعرفت فيه وجه القانون الحي المتجدد » .

والآن ايها الشباب ، ايها الجيل الجديد . هذا رجل من الجيل القديم يتحدث اليكم فاصفوا له : نحن رجال الجيل القديم شيبتنا الايام

وعرّكنا الزمن ، وبلونا الدهر خطوه ومره ، فأتسعت تجاربنا ، وانفسح
لنا مجال المعرفة ، ولكن تصرفات الدهر وتقلبات الزمن وكر الايام كل
هذا اطفأ بريقنا ، وخمد جدوتنا ، وفّت في عضدنا ، وصيرنا الى المعجز
اقرب منا الى القدرة .

وانتم شباب الجيل الجديد : هممكم مشبوبة ، وعزائكم متوقدة ،
والهلمكم صادق ، ودم الشباب يتدفق في عروقكم ، واحلام المجد والعظمة
تجيش في صدوركم ، ولكن الزمن لم يعرككم ، ولم تتمرسوا بالاحداث ،
ولا زلتم في حاجة الى المعرفة .

نحن في حاجة الى الهامكم ، وانتم في حاجة الى معرفتنا . نحن
في حاجة الى حركتكم ، وانتم في حاجة الى ثباتنا . ونحن في حاجة
الى وثبتكم ، وانتم في حاجة الى تجربتنا .

فنحن جميعا اذن لا غنى لبعضنا عن بعض . يكمل جيلنا جيلكم ،
ويشرق جيلكم على جيلنا ، ونبقى معا في صفين متقابلتين ، مقدر لنا
ان نتصارع ، ومفروض علينا ان نتعاون .

ليت جيلكم يستطيع النهوض بالامر وحده ، اذن لاسلمنا لكم
الزمام ، ونطينا من التبعة .

وما جيلنا بمطبق ان يقوم بهذا الامر دون ان يستوحى الهامكم ،
ويستنجد بهممكم ، ويستند الى عزائكم .

نموزكم المعرفة ، ونعوّزنا القدرة .

اواه لو عرف الشبا ب واه لو قدر المشيب

عبد الرزاق السنهوري

المصدر : الهلال : يناير ١٩٢٩ المجلد ٥٧

محاكمة الجيل الجديد

عباس محمود العقاد وفتحي رضوان : ت ١٩٨٨

تولى مهمة الاتهام الاستاذ عباس محمود العقاد ، وتولى الدفاع الاستاذ
فتحي رضوان المحامي ، أما الحكم لهم قراء الهلال . .

كلمة الاستاذ عباس محمود العقاد :

تبدا محاكمة الجيل بتقرير الحقائق المتفق عليها في شان هذا الجيل .
والحقائق المتفق عليها في شأنه هي :

١- اولاً : انه اوفر من الاجيال الجديدة في العصور الماضية نصيباً
من المعرفة .

ثانياً : انه اوفر منها نصيباً من حرية الرأي واستقلال التفكير .

ثالثاً : ان له اعداء كثيرة مما يعانيه في مطلع حياته من تبلبل الافكار
واضطراب الشعور وقلق الضمير . لانه نشأ في زمان تهدم فيه كثير من
القواعد وتزعزع فيه كثير من الاصول ، وتبدل فيه كثير من العلاقات
والمألوفات .

هذه حقائق يعرفها الجيل الجديد كما يعرفها الجيل القديم .

وبقيت هنالك طائفة من الحقائق التي ينبغي ان يعلمها الجيل الجديد
ليعلم ما يستطيعه ويهتدي الى الصواب في امتحان دعواه .

وأول تلك الحقائق ، انه ليس بأول جيل جديد ظهر في تواريخ
الاجيال ، فما خلا العالم قط من جيل جديد ظهر فيه منذ أقدم
العصور .

وان النسبة محفوظة بين كل جيل وما قبله ، فلم يكن الفرق بين القديم والجديد في عصرنا هذا اوسع او اهم من الفرق بين القديم والجديد في القرون الماضية ، لان التقدم يأتي على التعاقب والتدرج ولا يأتي طفرة واحدة في زمن من الازمان .

واهم من هذه الحقائق جميعا ، واعجبها لأول وهلة ، واحقها بالتأمل الطويل من جيلنا الجديد ، هي ان الاجيال الجديدة في الزمن الماضي كانت - مع قلة نصيبها من العلم - اقدر على حل مشكلاتها واعرف بظروفها من الجيل الجديد في العصر الحاضر ، لان علمها على قلته كان كافيا لمواجهة مشكلاتها . على خلاف جيلنا الجديد في عصرنا هذا ، فان مشكلاته اكبر واضخم من علمه كائنا ما كن حظه من التعليم .

فالاجيال الجديدة في العصور الماضية كانت لها مشكلات محدودة في مجتمع واحد ووطن واحد ، او لم تكن لها مشكلات على الإطلاق ، لانها تتلقى ظروف المعيشة وتكاليف الحياة على سنة معروفة لم يطرأ عليها تغيير كثير .

اما الجيل الجديد في العصر الحاضر فمشكلاته متعددة الجوانب ، كثيرة الشعب ، متناقضة المبادئ والغايات ، وهي على هذا مشكلات عالمية انسانية ، وليست بمشكلة معيشة واحدة او مجتمع واحد . لانها تتناول المذاهب الاجتماعية التي يتوقف فهمها على فهم اطوار التاريخ من عهد الهمجية الى اليوم ، وتتناول السياسة العالمية بما يحيط بها ويكمن فيها من الاسرار والغوامض التي تدق عن الافهام ، وتتناول اصول الروحية ، والمادية واصول المعاملات الاقتصادية التي توسع فيها الدارسون ، حتى أصبح كل باب منها اوسع من جميع الابواب التي كان يطررها المفكرون والدارسون في العصور القابرة .

فاذا كان نصيب الجيل الجديد من العلم اوفر واعظم من نصيب الاجيال السابقة ، فليس في ذلك ما يخوله ان يستولي على مقاليد الامور ،

ويستقل بالعمل في مسائل وطنه أو مسائل العالم أجمع . بل هو أحوج من كل جيل مضى الى التعاون بينه وبين الاجيال السابقة والاجيال اللاحقة ، لان العبء الذي يواجهه عبء انسانية كاملة ، وليس عبئا ينهض به جيل عابر في هذا الوطن أو ذاك .

وقد دلت التجربة العملية على أن الجيل الناشئ في القرن العشرين ، يمجز عن الاحاطة بالمشكلات التي يدعى الى الاضطلاع بها كلما اعتمد الامر عليه دون غيره .

فزعامة هتلر - وهي اكبر زعامة في الجيل الحديث - قلمت على الجيل الناشئ في البلاد الالمانية ، ولم يكلفه اقناعهم غير الهاب حماسهم ، واشباع شغفهم بالمواكب والمظاهرات ، وتزويدهم ببعض الافكار التي لا تعبر عن حقائق الاحوال في العالم . فكانت النتيجة كارثة على هتلر ، و كارثة على الجيل الناشئ ، و كارثة على البلاد الالمانية ، و كارثة على العالم بأسره .

كانت كارثة على هتلر لانه سقط وانتحر ، و كارثة على الجيل الناشئ لانه كاد يفنى في الحرب الطاحنة التي سيق اليها فاصبح فناؤه مشكلة اجتماعية لبلاده ، و كارثة لالمانيا كلها لانه اوقعها تحت اقدام اعدائها فتسلطت عليها اربع دول من الد اولئك الاعضاء ، و كارثة على العالم كله لانه خلق فيه هذه القلاقل التي لا يزال يتخبط في جوارئها الى اليوم .

وهكذا حدث لاطاليا على يد موسوليني ، وهكذا يحدث لكل بلد يبطل فيه التعاون بين الاجيال ويقوم الحكم فيه على هوى جيله الجديد دون غيره من اجيال الشيوخ والكهول .

هذه الحقيقة جديرة بكل تأكيد وتكرير .

وهي جذيرة على الخصوص بالتأمل الطويل بين أبناء الجيل الناشئ،
لأنها تعصمهم من الغرور وهو الذي يضلهم عن حقائق أنفسهم وحقائق
غيرهم وحقائق الزعامات والدعوات .

وأصعب ما يشكو منه الجيل الجديد أنه مضطرب المذاهب بين شتى
الزعامات ومختلف الدعوات .

ولكنه إذا سلم من ذلك الغرور آمن أن يسيطر عليه المظلون ، وتيسر
له أن يميز بين الصالح والفساد من كل دعوة تتجه إليه .

فإنما يفلح المظل في تضليله لأنه يشبع غرور الجيل الناشئ فيغرر
به من هذا السبيل .

يفلح المظل إذا وجد أمامه جيلا مغرورا يستمع له حين يوجهه أنه
أعظم الأجيال ، وأذكى الأجيال ، وأقدر الأجيال على ولاية الأمور .

فإذا بطل هذا الغرور الذي يتقبل هذا التفرير ، فهناك فائدة محققة
يجنيها الجيل الجديد من صحوه ويقظته ، وهي أن يقضي على التضليل ،
ويقيم الإصلاح على أساس سليم . فإن لم يتيسر تحقيقه كله ، فقد ارتفع
من طريقه على الأقل كثير من العقبات .



وفي مصر هنا يوجد بين المظللين من يوهم الناشئة أن الجيل القديم
لم يصنع شيئا وأنهم - أي الناشئة - هم الذين يصنعون كل شيء .

وكلمة الصديق التي نقولها في دفع هذا التضليل ، أن الجيل الجديد
يعد نفسه سعيدا حقا إذا استطاع أن يصنع لوطنه في ثلاثين أو أربعين

سنة مثل ما صنعه الجيل السابق في مثل هذه المدة من تاريخ النهضة المصرية .

فالجيل السابق نقل مصر في ثلاثين أو أربعين سنة من الحماية الى الحرية الوطنية والحياة النيابية ، وخلصها من الامتيازات الاجنبية التي كانت تستعبدها لجميع الدول الاوروبية والامريكية .

كان في كل وزارة مستشار اعظم نفوذا من الوزير ، وكان في كل اقليم مفتش اعظم نفوذا من المدير ، فأصبح أبناء البلاد هم الحاكمين في الوزارات والاقاليم ، وهم الذين يضعون القوانين للاجانب كما يضعونها للمصريين .

وتخلصت مصر من ديونها للدول والمصارف فأصبحت دائنة لمن كانوا يدينونها ، ولم يكن لها شأن في سياستها الخارجية فأصبح لها شأن ملحوظ في مجامع الدول كافة ، ولم يكن لها جيش فأصبح لها جيش مجيد يحسب حسابها ، وتضاعفت ثروتها ، وتضاعفت مستشفياتها ، وتضاعفت مدارسها ، وتضاعف عدد المتعلمين فيها .

ويمكن ان يقال ان الناشئة اذا كانت تتمتع اليوم بنصيب عظيم من الحرية ، فهو كله من عمل الجيل السابق لا من عمل الجيل الجديد .

فاذا استطاع هذا الجيل الجديد في ثلاثين أو أربعين سنة ان يصنع لوطنه مثل هذا الصنيع فانه والله لجيل سعيد .

قد يقال ان زعماء الجيل القديم فيهم مظلون كثيرون .

فمن قال هذا فليذكر ان المظللين بالناشئة موجودون في كل امة ، وكلهم يريدون التظليل ويربحون منه اذا استطاعوه ، ولكن الفرق بين امة وامة هو ان المظلل لا يجد من يضلله في الامة الرشيدة ، وانه يجد في الامم الاخرى من يقبل منه التظليل ويعاونه عليه .

قيل لجمال الدين الافطاني : « ان المستعمرين ذئاب » ، فقال كلمته المشهورة : « لو لم يجدوكم نعاجا لما كانوا ذئابا » .

ويقال هنا ان بعض الزعماء الاقدمين يضللون بالناشئة . فليكن جواب هؤلاء القائلين : « نعم . ولكنهم لو لم يجدوا من يستمع اليهم لما تأتت لهم تضليل ولا تدجيل » .

وهم يجدون من يستمع اليهم لانهم يجدون من يغرون به ، ويجدون من يغرون به لان هؤلاء يحبون الغرور ، ولن يكون تغرير قط بغير غرور .

فيعصم الجيل الجديد نفسه من الغرور ، لانه ظلام يحجب حقائق الاشياء ، وليخرج من هذا الظلام الى النور مفتوح العينين ، فيرى الطريق السوي . ومن رأى الطريق السوي استطاع ان يصل وإن طالت المسافة وشق المسير .

كلمة الاستاذ فتحي رضوان المحامي

نحن نختلف ، في تقدير الجيل الجديد ، وتحديد نقائصه وسقطاته ، وبيان فضائله ومزاياه .

نختلف في المقدمات ، وفي النتائج . ولعلنا اكثر اختلافا في المقدمات . وقد يكون هذا طبيعيا ، لان النتائج انما تلدها المقدمات . فمن المقدمات التي نعترض عليها اشد الاعتراض ان هتلر وموسوليني ، قد جرا على نفسيهما كارثة ، ثم تكبا وطنيهما بمثلها ، ثم جرا على العالم الويل والشقاء : لانهما اعتمدا على الشباب واثارا فيه حب التضجيج ، والميل الى مظاهر البطولة بالمظاهرات والمواكب .

وقلوىء هذا القول يظن ان المانيا نفسها لم تنكب بمثل هزيمتها في سنة ١٩٤٥ ، في حرب عالمية اخرى انتهت في سنة ١٩١٨ ، ولم يكن قادتها اذ ذاك الا الشيوخ ، بل ان اكبر قوادها كان ضابطا متقاعدا شهد حرب السبعين ، وعمل في ايام بسمارك .

وللقارئ ان يتساءل : اذا كان هتلر وموسوليني قد منيا بالهزيمة لانهما اعتمدا على الشبان دون الشيوخ فما سر هزيمة اليابان ، وللشيوخ فيها مقام القديسين بل ومنازل الارباب ، والسياسة تجري فيها على طقوس تباركها المعابد التي يعيش في زواياها الهادئة شيوخ اثقلت عقولهم واجسامهم معا حكمة الخبرة وتجارب السنين ؟!

ولكن القارئ اذا فكر قليلا لا يلبث ان يدرك ان انجلترا هي التي وكلت اكبر شؤونها الى الشبان في عوالم السياسة والحرب والاقتصاد ، خلال المعركة العالمية الثانية ولم يكن تشرشل الا الوجه الظاهر العتيق ، لبناء اقيم على احدث طراز ، واث من الداخل بآخر ما جادت به الايام . ولو اننا حسبنا اعمار بيفن ، وهورلشيا ، وايدن ، وانداهم ممن اداروا دفة الحرب في بريطانيا ، وقارناها باعمار اضرابهم في دولة هتلر من امثال جورنج ، وفون باين ، وبرنتروب ، وروزنبرج ، لتبيننا ان بريطانيا هي دولة الشباب ، او ان الشيوخ فيها ليسوا باكثر نصيبا من الشيوخ في دولة النازي !

ولقد فازت روسيا ورئيس دولتها او زعيمها المحرك لها ، في حدود الستين ، ولكن الدين حوله اكثرهم من الشبان او الكهول ، فكيف نعلم هزيمتها في سنة ١٩١٧ يوم ان كانت امورها في ايدي شيوخ تدلت لحاهم حتى البطون ؟!

ان الجيل الجديد ، انما كان جديدا ، لانه اتى بعد جيل نهيا لاخلاء ساحة الميدان ، او لمبارحة خشبة المسرح ، ولا يستطيع الجيل الجديد ان يحل محل السابقين الا اذا امتلات نفسه ثقة بمواهبه ، وامتلا اقتناعا بانه سيأتي بما لم يأت به الاوائل ، وهذه الثقة التي تغيظ الشيوخ وتضايقهم ، ليست الا قانون الطبيعة الذي لا يقاوم . فهي مظهر المزاحمة بين الجيلين ، فان لم يدفع احد الجيلين الآخر ، وقفت الحياة . وهذا الدفع لا يتم مرة واحدة ، والا فسد الامر ، وتوقف العالم . فان الجيل القديم لن يخلي المكان مرة واحدة ، والجيل الجديد لا يحتل مقاعد

الشيوخ في جولة واحدة ، انما يتم ذلك بالتلقيح وعلى سنة التدرج والتطور ، وتنظيم التعاون بين الجيلين ، ولا يمنع ذلك ان الجيل الجديد يواصل زحفه ، والجيل القديم يواصل انسحابه .

ولست ارى ان الجيل الجديد الحالي ، أعجز عن حل مشاكله من الجيل السابق ، وان زاد نصيب الاول من العلم على نصيب الثاني . ذلك لاننا لا نرى مشكلة من المشاكل قد حلها الجيل القديم في مصر . فلاحتمال البريطاني ، كان قد قنع في الحربين العالميتين السابقتين بأن تقف بلادنا موقف المساعدة داخل حدودها ، غير ان الجيل القديم يطعمه في اماكن الخروج بهذه المساعدة عن الحدود ، وبغير قيود ، وفي حرب عالمية ستكون فيها الكوارث مما يبعد المدن في لحظات !

واذا كان الجيل القديم قد زحزح الاحتلال الى السويس ، فانما كان ذلك بسواعد الشباب ، ودماء الشباب ، بل كان على عكس النتيجة التي قدم لها الشيوخ سياسة الملاينة والتسامح . ومع ذلك فان الكسب الظاهر من زحزحة الاحتلال الى السويس وبور سعيد والاسماعيلية سيبدده ما تطلبه بريطانيا من اقلاننا في حروبها مع اضعف الدول واكبرها !

وانا لنتساءل بعد ذلك : ما هي المشكلة التي حلها الجيل القديم ؟ هل حل شيوخته مشكلة الامية ؟ والى اي حد خفضوا نسبة الجاهلين بالقراءة والكتابة ، وكم رفعوا نسبة المتعلمين ، الذين يعرفون كيف يصوتون في الانتخابات ، بعيدا عن الضغط والتضليل ؟

هل زادوا شيئا في موارد الثروة ، او اضافوا اليها جديدا عما كان في عهد محمد علي الكبير ؟

هل رفعوا مستوى المعيشة بين الفلاحين ، وهل زادوا في نصيب الفقراء من الثروة العقلمرية ؟

ثم ما هي الافكار الجديدة التي بشر بها شيوخ هذه الايام فلكيت رواجا ؟ ومن منهم ثبت على شيء من الافكار المتطرفة التي بدأوا بها حياتهم ؟! لقد كان الايمان بالبحث العلمي ، الى حد متاخمة (الالحد) طابع التفكير عند شيوخ ايامنا منذ سنوات ، فلما تقدم بهم العمر طووا اوراق هذه البحوث المتطرفة المتوتبة ، واحلوا محلها بحوثا تتسم بالتصوف ، وتقرب من الحضارة الشرقية .

اما الجيل الجديد فقد دعا الى اعلاء شان اللغة العربية مثلا في شؤون التجارة والاعلان ، وفي المخطبة بين الشركات والبنوك . وقد طورد واضطهد ، ولكنه ثبت حتى نجحت فكرته .

على اننا نسال ايضا : اين هم التلاميذ الذين انجبهم هؤلاء الشيوخ ، واتاحوا لهم الظهور ، بحيث يستطيع كل مصري ان يقول لنفسه : « او خلا مكان الكاتب الكبير فلان ، لكان العوض في فلان الذي اخذ منه . واذا شفر مكان الفيلسوف فلان ، ملا مكانه تلميذه الذي ينشر الان كتبنا وبحوثا مشابهة ، وان كانت تحمل طابع الجدة » ؟!

ليس يحق للشيوخ ان يمنوا على الجيل الجديد بانهم اسبقوا عليه نعمة الحرية . فليس ثمة قيد واحد مما كان في ايامهم الا وهو موجود في ايامنا ، بل ان القوانين المقيدة للحرية ، زادت في ايامنا ، حتى اصبحت القضايا الصحفية لا تعد في هذه الايام ولا تحصى ، بينما كانت قضايا الراي والسياسة في الماضي ، من الحوادث المشهورة التي تؤرخ بها الايام !

ولكانما احس موجه الاتهام الى الجيل الجديد ، ان جيله متهم بالتضليل ، فلما اراد ان يدفع هذه التهمة عن جيله اكدها ! فقد اخذ على الجيل الجديد انه انطلى عليه الخداع ، وجاز عليه التضليل . ثم حملة تبعة هذه الرذيلة التي ارتكبها بعض الشيوخ في حق امتهم وابنائهم ، وفاته ان الصغير الناشئ لا يملك بحكم السن ، وظروف الطبيعة ، ان

يميز بين الخير والشر ، وانه ليس الا ضحية القدوة السيئة التي ضربها له بعض الشيوخ .

ومع ذلك ، فاي صاحب رأي من الشيوخ ، يستطيع ان يقول ان انصاره اليوم هم في عدد انصاره بالامس . واي منهم يملك ان يدعي ان حرارة الحماسة التي كان يلقاها ويحس بها في تأييده عند معركه مع خصومه في الرأي السياسي او الادبي ، باقية جذوتها الى اليوم ؟

لقد انفض الشبان عن هذه المعسكرات القديمة كلها ، ويأبى الآن كل منهم ان يرتبط في سداجة كما كان يفعل في الماضي .

والشباب على عكس ما يظن الظانون لا يخاف المشاكل الكبرى القومية والعالية التي تواجهه ، ذلك لانه يحس ان هذه المشاكل واشباهها هي شغل الدنيا قاطبة ، وانه يستطيع ان ينتفع بتجارب البشر في كل بقعة من الارض . بعلمهم وفنهم يؤنس وحشته ويزداد ثقة بنفسه وطمأنينة ، واملا في الانسانية جمعاء .

في تقليد مظاهر الحياة الغريبة ، ولكنها تبقى بعيدة عن مسيرة روح العصر في طرائز التفكير والعمل ، وفي سائر نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

ومن المعلوم ان روح المحافظة في أوروبا كانت وصلت الى أوج قوتها في القرون الوسطى ، حيث كان كل شيء تقريباً يستقر على شكل معين ، لم يتبدل منذ عدة اجيال ؛ حتى الاعمال الزراعية والصناعية ، كانت قد تقررت على قواعد ثابتة ، لا يسوغ لأحد ان يخالفها أو ان يغير شيئاً منها ، وحتى التفكير كان اخذ يسير سيراً رتيباً ، لا مجال فيه لأدنى تغيير وتجديد . وقد أحيطت الكتب القديمة بأجمعها بهالة من التمجيد والتقدير ، واعتبرت الكتب المذكورة المصدر الأصلي لكل علم ، والمرجع الأول والآخر لكل قضية ؛ وصلح الدرس والبحث والتفكير لا يعني شيئاً غير فهم الكتب القديمة ، والاستنباط من الكتب القديمة ، والبحث في الكتب القديمة ، وشرح معاني الكتب القديمة ، وتفسير عبارات الكتب القديمة .

ولكن الامور تغيرت منذ تلك العصور تغيراً كلياً ، وقد فقدت روح المحافظة قوتها شيئاً فشيئاً ، وأخذت نزعة التجديد تتغلغل في النفوس ، وتتصل بشتى نواحي الحياة تدريجياً ، الى أن صارت تشمل جميع مظاهر الحياة تقريباً .

والآن ، قد وصل العالم المتمدن الى دور أصبحت فيه نزعة التجديد مهيمنة على جميع مظاهر الحياة . واصلت كل الامور تتطور بصورة مستمرة وبسرعة هائلة ، لم يسجل التاريخ لها مثيلاً في حياة اية أمة من الأمم ، وفي أي دور من ادوار الماضي القريب والبعيد . أصبح كل شيء يتجدد ويتطور بسرعة هائلة ، تجعل هذه الاطوار شبيهة بالانقلابات الثورية التي تجرف كل شيء فلا تترك شيئاً من الاشياء على حالته القديمة .

وأما نحن فقد بقينا محافظين على معظم أحوالنا القديمة ، ولم نسأير هذا التطور السريع الذي أخذ يجرف العالم جرنا . ولا نغالي إذا قلنا أننا وقفنا أمام هذه السيول الجارفة حائرين ، مترددين ومتخالفين :

ففريق منا يدعو إلى الإسراع في التجديد دون قيد وشرط ، حتى أنه يقول بوجوب نبذ كل ما هو قديم بدون استثناء . وفريق يعتقد بأفلاس الحضارة الغربية ، ويدعو إلى الاحتفاظ بتراث الشرق ، وعدم التفريط به « في سبيل هذه الحضارة المزيفة » . وفريق يقف موقفاً بين بين ، ويحاول أن يعين الأمور التي يجب التجديد فيها والأمور التي يجب سلوك مسلك المحافظة في شأنها .

فماذا يجب أن يكون موقفنا من هذه القضايا ؟ . ماذا يجب أن يكون موقف الجيل الجديد في البلاد العربية من قضايا « القديم والجديد » ومن سياسة « المحافظة والتجديد » ؟

- ٢ -

إن أولى الحقائق التي يتوصل إليها الباحث عندما ينعم النظر في قضية « القديم والحديث » ، وهو : أنهما عنصران هامين من عناصر الحياة . وهما متلازمان وضروريان لبقاء الحياة الجسمية والنفسية والاجتماعية بوجه عام .

فلننظر أولاً في تأثير كل من القديم والحديث في الحياة الجسمية :

من المعلوم أن أهم الأوصاف التي تميز الأحياء عن الجمادات هي صفة « التجديد المستمر » .

فإن الخلايا التي تؤلف البدن - في جميع الكائنات الحية - تتغير وتتجدد على الدوام ، كما أن المواد التي تتركب منها كل واحدة من هذه الخلايا أيضاً تتغير وتتجدد بدون انقطاع .

ولا حاجة الى القول ان مفهوم « التجديد » ، يفيد « حدوث شيء جديد » من حيث الاساس ، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه « بقاء شيء قديم » ايضا . لان « التجديد » يختلف عن « التغير المطلق » ، ويعني « تغير العناصر المكونة » مع بقاء الهيئة الاصلية واستمرار البناء القديم .

فنستطيع ان نقول - لذلك - ان « القديم والحديث » عنصران لا ينفصلان في « الحياة الجسمانية » .

افترضوا ان عضوية من العضويات اخذت تتغير في موادها المركبة ، دون ان تحتفظ بهيأتها الاصلية وبنائها القديم . وتصوروا ماذا سيكون مصير تلك العضوية : لا شك في ان هذا المصير ، لن يكون سوى فقدان الحياة ، والانحلال والفتاء .

وافترضوا - بعكس ذلك - ان عضوية من العضويات حرمت بفترة من حركة التجدد والتغير ، وحافظت - في الوقت نفسه - على هيئتها الاصلية وبنائها القديم ، وتصوروا ماذا سيكون مآل تلك العضوية : لا شك في انها ستتحول الى مومياء فقدت الحياة ، ودخلت في عداد الجمادات والمستحاثات .

يظهر من ذلك ، ان لكل من القديم والحديث مهمة خاصة في الحياة .

ونستطيع ان نقول ، ان الحياة تقوم على نوع من التوازن بين القديم والحديث ، وهي تعني : قيام عناصر جديدة مقام العناصر القديمة ، مع بقاء الهيئة الاصلية والبناء القديم .

ومما يلفت النظر : ان النسبة بين القديم والحديث ، لا تبقى على وتيرة واحدة في جميع اعضاء البدن وفي جميع ادوار الحياة .

فان سن الشباب ، هو الدور الذي تبلغ فيه حركة التجدد اقصى سرعتها واولج نشاطها . واما سن الشيخوخة ، فهو الدور الذي تخف

وتتضاعل فيه حركة التجديد ، وتزداد خلاله في البدن المواد القديمة التي تبقى خارجة عن نطاق هذه الحركة .

كما أن هذه الحركة تخف وتتضاعل في بعض أعضاء البدن قبل غيرها ، والمواد التي تبقى خارجة عن تيلو التجديد ، تتراكم في تلك الاعضاء أكثر مما تتراكم في غيرها .

والشيخوخة إنما تنأتى من تراكم هذه الرواسب الجلمدة ، وتضائل حركات التجديد في مختلف أعضاء البدن .

ويظهر من كل ذلك : أن الحياة الجسمانية ، تقوم على عنصر التجديد والمحافظة في وقت واحد ، ولكنها تتمثل في عنصر التجديد أكثر مما تتمثل في عنصر المحافظة بوجه عام .

إن ما قلناه آنفاً عن الحياة المادية - الحياة الجسمانية - ينطبق على الحياة النفسية أيضاً :

فإن الحياة النفسية أيضاً مزيج من القديم والحديث ، لا القديم يكفي لها ، ولا الحديث يعني عن القديم فيها . بل إن كليهما ضروري للحياة النفسية ضرورة قاطعة .

افترضوا أن شخصاً من الأشخاص البشرية ، تجرد عن كل ما هو قديم ، وفقد كل ما كان له من العناصر التي تمت بصلة الى الماضي ، وتصوروا ماذا ستكون حياته النفسية في هذه الحالة . لا شك في أنه سيفقد الإدراك والفهم والتفكير مرة واحدة ، لأن الإدراك لا يتم الا بتلاحق الاحساسات الجديدة مع القديمة ، والفهم لا يتيسر الا بادخال المفهوم الجديد بين المعلومات القديمة والتفكير لا يقوم الا على أساس الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وذلك لا يتم الا بتنظيم المعلومات السابقة على أشكال جديدة ، وتحليلها وتركيبها على أنماط وصور مختلفة ، كلها حديثة . إن الحرمان من الذكريات القديمة ، لا بد من أن يؤدي الى الحرمان من كل

هذه الصفات العقلية ، ولا بد من أن يستوجب توقف وانقطاع جميع هذه الافاعيل النفسية .

و افترضوا - بعكس ذلك - أن شخصاً من الأشخاص انقطع بفترة عن كل جديد ، واصبح لا يملك في ذهنه غير ذكريات قديمة ، حتى انه فقد قابلية تركيب هذه الذكريات بأشكال جديدة ، وتصوروا ماذا ستكون حياته النفسية في هذه الحالة ، لا شك في أن هذه الحياة ستتلاشى حالاً ، فلن يعمل الشخص الا ما كان تهيأ له قبلاً ، مثل المكائن الاوتوماتية التي لا تعرف شيئاً من الجديد ابداً ..

يظهر من ذلك : ان لكل من القديم والجديد مهمة خاصة ودورا خاصا في الحياة النفسية ، وهذه الحياة لا يمكن ان تدوم وترعرع دون ان تستند الى كليهما في وقت واحد .

ونستطيع ان نقول بكل تأكيد : ان حوادث الماضي و افاعيله ، لو لم تترك اثراً في النفس ، لما استطاع الانسان ان يرتقي الى مرتبة « العقل العالي » التي واصل اليها ، ولبقي محروماً من قابليات الحكم والفهم والتفكير والابداع حرماناً مطلقاً .

إن القديم هو الذي يفسح المجال لقيام الحديث ، والمكتسبات الماضية هي التي تمكن الذهن والخيال من الابداع والاختراع ، كما ان الجديد هو الذي ينفع الحيلة في القديم ، ويورثه القوة والفاعلية . ودور التجديد ، هي التي تبني من « الاشياء القديمة » المباني الجديدة ، وتكسب تلك الاشياء الفائدة والقيمة .

القديم وحده جمود وموت ، والحديث وحده عجز وحرمان ، وأما الحياة النفسية الواعية ، فما هي الا نتيجة التمازج والتفاعل بين القديم والحديث .

- ٣ -

إن الحياة الاجتماعية ، لا تخلو من الشبه بالحياة النفسية بهذا الاعتبار . فإن هذه الحياة أيضاً تقوم على تملج القديم مع الحديث وتفاعله على الدوام . لأن الروابط الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض - من اللغة إلى التقاليد والعادات وسائر المؤسسات المادية والمعنوية - كلها من بقايا الماضي ، ومن موارث الأجيال القديمة .

إن كل جيل من الأجيال المتتالية ، في المجتمعات البشرية ، يرث من الأجيال التي سبقتة مجموعة كبيرة من العنومات والمعلومات والخبرات ، والمهارات ، ثم يضيف إليها ما يستطيع إضافته بجهوده الجديدة ، وفي الأخير ، يوصلها - مع هذه الإضافات - إلى الجيل الذي يأتي بعده . إن الحضارة البشرية لا تقوم ولا تتقدم إلا على هذا الأساس ، وعلى هذه الوتيرة . فلو لم يرث الجيل الجديد ، تلك الثروة المادية والمعنوية القديمة المتراكمة ، لما استطاع أن يعيش عيشة تختلف عن عيشة الوحوش والبهائم . ولكن لو اكتفى الجيل الجديد ، بما توارثه عن أجداده ، دون أن يضيف إليها ما تقتضيه الظروف الجديدة ، ودون أن يضيف إليها شيئاً جديداً ، لتوقف المجتمع عن التقدم ، فجمد في مكانه ، وأصبحت حضارته جامدة متحجرة ، لا تأخذ أي حظ من المتطور المبدع ، فلا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة إلى الامام .

هذا ما حدث وما يحدث في الأقوام البدائية ، التي تعيش على هامش الحضارة ميكانيكية ، لا تبديل فيها ولا تجديد .

ولا حاجة إلى القول أن أمثال هذه الأقوام تتعرض إلى الفناء والاضمحلال ، عندما تصطدم بجماعات جديدة ، مسلحة بأسلحة حديثة ، عاملة بأساليب جديدة .

إن هذا الركود والجمود ، قد يأتي بعد تقدم كبير ، ناتج عن تجدد

سابق طویل . ولكن هذه المجتمعات الجامدة أيضاً لا تستطيع أن تصمد أمام هجمات المجتمعات الناهضة ومنافساتها ، مهما كانت متقدمة عليها بتاريخها ، ومهما كانت متفوقة عليها بعدد أفرادها .

إن تاريخ الصين من أبلغ الشواهد على ما نقول : من المعلوم أن الصينيين كانوا قد تقدموا تقدماً كبيراً في شتى نواحي الحياة الفكرية والاجتماعية ، وكانوا قد سبقوا جميع الأمم الغربية في هذا المضمار . غير أنهم انقطعوا بعد ذلك عن التجدد والتقدم ، وجمدوا في مكانهم ، في المرتبة العالية التي كانوا قد وصلوا إليها قبل غيرهم . ولذلك لم يستطيعوا أن يقاوموا - فيما بعد - هجمات شرذمة صغيرة من الجماعات الأوروبية المتجددة ، فاضطروا إلى الاستسلام لها ، والرضوخ لمشيئاتها ، بالرغم من تفوقهم العددي الهائل على تلك الشرائع الصغيرة . والصين لم تنفخ وتصبح قادرة على مقاومة الاحتلال الأجنبي ، إلا بعد ما أفلحت عن الجمود ، وعدلت عن الاعتداد بالماضي ، فأخذت تقتبس أساليب الحضارة الحديثة ، ودخلت في تيار التجديد العلمي المعلوم .

ويظهر من ذلك بكل وضوح : أن القديم والحديث عنصران ضروريان لقيام المجتمع وتقدمه .

وهنا لا بد لي من أن أشير إلى قضية هامة ، وهي قضية التوازن بين القديم والحديث :

إن هذا التوازن يختل أحياناً ، من جراء توجه الأمور نحو الحديث أكثر من توجهها نحو القديم ، أو - بعكس ذلك - توجه الأمور نحو القديم أكثر من توجهها نحو الحديث . فنجد أحياناً أن تيار التجديد يكتسب قوة كبيرة ، ويصرف الأذهان عن القديم . وقد يصل إهمال القديم - بهذه الصورة - إلى درجة تصبح معها مقومات الأمة وكيانها . معرضة إلى خطر التضعف والاضمحلال . فيترتب على مفكري الأمة عندئذ ، أن ينبهوا الأذهان إلى هذا الخطر ، ويدعوا الناس إلى زيادة الاهتمام بالقديم .

وقد يحدث أحيانا عكس ذلك تماماً : أن روح المحافظة تتقوى الى درجة كبيرة ، فتصرف الأذهان عن الالتفات الى حركات التجديد ، فتصبح الأمة معرضة الى خطر الجمود والتأخر . فيترتب على المفكرين عندئذ أن ينبهوا الأذهان الى هذا الخطر ، وأن يقوموا بدعاية قوية جداً ، لحمل الجيل الجديد على الثورة ضد القديم ، وإبعاد الناس عن مهلوي الركود والجمود ، ودفعهم نحو سبيل التقدم والتجديد .

ولست في حاجة الى القول بأننا الآن ن في وضع يشبه هذا الوضع الأخير :

لقد تأخرنا كثيراً جداً من مسير قافلة الحضارة العصرية . ووجدنا على أساليب بالية ، في معظم مناحي حياتنا الفكرية والأدبية والاجتماعية . فأصبح من الواجب علينا أن نشور على هذا الركود والجمود ، وأن نسارع الى سلوك سبل التجديد ، وأن نسير في هذه السبل مسرعين ومهروولين ، لنستطيع أن نتلافى ما فاتنا ، من الزمن في هذا العصر الذي استاز بوجه خاص ، بسرعة التطور والتجدد الخارقة .

- ٤ -

يوجد بيننا عدد غير قليل من الشبان والكهول الذين يتخوفون من الاسراع في هذا السبيل ، ويقولون بوجوب السير على « سنة التدريج » في امر التجديد . وهؤلاء كثيراً ما يتلذذون بنظرية التطور للنم وأبهم وتبرير موقفهم من هذه القضية .

لا شك في أن نظرية التطور كانت من أهم النظريات التي أوجدت أخطر الانقلابات الفكرية في النصف الثاني من القرن الأخير ، والتي غيرت نظر الانسان الى الكون تغييراً أساسياً :

كل شيء يتطور في الكون ، في الأرض وفي السماء ، وفي عالم الجماد وفي عالم الاحياء ... كل شيء يتطور بالتدريج ، بفعل عوامل طبيعية ،

قد تبدو في الوهلة الاولى ضئيلة . والتطورات التي تحدث بهذه الصورة ، قد تكون — في بادىء الامر — تافهة ، غير انها عندما تتوالى وتتلاحق تؤدي — تدريجياً — الى نتائج كبيرة وخطيرة .

وهذه النظرية التي نشأت عن ابحاث عن ابحاث داروين في « أصل الأنواع » الحيوانية والنباتية ، ما كانت تهدف — في بادىء الامر — الى شيء غير تفسير وتعليل كيفية نشوء هذه الأنواع . غير انها لم تلبث ان انتقلت الى ميادين الفلسفة على يد « هربرت سبنسر » ، وقد أخذت تؤثر في شتى نواحي التفكير البشري تأثيراً عميقاً . « والفلسفة التطورية » التي نشأت بهذه الصورة أخذت تتوسع وتترعرع بسرعة ، وصارت تغزو ميادين الاخلاق والتاريخ والادب واللغة والاجتماع ... وفي الأخير قد تسلت الى ميادين العمل والسياسة أيضاً .

وبعض المفكرين أخذوا من هذه النظرية فكرة « التدريج » وحدها ، وصاروا يستعملونها لتبرير نزعة المحافظة ، ولشجب روح الثورة والانقلاب في الحياة الاجتماعية .

إن قرب الكلمة التي تعبر عن مفهوم « التطور » في اللغات الأوروبية Evolution من الكلمة التي تدل على الثورة والانقلاب Révolution في اللغات المذكورة قد ساعد كثيراً على تقوية هذا الاتجاه الفكري ، وصارت كلمتا التطور والانقلاب تذكران معاً ، للدلالة على طريقتين متعاكستين ، في أمور التجديد والاصلاح .

فلنفكر إذن ، ما هي قيمة نظرية التطور ، في تأييد وتبرير سياسة الإبطاء والتدرج في الحياة الاجتماعية .

أولا يجب ان نلاحظ ان قياس الحوادث الاجتماعية على الحوادث الطبيعية على الاطلاق ، والزعم بأن ما يصح في احدها يصح في الاخرى أيضاً في كل الاحيان ، مما لا يستند على أساس علمي صحيح أبداً . فإن

عالم الاجتماع يختلف عن عالم الحياة اختلافاً كبيراً ، فالنظريات التي تستنبط من دراسة الحوادث الحياتية والطبيعية لا يجوز أن تعتبر شاملة للحياة الاجتماعية أيضاً .

وفضلاً عن ذلك ، يجب أن نلاحظ في الوقت نفسه أن الأبحاث والتجارب التي قام بها جماعة من علماء الحيوان والنبات أنفسهم قد زعزعت فكرة التدرج التي كانت تضمنها نظرية التطور في شكلها الأول ، لأنه قد ثبت ببراهين قاطعة — منذ تجارب « دافريس » المشهورة — أن التطور في الحيوانات والنباتات قد يحدث فجأة ، وأن بعض التويمات منها قد تظهر وتتولد وهلة ، دون أي تدرج كان .

ونستطيع أن نقول لذلك ، أنه قد أصبح من العبث تماماً ، الاستناد إلى نظرية « التدرج » لتجديد خطط الإصلاح والتجديد في الحياة الاجتماعية .

هذا ، وكثيراً ما يتلوع دعاة « التدرج في الجديد » في دعاياتهم هذه بكلمة قالها أحد علماء الطبيعة المشهورين ، قبل مدة تزيد على قرن ونصف قرن : « الطبيعة لا تقفز » *La nature ne fait pas sauts* أنهم كثيراً ما يحورون هذه الكلمة إلى شكل آخر فيقولون « الطفرة محلل ! » .

غير أن هذه الكلمة — حتى في شكلها الأصلي — لا تعبر عن حقيقة مطلقة ، فإنها إذا صحت في مضمون الحوادث الطبيعية ، فلا تصح في بعض الأخرى .

إن ثورات البراكين وحدها تبرهن على ذلك برهنة قطعية . فضلاً عن ذلك ، كثيراً ما لاحظ علماء الفلك أن بعض النجوم تنوهج بغتة ، مما يدل على حدوث تطورات خطيرة جداً في تركيبها . فلا يجوز لنا قط أن نقول أن الطبيعة لا تعرف الطفرات والانقلابات المفجائية أبداً .

ومع هذا ، ولو تساهلنا في الامر ، وسلمنا جدلاً بان الطبيعة لا تطفر أبداً ، فإن ذلك لا يمنعنا من القول : بأنها لا تسير سيرا وثيذاً على الدوام ، بل انها كثيراً ما تهزول هزولة ..

ولهذا السبب ، كلما اسمع احدهم يقول : « الطبيعة لا تطفر أبداً » ؛ اعقب على ذلك قائلا : « ولكنها تستطيع أن تهزول كثيراً » .

ولا اراني في حاجة الى القول : إن الهزولة اهم بكثير من الطفرة في هذا الميدان ؛ لانها تتالفه — في حقيقة الامر — من سلسلة قفزات وطفرات.



وقبل أن اختم حديثي عن « القديم والجديد » اود أن الفت انظار القائلين بوجوب « التدرج في التجديد » الى الحقائق التالية :

إن سير الحضارة العالمية لم يعد سيرا عاديا عاديا وثيذاً ، بل انه أصبح سيرا سريعا جداً ، لا يختلف عن الهزولة كثيراً .

وإذا كانت الامم التي تتقدم القافلة اخذت تسير بهذه الصورة بسرعة هائلة ، أفلا يترتب على الامم التي تأخرت عنها في هذا المضمار ، أن تسير بسرعة أعظم من ذلك أيضاً ، تستطيع اللحاق بالقافلة التي كانت قد سبقتها كثيراً ؟

هذا ، ويجب علينا أن نعرف حق المعرفة ، أننا نعيش الآن في عصر أصبح فيه « التوقف » لا يؤدي الى « التأخر » فحسب ، بل يعرض الواقفين الى « الاضمحلال » أيضاً . لأن الحضارة المصرية اخذت تطفئ وتستولي على جميع انحاء العالم ، وتسمى وراء استفلال جميع موارد الارض . فصلت مطاعم الدول القوية تشمل جميع انحاء الكرة الارضية . حتى إن الصحاري القفراء الخالية والاقطار القطبية المتجمدة ، مع كل ما فوقها من الاجواء العالية ، وكل ما تحتها من الطبقات العميقة ، اخذت تدخل في نطاق نشاط تلك الدول ، بصور شتى .

فأصبح من المستحيل على أية ناحية من نواحي الكرة الأرضية أن تبقى زمناً طويلاً على حالتها القديمة .. وغداً من المستحيل على أية أمة من أمم العالم أن تحافظ على كيائها ، دون أن تتسلح - مادة ومعنى - بأسلحة الحياة العصرية .

هذه حقيقة ، ويجب علينا أن ندركها تمام الإدراك ، ونؤمن بها صدق الإيمان ، وأن نضعها نصب أعيننا على الدوام ، لنعمل على هديها بدون تأخر ، وبحزم والدفاع ..

يجب علينا أن نسلك ، بدون تأخر وبحزم واندفاع ، مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية ..

التجديد في كل شيء : في اللغة والأدب ، في التربية والأخلاق ، في العلم والفن ، في السياسة والثقافة ، في الزراعة والصناعة والتجارة ..

التجديد في كل مكان : في البيت والمدرسة ، في القرية والمدينة ، في الشارع والحديقة ..

التجديد في كل زمان ، وفي كل شيء ، وفي كل مكان ... يجب أن يكون شعارنا العام .

● ساطع الحصري

المصدر : ساطع الحصري - الأعمال الكاملة - مركز دراسات الوحدة ، مقدمة كتاب : آراء وأحداث في التاريخ والاجتماع . صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٥١ .

خاتمة وشهادتان

التجديد والتجدد والمجددون

رشيد رضا ١٨٦٥ - ١٩٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة القاها صاحب هذه المجلة في نادي الجمعية الجغرافية الملكية ،
بافتتاح جمعية الرابطة الشرقية في احدى ليالي رمضان سنة ١٣٤٨
وقد حضرها الجم الفير من العلماء والادباء وطلبة العلم بالآزهر ونجباء
المدارس العالية ، وفصليات النساء . وكذا بعض فسادا السشرقين من
الشعوب الاوربية ، وقد سئلوا بعد الفراغ منها من رأيهم فيها ، فشهدوا
لها بالامتدال .

أيها السادة :

عهدت إلى جمعية الرابطة الشرقية بأن إلقى على حضرتكم في هذه
الليلة محاضرة في موضوع «التجديد والتجدد والمجددين» ، كما تفضل
زميلي في عضوية ادارتها الدكتور منصور فهمي ببيانكم باسمها ،
فارجو من حضرتكم الاصفاء والافضاء عن التقصير . وأبدأ بالتمهيد
للموضوع بمقدمة في بيان الحاجة الى شرحه وتمحيصه فأقول :

المقدمة التمهيدية في حاجتنا الى التجديد بأنواعه :

في هذا العصر المضطرب بأنواع الانقلاب الاعتقادية والفكرية
والسياسية والشيوعية والبلشفية ، في هذا العصر القلق بالفوضى
الدينية والادبية والاجتماعية ، في هذا العصر المهدد بالثورة النسائية ،
وتقوض ميثاق الزوجية ، وانقطاع سلك الاسرة ، وشائج الرحم

والقراية ، في هذا العصر الذي نجمت فيه قرون الزندقة ، والاباحة المطلقه ، والهجوم على مقومات الامة من دين ولغة وأدب ، ومشخصاتها من عادات وزي وحسب ، حتى لا يبقى فيها شيء ثابت يربى عليه النشء وتجترمه النابتة .

في هذا العصر الذي أجملت وصفه - وعندكم تفصيله - كثر اللهج بيننا بلفظ الجديد والتجديد والمجددين ، والعمر الحق اننا لفي أشد الحاجة الى التجديد والمجددين ، فانه لم ابق عندنا شيء يحفظ شخصيتنا القومية ، ومقوماتنا المالية ، ويرتقي بنا في معارج الحياة الاجتماعية ، الا وقد سطت مريزاته ، وانقصمت عروته .

اما ما كان عندنا من حسب قديم ، ودين قويم ، وحضارة زاهية وملك عظيم ، فقد أخلقناه وإبليناه ، بل هجرناه فنسيناه ، وأما ما حاولنا من اقتباس طريف ، وانتحال حديث ، فلنا تشبثنا بأهدابه ، ولم ننسج شيئا من أثوابه ، فكل ما لدينا من القديم والجديد ، فهو من قشور التقليد ، كقشرة اللوز والجوز الخارجية الظاهرة ، التي تفشى القشرة الخشبية الباطنة ، لا غناء به في نفسه ، ولا هو حفاظ لشيء من اللباب في داخله .

فان كان أزهرا ومعاهدنا الدينية في حاجة الى الإصلاح لتجديد هداية الدين ، فمدارسنا الاميرية والاهلية أحوج الى الإصلاح لتجديد حضارتنا المدنية ، وإعادة استقلالنا ، وأقامة سائر مصالحنا ، فان ما ظهر من فساد التربية والتعليم فيها شامل للقسمين : الإيجلي والسلبي . وأما ما نشكو من خلل المعاهد الدينية فمعظمه سلبي محض ، وسنبين ضرره بعد . ولا يزال أهل الرأي والفهم من الامة يشكون من كل منهما ، ويقترحون الإصلاح بعد الإصلاح لهما .

نحن نحتاج الى تجديد استقلالي كتجديد اليابان ترتقي به مصالحنا الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، وننمي به ثروتنا الزراعية

والصناعية والتجارية . ونكون به أمة عزيزة ودولة قوية ، مع حفظ مقومات أمتنا من دين وثقافة وتشريع ولغة ، وحفظ مشخصاتها القومية من زي وعادات حسنة وأدب .

لا إلى تجديد تقليدي كتجديد الدولة العثمانية الذي انتهى بتمزيق سلطنتها (امبراطوريتها) الواسعة ، ثم بزوالها من الوجود ، ومحو رسمها من مصور العالم الجغرافي - ولا كتجديد الدولة المصرية الذي بدأ به في عهد مؤسسة محمد علي الكبير استقلالها ، ثم استحال تقليديا ، فانهى بالاحتلال ، وافقد الاستقلال ، ولو استقام على خطته الأولى لصارت به مصر سلطنة عظيمة مؤلفة من شطر أفريقية الشرقي ، وشطر آسية الغربي ، ولعادت مجد الحضارة العربية ، ونيطت بها زعامة الأمة الإسلامية ، ولا تزال مستعدة لهذا ، وما عليها الا أن تأخذ له أهبتها ، وتسعى له سعيه ، ثم تطلبه في إيمانه ، وتأخذه بربانه وعلى عرشها اليوم ملك يظهر من الاستعداد لهذا ما يعلمه الجميع .

نعم نحن في حاجة إلى هذا التجديد المجيد ، الجامع بين الطريف والتليد ، وإلى مجددين في العمران كمحمد علي الكبير ، وفي العلم والحكمة كمحمد عبده وجمال الدين ، لا إلى تجديد الالحاد والإباحة ، والتهتك والخلعة ، والدعوة إلى الرذيلة باسم الأدب المكشوف ، والتنفير من الفضيلة بدعوى الحرية ، وتحرير المرأة الشرقية ، وتقليد الحضارة الغربية ، فإن كل هذه المفاصد قديمة لا جديدة ، كما يعلمه المطلعون على تاريخ أثينة ورومية وغيرهما من عواصم الشعوب القديمة ، وهي التي أضعفت دولها وذابت باستقلالها (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أي أمرناهم بالطاعة والفضيلة ، ففسقوا عن أمرنا إلى المعصية والرذيلة ، فأثروا شهواتهم الخاصة ، على النهوض بالمصالح العامة ، فحق عليهم قولنا : (لنهلكن الظالمين) وقولنا : (وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون) وقولنا : (فهل يهلك الا القوم الفاسقون) وقولنا : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) أي ما كان ليهلكهم بظلم منه لهم وهم مصلحون في أعمالهم .

أيها السادة :

إن إصلاح محمد علي الكبير العمراني لم يزل معروفاً ، وإن إصلاح الحكيمين الديني والسياسي الاجتماعي لم يصر مجهولاً ، فجلالة الملك الجالس على عرش محمد علي والأمراء والنبلاء من سلالة محمد علي هم أقوى ظهير للأمة وللدولة على إعادة تجديده العمراني العسكري سيرته الأولى ، مع المحافظة على مقومات الأمة ومشخصاتها ، إذا طلبته الأمة منهما ، فإن عمالة محمد علي المجراء ، وجبته القوراء ، وأزياء رجال دولته القومية ، ورجال بعثته العلمية ، لم تكن عاقبة لهم عن النهوض بذلك العمران ، والاضطلاع بتجديد العلوم وجلال الأعمال . ولكن أمان الله خان خسر ملكه ، وسفك دماء قومه ، بما حاول من تجديده التقليدي ببرنيطته ، وتبرج امرأته ، وحلق لحى رجال دولته !!

وإن لجمال الدين ومحمد عبده سلالة علمية عقلية إصلاحية جديدة بالقيام بسنتهما ، والمضي في إصلاحهما بقدر ما اتواتهم به الأمة في استعداها . وقد رأت من نبوغ أحدهم في الزعامة السياسية (١) ما لم يكن يخطر لاحد قبل استعداها للنهوض معه ، وعرفانها بقدره .

بيد أنه قد تصدى لزعامة التجديد واحتكار لقب المجذدين أفراد هدامون غير بنائين ، يدعون الأمة إلى ترك هداية الدين ، والتجرد من لبوس الفضيلة ، والتشرف بلبس البرنيطة ، وإباحة ملابس النساء للرجال في الرقص والسباحة ، والخلو والسياسة ، ومعاقرة الخمر ، وما يتبع ذلك من ضروب الفسق . وينمون على المرأة أن يكون جل همها من الحياة الاستعداد للقيام بما خلقها الله لأجله حق القيام وميزها به على الرجل ، وهو أن تكون زوجاً صالحة محصنة ، وأما رؤؤماً مربية ، ورئيسة منزل مقتصدة منظمة . فيسمون الدار سجنها - وإن كانت تقصور الجنان ، ويسمون الزوج سجنًا لها - وإن كانت في نظره كالحور المقصورات في الخيام ، ويفرونها بالخروج عليه والتفط منه ، وأن تدخل داره وتدخل هي دار من أحبت بلون رضاه وإذنه . ويطعمونها في مناصب الحكومة

(١) هو سعد باشا زلفول .

ومقاعد النيلة وعدم المبالة بما يعارض ذلك من وظائف الحمل والولادة ،
والرضاعة والحضلة . بل يقول بعضهم : إنها أهل للحرب والقتال ،
وقيادة الجيوش البرية والبحرية ، والاساطيل المائية والهوائية ، وإن من
استبداد الرجال بالنساء واهانتهم لهن ما عبر عنه بعضهم بقوله :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الفتيات جر الذبول

كذلك يفرون الشبان بالاحاد ، ويزينون لهم اتباع الشهوات ، ليتخذوا
منهم ومن النساء جنداً يطيع قواده منهم طاعة عمياء ، لا يقبل فيها وفيهم
— بعد المروق من الدين — وعظ واعظ ، ولا يسمع مع فوضى الآداب
وطاعة الهوى نصيحة ناصح ، وحسبكم من سفة النفس وأفن الرأي ،
التسليم لهم بأن القديم قبيح يجب تركه واحتقاره لأنه قديم ، ويحتقر
المحافظ عليه بوصفه بالرجعية ونيز صاحبه بلقب « الرجعي » .

نعم قد حاول انتحال هذا اللقب الشريف (التجديد) في هذا العهد
زعنفة من الملاحدة في هذا البلد العظيم ، ليس لأحد منهم امتياز فيه بالعلم
والحكمة ، ولا بالرشد والفضيلة ، ولا بكشف حقيقة كانت مجهولة ، ولا
بسن سنة نافعة للأمة في حفظ حقيقتها ، أو تنمية ثروتها ، أو إعادة
مجدها ، (أستغفر الله إن إعادة مجد الأمة في فتوحاتها وحضارتها رجعية
عندهم يحتقرون من دعا إليه) .

وانما كل ما أوتوا أو حملوا من البضاعة في هذه السوق ثروثة في
الكلام ، وسفسطة في النجدال ، وجراة على تلبيس الحق بالباطل ، وسفاهة
في الطعن على من يخالفهم أو يرد عليهم ، ولكن بالبهتان الصريح ، لا بالبرهان
الصحيح فالصدق لا حرمة له عندهم — وباطراء غلاة الترك الذين نبهوا
الإسلام وراء ظهورهم ، حتى في هدم جميع أركان الحرية : حرية الدين
والرأي والخطابة والكتابة والزي والعمل — هذه الحرية ، التي يقدها
من يدعون أتباعهم من أهل العلم والحضارة العصرية ، ولولا إقراط الحكومة
المصرية فيها ، لما أمكن لهؤلاء الأدماء أن يجهروا بهذه الدعاية الإلحادية

لهدم دينها وآدابها وتقاليدها ، وهذا الذي يطرونه من غلو ملاحظة الترك ليس بجديد فيهم ، بل نجم في الجيل الماضي منهم وكان من ثمراته في هذا الجيل زوال السلطنة العثمانية ، التي كانت أعظم سلطنة في أوربة وآسية وأفريقية ، ولم يبق منها الا امارة جمهورية صغيرة فقيرة ، هي أقل عدداً وثروة وعلماً وحضرة من المملكة المصرية ، التي كانت احدى امارات هذه السلطنة ، وهم يريدون اليوم أن تقتدي بها في إلحاحها ونبد هداية الدين فقط ، لئلا تحل محلها فيما هي أجدر به من زعامة ١٠٠ مليون من المسلمين .

ولما خدع أمثالهم من ادعياء التجديد امان الله خان وحلول تقليد الدولة التركية الحاضرة حلقوا يفرغون عليه الحلي والحلل من الثناء ، أن اكره قومه على لبس البرنيطة وتبرج النساء ، فكلفت عاقبة تجديده الالاحادي إيقاد نيران الثورة في بلاده عليه وعلى حكومته ، واضطراره الى الفرار منها وخسارة ملكه ، وأما المدارس والنظام العسكري والصناعة وغيرها من التجديد الحقيقي فلم يتوجه اليه في بلادنا الافغان ، وقد بدى به في القرن الماضي على عهد الرحمن خان .

وكل ما يحتاج اليه الترك من التجديد الدنيوي الذي يطلبه الملاحدة وغيرهم قد شرعوا فيه في القرن الماضي ولم يكن الاسلام مانعاً لهم من شربه الذي يحظره ، فضلاً عن خيره الذي يوجب ، ولكنهم لم يسلكوا فيه طريقة الاستقلال التي سلكها اليابان بالحفاظ على مقوماتهم الدينية والقومية ، بل كانوا مقلدين فاصطدموا بالمقلدين من رجال الدين ، وكان الواجب عليهم الجمع بين التجديد الديني والدنيوي كما فعلت أوربة في النهضة الإصلاحية الدينية .

واما مصر فقد سبقت الترك الى هذا التجديد الدنيوي ولم يعارضها رجال الدين كما أنهم لم يساعدوها ، لأن التجديد كان من جانب واحد ، ولو كان من الجانبين لتم وكمل في زمن قليل ، كما سأليناه بعد .

وأدعياء التجديد هنا لا ينظرون الى الواقع وانما يقلدون ملاحظة أوربية في عداوة رجال الدين تقليداً ، فهذا التقليد الاعمى هو الذي يحملهم على الصد عن الدين بالتشكيك في عقائده ، والطمع في أحكمه بآدابيه ، والتحقير لرجالهم ، ودعوى إبطال العلم والفلسفة ، واتهام علمائه بأنهم عقبة كؤود في طريق ترقى الأمة ، فيجب أن يماطوا عنه كما يماط الأذى عن الطريق الحسنة . ولو كانوا يطلبون باسم التجديد إصلاحاً عملياً ويجدون أهل الدين مقاومين لهم فيه لكانوا معذورين .

تجديد الملاحدة المزعوم شقالي جديد للأمة

هذا التجديد المزعوم كاد يكون تجديداً حقيقياً لفتنة من فتن التفريق ربما كانت شرّاً من فتن التفرق بالعصبيات الجنسية والوطنية ، والأحزاب السياسية ، كأننا لا نستكمل جميع أنواع الشقاق إلا بوجود حزب جديد يعادي الدين ويحتقر أهله — وهم السواد الأعظم من الأمة — تقليداً للملاحدة أوربية وأحرارها فيدعو علماءه وخطباءه وكتابه الى الرد عليه ، واستصراخهم الشعب المتدين لعداوته ومقاومته ، ويضطر زعماءه وكبراءه الى مطالبة الحكومة بردع المجاهرين من أفرادها عن جهرهم بالسوء ، وهذا عين ما وقع بسوء تأثير من جهر في الجامعة المصرية بحقوق المرأة ما أنزل الله بها من سلطان^(١) ثم من جهر في الجامعة الأمريكية بوجوب مساواة النساء للرجال حتى في الطلاق والميراث ، في محاضرة طبعها ونشرها في الناس^(٢) وقد سمعت أمس خطيب الجمعة في المسجد الذي صليت فيه يندب الاسلام ويستصرخ المصلين الصائمين للدفاع عن القرآن ، إذ أهانه بعض أعدائه فرماه بظلم النساء الخ بعد أن قام بالانكار الشديد على هذه المحاضرة بعض كبار الأمراء^(٣) واجمعت الجرائد على انتقاد هذا الهرم .

(١) هو الاستاذ محمود زمي الذي نالناه في الجامعة فكان لنا الطبع والظفر بتأييد الجمهور لنا وباعتزاله هو ايضاً .

(٢) هو الدكتور فخري فرج ميخائيل القبطي .

(٣) هو سمو الأمير عمر باشا طوسن .

أيها السادة :

إن مثل هذا الشقاق قد وقع في قرون أوربة الوسطى التي كانت شر القرون عليهم ، فكانت فتنة كقطع الليل المظلم ، سفكت فيها دماء غزيرة في التنازع بين حرية العلم والحكم من جهة ، وتقاليده الدين وسلطان الكنيسة من الجهة المقابلة ، ووقع مثله أخيراً في بلاد الأفغان ، وأرى أن حل مصر مخالف لحال أوربة في تلك القرون وحال الأفغان في هذا العصر ، وأنه يجب علينا درء هذه الفتنة قبل انتشارها ، وتلافي هذا الشقاق قبل تفاقم خطبه ، وهذا ما أتوخاه بهذه المحاضرة ، وأرى أنه أفضل عمل أقدمه بين يدي جمعية الرابطة الشرقية لمصر العزيزة والشرق كله .

حصر موضوع المناظرة في بضع قضايا

وإنني بعد هذا الاجمال التمهيدي احصر موضوعها في بضع مسائل او قضايا :

(١) في معنى التجدد والتجديد ، والمقابلة بين القديم والجديد ، والتنازع بين الطريف والتليد ، والمفاضلة بين المتقدمين والمتأخرين ، وهو بحث لا يخلو من فكاهة وإحماس ، في أثناء هذا الموضوع الحريّيف الحملي (١) .

(٢) في فضل الشيء في ذاته وصفته ، ودرجة الانتفاع به ، ومزيتة في قدمه أو جدته .

(٣) في الحاجة الى التجديد الديني والتجديد الدنيوي ، وحكم الاسلام فيهما ، وحنه عليهما ،

(١) الحريف بكسر الحاء وتشديد الراء الذي يلذع اللسان بحرافته وهو هنا مجاز ويرادله الحماز وهو مبالغة حامز فطعم الحمز قريب من طعم الحرافة .

(٤) في المجددين في الاسلام ، والتجديد الذي سنه حكيم الشرق الافغاني والاستاذ الامام المصري .

(٥) في انواع الاصلاح الجديد وعدم التعارض فيه مع الدين .

(٦) الاحزاب الثلاثة في المسلمين : الفقهاء المقلدون الجلمدون ، والماديون السياسيون والمصلحون المعتدلون ، وما يقابلهم في الغرب من الاحزاب والجمعيات الدينية .

(٧) في القاعدة التي يبنى عليها الاتفاق بين الذين يخدمون امتهم ووطنهم بالاخلاص على ما يكون بينهم من اختلاف في العرف والمشرع ، او الدين والمذهب .

المصدر : مجلة المنار - م / ٣١ / ح / ١٠ (١٩٣١) ، اعيد نشر المعاصرة كاملة في « ديوان النهضة » . ادونيس - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٢ ، وما ننشره هنا هو القسم الاول من المعاصرة .

حديث

طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

سيداتي .. سادتي :

في تلك الايام التي جاءت بعد الحرب العالمية وبعد الثورة المصرية ظهرت الوان من الحرية لم يكن المصريون بل لم تكن الامة العربية تعرفها من قبل الا في تلك الايام القديمة التي ازدهرت فيها الحياة الاسلامية ايام الامويين والعباسيين

وكان اسبق الناس الى اخذ حريتهم غالباً هم الكتاب والادباء بوجه عام . هؤلاء الكتاب والادباء لم يحتاجوا في تلك الايام الى استئذان السلطان ليتكلموا بما في نفوسهم ، ولم يحتاجوا الى استئذانه ليقولوا ما تنتجه عقولهم وقلوبهم وما كان يلائم اذواقهم ، وانما اطلقوا السنتهم بالقول واطلقوا اقلامهم في الكتابة فنشأت احاديث في الصحف لم يكن الناس يالفونها قبل هذا العهد . وكانت هذه الاحاديث تمس الادب وتمس أشياء أخرى غير الادب تتصل بكل ما يكون الحياة العقلية . وكان الادباء يطرقون هذه الموضوعات في حرية واسعة توشك ان تكون مطلقة ، ثم كانوا يطرقون الموضوعات السياسية لا يحسبون حساباً لشيء ولا يخافون ان يتعرضوا للمحاكمات او التحقيقات التي كانوا ربما قدموا اليها بين حين وحين . كان الادباء اشد الناس ايماناً بحريتهم ، واسبقهم الى الانتفاع بهذه الحرية واصطناعها في احياء الشعور وفي احياء العقل وفي تنبيه الذوق وفي تركية القلوب .

وفي تلك الايام اثيرت مسائل ادبية كان الفنون سبقوا في اواخر القرن

الماضي وفي أوائل هذا القرن قد أحسوها وتأثروا بها فذهبوا في انشائهم للشعر والنثر مذهباً جديداً ، ولكنهم لم يتعرضوا لهذه المسائل بمناقشة أو جدال وإنما تأثرت بها عقولهم وأذواقهم وكتبوا متأثرين بها دون أن يحققوا البحث في هذه المسائل .

أثيرت مسألة القديم والجديد في الأدب ، وما يلائم العصر الحديث من ألوان الإنشاء الأدبي ، وثارت حول هذه المشكلة خصومات لم تكف تنقطع ، خصومات عنيفة أشد العنف ، مع أن أنصار الجديد قد بينوا لخصومهم أن فكرة القديم والجديد في الأدب ليست مبتدعة ، وليست مستحدثة ، وإنما عرفها العرب القدماء ، فكان الأدب الأموي تجديداً بالقياس إلى الأدب الجاهلي ، وكان الأدب العباسي تجديداً ، وتجديداً مسرفاً ، بالقياس إلى الأدب الأموي وذلك لاختلاف العصور واختلافه ظروف الحياة وأن من شأن هذا كله أن يؤثر في الأدب وأن يلونه ألواناً جديدة تلائم حياة الناس وتخالف حياة الذين سبقوهم فلم يعرف العرب أيام الأمويين ولا أيام الجاهلين شاعراً كبشعر أو كاتباً نواس ، ولم يطرقتوا موضوعات كالتي كان الشعراء في القرن الثاني والثالث يطرقتونها ، ولم يعرفوا الكتابة على النحو الذي كان الكتاب يكتبون عليه في تلك الأيام ، أيام الرشيد وإيام المهدي وإيام الخلفاء الذين جاءوا بعد هذين ، وكذلك قد كان الأدب يتجدد كلما اختلفت الظروف وكلما اختلفت العصور .

وكان هؤلاء الأدباء يطالبون بأن يتجدد الأدب العربي في هذا العصر الحديث كما كان يتجدد في العصور القديمة ، وكانوا يقولون إن الأدب العربي أدب حي ، وما دام أدباً حياً فلا ينبغي أن يجمد ولا أن يثبت على حال من الأحوال وإنما يجب أن ينتقل من طور إلى طور ، وأن يتبدل من حياة إلى حياة ، كما تتغير الحياة نفسها وكما تتغير الظروف المحيطة بالناس في حياتهم . حدث ذلك عند اتصال المسلمين في العصور القديمة بالثقافات الأجنبية ، وجاء أوانه في هذا العصر الحديث وقد

اشتد اتصال المصريين والعرب علما بالآداب الأجنبية الغربية التي لم تكن بينها وبين آدابنا العربية قبل القرن التاسع عشر صلة ، أي صلة .

ولكن أنصار القديم كانوا يجادلون عن قديمهم جدالا شديدا ، ويزعمون أن المحدثين لا يعرفون اللغة العربية ولا يحسنون الأدب العربي ، وأن هذا هو الذي يدعوهم الى أن يبتكروا فكرة التجديد ، وكان المجددون يبينون إتقانهم للغة العربية وللآداب العربية في عصورها المختلفة فيكتبون في فنون من الآداب قديمة ما كان الناس يكتبون فيها قبل تلك الأيام .

وبذلك اشتد الجدل بين أنصار القديم وأنصار الجديد في تلك الايام التي جلت في إثر الثورة المصرية ، حتى انتصر الجديد آخر الأمر واصبح أنصار القديم أنفسهم يحاولون أن يجددوا . وإن كانوا ألحوا في إلزام أساليب بعد بها العهد ومضى عليها الزمان .

واكثر من هذا إن قراء الصحف اهتموا بهذه المسائل التي كانت تثار بين الادباء واشتد اهتمامهم بها ، وكان موضوع أحاديثهم عندما يلتقون هذه الخلافات بين أنصار القديم وأنصار الجديد ، وكانوا يختصمون حول الكتاب ، أي الكتاب أثبت في الفن قديما وأي الكتاب أبرع في الكتابة قلما ، كانوا يختصمون حول هذا كله وكلوا يحرسون على قراءة ما يكتبه الكتاب في الصحف على اختلاف مذاهبهم السياسية ، ونشأت عن هذا حياة عقلية لم تقتصر على طبقة معينة من الادباء ولكنها تجاوزتهم الى قراء الصحف سواء منهم من كان له حظ عظيم من الثقافة ومن كان على حظ ضئيل منها ومن لم يكن يحسن من الأمر كله إلا الكتابة والقراءة .

ونشأ في تلك الأيام شيء غريب لم يكن مألوفاً ، فظهر بعض الشبان الذين لم يكونوا قد تثقفوا وإنما يحسنون أن يكتبوا الحروف وأن يقرأوها ، ويستغلون بفنون مختلفة من ألوان الحياة الخاصة ، منهم من

يشتغل في الصناعة ومنهم من يشتغل في التجارة ، هؤلاء الشبان أكثروا من قراءة الصحف فاهتمتهم وأثرت في نفوسهم ، وإذا هم يأخذون في تمرين أنفسهم على الكتابة ويأخذون في القراءة والاكتثار منها وإذا هم يتجربون ذات يوم فيرسلون أحاديثهم إلى الصحف وترضى منها الصحف وتنشرها ، وكذلك جعل هذا اللون من الحياة الأدبية الجديدة التي أحدثتها الثورة المصرية تلك ، جعل هذا اللون يؤثر حتى في جماعة كان أقصى أمرهم أن يصيروا إلى حياة عامية خالصة فجعلت منهم أدباء .

في تلك الأيام ظهر شيء آخر يتصل بحرية الأديب وبحرية الرأي ، ظهر في بيئات ما كان ينبغي في العصور الماضية أن يظهر فيها ، وهو الاستمسك بحرية الرأي إلى أقصى الحدود ، الاستمسك بحرية الرأي والبحث عن حقائق الأشياء والجهر بما لم يكن الناس يجهرون به من قبل في بعض المسائل التي تمس السياسة والتي تمس الدين .

● طه حسين

المصدر : أدبنا الحديث ما له وما عليه ص ٢٥٩ - ٢٦٢ الأعمال الكاملة . المجلد ١٦ ص ٢٥٩ - ٢٦٢ ، والنص المختار هو حلقة من حديث الأديب التي في إذاعة القاهرة ثم نشر بعد وفاة د. طه حسين .

الفهرس

٥	من عصر النهضة الى نهضة العصر
١٢	القديم والجديد
٢١	المرحلة الاولى
	الشعراء المحافظون والشعراء المصريون
٢٣	- نجيب شلهين ١٨٦٥ - ١٩٢٧
	الشعراء المحافظون
٢٨	- اسعد داغر
	القديم والحديث
٣٢	- محمد كرد علي ١٨٧٦ - ١٩٥٣
	الافكار القديمة والحديثة
٣٨	- محمد تيمزور ١٩٨٢ - ١٩٢١
	مقدمة
	- عباس محمود العقاد ١٨٨٩ - ١٩٦٥
٤٠	- ابراهيم المازني ١٨٨٩ - ١٩٤٨
٤٢	تقليد القدماء
	مصطفى صادق الرافعي - المذهب القديم والمذهب الجديد
٤٧	- سلامة موسى ١٨٨٧ - ١٩٥٨

- دفاع عن المذهب القديم في الادب
٥٣ - صادق الرافعي ١٨٨١ - ١٩٣٧
- الخصوبة بين القديم والجديد في الادب
٦٢ - طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣
- الجملة القرآنية
٧١ - شكيب أرسلان ١٨٦٩ - ١٩٤٦
- الادب واللغة - القديم والحديث
٧٨ - محمد حسين هيكل ١٨٨٨ - ١٩٥٦
- القسم الثاني
- في الشعر الجاهلي
٨٩ - طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣
- نقض كتاب في الشعر الجاهلي
١١٠ - عبد الرحمن قراة ١٨٦٣ - ١٩٣٩
- محمد الخضر حسين
١١٢ ١٨٧٦ - ١٩٥٨
- منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث
١١٥ - محمد عرفة ١٨٩٠ - ١٩٧٣
- تقد كتاب الشعر الجاهلي
١٢٣ - محمد فريد وجدي
- الاحلاد في الجملة العربية
١٢٦
- مصطفى صادق الرافعي - تحت راية القرآن
١٣٢ - المعركة بين الجديد والقديم

- ١٣٧ الجامعة في مجلس النواب
- الدعوة الى الاتحاد بالتشكيك في الدين
- ١٦٢ (كتاب في الشمر الجاهلي)
- كتاب في الشمر الجاهلي
- ١٧٥ - دعاية الى الاتحاد والزندقة وطعن في الاسلام
- ١٨٦ طه حسين - ديكلوت
- في الشمر الجاهلي
- ٢٠٣ - ابراهيم عبد القادر المازني
- قرار النيابة العامة
- ٢١٠ - قضية الدكتور طه حسين
- مقدمة المؤلف
- ٢٢٤ - محمد احمد الفمراوي
- تقريظ المطبوعات الحديثة - النقد التحليلي لكتاب
- ٢٢٨ « في الادب الجاهلي »
- حملة القرون الوسطى
- ٢٣٣ - سلمي الكيالي ١٨٩٨ - ١٩٧٢
- المرحلة الثالثة**
- الطربوش ام القبعة - راين لكانين قديرين
- مصطفى صادق الرافعي
- ٢٤١ - دكتور محمد عزمي ١٨٨٩ - ١٩٥٤
- ٢٥٢ الحديث - فاتحة القول

- ٢٥٧ التقريظ وانتقاد المطبوعات
- ٢٦٠ النهضة الجبارة - القديم والحديث
- ٢٦٤ القديم والجديد /
- ٢٦٩ انباء العالم الاسلامي - مجلة الرابطة الشرقية
- ٢٨١ الاحاد ودعاته في مجلة الرابطة الشرقية والاستاذ احمد امين
- ٢٨٤ نحن وصاحب المنار
- قطيعة الماضي
- ٢٩١ - سلامة موسى
- قطيعة الماضي
- ٢٩٥ - سلطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨
- ٢٩٩ حياتنا العقلية - الاحاد ام إصلاح - حقيقة النزاع بين طابقين
- ٣٠٥ حياتنا العقلية - تجديد
- ٣٠٧ كلمات في التجديد
- حياتنا العقلية
- ٣١٠ - داود بركات ١٨٦٧ - ١٩٣٣
- ٣١٢ التجديد قديم - فلماذا يعاودنه الان
- بين القديم والحديث
- ٣١٦ - عبد اللطيف الطيباوي
- ٣٢٠ الادب - « ب. النبال » - قديمة وجديدة - وحظ العربية منهما

- ٣٢٧ مرامي التجديد
- المحافظون والمجددون - التجديد يستلزم التساهل
٣٣١ وحرية المناقشة - انسان المستقبل . . كيف يكون
- ٣٣٣ الادب الجديد
- بين الادب الجديد والقديم
٣٣٥ - خليل تقي الدين
- ٣٣٨ مذهب الادب المصري
- ٣٤٥ اتجاهات التجديد
- ٣٥١ تقديم - محمد حسين هيكل - ثورة الادب
- الابداع والاتباع
٣٦٠ - جميل صليبا
- التجديد في الدين
٣٦٦ - امين الخولي ١٨٩٥ - ١٨٦٦
- من رسالة الى صديق حول التجديد
٣٧١ - احمد حسن الزيات ١٨٨٥ - ١٩٦٨
- التجديد في الادب
٣٧٣ - احمد امين ١٨٧٨ - ١٩٥٤
- التجديد في الادب
٣٩١ - للدكتور عبد الوهاب عزام د ١٨٩٤ - ١٩٥٩
- التجديد في الادب
٤٠٠ - محمود الشرقاوي ت - ١٩٧١
- ٥٣٣ -

- ٤٠٣ تجديد التقليد
- هذه المعركة المزمعة بين اديبين
- ٤٠٧ - كرم ملحم كرم ١٩٠٣ - ١٩٥٩
- التطور والتقليد في الادبين العربي والانجليزي
- ٤١٧ - فخري أبو السعود ١٩٠٩ - ١٩٤٠
- آراء في الماضي والحاضر
- ٤٢٢ - ميشيل عفلق - ١٩١٠
- الميول الرجعية عند بعض أدباء العرب المعاصرين
- ٤٢٤ - يوسف متى
- المتعلمون والشعب
- ٤٣١ - ابراهيم المصري
- قطيعة الماضي
- ٤٣٧ - محمد امين حسونة ١٩٠٩ - ١٩٥٦
- القديم والجديد - نقد وتحليل
- ٤٤١ - محمد أحمد الغمراوي
- بين القديم والجديد
- ٤٤٧ - عبد الوهاب الامين
- الدين والاخلاق بين الجديد والقديم - لأحد اساطين الادب الحديث ٤٥٠
- القديم والجديد
- ٤٥٦ - محمد أحمد الغمراوي
- ٤٦٢ بين القديم والجديد - (لأحد أساطين الادب الحديث)

بين جيلين

- ٤٦٧ — محمد عبد الوهاب خلاف
- رجعية قديمة ورجعية جديدة ... تجب مكافئتهما
- ٤٧٢ — وصفي البني ١٩١٢ - ١٩٨٣
- موقف العرب من الثقافة القديمة والثقافة الحديثة
- ٤٧٦ — عبد المعين الملوحي - ١٩١٧
- كمقدمة
- ٤٨٤ — مارون عبود ١٨٨٦ - ١٩٦٢
- الجديد والقديم
- ٤٨٨ — عبد الرزاق السنهوري باشا ١٨٦٥ - ١٩٧١
- محاكمة الجيل الجديد
- ٤٩٢ — عباس محمود العقاد وفتحي رضوان ت - ١٩٨٨
- القديم والجديد
- ٥٠٢ — سلطع الحصري ١٨٨٠ - ١٩٦٨
- خاتمة وشهادتان - التجديد والتجدد والمجددون
- ٥١٦ — رشيد رضا ١٨٦٥ - ١٩٣٥
- حديث
- ٥٢٥ — طه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣

1989/9/15 2000

هذه هي الحلقة الاولى من سلسلة ((قضايا النهضة العربية)) وهي قراءة جديدة للنهضة في نصوصها مصنفة وفق المشكلات التي قراها اعلام النهضة في واقعهم وما تزال من صميم واقعنا الراهن . المشكلات هذه تترد الى تعارضات ثلاثة اساسية هي :

القديم والجديد
الشرق والغرب
الاصلاح والنهضة

ويمكن ان نضيف اليها الحوار - الصراع حول الاجناس الادبية الجديدة قبل ان ترسخ جنورها في ارضنا وثقافتنا .

وقد تفرع عن هذه المشكلات الام تعارضات فرعية اخرى قد تقاربها في حينها .

السلسلة الجديدة هذه باشراف الاستاذ محمد كامل الخطيب الذي اختار وقدم لثلاث حلقات منها هي الآن قيد الطبع في الوزارة .

المختارات بناتها قراءة ، وقد تكون اعلى القراءات واصدقها تعبيراً عن واقعنا في حاضره وماضيه القريب . وكل قراءة تستدعي اخرى ، تتابعها هو فكر الادب وحياته .

في الاصدار المهيبة مايعادل

٢٢٥ ل.س

سما النسخة داخل المطبع

١٥٠ ل.س

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٨٩